الجمـــهوريـــة الجزائـــريـــة الديـــمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie



جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان الجزائر





كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في البلاغة والأسلوبية

بعنوان

الدرس البلاغي عند المبرد

إعداد الطالبة:

بن حدو وهيبة

إشراف الأستاذ:

أ.د. عبد الجليل مصطفاوي

أعضاء لجنة المناقشة

- أ.د. محمـد عبـاس	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
- أ.د. عبد الجليل مصطفاوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
- د. خالـدي هشـام	أستاذ محاضر "أ"	جامعة تلمسان	مناقشا
- أ.د. أحمـد جلايلـي	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي النعامة	مناقشا
- د. محمـد مذبوحـي	أستاذ محاضر "أ"	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
- د. عبد الخالـق رشيد	أستاذ محاضر "أ"	جامعة وهـران	مناقشا

السنة الجامعية : 1433-1434هـ/2012-2013م

المقدمة

بسم الله الذي لا فوز إلا في طاعته، و لا عز إلا في التذلل لعظمته، و الحمد لله الذي جعل العلم فريضة على كلّ مسلم، وجعل العربية أشرف لسان، فأنزل كتابه المحكم في أساليبها الحسان، والصلاة والسلام على أفصح العرب لهجة وأبلغهم حجة وعلى آله الأمجاد وصحابته الذين فتحوا البلاد ونشروا لغة التنزيل في الآفاق وحببوها للأعاجم ممن استقامت ألسنتهم على النطق بالضاد.

أما بعد فلقد أسهمت طوائف متعددة في صنع تاريخ البلاغة، فكان لكل طائفة اتجاهها المعين، ومشربها الخاص، ولم تكن هذه الاتجاهات متضاربة متنافرة، بقدر ما كانت متضافرة متلازمة، تسير في قنوات مختلفة ولكنها في النهاية تصبّ في مجرى واحد، هو محاولة وضع القواعد البلاغية على أسس واضحة، تهتدي بها في الحكم على النص الأدبي.

من هذه الطوائف المتعددة أذكر طائفة النحاة التي لعبت دورا هاما في تطوير الدرس البلاغي، ومن هؤلاء النحاة : محمد بن يزيد النحوي الأزدي المعروف بالمبرّد (ت285هـ).

كان المبرّد واحدا من أبرز أئمة البصرة، فهو يمتلك مكانة عظيمة في نفوس معاصريه حيث تأثر بكتاب سيبويه تأثرا عظيما جعله يعد نفسه الأمين على النحو البصري بعده.

ورغم اهتمام المبرد بالنحو إلا أن الجانب البلاغي عنده لا يقل أهمية عن باقي قواعد معرفته وذلك من خلال مؤلفاته :"الكامل" و"المقتضب" و"الفاضل" و"التعازي والمراثي" و"ما اتفق لفظه واختلف معناه" . يعضد ذلك كله كتابه "البلاغة" الذي حققه الدكتور رمضان عبد التواب. فقد وقف فيه المبرّد على مفهوم البلاغة. و تقصى فيه الفرق بين بلاغة الشعر و بلاغة الكلام المنثور وبلاغة الحديث وبلاغة القرآن الكريم.

وهي مؤلفات استغرقت البلاغة ولكنها لم تحظ بالدرس والتحليل والتقويم باستثناء كتابه الكامل؛ و هو ما قوّى الرغبة لدي في إبراز مجهوده البلاغي وإعطائه بعض حقه ما استطعت.

فالبحث البلاغي لدى المبرّد لم يقف عند حدود التأليف المتخصص بل ترافقت معه كثير من اللفتات البلاغية التي تناثرت عبر تضاعيف كتبه اللّغوية والأدبية؛ وهي مباحث جديرة بالعرض والمناقشة.

من هنا تظهر أهمية الجانب البلاغي عند المبرّد و الذي يعكسه العديد من مؤلفاته المعنية بالبلاغة، وهو حقيق بالدرس حري بالتحليل قمين بالتناول.

تسعى هذه الدراسة "الدرس البلاغي عند المبرد" جاهدة إلى إبراز الجانب البلاغي عند المبرّد كما تحاول أن تجيب على تساؤلات عدة منها:

على أي نحو يتناول المبرّد علوم البلاغة في مؤلفاته ؟

ما أبرز مسائل البلاغة التي عالجها، وما مصادره فيها ؟

وتطمح هذه الدراسة أن تقدم مادة علمية مفيدة بعرضها الجانب البلاغي عند المبرّد بوصفه لغويّا نحويّا اجتمعت بين يديه مادة بلاغية وفيرة استطاع أن يستوعبها ويخرجها للناس بطريقته الخاصة .

وقد حظي المبرّد بجملة من الدراسات تناولت في بعض منها بالتحليل و التقويم جانبا من جوانب تميزه فيها نحو الجانب اللّغوي أو النحوي مثل:"التفكير النحوي عند المبرّد " وهي أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بجامعة الموصل تقدم بها الطالب علي فاضل سيد عبود الشمري بإشراف الدكتور محي الدين توفيق إبراهيم.

ولعل من أبرز الدراسات التي تناولت المبرّد ولها مساس بجانب من جوانب البحث كتاب "أبو العباس المبرّد والبلاغة في كتابه الكامل " للدكتور مصطفى السيد جبر، الذي عمد فيه إلى انتقاء بعض موضوعات البلاغة من كتاب المبرد "الكامل"، وكتاب "البلاغة والنقد في كتاب الكامل للمبرّد" للدكتور رفعت إسماعيل السيد السوداني، وكتاب "المعايير البلاغية والنقدية في كتاب الكامل للمبرد " للدكتور سامي عبد الكريم علي سيد أحمد الشيخ.

أما الكتاب الأول فقد اطلعت عليه، و أما باقي الكتب فلم يتسن لي الوقوف على مضامينها.

و إذا كان من مزية لدراستنا، فيما أعلم، عن سابقاتها، فهي أنها تحاول إلقاء نظرة شمولية على الجوانب البلاغية عند المبرّد في مؤلفاته المختلفة.

و في سبيل بلوغ هذه الغاية، فقد احتوت هذه الدراسة على مدخل وبابين وخاتمة.

أما المدخل، فتناولت فيه الدرس البلاغي قبل المبرد حيث تعرضت باختصار إلى البلاغة في العصر الجاهلي، وفي العصر الإسلامي، وفي عصر بني أمية، وإلى أوائل اللّغويين الذين بحثوا وكتبوا أمورا تتعلق بالبلاغة مثل الإمام أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري (ت208هـ)، و أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت225هـ). و العالم الجليل ابن قتيبة (ت 276 هـ).

وخصصت الباب الأول للبلاغة والفصاحة عند المبرد ، و قد جاء في ثلاثة فصول:

اشتمل الفصل الأول المعنون " مصطلحا الفصاحة والبلاغة عند المبرد" على مبحثين، تحدثت في المبحث الأول عن مفهوم الفصاحة عند المبرد. فالمبرد يرى أن"كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه". و الفصاحة عنده شملت الكلمة المفردة والكلام المركب والمتكلم.

واشتمل المبحث الثاني على مفهوم البلاغة عنده. فالمبرد وإن لم يأت بجديد إلا أنه قصر دلالة هذا المصطلح على صفات العبارة الفنية وخصائص فن القول.

وخصّصت الفصل الثاني ل"بلاغة الشعر و النثر عند المبرد". درست في المبحث الأول بلاغة الشعر والمقاييس التي ارتضاها ليكون الشعر بليغا. و هي: إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم؛ حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول، والمقاربة في التشبيه، وإصابة الحقيقة، والفطنة بالغوامض، والرصف القوي والاختصار القريب، والبعد عن التكلف، وقرب المأخذ، والمعنى البديع.

و تعرضت في المبحث الثاني إلى بلاغة النثر لأن المبرد جمع في مؤلفاته كل أنواع النثر الفني حيث قال في مقدمة كتابه الكامل "هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب، مابين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة".

ثم ختمت هذا الفصل بمبحث ثالث عنونته ب"المفاضلة بين الشعر والنثر". والمبرد حين فاضل في رسالته بين المنثور والمنظوم قام بموازنة أيضا بينهما وذلك بحملهما على نفس المعنى وقدم لنا أمثلة.

وأفردت الفصل الثالث لبلاغة الحديث النبوي الشريف والقرآن الكريم حيث بدأت بالتنويه بفصاحته ﷺ وبلاغته ثم تعرضت إلى الموازنة التي أقامها المبرد بين بلاغة الرسول الكريم وبلاغة الشعر والنثر في مدونته "البلاغة".

بعد ذلك انتقلت للحديث عن فصاحة القرآن الكريم وبلاغته. فقد أقام المبرد موازنة تطبيقية بين بلاغة القرآن والكلام المنثور و جاء بهذه الموازنة من أجل إثبات مساهمته هو أيضا في الدفاع عن نظم القرآن كما فعل قبله الفراء وأبو عبيدة والجاحظ وابن قتيبة.

أما الباب الثاني فعرضت فيه للمادة البلاغية في كتب المبرد، فوقفت على مباحثها، وعالجتها وفق تقسيم المتأخرين لعلم البلاغة تسهيلا للوصف وتنظيما له. و قد اشتمل الباب على أربعة فصول:

اختص الفصل الأول بمباحث علم المعاني شرحا و تحليلا: الخبر و أغراضه، والحذف بأنواعه و أسلوب القصر و طرقه، و الأساليب الإنشائية، و القلب، و التغليب، و الفصل و الوصل، و الإيجاز و الإطناب و المساواة.

و اختص الفصل الثاني بمباحث علم البيان شرحا و تحليلا: التشبيه و أقسامه عند المبرد و المجاز بأنواعه: المجاز العقلي و علاقاته، المجاز اللّغوي: المجاز المرسل و علاقاته–الاستعارة، الكناية و أقسامها.

و عالج الفصل الثالث مباحث علم البديع: المحسنات البديعية المعنوية و المحسنات البديعية اللفظية.

أما الفصل الرابع، فتناول "المبرد بين التأثر و التأثير". و قد قسمته إلى مبحثين، المبحث الأول عنونته بتأثر المبرد بغيره من العلماء. و أبرز من تأثر بهم في ميدان البلاغة: سيبويه (ت 180هـ)- الفراء (ت 207هـ)- أبو عبيدة (ت 210 هـ)- الأصمعي (ت 216 هـ)- الجاحظ (ت 255هـ)- أبو العباس ثعلب (ت 291 هـ).

و المبحث الثاني عنوانه "تأثير المبرد فيمن بعده من العلماء": كان للمبرد أثره الواضح فيمن بعده من لغويين وأدباء ومفسرين، فكثيرا ما صرح هؤلاء العلماء بالنقل عنه، واستشهدوا بآرائه و أبرز من تأثروا بالمبرد: ابن المعتز (ت 296 هـ)- الزجاج (ت 316 هـ)- قدامة بن جعفر (ت 337 هـ)- أبو عبد الله المرزباني (ت 384 هـ)- الرماني (ت 386 هـ)- الباقلاني: (ت 403 هـ)- الثعالبي: (ت 430 هـ)- ابن السيد البطليوسي (ت 444 هـ)- ابن رشيق القيرواني (ت 466 هـ)- الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ)- الزمخشري (ت 528 هـ)- ضياء الدين بن الأثير (ت 637 هـ)- القرطبي المفسر (ت 671 هـ)- ابن منظور (ت 711 هـ)- الخطيب القزويني (ت 739 هـ)- عبد القادر البغدادي (ت 1093 هـ).

و ذيلت البحث بخاتمة ضمّت أهم نتائج البحث المتوصل إليها.

قد يرى البعض أنه كان من الأجدر بي أن أبتدئ حديثي في الباب الأول ببلاغة القرآن الكريم أولا ثم بلاغة الحديث ثانيا، بعدهما بلاغة الشعر والنثر، لكني التزمت بترتيب المبرد ومنهجيته في رسالته "البلاغة" حتى أكون أمينة في عرضي و تحليلي.

أما الصعوبات التي اعترضتني فتتمثل في كون مسائل البلاغة و قضاياها متناثرة في مؤلفات المبرد و جمع شتاتها و دراستها دراسة علمية متأنية وفق مقاييس البلاغة من معان و بيان و بديع لم يكن بالأمر الهين؛ لأنه في عصر المبرد لم تكن مباحث علم البلاغة و علومها قد تأسست بعد.

و قد اعتمدت في كل ما تقدم المنهجين التاريخي و الوصفي، فالمنهج التاريخي تتبعت به البلاغة منذ ظهورها إلى عصر المبرد. أما المنهج الوصفي فللحديث عن القضايا ذات الصلة بعلم البلاغة عند المبرد.

و من أهم المؤلفات التي ساعدتني على القيام بهذه الدراسة: كتاب البيان و التبيين للجاحظ، و كتاب الإيضاح للخطيب القزويني في المعاني و البيان و البديع، و كتاب الكشاف للزمخشري و حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي بالإضافة إلى مجموعة من المراجع منها كتاب مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء للدكتور حامد صالح خلف الربيعي، و كتاب أثر النحاة في الدرس البلاغي للدكتور عبد القادر حسين.

و لا يسعني في الأخير إلا أن أشكر اللجنة المناقشة على جهودها المبذولة في التدليل على أخطاء القلم و شطط الفكر، سائلة الله عز و جل أن أكون قد وفقت في هذا العمل مع يقيني المطلق أن النقص صفة إنسانية والعثرة سمة بشرية وعذري في ذلك أني قاربت واجتهدت، و الله الموفق و الهادي لكل خير.

وهيبة بن حدو

تلمسان: 22 مارس 2013م

الموافق: 10 جمادى الأولى 1434هـ

المدخل

الدرس البلاغي قبل المبرد

إن الباحث حين يتلمس البذور الأولى للبلاغة العربية قبل المبرد يجد أن العرب بلغوا في الجاهلية مرتبة رفيعة في البلاغة والبيان، ومن أكبر الدلائل على أنهم وصلوا في البلاغة درجة عالية رفيعة أن كانت معجزة **الرسول** ﷺ وحجته الدالة على نبوته القرآن، حيث دعاهم إلى معارضته، وتحداهم بأن يأتوا في بلاغته الباهرة، وهي بلا شك دعوة تدل بوضوح على تمكنهم ورسوخ قدمهم في البلاغة والبيان، وعلى بصرهم بتمييز أقدار المعاني والألفاظ وتبيين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير.

وإذا تأملنا الأدب الجاهلي وتاريخه وجدناه حافلا بالملاحظات النقدية التي كانت من أهم العوامل في ظهور البلاغة، وذلك أن هذه الملاحظات والأحكام النقدية أفادت جماعة العلماء فأحالوها قوانين وأصولا، ودونوها في فصول مختلطة بالنقد حينا، ومنفصلة أحيانا حتى كانت أساسا صالحا لتكوين قواعد بلاغية قامت بوظيفتها فيما بعد.

كان ذلك في العصر الجاهلي، فلما أرسل الله نبيه محمدا ﷺ - وهو كما نعلم أفصح العرب- هاديا وبشيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، أيده بمعجزة بيانية هي القرآن الكريم الذي كان له تأثيرا عظيما في نشأة البلاغة وتطويرها.

وقصة الوليد بن المغيرة عندما ذهب إلى **رسول الله** ﷺ لدليل على ذلك فقد "سمع منه شيئا من القرآن، وعاد إلى قومه بوجه غير الوجه الذي ذهب به وقال لهم: خلو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه. ولما سألوه قال: "والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وفي رواية: وما هو بقول بشر"[1].

تعطينا هذه القصة صورة صادقة عما كان يفعله القرآن الكريم في نفوس العرب عندما كانوا يسمعون شيئا منه، وما ذلك إلا لما فيه، بجانب المعنى والمضمون من بلاغة وفصاحة بلغا حد الإعجاز.

و قد كان الرسول ﷺ يتصف بالبلاغة من ذلك أنه كان يراعي في كتبه إلى الملوك والقبائل مطابقة كلامه، لمقتضى الحال، فقد ذكر صاحب البيان والتبيين أن الرسول ﷺ لما

[1] البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف مصر، ط9، 1965م: ص 9.

أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته فسهل الألفاظ غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة بالعربية ... و لكن لما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله وذلك مثل كتابه لوائل بن حجر الحضري(2).

وعلى نهج الرسول الكريم في البلاغة والبيان سار الخلفاء الراشدون من بعده، فأ**بو بكر الصديق** ﷺ كان يفاضل بين الشعراء، ويروى أنه كان يفضل النابغة ويقدمه على غيره من الشعراء ويقول: "هو أحسنهم شعرا، وأعذبهم بحرا، وأبعدهم قعرا"(3).

نلاحظ من أسلوب أبي بكر السابق أنه يتحدث عن البلاغة بأسلوب بليغ.

وهذا **عمر بن الخطاب** ﷺ كان هو أيضا يفاضل بين الشعراء، وكان يفضل زهير بن أبي سلمى، لأنه لا يعاظل في الكلام، ولا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه(4). وكان ﷺ يوجه الشعراء في القول، ويدلهم على مواطن الصواب، حتى قال له الحطيئة: "أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم مني بمذاهب الشعر"(5).

يتضح من كلام عمر في الشعر والشعراء أن البلاغة عنده: تجنب التعقيد، وترك الغريب والوحشي، والبعد عن المبالغة والكذب.

أما **عليّ كرم الله وجهه** فكان من أنصار السهولة في التعبير فعرف البلاغة بأنها: "إيضاح الملتبسات، وكشف عُوار الجهالات، بأسهل ما يكون من العبارات"(6).

مما تقدم نستطيع القول بأن البلاغة في العصر الإسلامي الأول عصر صدر الإسلام لم يدون لها علوم، ولم توضع لها مصطلحات لأن الصحابة والتابعين كانوا يعرفون القواعد البلاغية

(2) ينظر البيان و التبيين، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1418هـ / 1998م: 351/1.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، حققه وفصله وعلق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ / 1981م: 95/1.

(4) ينظر المصدر نفسه: 98/1.

(5) المصدر نفسه: 1/ 170 .

(6) الصناعتين: الكتابة والشعر، أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1371هـ / 1952م: 51-52.

التي يقوم عليها إنشاء الكلام الفني، والتي كانوا يعتمدون عليها في تمييز الكلام الجيد من الرديء لأنها كانت مركوزة في طبائعهم لذلك لم يحتاجوا إلى تدوينها.

وفي عصر بني أمية كثرت الملاحظات النقدية كثرة عظيمة عملت فيها بواعث وأسباب كثيرة منها تحضر العرب واستقرارهم في المدن والأمصار، وازدهار العلوم ورقيها مما أدى إلى رقي الحياة العقلية للأمة الإسلامية، حيث أخذوا يتجادلون في جميع شؤونهم السياسية، والعقائدية، فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون، والمرجئة، والقدرية والمعتزلة، فكان طبيعيا أن ينمو النظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات البيانية لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب، بل وفي مجال الشعر والشعراء والكتابة.

وقد ظهر في هذا العصر علمان كبيران بارزان في ميدان الكتابة والأدب، وكان لهما في مجال البلاغة فضل لا ينكر هما: "**عبد الحميد الكاتب**" و"**ابن المقفع**".

أمّا **عبد الحميد** فكان زعيم الكتاب في عصره، وصاحب مذهب منفرد في البلاغة والبيان، وهو أول من خطا بالنثر الفني خطوة واسعة إلى ميدان الأدب الفسيح، وأول من عنى بالمحسنات اللفظية واستعملها برقة وبراعة فائقة، وكانت طريقته في الكتابة مدرسة سار عليها الكتاب من بعده إلى عهد ابن العميد، ولذا قيل: (بدأت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد).

و أما **ابن المقفع** فقد تأثر بالثقافة الأجنبية الفارسية مما جعله يعمد في كتابته إلى الإسهاب والإطناب والتحليل والتفريع.

ولعله أول من شرح البلاغة وفسرها تفسيرا فنيا إلى حد ما، قال إسحق بن حسان: "لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط. سئل: ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة..فمنها السكوت، و منها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، و منها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون في هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير ملل، وليكن في

صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته" [7].

يتلخص لنا من ذلك أن البلاغة عند ابن المقفع هي: الإيجاز في موضعه والإطناب في موضعه، والمعرفة بسياسة القول، والمطابقة بين الكلام ومقتضى الحال. وهكذا يمكن القول أن بذرة التعريف الاصطلاحي للبلاغة نشأت عند ابن المقفع.

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسي حتى أخذت الملاحظات البلاغية تزدهر ازدهارا عظيما وتصطبغ بصبغة علمية، وقد كان لذلك أسباب عديدة منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر مع تطور الحياة العقلية والحضارية، ومنها ما يعود إلى نشوء طائفتين من المعلمين عنيت إحداهما باللغة والشعر وهي طائفة اللّغويين والنحاة، وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة وهي طائفة علماء الكلام.

أخذ علماء الكلام يشتغلون بالأبحاث البلاغية فظهرت على أيديهم أوليات الاصطلاحات البلاغية. و كان **بشر بن المعتمر** واحدا من هؤلاء المتكلمين الذين انتهت إليهم زعامة المعتزلة ببغداد، يتمتع بثقافة واسعة، وعقل نافذ وذوق حساس، وصحيفته في البلاغة مشهورة حاول فيها أن يوضح معالم وأسس صناعة البيان[8].

لقد احتوت هذه الصحيفة على كثير من الأسس التي أصبحت بعده من أهم مصادر البلاغيين المتأخرين. و من أهم النقاط التي احتوتها هذه الصحيفة[9]:

يبدأ بشر صحيفته بتوجيه النصح إلى المبدع كي يختار الوقت المناسب للإبداع، أي الوقت الذي يكون فيه الذهن خاليا من أي شاغل والنفس مستجيبة نشطة، ذلك أن النفس لا تكون مستعدة للإبداع في كل الأحوال، واختيار الأوقات المناسبة سيوفر على المبدع عناء المكابدة والمجاهدة والمطاولة التي تفضي، لا محالة، إلى التكلف والإكراه الذي لا يترك النفس على طبيعتها فيما تأتيه من التعبير عن مكنوناتها وخباياها.

---

(7) البيان و التبيين: 91/1 .

(8) ينظر صحيفة بشر في البيان والتبيين: 135/1-136.

(9) صور البيان في تفسير الزمخشري، رسالة دكتوراه من إعداد عبد الجليل مصطفاوي، إشراف الزبير دراقي، 1421 هـ - 1422 هـ / 2000م – 2001م: ص 5-6.

فالنّفس لابد أن تكون مثل الجدول الذي يسيل بيسر وسهولة، يقول: "خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن من الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطاء، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة"[(10)].

ثم يتطرّق إلى مسألة هامّة في الدرس البلاغي، وهي علاقة اللفظ بالمعنى وضرورة المزاوجة بينهما، فينصح المبدع بالابتعاد عن التوعّر، و التعقيد و الغموض، لأنّ ذلك مفسدة للمعنى و اللفظ معا. يقول:"و إيّاك و التوعّر، فإنّ التوعّر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريما فليتلمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقّهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجّنهما"[(11)].

فالمنزلة الأولى التي ينبغي للمبدع التماسها هي أن يختار من الألفاظ أنسبها، ومن المعاني أكشفها، "فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا"[(12)].

ويشير عقب ذلك إلى قضية أخرى هامة، وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال باعتبارها عمود البلاغة وأساسها، فلا يمكن للكلام أن يوصف بالحسن والبلاغة بدونها، والمبدع الناجح والبليغ التام هو الذي يستطيع أن يخاطب كل فئة بما يناسبها من الكلام وذلك في نظره هو مناط الصواب والمنفعة.

فالمعنى لا يشرف بشرف الخاصة، أو يتضع بوضاعة العامة "وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال ... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام"[(13)].

---

(10) البيان والتبيين: 135/1-136.

(11) المصدر نفسه: 136/1.

(12) المصدر نفسه: 136/1.

(13) المصدر نفسه: 136/1-137.

ثم ينتقل بشر بالمبدع إلى المنزلة الثانية، وهي منزلة من يتعاطى صنعة الأدب، ولكن نفسه وطبيعته لا تطاوعه في أول وهلة، فينصحه بالانصراف عن الإبداع، دون أن يكون هذا الانصراف مثار ضجر أو قلق نفسي بالنسبة إليه، ويذكر هنا أمرا مهما وهو أن للكلمات مواضع وأوطانا تحن إليها، ومتى أجهد المبدع نفسه، وهي متأبية، قاده ذلك إلى التكلف وإلى إنزال الكلمات في غير أوطانها، والقوافي في غير مراكزها، فتغدو مضطربة قلقة ومتنافرة مما سيعرضه إلى انتقاد من هو أقل شأنا منه، ولذلك ينصحه بمعاودة الكرة في ساعات النشاط وفراغ البال قائلا: "فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق"[14].

أما المنزلة الأخيرة، فهي منزلة من شحّت طبائعهم، وتأبى عليهم القول، واستعصى على نفوسهم الإبداع، وجفت في نفوسهم وقرائحهم أزهار الكلام، وهؤلاء من الخير لهم التحول إلى فنّ يرون في نفوسهم ميلا إليه، يقول: "فالمنزلة الثالثة أن تتحوّل من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفّها عليك، فإنّك لم تشتهه، ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحنّ إلا إلى ما يشاكله"[15].

و يخلص بشر إلى أنّ البلاغة تقتضي من المتكلم أن يعرف أقدار المعاني، وأن يوازن بينهما وبين أقدار المستمعين "فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذاك مقاما"[16].

فالمعاني تختلف، والأحوال تتباين، والمستمعون فئات وطبقات ولكل موضوع ما يناسبه من الألفاظ، يقول: "فإن كان الخطيب متكلّما تجنّب ألفاظ المتكلّمين، كما أنه إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلّمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنّ وبها أشغف"[17].

يرى أحمد أمين أن صحيفة بشر تشتمل على "أسس البلاغة" وقد كتبها بشر قبل أن يؤلف كتاب (البيان والتبيين) لأن الجاحظ نقلها عنه، ولأن بشرا نضج قبل نضوج الجاحظ،

[14] البيان و التبيين: 138/1.
[15] المصدر نفسه:138/1
[16] المصدر نفسه: 138/1-139.
[17] المصدر نفسه: 139/1.

ومات قبله بنحو خمس وأربعين سنة، فإن بشرا مات سنة 210هـ ومات الجاحظ سنة 255 هـ، ولا نعلم قبل بشر من تعرض لوضع هذه الأسس، فلو أسميناه مؤسس علم البلاغة لم نبعده[18].

وقد وضع سيد نوفل صحيفة بشر في إطارها الصحيح، و لم يؤيد ما ذهب إليه أحمد أمين . فقال: "ولكني لا أستطيع أن أذهب مذهب الأستاذ أحمد أمين ... فلكي نحكم بجدة قول بشر في تاريخ البلاغة، يجب أن نعلم أولا قول إبراهيم بن جبلة الذي اعترض عليه بشر، فربما كان أدخل في البحث البلاغي منه، ويجب أن نعلم كذلك ما كان يقوله غير إبراهيم من المعلمين لتلاميذهم، وتوجيهات عبد الحميد الكاتب وسهيل بن هرون وكتابيه: معاني القرآن والخطب في التوحيد والعدل، وغيرهما من الكتب التي لم تصلنا، فتاريخ البلاغة مليء بالمجهولات، والقول بأن فلانا مؤسس علم البلاغة لا يقوى أي باحث على تحمل عبئه... فالقول بأن الجاحظ لم ينضج وقت هذا القول ليس له ما يثبته وبخاصة أن هذا القول جاء في كتاب البيان والتبيين وهو من آخر مؤلفات الجاحظ"[19].

ومن أوائل اللّغويين الذين بحثوا وكتبوا أمورا تتعلق بالبلاغة في هذا العصر الإمام **أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري**[20](ت 208هـ)، كان من أوسع أهل البصرة علما باللغة والأدب والنحو وأخبارها وأيامها، وقد ألف كتاب مجاز القرآن.

ويتضح سبب تأليفه لهذا الكتاب ما جاء في كتاب وفيات الأعيان ما نصه: "وقال أبو عبيدة: أرسل إليّ الفضل بن الرّبيع إلى البصرة في الخروج إليه، فقدمت إليه، وكنت أخبر بخبره، فأذن لي، فدخلت عليه، وهو في مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقى عليها إلاّ بكرسيّ، وهو جالس على الفراش، فسلّمت عليه بالوزارة، فردّ وضحك إليّ ...، ثم دخل رجل في زيّ الكتّاب وله هيأة حسنة، فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أتعرف هذا؟ فقال: لا، فقال: هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا، ثم التفت إليّ وقال: كنت إليك مشتاقا، وقد سئلت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرفك؟ قلت هات، فقال: قال الله تعالى: ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾[21]. وإنما

---

[18] ينظر ضحى الإسلام، أحمد أمين، مطبعة الاعتماد، القاهرة، دت، دط: 141/1.

[19] البلاغة العربية في دور نشأتها، سيد نوفل، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1948 م: ص 88-89.

[20] مولى تيم بن مرة ولم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه: ينظر البيان والتبيين: 347/1.

[21] سورة الصافات: الآية65.

يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف، قال: فقلت: إنما كلّم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس[22]:

أَيَقْتُلُنِي وَ المِشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُوُنَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ.

وهم لم يروا الغول قطّ، ولماّ كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، وأزمعت عند ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن لمثل هذا وأشباهه، ولما يحتاج إليه من علمه، ولما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته "المجاز" وسألت عن الرجل فقيل لي: هو من كتاب الوزير وجلسائه"[23].

وقد تمكن أبو عبيدة في كتابه هذا من الكشف عن بعض المسائل البلاغية، تعتبر مهمة في تكوين البلاغة التعليمية، لأنها تمثل الطور الأول في نشأتها، و قد لخّصتها فيما يلي:

الإيجاز: تعرف أبو عبيدة على الإيجاز، وبين أنه من مذاهب العرب في كلامها، يفعلونه قصد التخفيف، ويشترط فيه علم السامع به.

يقول في قوله تعالى ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً**﴾ [24]:"العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه، فكأنه في تمام القول: ويقولون: ربنا ما خلقت هذا باطلا"[25].

الإطناب: ذكره من غير تسمية وبين بعض أغراضه، يقول: "ومن مجاز المكرّر للتوكيد قال ﴿**رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ [26]. أعاد الرؤية و قال ﴿ **أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ** ﴾ [27]. أعاد اللفظ"[28].

---

[22] ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط5، 1425هـ/2004م:ص 125.

[23] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن فلكان، تحقيق محي الدين، مكتبة النهضة المصرية، دت: 4/323-324.

[24] سورة آل عمران: الآية191.

[25] مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق محمد فؤاد سزكين، نشر الخانجي، ط1، 1374هـ / 1954م: 1/111.

[26] سورة يوسف: الآية04.

[27] سورة القيامة: الآية34.

[28] مجاز القرآن،: 1/12.

التقديم و التأخير: ويكشف عن أسلوب التقديم والتأخير بدون تعليل، ولكنه ينص على أنه مذهب من مذاهب العرب في كلامها، يقول في قوله تعالى ﴿**أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾ [29]: "مجازه: أحسن خلق كل شيء والعرب تفعل هذا يقدمون ويؤخرون ...

وقال الراعي[30]:

كَأَنَّ هِنْداً ثَنَايَاهاَ وَبَهْجَتَهاَ   يَوْمَ اِلْتَقَيْناَ عَلىَ أَدْحاَلِ دَبَّابِ

أي كأنّ ثنايا هند وبهجة هند، دبّاب: مكان سمِّي أدحال دبّاب وهو اسم مكان أو رجل"[31].

الاستفهام: كان أسلوب الاستفهام من الأساليب التي وقف عندها أبو عبيدة ولاحظ خروجها عن معانيها الحقيقية.

يقول في قوله تعالى ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾ [32]: "جاءت على لفظ الاستفهام، والملائكة لم تستفهم ربها، وقد قال تبارك وتعالى﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [33]. و لكن معناها معنى الإيجاب: أي أنك ستفعل.

وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب: ألست الفاعل كذا؟ ليس باستفهام ولكن تقرير"[34].

وفي قوله تعالى ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾[35]: "مجاز الألف ها هنا مجاز الإيجاب والإخبار والتقرير"[36].

وفي قوله تعالى ﴿ **أَفَسِحْرٌ هَٰذَا** ﴾ [37]:"ليس باستفهام بل هو توعد"[38].

---

[29] سورة السجدة: الآية07.

[30] ديوان الراعي النميري، جمعه وحققه راينهرت فايبرت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت لبنان، 1401 هـ / 1980م: ص12.

[31] مجاز القرآن: 130/2-131.

[32] سورة البقرة: الآية 30.

[33] سورة البقرة: الآية 30.

[34] مجاز القرآن: 35/1-36.

[35] سورة سبأ: الآية 40.

[36] مجاز القرآن: 150/2.

[37] سورة الطور: الآية 15.

[38] مجاز القرآن: 231/2.

و ذكر الأداة (هل) ولاحظ خروجها عن الاستفهام، يقول في قوله تعالى ﴿ **هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا**﴾ [39]: "وليس موضع "هل" ها هنا موضع الاستفهام ولكن موضعها ها هنا موضع الإيجاب أنه لا يستويان، وموضع تقرير وتخيير: أن هذا ليس كذلك"[40].

استعمال الماضي مكان المضارع: وقد لاحظ أبو عبيدة استعمال الماضي مكان المضارع ولم يذكر الغرض من هذا الاستعمال ولكنه بين أنه من مذاهب العرب في كلامها.

يقول في قوله تعالى ﴿ **وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ**﴾[41]: "رفع لأنّه مجازات فيه، فمجازه فمن عاد فإن الله ينتقم منه، وعاد: في موضع يعود، قال قعنب بن أم صاحب:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بهاَ فَرَحاً   وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسوُءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنوُا

أي استمعوا"[42].

حروف الزوائد: يرى أبو عبيدة أن بعض الحروف قد تزاد في القرآن الكريم، لتتميم الكلام وتوكيده، يقول في قوله تعالى ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾[43]: "مجازها: غير المغضوب عليهم والضالين، و "لا" من حروف الزوائد لتتميم الكلام، والمعنى إلقاؤها"[44]. ويقول في قوله تعالى﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**﴾ [45]: "مجازه: الدار الآخرة هي الحيوان، واللام تزاد للتوكيد قال الشاعر:

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ   تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرَقَبَهْ"[46].

ولعل أبا عبيدة كان يقصد من وصف هذه الحروف بالزيادة في القرآن أنها كذلك من الناحية الإعرابية[47]، أما من ناحية النظم القرآني، فإن البلاغة تقتضيها لتؤدي دورها في النظم، فتؤكد دلالته أو تتمها.

---

(39) سورة هود: الآية 24.

(40) مجاز القرآن: 287/1.

(41) سورة المائدة: الآية 95.

(42) مجاز القرآن: 176/1-177.

(43) سورة فاتحة الكتاب: الآية 07.

(44) مجاز القرآن: 25/1-26.

(45) سورة العنكبوت: الآية 64.

(46) مجاز القرآن: 117/2.

(47) ينظر النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، مكتبة السعادة 1379 هـ /1960م: ص126.

المجاز العقلي: تعرض له من غير تسمية، يقول في قوله تعالى﴿**وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**﴾[48]: "مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أي يبصر فيه، ألا ترى أن البصر إنما هو في النهار والنهار لا يبصر، كما أن النوم في الليل ولا ينام الليل فإذا نيم فيه قالوا: ليله نائم ونهاره صائم"[49].

التشبيه: لقد استرعت الصور التشبيهية نظر أبي عبيدة خاصة في كتابه "النقائض بين جرير والفرزدق" وليس بعجيب فالتشبيه يشكل الجمال الرئيسي للشعر العربي القديم. فتراه يوضح المشبه به ووجه الشبه حينما علق على قول البعيث:

فَأَلْقَى عَصَا طَلْحَ وَنَعْلاً كَأَنَّهَا   جَنَاحُ سَمَانِي صَدْرُهَا قَدْ تَخَدّماَ

بقوله: "يريد أنّه راع وأن سلاحه عصا، وشبه نعله بجناح سماني في دفئها وصغرها"[50].

ويقول في قول جرير[51]:

كَأَنَّ رُسوُمَ الدَّارِ رِيشُ حَمَامَةٍ   مَحَاهاَ البِلَى فَاسْتَعْجَمَتْ أَنْ تَكَلَّمَا

"شبه الدار بريش حمامة، لاختلاف لونها"[52].

و يذكره في كتاب "مجاز القرآن" فيقول في قوله تعالى﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ**﴾[53]. "كناية و تشبيه"[54]. ويذكر "التمثيل" ويقصد به التشبيه أو تشبيه التمثيل يقول في قوله تعالى ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[55]: "مجاز التمثيل، لأن ما بنوه على التقوى أثبت أساسا من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق فهو على شفا جرف، وهو ما يجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه"[56].

---

[48] سورة النمل: الآية 86.

[49] مجاز القرآن: 96/2.

[50] النقائض بين جرير والفرزدق، أبو عبيدة، تصحيح الصاوي، مطبعة الصاوي، 1353 هـ / 1935م: 42/1.

[51] ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، 1406هـ / 1986م:ص445.

[52] النقائض بين جرير والفرزدق: 55/1.

[53] سورة البقرة: الآية 223.

[54] مجاز القرآن: 73/1.

[55] سورة التوبة: الآية 109.

[56] مجاز القرآن: 269/1.

المجاز: عرف أبو عبيدة كلمة "مجاز" وجعلها جزءا من عنوان كتابه: "مجاز القرآن".و لقد اختلف الباحثون في تفسير هذه الكلمة عنده، فبعضهم[57]جعلها مناظرة لكلمة "النحو"، ومن ثم اعتبر كتاب "مجاز القرآن" كتابا في النحو، ومنهم[58]من جعل كلمة "مجاز" تعبر عن مدلول كلمة تفسير وحسب الكتاب كتابا في التفسير.

وأما علماء البلاغة استنادا إلى سبب تأليف الكتاب الذي كان من أجل مسألة بلاغية تتصل بالتشبيه وكون المشبه به معلوما أو مجهولا، فقد فسروا كلمة :"مجاز" بالمعنى الاصطلاحي المعروف لدى علماء البلاغة واعتبروا الكتاب كتابا في البيان وأول كتاب ألف فيه[59].

والحق أن "المجاز" عند أبي عبيدة يراد به: المعنى العام من كلمة "مجاز" فهو أعم من كلمة "معنى" أو "تفسير" أو "بيان وجه الإعراب"، أو "المجاز الاصطلاحي البلاغي المعروف".

وقد أطلق أبو عبيدة كلمة "مجاز" على المعنى الاصطلاحي المعروف عند علماء البلاغة المتأخرين، فقال في قوله تعالى﴿**وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا**﴾[60]: "مجاز السماء ها هنا مجاز المطر، يقال، مازلنا في سماء أي في مطر، وما زلنا نطأ السماء، أي أثر المطر، وأنّي أخذتكم هذه السماء؟"[61]. و واضح أن هذا المثال من المجاز المرسل.

الاستعارة: يرى أبو عبيدة أن الاستعارة نقل كلمة إلى مكان كلمة أخرى، وأن هذا النقل كثير في كلام العرب، يقول معلقا على قول الفرزدق لجرير[62]:

لاَ قَوْمٌ أَكْثَرُ مِنْ تَمِيمٍ إِذْ غَدَتْ عُوذَ النِّسَاءِ يُسَقْنَ كَالآجَالِ

"قوله: عوذ النساء: هن اللاتي معهن أولادهن، والأصل في عوذ: في الإبل التي معها أولادها، فنقلته العرب إلى النساء، وهذا من المستعار، وقد تفعل ذلك العرب كثيرا"[63].

---

[57] ينظر إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1959: ص11-12.

[58] ينظر المجازات النبوية، الشريف الرضى، تحقيق محمود مصطفى، القاهرة، 1356هـ: ص05.

[59] ينظر الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، أحمد السكندري ومصطفى عناني، دار المعارف، ط 17، دت: ص229.

[60] سورة الأنعام: الآية 06.

[61] مجاز القرآن: 186/1.

[62] ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ /1987م: ص495.

[63] النقائض بن جرير والفرزدق: 262/1.

وكلامه لا يخلو من الإشارة إلى أركان الاستعارة، فنراه يكشف لنا عن اللفظ "المستعار" فيقول معلقا على قول الفرزدق يهجو جريرا[64]:

يَاَ ابْنَ المِـراَغَةِ إِنَّمَا جَارَيْتَنِـي بِمُسَبَّقِينَ لَدَى الفَعَالِ قِصَارِ
وَالحَابِسِينَ إِلىَ العِشِيِّ لِيَأْخُذُوا نُزُحَ الرَّكِيِّ وَدِمْنَـةَ الأَسْـآرِ

قال "و الآسار واحدها سؤر مهموز، قال: ودمنة ها هنا طين وما بقي في أسفل البئر، وهو في هذا الموضع مستعار، وأصل الدمنة مجتمع البعر والرماد ومصب اللبن"[65]. و بين "المستعار له" بقوله بعد قول جرير[66]:

لَقَدْ مُدَّ لِلْقَيْنِ الرِّهَانُ فَرَدَّهُ عَنِ المجْدِ عِرْقٌ مِنْ قُفَيْرَةَ مُقْرِفُ

"قال الأصمعي المقرف من الدواب الذي أحد أبويه يرذون، وإنما ضربه مثلا ها هنا يريد أن أحد أبويه ليس بعربي، والأصل للدواب فاستعاره للناس، قال والعرب تفعل هذا"[67].

وعرف أبو عبيدة الاستعارة التمثيلية ولكنه لم يسمها بهذا الاسم بل أطلق عليها كلمة "مثل". من ذلك تعليقه على قول جرير[68]:

إِنِّي، إِذَا بَسَطَ الرُّمَاةُ لِغَلْوِهِمْ عِنْدَ الحِفاَظِ غَلَوْتُ كُلَّ مَغاَلِي

بقوله: "وقوله: غلوت هو من غالاني فغلوته يقول نظرنا أينا أبعد غلوة سهم، وإنما هذا مثل للتفاخر وذكر الأيام والنعم والأيادي"[69].

وقد تعرض للمثل في كتابه "مجاز القرآن" فيقول في قوله تعالى ﴿ **فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ**﴾[70]: "مجازه مجاز المثل، وموضعه موضع كفوا عما أمروا بقوله من الحق، ولم يؤمنوا به ولم يسلموا ويقال: رد يده في فمه، أي أمسك إذا لم يجب"[71].

(64) ديوان الفرزدق: ص309-310.
(65) النقائض: 31/2.
(66) ديوان جرير: ص297.
(67) النقائض: 279/2-280.
(68) ديوان جرير: ص374.
(69) النقائض: 03/2.
(70) سورة إبراهيم: الآية09.
(71) مجاز القرآن: 335/1-336.

يظهر أن أبا عبيدة وجد في كلمة "مجاز" ما يغني عن الاستعارة، لأنهما لم يتميزا عن بعضهما ولم يحددا إلا في وقت متأخر.

الكناية: ينص عليها كثيرا في كتابيه "النقائض" و"مجاز القرآن"، ويطلقها على الأسلوب الذي عرف عند البلاغيين باسم الكناية اللّغوية.

فيقول في قوله تعالى ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ** ﴾[72]: "كناية وتشبيه"[73].

وفي النقائض يقول معلقا على قول الفرزدق[74]:

وَثَبْتِي عَلَى ضَاحِي المزَلِّ عَلَتْ بِهِ جُدُودُ بَنِي سُفْيَانَ عَنْ زَلَّةِ النَّعْلِ

"ثبت: ثبات على المكان، و الضاحي الظاهر البارز و المزل: الأملس الزلق يزلق فيه. فيقول أنا في مثل هذا المكان ثابت علت به: أي ارتفعت جدود بني سفيان: أي حظوظهم، ويقال: جدودهم: آباؤهم، عن زلة النعل. أي: عن أن تزل نعالهم وجعل النعل كناية عن القدم"[75].

وقد يطلق الكناية على "الضمير" فتراه يقول في شرحه للآية ﴿ **ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ**﴾[76]:"مجازه على وجهين: أحدهما أن بعض العرب يظهرون كناية الاسم الذي بعد الفعل كقول أبي عمرو الهذلي: أكلوني البراغيث"[77]. فهو يطلق الكناية على علامة الجمع كما ترى.

الالتفات: ومما كشف أبو عبيدة وذكره كثيرا أسلوب "الالتفات" وعده من المجاز، يقول: "ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها للشاهد، قال تعالى ﴿ **الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ**﴾[78]، مجازه: ألم هذا القرآن "[79].

---

(72) سورة البقرة: الآية223.

(73) مجاز القرآن: 73/1.

(74) لم أجد البيت في الديوان.

(75) النقائض: 124/1.

(76) سورة المائدة: الآية71.

(77) مجاز القرآن: 174/1.

(78) سورة البقرة: الآية1-2.

(79) مجاز القرآن: 11/1

و يقول أيضا: "ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد، قال ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ [80]."[81].

هذه هي اللبنات الأولى التي وضعها أبو عبيدة في صرح البلاغة العربية وهي كما ترى خالية من التحديدات، والتعليلات والتقسيمات البلاغية المعروفة، ولكن يكفيه فخرا أنه وجه الدارسين والأدباء، لدراسة القرآن الكريم، والشعر العربي، والتمرس بهما، ولعله كان يعتقد أن ذلك يؤدي إلى تكوين الذوق الأدبي السليم.

وبعد أبي عبيدة يطالعنا على الطريق شيخ العربية وإمامها وعلم القرن الثالث الهجري **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ**[82]. فقد ترك لنا ثروة ضخمة من أثمنها كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان".

في البيان و التبيين تعرض الجاحظ لموضوعات البيان والفصاحة والبلاغة، ولم يكن لأحد من هذه الألفاظ مدلول خاص يميز كلا منها عن الآخر، وعرف البلاغة عند الأمم المختلفة من فرس ورومان ويونان وهنود وعرب[83]. وذكر عيوب اللسان من تمتمة، وفأفأة، ولجلجة، ولثغة، ولكنة، وحبسة[84].

و قد عرف الجاحظ مطابقة الكلام لمقتضى الحال الذي هو البلاغة كلها عند المتأخرين، وألح على طلب تحققه في الكلام في أكثر من موضع[85].

و قد ظهرت على لسانه بعض المسائل البلاغية أثناء رده على الطعن الذي وجه إلى بعض الصور البلاغية حيث لاحظ أثر الصور البلاغية في الكلام. ومسائل البلاغة التي تعرض لها الجاحظ نوجزها باختصار فيما يلي:

---

[80] سورة القيامة: 33-34.

[81] مجاز القرآن: 11/1.

[82] هو أبو عثمان بن بحر بن محبوب، الكناني، الليثي، المعروف بالجاحظ البصري العالم المشهور صاحب التصانيف في كل فن ...، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة وكان تلميذ أبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور، وفيات الأعيان: 140/3.

[83] ينظر البيان والتبيين: 88/1-96-115.

[84] ينظر المصدر نفسه: 34/1.

[85] ينظر المصدر نفسه: 87/1-93-136.

الإيجاز: عرف الجاحظ الإيجاز بنوعيه: إيجاز الحذف، وإيجاز القصر. أما إيجاز الحذف فقد فتح له بابا في كتابه "البيان والتبيين" بعنوان "باب من كلام محذوف" وذكر له أمثلة كثيرة منها: "إن المهاجرين قالوا: يا رسول الله إن الأنصار قد فضلونا بأنهم أووا ونصروا، وفعلوا، وفعلوا، قال النبي عليه السلام: أتعرفون ذلك لهم؟ قالوا: نعم قال: "فإن ذاك "ليس في الحديث غير هذا. يريد: إن ذاك شكر ومكافأة"[86].

وأما إيجاز القصر فقد تعرض له من غير تسمية، فقد علق على قول الإمام علي ﵁: قيمة كل امرئ ما يحسن بقوله: "فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية و مجزئة مغنية، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية، وغير مقصرة عن الغاية وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ..." [87].

الإطناب: عرف الجاحظ الإطناب وحدد له الحال والمقام الذي يستدعيه، يقول: "وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص، وقد رأينا الله عز وجل ردّد ذكر قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وثمود. وكذلك ذكر الجنة والنار، وأمور كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب"[88].

و قد وقف أمام نوع من أنواع الإطناب وسماه: إصابة المقدار، والمتأخرون يسمونه "الاحتراس"، يقول: "وقال طرفة في المقدار وإصابته[89]:

فَسَقَى دِيارَكِ غَيْرَ مُفْسِدِهاَ   صَوْبُ الرَّبيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

طلب الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضار، وقال النبي ﷺ في دعائه:

---

(86) البيان والتبيين: 278/2.

(87) المصدر نفسه: 83/1.

(88) المصدر نفسه: 105/1.

(89) ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان،دت:ص79، والبيت ورد في الديوان بلفظه وتمامه:

فَسَقىَ بِلاَدَكِ، غَيْرَ مُفْسِدِهاَ   صَوْبَ الغَمامِ وَ دِيمَةٌ تَهْمِي.

"اللهم اسقنا سقيا نافعا" لأن المطر ربما جاء في غير إبان الزراعات، وربما جاء والتمر في الجرن، والطعام في البيادر، وربما كان في الكثرة مجاوزا لمقدار الحاجة." [90].

وإذا جاوز الكلام مقدار الحاجة، ولم يقف عند منتهى البغية سماه الجاحظ الإسهاب وكرهه ولم يرتضه ويروي بصدد ذلك قول "ابن عمر عندما قيل له: لو دعوت الله لنا بدعوات، فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا، فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن فقال: نعوذ الله من الإسهاب"[91].

الفصل و الوصل: عرفه الجاحظ وجعله البلاغة كلها، قال: "قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل و الوصل"[92].

و قد لاحظ موطنا من مواطن الوصل وهو كمال الانقطاع مع الإيهام، وقد ذكر مثالا لذلك وهو قول أبي بكر وقد مر برجل ومعه ثوب، "فقال: أتبيع الثوب؟ فقال لا عافاك الله. فقال أبو بكر ﷺ: لقد علمتم لو كنتم تعلمون. قل: لا وعافاك الله"[93].

التغليب: ويتعرض الجاحظ للتغليب في القرآن فيقول في الآية ﴿**وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ**﴾ [94]. "كأنهم يجمعون على أنبه الاسمين كما قالوا: "ثبيرين" وهما ثبير وحراء "جبلان متقابلان بمكة "والبصرتين أي البصرة والكوفة والأولى أقدم، وليس ذلك بالواجب فقد قالوا العمرين، وأبو بكر فوق عمر"[95].

التشبيه: التشبيه من الصور البيانية، التي لها دورها المتميز في التعبير الفني، وقد وقف الجاحظ أمامه كثيرا ووضح أركانه فهو يعلق على قول امرئ القيس[96]:

كَأَنِّي غَداةُ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا   لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

[90] البيان والتبيين: 228/1.
[91] المصدر نفسه: 195/1-196.
[92] المصدر نفسه: 88/1.
[93] المصدر نفسه: 261/1.
[94] سورة النساء: الآية 11.
[95] الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة الحلبي، ط1، 1356هـ: 250/3.
[96] ديوان امرئ القيس: ص111.

بقوله: "يخبر عن بكائه، ويصف درور دمعته في أثر الحمول، فشبّه نفسه بناقف الحنظل"[97].

ورأى أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم منه في المشبه، وأن يكون المشبه به أشهر بوجه الشبه من المشبه يقول: "هذا والحمار هو الذي ضرب به القرآن المثل في بعد الصوت، وضرب به المثل في الجهل، فقال ﴿**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ فلو كان شيء من الحيوان أجهل بما في بطون الأسفار من الحمار، لضرب الله به المثل"[98].

كما لاحظ أن الشيء لا يشبه بغيره من جميع الجهات يقول: "وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، وبالغيث والبحر، وبالأسد وبالسيف، وبالحية وبالنجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان"[99].

وحكى إعجاب القوم بتشبيهات امرئ القيس[100]، وقد قام بالكشف عن المشبه به ووجه الشبه في الآيات التي كانت هدفا للطعن من جهة الملحدين منها قوله تعالى ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾[101]. فقال: "وليس أن رأوا شيطانا قط على صورة، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهته، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتنفير، وبالإضافة والتقريع، إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن"[102].

فالجاحظ يرى أن إدراك المشبه به لا يتوقف على الإدراك بشيء من الحواس الخمس الظاهرة فحسب بل أيضا على ثبوته في الإدراك عن طريق العادة والعرف وتناقل الناس له.

---

(97) الحيوان: 139/2.

(98) المصدر نفسه: 255/2.

(99) المصدر نفسه: 211/1.

(100) ينظر البيان و التبيين: 53/3.

(101) سورة الصافات: الآية65.

(102) الحيوان: 4/39-40.

و يرى أن السر البلاغي في إيراد التشبيه على هذه الصورة إنما هو للتخويف والتفزيع، لأن هذا الأسلوب قد خوطب به قوم قد استقر في نفوسهم استقباح المشبه به، وقد جرى على لسانهم استعماله، فهذا يجرى مجرى إدراكهم له بطريق الحواس.

المجاز اللغوي: تحدث الجاحظ عن المجاز المقابل للحقيقة، والذي عده مفخر العرب في لغتهم، وذكر أنه من الألوان التعبيرية التي ساهمت في اتساع اللغة(103)، وهو أيضا من فضائلهم و صور إقدامهم على الكلام ثقة في مستمعيهم وفهمهم عنهم(104).

ومن أمثلته قوله: "وإذا قالوا أكله الأسد فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف، وإذا قالوا أكله الأسود فإنما يعنون النهش و اللذغ والعض فقط، وقد قال الله عز وجل ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾(105)، وكذلك قول دهمان النهري:

سَأَلْتَنِي عَنْ أُنَاسٍ أَكَلُوا   شَرِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَأَكَلْ

فهذا كله مختلف، وهذا كله مجاز"(106). فالأكل في قوله: "أكله الأسد" حقيقي، أما في الأمثلة الأخرى فالأكل على اختلاف أنواعه مجازي كما ذكر.

و من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى ﴿ **يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ** ﴾(107)، قال: "فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحول بالماء شرابا أو بالماء نبيذا، فسماه كما ترى شرابا، إذا كان يجيء منه الشراب. و قد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء بأمر عظيم، وقد قال الشاعر:

إِذَا سَقَطَ السَّماَءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ   رَعَيْنَاهُ، وَإِنْ كاَنوُا غِضَاباَ

فزعموا أنهم يرعون السماء، و أن السماء تسقط"(108). وهذا المثال هو من المجاز المرسل.

(103) ينظر الحيوان: 425/5.
(104) ينظر المصدر نفسه: 32/5.
(105) سورة الحجرات: الآية12.
(106) الحيوان: 97/5-98.
(107) سورة النحل: الآية69.
(108) الحيوان: 425/5.

من الأمثلة السابقة يتضح أن المجاز عند الجاحظ مقابل للحقيقة، وأن الحقيقة في مفهومه تعني "استعمال اللفظ فيما وضع له أصلا"، كما أن المجاز عنده هو "استعمال اللفظ في غير ما وضع له".

الاستعارة: الاستعارة عند الجاحظ هي: "تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"، ورد ذلك في تعليقه على البيت الثالث من الأبيات التالية:

يَاَ داَرُ قَدْ غَيَّـرَهاَ بلاَهــاَ ... كَأَنَّـــماَ بِقَـلَـمٍ محـاَهـــاَ
أَخَرَّبَهَا عُمْرَانُ مَنْ بَناَهـاَ ... وَكَرَّ مُمْسـاَهاَ عَلىَ مُغْناَهـاَ
وَطَفِقَتْ سَحاَبَةٌ تَغْشاَهاَ ... تَبْكِي عَلىَ عِرَاصِهاَ عَيْناَهاَ

حيث قال: "وطفقت، يعني ظلت، تبكي على عراصها عيناها، عيناها ها هنا للسحاب، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة، وتسمية الشيء باسم غيره، إذا قام مقامه"[109].

ثم يذكر أمثلة من القرآن الكريم، ويعلق عليها بما يؤكد هذا التفسير ويقويه، يقول مثلا في تعليقه على قوله تعالى ﴿**هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ**﴾ [110]: "والعذاب لا يكون نزلا، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم، سمي باسمه"[111].

إن تعريف الجاحظ للاستعارة بأنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه يعتبر المحاولة الأولى في تاريخ تعريف الاستعارة لذلك لم يكن مانعا جامعا، فهو لا يمنع المجاز المرسل لأنه هو أيضا: تسمية الشيء باسم غيره ثقة من القائل بفهم السامع، كما يدخل غير الاستعارة فيها، وجدناها مختلطة بالمثل والتشبيه والبدل والاشتقاق والمجاز[112].

و قد عرف الجاحظ الاستعارة التمثيلية ومثل لها وأطلق عليها كلمة "المثل" يقول: "ويذكرون نارا أخرى، وهي على طريق المثل لا على طريق الحقيقة نحو قول ابن ميادة [113]:

---

(109) البيان والتبيين: 153/1.

(110) سورة الواقعة: الآية56.

(111) البيان والتبيين: 153/1.

(112) ينظر الحيوان: 289/4 – 25/5-27 – 133/5 – 273/4.

(113) شعر ابن ميادة، جمعه وحققه حنا جميل حداد، راجعه وأشرف على طباعته قدري الحكيم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1402هـ / 1982م: ص38.

وَنَارَاهُ: نَارٌ نَارُ كُلِّ مُدْفَعٍ   وَأُخْرَى يُصِيبُ المجْرِمِينَ سَعِيرُهاَ"[114].

الكناية: وردت الكناية عند الجاحظ بمعناها العام وهو التعبير عن المعنى تلميحا لا تصريحا. يفهم ذلك من قوله: "رب كناية تربي على إفصاح"[115].

و لكنه يشترط لها أن تطلبها الحال ويستدعيها المقام يقول: "ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ... والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، و الاسترسال في موضع الاسترسال"[116].

ولفظ الكناية يأتي في تعبير الجاحظ بمعنى الكناية اللّغوية[117]. وأحيانا يستعمله في الدلالة على الاصطلاح البلاغي المعروف، يقول: "وإذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل، وإذا قالوا للعامل مستقص فتلك كناية عن الجور"[118].

و يقترن مصطلح التعريض عند الجاحظ بالكناية، مما يدل على أنه أدرك العلاقة الموجودة بينهما، جاء ذلك في أثناء روايته لخطبة أطال فيها رجل، فقيل لأحد العارفين بأسرار الكلام وهو أبو يعقوب: "هلا اكتفى بالأمر بالتواصل، عن النهي عن التقاطع؟ أو ليس الأمر بالصلة هو النهي عن القطيعة؟ قال: أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف"[119].

فالكناية عند الجاحظ معدودة من الأساليب البلاغية التي قد يتطلبها المعنى للتعبير عنه ولا يجوز إلا فيها، وأن العدول عنها إلى صريح اللفظ في المواطن التي تتطلبها أمر مخل بالبلاغة.

السجع: عرض له الجاحظ كثيرا ومثل له بأمثلة من عيون النثر والشعر ومن حديث الرسول ﷺ[120].

(114) الحيوان: 133/5.
(115) البيان والتبيين: 7/2.
(116) الحيوان: 39/3.
(117) ينظر الحيوان: 280/2.
(118) البيان والتبيين: 263/1.
(119) المصدر نفسه: 117/1.
(120) ينظر المصدر نفسه: 284/1-408.

كما وضح دور السجع في الكلام البليغ فيروي ما قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: "لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال عبد الصمد: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلاّ سماع الشّاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والرّاهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحقّ بالتقييد وبقلّة التغلّب، وما تكلمت به العرب من جيّد المنثور، أكثر مما تكلّمت به من جيّد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره"[121].

حسن التقسيم: وقف الجاحظ أمام أسلوب حسن التقسيم وروى عن عمر بن الخطاب ﷺ وكان عنده أعلم الناس بالشعر –حينما أنشدوه شعرا لزهير– وكان لشعره مقدما "فلما انتهوا إلى قوله:

وَإِنَّ الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاَثٌ   يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جَلاَءُ

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها، وإقامته أقسامها:

وَإِنَّ الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاَثٌ   يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جَلاَءُ

يرددون البيت من التعجب، وأنشدوه قصيدة عبدة بن الطيب الطويلة التي على اللام، فلما بلغ المنشد قوله:

وَالمرْءُ ساَعٍ لِشَيْءٍ لَيْسَ يُدْرِكُهُ   وَالعَيْشُ شُحٌّ وَإِشْفاَقٌ وَتَأْمِيلُ

قال عمر متعجبا: والعيش شح وإشفاق وتأميل

يعجبهم من حسن ما قسم وفصل"[122].

الغلوّ: يكره الجاحظ الغلوّ، و يبغض الإغراق، ومذهبه الاعتدال في القول. يقول بصدد هذا: "فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقيّ والوحشيّ، ولا تجعل همّك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ، وفي التوسط مجانبة للوعورة، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه ... و ليكن كلامك ما بين المقصر والغالي، فإنك تسلم من المحنة عند العلماء ومن فتنة الشيطان"[123].

(121) البيان والتبيين: 287/1.
(122) المصدر نفسه: 239/1-240-241.
(123) المصدر نفسه: 255/1.

ثم يقول: "وكانوا يقولون: أكره الغلوّ كما تكره التقصير"[124].

الاقتباس: عرفه الجاحظ وإن لم يسمه فقد ذكر "أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد: البتراء ويسمون التي لم توشح بالقرآن، وتزين بالصلاة على النبي ﷺ، الشوهاء"[125]. و يقول: "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء، والوقار، والرقة، وسلس الموقع"[126].

ويحكى عن عمران بن حطان قوله: "خطبت عند زياد خطبة ظننت أنيّ لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخا يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن"[127].

واضح من هذا النقل أن الاقتباس كان له قيمة في نظر العرب وأنه مما يكسب الكلام جمالا.

والواقع أن الجاحظ لم يختر في كتابته أسلوب التعريف والتحديد، وإنما اختار أسلوب الأديب البليغ الذي ينطلق مع عقله وذوقه وفطرته، فكان يستعرض النصوص الأدبية ويشرحها مستهدفا الوصول إلى مواطن الجمال فيها مستعينا على ذلك بالشواهد الكثيرة من القرآن الكريم ومن كلام العرب.

وفي ذلك يقول شوقي ضيف: "إن الجاحظ قد ألم في كتاباته الصور البيانية المختلفة، وبكثير من فنون البديع، غير أنه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات، فقد كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية، وقلما عنى بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررها" [128].

على أن عزوف الجاحظ عن المصطلحات والتعريفات لم يمنع من جاءوا بعده من الكتاب أن يستخرجوا من كتاباته عن البلاغة كثيرا من الاصطلاحات والتعريفات.

---

(124) البيان والتبيين: 116/1.

(125) المصدر نفسه: 6/2.

(126) المصدر نفسه: 118/1.

(127) المصدر نفسه: 6/2.

(128) البلاغة تطور وتاريخ: ص56.

يقول شوقي ضيف: "وقد ظلت كتابات الجاحظ وملاحظاته في البيان والبلاغة معينا لا ينفذ لمد الأجيال التالية بكثير من قواعدهما، كل يستمد منها حسب قدرته الذهنية" [129].

ومن الذين كان لهم باع لا ينكر في التأليف البلاغي العالم الجليل **ابن قتيبة**[130]. (ت 276 هـ) صاحب كتاب "تأويل مشكل القرآن" ... فهذا الكتاب قد أولى البلاغة عناية كبيرة وإن كان صاحبه قد ألفه أصلا للرد على الطاعنين في بلاغة القرآن، الذين اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وقد تحدث ابن قتيبة في هذا الكتاب عن كثير من فنون البلاغة وعقد لها أبوابا، منها:

الإيجاز: عرف ابن قتيبة الإيجاز بنوعيه: إيجاز الحذف، وإيجاز القصر.

أما إيجاز القصر فقد تعرض له في صدر كتابه "مشكل القرآن" من غير تسمية عندما وصف النظم القرآني بأنه "جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه"[131].

وسماه الاختصار ومثل له من القرآن الكرم ومن كلام العرب، يقول: "فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [132]. كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم ..." [133].

ومن أمثلته في كلام العرب قول الشاعر:

وَلَوْ أَنَّهَا عُصْفُورَةٌ لَحَسِبْتَهَا   مُسَوَّمَةً تَدْعُو عَبِيداً وَأَزْنَمَا

يقول: "لو طارت عصفورة لحسبتها من جنك خيلا تدعو هاتين القبيلتين"[134].

أما إيجاز الحذف فقد فتح له بابا في كتابه السابق بعنوان "باب الحذف والاختصار" ومثل له بفيض من الأمثلة من القرآن الكريم وكلام العرب.

وإيجاز الحذف عنده على أنواع:

---

(129) البلاغة تطور وتاريخ: ص57.

(130) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري وقيل: المروزي، النحوي اللغوي ... كان فاضلا ثقة ... وتصانيفه كلها مفيدة، وفيات الأعيان: 246/2.

(131) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، طبع الحلبي، 1954م: ص04.

(132) سورة الأعراف: الآية199.

(133) تأويل مشكل القرآن: ص04.

(134) المصدر نفسه: ص07.

من ذلك: "أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له، كقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [135]. أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

قال الهذلي[136]:

يَمْشِي بَيْنَنَا حَانُوتُ خَمْرٍ   مِنَ الخُرْسِ الصَّرَاصِرَةِ القَطَاطِ

أراد صاحب حانوت خمر، فأقام الحانوت مقامه"[137].

ومن ذلك أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما، وتضمر للآخر فعله، "كقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [138]. أي وادعوا شركاءكم.

قال الشاعر:

وَرَأَيْتُ زَوْجُكِ فِي الوَغَى   مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً

أي متقلدا سيفا، وحاملا رمحا"[139].

ومن ذلك أن يأتي بالكلام مبنيا على أن له جوابا، فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب به، كقوله تعالى ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [140].

أراد: "لعذبكم، فحذف"[141].

ويجعل من الاختصار قوله تعالى ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ [142]. أراد: "كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فيبلغه فاه... والعرب تقول: لمن تعاط ما لا يجد منه شيئا: هو كالقابض على الماء"[143].

---

[135] سورة الإسراء: الآية75.

[136] ديوان الهذيليين، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، 1385هـ /1965م: البيت غير موجود في الديوان.

[137] تأويل مشكل القرآن: ص162-163.

[138] سورة يونس: الآية71.

[139] تأويل مشكل القرآن: ص164-165.

[140] سورة النور: الآية20.

[141] تأويل مشكل القرآن: ص166.

[142] سورة الرعد: الآية14.

[143] تأويل مشكل القرآن: ص173.

وينتهي ابن قتيبة من باب الحذف والاختصار وقد حشد فيه كثيرا من الأمثلة تناولت حذف الكلمة والكلمتين والجملة وحذف الحرف والاسم والفعل.

و لكنه يشترط لإيجاز الحذف أن يكون معلوما لدى السامع، وإلا يخل الحذف بالمعنى المراد، كما يشترط أن يكون في الكلام ما يدل عليه.

الإطناب: عرفه ابن قتيبة، وتعرض لبعض صوره، وذلك في الباب الذي عقده في كتابه "تأويل مشكل القرآن" تحت عنوان "باب تكرار الكلام والزيادة فيه".

و يرى أن ظاهرة التكرار موجودة في القرآن الكريم، لأنه نزل بلغة العرب وعلى مذاهبهم في فن القول. "و من مذاهبهم التكرار: إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار: إرادة التخفيف والإيجاز، لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد"[144].

فابن قتيبة إذ يجيز التكرار في البيان العربي بعامة يحدد له المقام والغرض الذي يستدعيه فكأن الإطناب عنده-بعد وقوعه في موقعه- التعبير عن المعنى بعبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة، فإن كانت الزيادة في اللفظ لغير فائدة فقد خرج الأسلوب عن مراتب البلاغة ولم يكن إطنابا بل كان الزائد تطويلا أو حشوا وكلاهما عيب في الكلام.

المقلوب: فتح ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" بابا "للمقلوب" بدأه بالحديث عن استعمال اللفظ في معنى لفظ آخر لعلاقة التضاد بينهما لأغراض بلاغية اقتضاها الأسلوب والمقام. فقد يكون الغرض التطير و التفاؤل[145]، أو الاستهزاء[146].

و يجعل من المقلوب إرادة أحد المعنيين من ألفاظ الأضداد يقول: "ومن ذلك أن يسمى المتضادان، باسم واحد والأصل واحد، فيقال للصبح، صريم، والليل: صريم"[147]، وسياق الكلام هو الذي يحدد المعنى المراد.

---

(144) تأويل مشكل القرآن : ص182.

(145) ينظر المصدر نفسه: ص142.

(146) ينظر المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

(147) تأويل مشكل القرآن: ص143.

ويجعل من المقلوب: التقديم والتأخير وهو لا ينهج فيه منهجا بلاغيا بل يصرف همه إلى بيان صحة الأسلوب، يقول: "ومن المقلوب: أن يقدم ما يوضحه التأخير، ويؤخر ما يوضحه التقديم كقول الله تعالى: ﴿ **فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** ﴾ [148]. أي مخلف رسله وعده، لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل، فتقول: أخلفت الوعد، وأخلفت الرسل"[149].

مخالفة ظاهر اللفظ معناه: فتح له بابا في كتابه "تأويل مشكل القرآن". وجمع تحته فنونا من التعبير جاءت على خلاف مقتضى الظاهر، منها:

– استعمال الخبر في الإنشاء ويكون للدعاء على جهة الذم لا يراد به الوقوع، كقوله عزّ وجلّ: ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ**﴾ [150]... "وقد يراد به التعجب من إصابة الرجل في منطقه فيقال: قاتله الله ما أحسن ما قال"[151].

– ومنه خروج الاستفهام عن حقيقته فيكون للتقرير، يقول: "ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير، كقوله سبحانه ﴿**أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ [152]"[153].

– و يعد منه صيغة الأمر وخروجها عن حقيقتها، يقول: "ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد، كقوله: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾ [154]."[155].

– و من باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه "أن يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم أو مستقبل، كقوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [156]. أي أنتم خير أمة"[157].

---

[148] سورة إبراهيم: الآية47.
[149] تأويل مشكل القرآن: ص148.
[150] سورة الذاريات: الآية10.
[151] تأويل مشكل القرآن: ص213-214.
[152] سورة المائدة: الآية116.
[153] تأويل مشكل القرآن: ص215-216.
[154] سورة فصلت: الآية 40.
[155] تأويل مشكل القرآن: ص216-217.
[156] سورة آل عمران: الآية110.
[157] تأويل مشكل القرآن: ص227.

التشبيه و التمثيل: تعرض له ابن قتيبة، فقال في قوله تعالى ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [158]. "أي شبههم بالحمار"[159].

و المثل عنده بمعنى الشبه، "يقال هذا مثل الشيء ومثله، كما يقال، شبه الشيء وشبهه، قال الله تعالى ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا**﴾[160]. أي شبه الذين كفروا شبه العنكبوت"[161].

والتشبيه عنده له خطره في تربية الملكة الفنية، ولذا يجعل الإصابة فيه من أسباب الحفظ والاختيار يقول: "وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب: منها الإصابة في التشبيه"[162].

المجاز: توسع ابن قتيبة في فهم المجاز فأطلقه على جميع فنون الكلام يقول: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة"[163]. كما استعمله بالمعنى المقابل للحقيقة.

وابن قتيبة ممن يقولون بالمجاز في القرآن الكريم إلا أنه يخالف المعتزلة الذين يغالون في المجاز ويتوسعون فيه في قول الله وكلامه، يقول: "وذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولا ولا كلاما على الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعاني وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز ... قالوا في قوله للسماء والأرض: ﴿ **ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [164]: لم يقل الله ولم يقولا، وكيف يخاطب معدوما؟ وإنما هذا عبارة: لكوناهما فكانتا"[165].

---

(158) سورة الجمعة: الآية05.

(159) تأويل مشكل القرآن: ص378.

(160) سورة العنكبوت: الآية41.

(161) تأويل مشكل القرآن: ص378.

(162) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد شاكر، طبع دار المعارف، 1377 هـ/ 1958م: 84/1.

(163) تأويل مشكل القرآن: ص16.

(164) سورة فصلت: الآية11.

(165) تأويل مشكل القرآن: ص78-79.

ثم انتقل ابن قتيبة إلى الرد على الطاعنين على اللغة العربية والقرآن الكريم بالمجاز، والقائلين بعدم جواز المجاز في أسلوب القرآن وشبههم أن المجاز أخ الكذب، والقرآن منزه عنه قال: "وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز، فإنهم زعموا أنه كذب ... وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم ... ولو كان المجاز كذبا ... كان أكثر كلامنا فاسدا، لأنا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة ..." [166].

و قد ختم باب المجاز الذي فتحه في كتابه تأويل مشكل القرآن بتوضيح أن المجاز أعم من الاستعارة يقول: "ونبدأ بباب الاستعارة لأن أكثر المجاز يقع فيها"[167].

الاستعارة: عقد ابن قتيبة بابا للاستعارة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" بدأه بتعريفها فقال: "فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان، المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاورا لها مشاكلا"[168].

ثم مضى يمثل للاستعارة فقال: "ويقولون: ضحكت الأرض: إذا أنبتت، لأنها تبدي عن حسن النبات وتتفتق عن الزهر كما يفتر الضاحك عن الثغر"[169]. و واضح أن العلاقة بين الإنبات والضحك المشابهة.

و قد خطا ابن قتيبة بالاستعارة خطوات: فهو قد وضح المستعار له والمستعار منه، يقول في قوله تعالى ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾ [170]: "أي كان كافرا فهديناه وجعلنا له إيمانا يهتدى به ... فاستعار الموت مكان الكفر، والحياة مكان الهداية والنور مكان الإيمان"[171].

وأحيانا يعلق على بعض الأمثلة بما يشير إلى الجامع فيقول في قوله تعالى ﴿**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا**﴾ [172] "يعنى الملائكة، يريد: أنها متتابعة يتلو بعضها بعضا بما ترسل به من أمور الله عز

(166) تأويل مشكل القرآن: ص 9-100.
(167) المصدر نفسه: ص101.
(168) المصدر نفسه: ص102.
(169) المصدر نفسه: ص102.
(170) سورة الأنعام: الآية122.
(171) تأويل مشكل القرآن: ص106.
(172) سورة المرسلات: الآية01.

وجل وأصل هذا من عرف الفرس، لأنه سطر مستو بعضه في إثر بعض فاستعير للقوم يتبع بعضهم بعضا"[173].

وتجده يبين الغرض من الاستعارة ويكشف عن دورها في التعبير فيقول: "تقول العرب: إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن رفيع المكان، عالم النفع كثير الصنائع أظلمت الشمس له، وكسف القمر لفقده، وبكته الريح والبرق والسماء والأرض يريدون المبالغة في وصف المصيبة به، وأنها قد شملت وعمت"[174]. فالغرض من الاستعارة عنده المبالغة في المعنى المؤدى بها.

الكناية: تعرض ابن قتيبة للكناية، وهي عنده أنواع، ولها مواضع:

-فمنها " أن تكنى عن اسم الرجل بالأبوة، لتزيد في الدلالة عليه إذا أنت راسلته أو كتبت إليه، إذ كانت الأسماء قد تتفق، أو لتعظمه في المخاطبة بالكنية، لأنها تدل على الحنكة وتخبر عن الاكتهال "[175].

-وعرفها بالمعنى البلاغي المعروف يقول: "وكلام العرب، إيماء وإشارة، وتشبيه يقولون: "فلان طويل النجاد" والنجاد حمائل السيف، وهو لم يتقلد سيفا قط، وإنما يريدون: أنه طويل القامة"[176].

وجعل من الكناية التعريض، يقول: "ومن هذا الباب التعريض والعرب تستعمله في كلامها كثيرا، فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح، يعيبون الرجل إذا كان يكاشف في كل شيء، ويقولون: لا يحسن التعريض إلا ثلبا"[177].

هذه بعض جهود العلماء البلاغية قبل المبرد، وهي جهود قيمة استفاد منها المبرد و كان لها الأثر العظيم في بناء صرح البلاغة العربية.

---

(173) تأويل مشكل القرآن: ص126.

(174) المصدر نفسه: ص127.

(175) المصدر نفسه: ص199.

(176) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، تحقيق محمد زهري النجار، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، 1966م: ص163-164.

(177) تأويل مشكل القرآن: ص206-207.

الباب الأول

البلاغة عند المبرد

الفصل الأول :

مصطلحا الفصاحة والبلاغة عند المبرد

المبحث الأول: الفصاحة

أولا: تعريف الفصاحة:

الفصاحة في اصطلاح البلاغيين المتأخرين صفة توصف بها الكلمة والكلام والمتكلم "وهي في المفرد خلوصه من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، وفي الكلام خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات مع فصاحتها ... وفي المتكلم ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"[1].

ثانيا: المبرد[2] و الفصاحة:

في القرن الثالث، عصر المبرد، اختلط العرب بغيرهم من الأمم وأخذت الفصاحة تضيق وتخرج شيئا فشيئا من الحواضر، وبقيت البوادي هي المكان الذي حافظ فيه سكانه على اللغة الفصيحة، ولهذا صار الفصيح السليقي في القرن الثالث هو الأعرابي في غالب الأحيان، وصارت صفة الفصيح من فصحاء العرب مساوية عند "المولدين" لصفة البدوي الجلف.

ولقد تابع المبرد شيخه سيبويه في استعماله للفظة العرب عند حديثه عن الفصحاء والتي كان يعني بها الذين نشأوا في بيئة فصيحة واكتسبوا ملكة العربية لا بالتلقين بل بنشأتهم في تلك البيئة، ولم تكن البيئة في زمان المبرد إلا في البادية خلافا لزمان سيبويه ومن تقدمه، ففصحاء العرب عندهم كانوا السليقيين ليس غير وما كان يهمهم أن يكونوا بعد ذلك من الحضر أم من البدو وممن يتشدق أو لا يتشدق في كلامه.

ومن أمثلة استخدام المبرد لفظة العرب عند حديثه عن الفصاحة اللغوية السليقية قوله: "ومن كلام العرب ..." [3]. "هذا إنشاد بعضهم ... وهو الرداءة على ما ذكرت لك وأكثرهم

---

(1) التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1985م: ص174 .هو محمد

(2) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس، الثمالي الأزدي البصري المعروف بالمبرّد النحوي. ولد في يوم الاثنين غداة عيد الأضحى سنة 210هـ بالبصرة و نشأ فيها ثم غادرها إلى بغداد أين توفي و ذلك في شوال و قيل ذي القعدة سنة 285هـ في خلافة المعتضد. ينظر الفهرست، محمد إسحاق النديم ،حققه وقدم له مصطفى الشويمي، دار التونسية للنشر، ط1، 1406هـ/ 1985م: 265-266. و معجم الأدباء المعروف بالإرشاد الأدبي إلى معرفة الأديب، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ط1، دت: 142/7

(3) المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، دت، دط: 129/4.

ينشد ..." [4]. وهم يعنى بها العرب. "و من كلام العرب..." [5].و "العرب تترك مخاطبة..."[6].

كما استخدم المبرد بالإضافة إلى لفظة "العرب" لفظة "الأعرابي" التي كانت مشهورة في وقته وتدل على الفصيح السليقي. منها قوله: "و ما كنت أدري ما ﴿**فَاطِرِ السَّمَوَاتِ**﴾ حتى سمعت أعرابيا ينازع في بئر فقال: "أنا فطرتها، يريد أنشأتها"[7]. وقال أيضا: "قلت لأعرابي فصيح ..." [8]. و قال: "ومما يستحسن لفظه، ويستغرب معناه، ويحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب... فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام أحسن المخرج"[9]. وبهذا القول يؤكد لنا المبرد أن الأعراب كانوا على قدر أكبر من الفصاحة مقارنة بأولئك الذين يعيشون في الحضر، ولقد كرر هذه الملاحظة عدة مرات منها قوله: "ومما يستحسن ويستجاد قول أعرابي من بني سعد بن زيد ... [10].

و يقصد المبرد من الأقوال السلامة اللغوية السليقية التي لا يعرفها غير اللغويين والنحويين وهي من أهم الوحدات الدلالية التي تحتوي عليها الفصاحة كمصطلح لغوي نحوي عند الأوائل من النحاة.

و قد عرف المبرد الشخص الفصيح بقوله: "كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه"[11]. و يبدو لنا هذا التحديد على جانب كبير من الموضوعية، إذ استطاع المبرد أن يحصر هذه التحولات التي أصابت العربية في ألسنة بعضهم وقرر أنها من صفات غير الفصيح إذ لا تنتمي إلى اللغة التي يعرفها هؤلاء الذين سموا بفصحاء العرب والذين ترضى عربيتهم في هذا المجتمع بالذات.

---

(4) المقتضب: 24/2.

(5) الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر: 141/2.

(6) المصدر نفسه: 22/3.

(7) الفاضل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1375هـ /1956م: ص 114

(8) المصدر نفسه: ص114.

(9) الكامل: 32/1.

(10) المصدر نفسه: 35/1.

(11) الفاضل: ص113.

واستعمل المبرد اسم التفضيل "أفصح" مرات قلائل منها قوله: "إنما يقال بنو فلان أفصح من بين فلان أي أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش على أن القرآن نزل بكل لغات العرب"[12]. فلا شك أن المبرد كان يعتبر لغة القرآن كأبين لغة وأسلمها بالنسبة إلى اللسان العربي تصديقا لما قاله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [13]. أي أن أغلب العرب الفصحاء كانوا قادرين على فهم معانيه.

وقال المبرد: "حدثني الرياشي عن الأصمعي قال: قلت لعيسى بن عمر: أنا أفصح من معد بن عدنان، قال لي: تجاوزت، فأنا أفصح منك، فقلت: كيف ينشد هذا البيت:

قَدْ كُنَّ يَكْنُنَّ الوُجُوهَ تَسَتُّرًا		فَالآنَ حِينَ بَدَأْنَ لِلنُّظَّارِ.

أو بدين؟ فقال لي: بدأن، فقلت له: لم تصب، لأنه يقال بدا يبدوا، وبدأ الشيء يبدؤه إذا أنشأه واستأنفه، والصواب "حين بدَوْن"[14].

وحكي رواية أخرى جاءت فيها لفظة أفصح وهي: "وحدثني من لا أخص من أصحابنا عن الأصمعي عن شعبة عن قتادة، قال: قال معاوية يوما: من أفصح الناس؟ فقام رجل من السماط فقال: قوم تباعدوا عن فراتية العراق، تيامنوا عن كشكشة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر، ليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طُمْطُمانية حمير، فقال له معاوية: من أولائك؟ فقال: قومي يا أمير المؤمنين، فقال له معاوية: من أنت؟ قال: أنا رجل من جرم، قال الأصمعي: وجرم من فصحاء الناس"[15].

كما قال: "حدثني هارون بن عبد الله المهلبي قال حدثني نصر بن علي بن عبد الله عن أبيه، وكان أبوه قرين سيبويه قال سمعت الخليل بن أحمد يقول: أفصح الناس أزد السراة"[16].

وقال: "وكنا نسمع أصحابنا يقولون: أفصح الناس تميم وقيس وأزد السراة وبنو عذرة"[17].

---

[12] الفاضل: ص113.
[13] سورة الشعراء: الآية195
[14] الفاضل: ص112.
[15] الكامل: 223/2.
[16] الفاضل: ص113.
[17] المصدر نفسه: ص113.

وقال: "... رأيت قوما من أزاد السراة لم أر أفصح منهم"[18].

و روى عن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : "ما رأيت أفصح منك..." [19].

ثم بعد ذكر هذه الأقوال شرح المبرد رأيه في الفصيح فقال: "كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه"[20].

وكان المبرد يقرن لفظ الفصاحة بالمتكلم تارة، فقد قال: "وكان أبو محلم من أفصح من رأيت لسانا"[21]. وقال أيضا: "ويروى أن ابنة الخس كانت بليغة فصيحة"[22]. وقال: "العربي الفصيح الفطن اللقن..." [23]. و باللفظ تارة أخرى لأن في هذا القرن تحول لفظ الفصيح ليطلق على اللفظ زيادة على المتكلم بسبب ظهور اللحن بعد اختلاط العرب بغيرهم، فكان لابد على العلماء من تمييز الكلام الفصيح من غيره... لذا قال المبرد: "...هذا كلام فصيح جدا"[24]. وقال:" فهذا كلام فصيح"[25].

ولابد أن نذكر أن المبرد لم يحصر الفصاحة في السلامة اللغوية السليقية كما فعل شيوخه النحويون بل تجاوزها إلى الفصاحة البلاغية حيث حوى كتابه الكامل على مجموعة من المقاييس التي يقاس بها الكلام حتى يسمى فصيحا والتي أخذها ولا شك من أستاذه الجاحظ والتي استفاد منها ابن سنان الخفاجي عند تأليفه لكتابه سر الفصاحة، وهذه المقاييس شملت الكلمة المفردة والكلام المركب والمتكلم.

والملاحظ أيضا أن المبرد كان يصف اللفظ بالفصاحة وليس المعنى، يروى عنه إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي أنه أنشد قصيدة لأبي شراعة القيسي ثم قال: "وهذه القصيدة لم يأت فيها معنى مستغرب وإنما قصدنا فيها الكلام الفصيح والمعاني الواضحة"[26]. فالفصاحة هنا

---

(18) الفاضل: ص113.

(19) المصدر نفسه: ص113.

(20) المصدر نفسه: ص113.

(21) المصدر نفسه: ص114

(22) المصدر نفسه: ص114.

(23) الكامل: 32/3.

(24) المصدر نفسه: 59/1.

(25) المصدر نفسه: 33/1.

(26) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني 384هـ، المطبعة السلفية، بالقاهرة، 1343هـ :ص 319.

وصف بها الكلام وهو الألفاظ أما الوضوح فأعطاه للمعاني، كما أنه وإن لم يقدم تعريفا صريحا للفصاحة إلا أننا نلمس أحيانا تفريقه بينها وبين البلاغة.

شروط فصاحة الكلمة:

1- مخالفة القياس: إن من شروط فصاحة الكلمة أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ويدخل في هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة.

لقد أخذ المبرد على الشعراء بعض المآخذ فيما يخص وزن الكلمة ومخالفتها للقياس المتواضع عليه، منها قول الفرزدق[27]:

وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيد رَأَيْتَهُم   خُضَّعَ الرِّقَاب نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ.

يقول المبرد: "وفي هذا البيت شيء يستطرفه النحويون وهو أنهم لا يجمعون ما كان من فاعل نعتا على فواعل لئلا يلتبس بالمؤنث، لا يقولون ضارب وضوارب، وقاتل و قواتل ... ولم يأت ذا إلا على حرفين أحدهما قولهم في جمع فارس فوارس لأن هذا مما لا يستعمل في النساء فأمنوا اللبس، يقولون في المثل هو هالك في الهوالك، فأجروه على أصله لكثرة الاستعمال لأنه مثل، فلما احتاج الفرزدق للضرورة أجراه على أصله فقال نواكس الأبصار ولا يكون مثل هذا أبدا إلا في الضرورة"[28].

وقد عد سيبويه قول الفرزدق نواكس من باب الضرورة ثم خرج للضرورة وجها وهو أنه جعلها من باب التأنيث على تقدير جماعة الرجال، فقال لأنك تقول هي الرجال[29].

ولكن الباحث عبد الواحد علام ينظر إلى بيت الفرزدق هذا نظرة فنية ويقول: "فإن من الأفضل ألا نقيد الشاعر على وجه الخصوص بضرورة اتباع القياس فضلا على أن هذا القياس لا يحظى بإجماع اللغويين القدامى أنفسهم، فإن الشاعر قد يلجأ إلى صيغة تعد مخالفة لتحقيق أمر يناسب الموقف ويلائم السياق، ولنأخذ مثلا بيت الفرزدق السابق وقد جمع فيه ناكس على نواكس لنرى أن الفرزدق ربما قصد إلى ذلك قصدا، فهؤلاء الرجال إذا ما رأوا الممدوح يصبحون

---

(27) ديوان الفرزدق: ص266

(28) الكامل: 58/2

(29) ينظر الكتاب، سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق و شرح عبد السلام محمّد هارون، دار الجيل بيروت، ط1، دت 3 /633.

في حال من الذلة والخنوع أو كما عبر عنهم خضع الرقاب ونواكس الأبصار وتلك حال تعتري النساء حين يرين رجالا "[30].

ولا يمكن قبول تعليل الباحث علام ولو أراد الشاعر ذلك لأفصح عنه وما وقع فيه الشاعر إما أن يكون من باب الضرورة أو أنه أراد رقابهم خضع وأبصارهم نواكس.

وذكر المبرد أن محمد بن يسير أخطأ في قوله:

وَ لَوْ قَنَعْتُ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَةٍ إِنَّ القُنُوعَ الغِنَى لاَ كَثْرَةُ المَالِ

"لأن القنوع إنما هو السؤال والقانع السائل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ**﴾[31]. فالمعتر الذي يتعرض ولا يسأل، يقال قنع يقنع قنوعا إذا سأل، فهو قانع لا غير، وإذا رضي قيل: قَنِعَ قَنَاعَةً فهو قَنِعٌ وقَانِعٌ جميعا"[32].

و لكننا نجد في القاموس المحيط: "القنوع السؤال والتذلل والرضي بالقسم ضد"[33]، وما دام لهذه الكلمة أصل صحيح في هذا الاستعمال فإننا نقبلها و نعتبرها فصيحة.

ويروي المزرباني أن المبرد قال: "كان أبو العتاهية مع اقتداره في قول الشعر وسهولته عليه يكثر عثاره، وتصاب سقطاته وكان يلحن في شعره ... فمما أخطأ فيه قوله[34]:

ولربما سئل البخيل الشيء لا يسوي فتيلا

لأن الصواب لا يتساوى، لأنه من ساواه يساويه"[35].

ولكنه قد ورد في اللسان أن "يسوي لغة نادرة كما أن هناك من يرجح أن تكون هذه اللغة أهل الحجاز في يساوي، وإن كان كثيرون أنكروها"[36]، والذي يظهر لي أنه ليس هناك مستند قوي لما ذهب إليه الذين عدوها لغة، ولم يستشهدوا على ذلك بشواهد قوية، لذلك أرى

---

(30) قضايا ومواقف في التراث البلاغي، عبد الواحد علام، مكتبة الشباب، دط، دت: ص36.

(31) سورة الحج: الآية36.

(32) الموشح: ص299.

(33) القاموس المحيط، محمد يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، ط2، 1407هـ/1987م : ص756 .

(34) ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1406 هـ/1986م، و البيت لم أجده في الديوان.

(35) الموشح: ص 262.

(36) لسان العرب، لابن منظور(630هـ/711هـ)،طبعة جديدة مصححة ومنقحة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط3، 1419هـ/1999م مادة سوى: 444/6.

أن أبا العتاهية قد استعمل كلمة من غير الفصيح، أو استعمل كلمة من كلام العامة ربما لأن أبا العتاهية كان ينزل بمعاني شعره إلى العامة كثيرا وهنا نزل به لفظا ومعنى.

2- **تشويه بنية الكلمة وسوء استعمالها:**

أ- تشويه بنية الكلمة: وفي مجال بنية الكلمة وصيغتها نذكر نزول فصاحة علي بن جهم عند المبرد وكان يعده من الفصحاء إذ سمعه في مجلس محمد بن عيسى بن عبد الرحمان الكاتب يقول عند انصرافه: "إنه بلغني شيء وأظنني مأزور في قعودي، فقال المبرد: نقص في عيني وإنما هو موزور"[37].

ويروي المزرباني عن المبرد أن رجلا قال لأخيه:" إني قد قلت شعرا قال أنشدنيه، فقال:

هل تعرف الدار بالقفيننا

قال أخوه: الدار ذكرتها الشعراء، والقفيننا لعله موضع، وأنه على ذلك سمج ردئ قال: أبكيننا فأحزيننا. فقال أخوه: عتق ما أملك أن زدت آخر إن لم أطرحك في البئر"[38].

ولا أرى في مثل هذا الشعر، إذ صح أن نسميه شعرا، إلا عيا وعدم فصاحة.

ب- **سوء استعمالها:**

اعتنى المبرد عناية شديدة بملاءمة الألفاظ، حتى ليرهف سمعه لما يقع غير متلائم، فقد ذكر أبياتا لابن أبي عينة، جاء فيها هذا البيت:

وَ لاَ أَتَتْ سَاعَةٌ فِي الدَّهْرِ فَانْصَرَمَتْ حَتَّى تُؤَثِّرُ فِي قَوْمٍ لهَا أَثَرا

ثم قال: "فانصرفت أشبه للمطابقة، والمشهور انصرمت" [39]. كأنه يقول إن (انصرف) هي التي تقابل (أتى)، وهذه رهافة حس، وقد كان الأوائل ينبهون إلى مثل هذا.

ولما كان للصوت دور في فصاحة المتكلم، فقد تنبه المبرد لهذا الأمر حيث قال: "الصوت الرائع أنس لمن أنس به"[40].

والصوت قد تستلذ النفس سماعه وقد تكرهه، فإذا سلم من الصفير مثلا، كان فوق الكلام الذي يعتوره الصفير، مثال ذلك قول المبرد: "وخطب الجمحي، وكان منزوع إحدى

[37] الموشح: ص345.

[38] المصدر نفسه: ص570.

[39] الكامل: 14/2.

[40] المصدر نفسه: 165/2.

الثنيتين، وكان يصفر إذا تكلم، وأجاد الخطبة، وكانت لنكاح، فرد عليه زيد بن علي بن الحسين كلاما جيدا، إلا أنه فضله بتمكين الحروف وحسن مخارج الكلام، فقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر يذكر ذلك:

صَحَّتْ مَخَارِجُهَا وَتَمَّ حُرُوفُهَا   فَــلَهُ بِذَلِكَ مِزْيَةٌ لاَ تُنْكَرُ"[41].

ولا ريب أن ما لاحظه المبرد في القرن الثالث الهجري قد ذكره الخطيب القزويني في الفصاحة حين ذكر شروطها المعروفة في الكلمة بأن تبرأ من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي ثم يردف ذلك بقوله: "وقيل هي خلوصه مما ذكر و من الكراهة في السمع بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة فإن اللفظ من قبيل الأصوات والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه، ومنها ما تكره سماعه"[42].

وكان العرب القدماء يحبذون الصوت المجهور على غيره، والشواهد التي أوردها المبرد في هذا الباب كثيرة منها:

"وأما قول الشاعر:

حَدِيثُ بَنِي بَدْرٍ إِذَا مَا لَقِيتَهُم   كَنْزِو الدَّبَى فِي العَرْفَجِ المتَقَارِبِ

فليس كقوله: "وشعر كبعر الكبش"، ولكنه وصفهم بضؤولة الأصوات وسرعة الكلام وإدخال بعضه في بعض. والذي يحمد الجهارة والفخامة.

وأنشدت لرجل قال يمدح الرشيد:

جَهِيرُ الكلاَمِ جَهِيرُ العُطاَسِ   جَهِيرُ الرُّوَاءِ جَهِيرُ النَّغَمِ"[43].

و لأهمية الصوت وأثره في السامع يورد المبرد أمثلة تبين أثره رغم أن السامع قد لا يفهم المعنى المقصود فيقول:

قال حميد بن ثور يصف حمامة[44]:

---

(41) الكامل: 3/194-195.

(42) شروح التلخيص، وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، وقد وضع بالهامش "كتاب الإيضاح لمؤلف التلخيص جعله كالشرح له وحاشية الدسوقي شرح للسعد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت: 89/1.

(43) الكامل :163/2.

(44) ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة عبد العزيز الميمني، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط1، 1371هـ/1951م:27.

عَجَبْتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ غِنَاؤُهَا فَصِيحًا وَلَمْ تَفْغَرْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
فَلَمْ أرَ مَحْزُونًا لَهُ مِثْلُ صَوْتِهَا وَلاَ عَرَبِياًّ شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا

قوله: " لم تفغر بمنطقها فما، يقول ولم تفتح، يقال: فغراه، إذا فتحه وقوله:

ولا عربيا شاقه صوت أعجما.

يقول: لم أفهم ما قالت، ولكني استحسنت صوتها واستحزنته، فحننت له، ويروى بعض الصالحين كان يسمع الفارسية تنوح ولا يدري ما تقول، فيبكيه ذلك ويرققه، ويذكر به غير ما قصدت له.

كما قال أيضا: وحدثت أن بعض المحدثين سمع غناء بخراسان بالفارسية فلم يدر ما هو، غير أنه شوقه لشحاه وحسنه"[45]، فقال في ذلك[46]:

شَكَرْتُكَ لَيْلَةً حَسُنَتْ وَ طَابَتْ أَقَامَ سُرُورُهَا وَمَضَى كَرَاهَا

فصاحة المتكلم:

فصاحة المتكلم ملكة يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح، وتكون هذه القدرة على التعبير ملازمة له وراسخة فيه.

و تكتسب ملكة الفصاحة عن طريق التمرس والتدريب، جاء عن المبرد أنه قال: "إنه يقال: إن اللسان إذا كثرت حركته، رقت عذبته(*)"[47]. ربما كان يقصد "إذا كثر تقليب اللسان رقت جوانبه ولانت عذبته"[48]. وروى عن الجاحظ في هذا المعنى قولا: "حدثني أبو عثمان الجاحظ قال: قال لي محمد الجهم: لما كانت أيام الزط أدمنت الفكر، وأمسكت عن القول، فأصابتني حبسة(*) في لساني" [49].

---

[45] الكامل: 126/3

[46] شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قدمه ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ط2، 1414هـ/1994م::ص267

(*) عذبته: بالتحريك طرفه الدقيق: رغبة الآمل من كتاب الكامل، سيد بن علي المرصفي ،الفاروق الحديثة للطباعة والنشر القاهرة ، دط، دت:128/4،

[47] الكامل: 20/2، وفي موضع آخر من الكامل نسب القول إلى ابن المقفع حيث قال: "وقال ابن المقفع:"إذا كثر تقليب اللسان رقت جوانبه ولانت عذبته" الكامل: 222/2

[48] الكامل: 222/2.

(*) حبسة/ تعذر الكلام عند إرادته، الكامل: 221/2، وينظر البيان والتبيين: 39/1.

[49] الكامل: 20/2.

وفي موضع آخر من الكامل وردت هذه الرواية بصياغة أخرى: "وزعم عمرو بن الجاحظ عن محمد بن الجهم قال: أقبلت على الفكر في أيام محاربة الزط فاعترتني حبسة في لساني، وهذا يكون لأن اللسان يحتاج إلى التمرين على القول، حتى يخف له، كما تحتاج اليد إلى التمرين على العمل، والرجل إلى التمرين على المشي، وكما يعانيه موثر القوس ورافع الحجر، ليصلب ويشتد، قال الراجز:

كَأَنَّ فِيهِ لَفَفًا إِذَا نَطَقْ مِنْ طُولِ تَحْبِيسٍ وَهَمٍّ وَأَرَقْ"[50].

وقال أيضا: "وقال رجل من الأعراب يذكر آخر منهم:

كَأَنَّ فِيهِ لَفَفًا[*] إِذَا نَطَقْ مِنْ طُولِ تَحْبِيسٍ وَهَمٍّ وَأَرَقْ" [51].

ومن الروايات التي رواها أيضا المبرد في هذا الصدد قول رجل لخالد بن صفوان[*]: "إنك لتكثر، فقال: أكثر لضربين: أحدهما فيما لا تغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان، فإن حبسه يورث العقلة[*]" [52]. وقول آخر لخالد جاء فيه: "فإنما اللسان عضو إذا مرنته مرن، وإذا أهملته حار، كاليد التي تخشنها بالممارسة، والبدن الذي تقويه برفع الحجر وما أشبهه، والرجل إذا عودت المشي مشت"[53]. وقال العتابي: "إذا حبس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف"[54].

كل هذه الروايات تدل على ما للدربة من أهمية كبرى في تفوق الخطباء والبلغاء وبروز أدبهم على هيأة تسمح بتصنيفهم في طبقات ومنازل.

والجاحظ أستاذ المبرد ذكر أن الذين وقعوا من "البيان" في أعلى مرتبة لأول عهدهم به شواذ تتأكد بوجودهم القاعدة، فأمام كل كاتب وبليغ طريق طويلة مفتتحها "أيام الرياضة"

---

[50] الكامل: 222/2.

[*] لففا: إدخال حرف في حرف، الكامل للمبرد: 221/2، وفي البيان والتبيين: "إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف": 38/1.

[51] الكامل: 20/2.

[*] خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم المنقري ذلك الخطيب المفوه البليغ ذكر الجاحظ أنه كان من سمار أبي العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان أبوه صفوان وعمه عمرو بن الأهتم وابن عمه المؤمل بن خاقان بن الأهتم خطباء بلغاء، رغبة الآمل في كتاب الكامل: 128/4.

[*] العقلة: التواء اللسان عند إرادة الكلام، الكامل للمبرد: 221/2 وينظر البيان والتبيين: 39/1.

[52] الكامل: 20/2.

[53] المصدر نفسه: 222/2.

[54] المصدر نفسه: 222/2.

وطرفها يوم يتوقع وتستجيب له المعاني ويتمكن من الألفاظ، فيستحق إذ ذاك نعت "البليغ التام": "ويقال إنهم لو يروا خطيبا قط بلديا إلا وهو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفا أيام رياضته كلها، إلى أن يتوقح وتستجيب له المعاني ويتمكن من الألفاظ، إلا شيب بن شيبة، فإنه كان قد ابتدأ بحلاوة ورشاقة، وسهولة وعذوبة، فلم يزل يزداد حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره"[(55)].

وأثر الجاحظ في المبرد واضح عند الحديث عن آفات اللسان حيث أنه ذكر من الآفات التي تعترض اللسان فتبعد صاحبه عن الفصاحة في الكلام اللثغة[(*)]. وقد أشار إليها المبرد عند حديثه عن فصاحة الخطيب واصل بن عطاء حيث روى عنه أنه كان من الأعاجيب "وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة في الراء[(*)]. فكان يخلص كلامه من الراء، ولا يفطن بذلك لاقتداره وسهولة ألفاظه، ففي ذلك يقول شاعر من المعتزلة، يمدحه بإطالته الخطب واجتنابه الراء، على كثرة ترددها في الكلام، حتى كأنها ليست فيه:

عَلِيمٌ بِإِبدَالِ الحُرُوفِ وَقَامِعُ لِكُلِّ خَطِيبٍ يَغْلِبُ الحَقَّ بَاطِلُهُ.

وقال آخر:

وَيَجْعَلُ البُـرَّ قَمْحًا فِي تَصَـرُّفِهِ وَخَالَفَ الرَّاءَ حَتَّى احْتَالَ لِلْشِّعْرِ

وَلَمْ يُطِقْ "مَطَرًا" وَالقَوْلُ يَعْجِلُهُ فَعَاذَ بِالْغَيْثِ إِشْفاقًا مِنَ المـطَرِ"[(56)].

ولشدة إعجاب المبرد بواصل بن عطاء لاجتنابه حرف الراء "واجتناب الحروف شديد"[(57)]، لأنه يتطلب مقدرة عالية، حكى المبرد عنه قوله عندما ذكر بشارا: "أما لهذا الأعمى المكني بأبي معاذ من يقتله أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، ثم لا يكون إلا سدوسيا أو عقيليا"[(58)].

---

(55) البيان والتبيين: 112/1-133.

(*) اللثغة: أن يعدل بحرف إلى حرف، الكامل للمبرد: 221/2.

(*) قبيح اللثغة في الراء: ذكر الجاحظ في بياته أن اللثغة في الراء يعرض لها أربعة أحرف فمنهم من يجعلها ياء يقول في عمرو عمي ومنهم من يجعلها غينا فيقول عمغ ومنهم من يجعلها ذالا فيقول عمذ ومنهم من يجعلها ظاء فيقول عمظ ، فأما اللثغة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء وسليمان بن يزيد الشاعر فليس إلى تصويرها سبيل يريد أنها كانت شنيعة جدا. ينظر البيان والتبيين للجاحظ: 14/1 و34-35.

(56) الكامل: 193/3.

(57) المصدر نفسه: 194/3.

(58) المصدر نفسه وينظر البيان والتبيين: 16/1.

وشرح المبرّد تجنبه للراء في هذا القول قائلا: فقال: "هذا الأعمى ولم يقل بشارا، ولا ابن برد، ولا الضرير، وقال: من أخلاق الغالية ولم يقل المغيرية ولا المنصورية، وقال: لبعثت إليه، ولم يقل: لأرسلت إليه، وقال: على مضجعه، ولم يقل: على فراشه، ولا مرقده، وقال: يبعج، ولم يقل يبقر، وذكر بنى عقيل، لأن بشارا كان يتوالى إليهم، وذكر بنى سدوس، لأنه كان نازلا فيهم"[59].

كما ذكر المبرد آفتين قد يصيبان اللسان هما التمتمة والفأفأة.

"وقال آخر أيضا[*]:

لَيْسَ بِفَأْفَاءٍ[**] وَلاَ تَمْتَامٍ[***]   وَلاَ مُحِبٍّ سَقِط الكَلاَمِ"[60].

والرجل إذا ردد الكلمة حتى يصلها بأخرى سماه المبرد اللجلاج: "يقال للعيي: لجلاج وقد يكون من الآفة تعتري اللسان."[61]

والعرب كانت إذا رغبت في تحقيق شيء اتخذت له أسبابه ووسائله، وخاصة إذا كان المرغوب في تحقيقه هو البلاغة والبيان فقد اشترطوا في الفصيح أن تكون آلاته المؤدية للكلام خالية من كل عيب خاصة اللثغة والفأفأة والتمتمة، واللجلجة والحبسة، من ذلك أننا نجد الجاحظ يخصص فقرات طويلة من كتابه (البيان والتبيين) لأثر الأسنان في البيان وفي الكلام، يقول: "قال سهل بن هارون: لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف، وتكميل آلة البيان لما نزع ثناياه"[62].

إن معرفة العرب للعيوب اللسانية وعدهم لها منذ عصر مبكر يدل على أنهم عرفوا جيد الكلام، وعرفوا خصائصه، كما عرفوا قبيحه وعيوبه، وميزوا بين الرفيع السامي من الكلام والرذل المجفوُّ، وكان لكل كلام عندهم طبقة ولكل ميزة أو عيب اسم. ولقد سبق المبرد في معرفة هذه العيوب وشرحها أستاذه الجاحظ الذي أولى التلفظ أهمية كبرى في كتابه البيان والتبيين.

---

[59] الكامل:194/3

[*] البيت منسوب في البيان والتبيين إلى أبو الزحف.

[**] الفأفأة: التردد في الفاء، الكامل للمبرد: 221/2 وفي البيان والتبيين: تتعتع اللسان في الفاء، فهو فأفأة: 38/2.

[***] التمتمة: التردد في التاء، الكامل للمبرد: 221/2 وفي البيان والتبيين: إذا تتعتع اللسان في التاء فهو التمتام:37/2.

[60] الكامل: 222/2.

[61] المصدر نفسه: 14/1.

[62] البيان والتبيين: 69/1.

شروط فصاحة الكلام:

1- ضعف التأليف:

إن البلاغيين المتأخرين قد عدو ما خالف القاعدة النحوية المشهورة مخلا بالفصاحة[63]، وبما أن المبرد نحوي بالدرجة الأولى فقد تنبه لعثرات الشعراء النحوية وأشار إليها.

يقول المبرّد عن قول حسان بن ثابت[64]:

فَلَوْ كَانَ مَجْدًا يَخْلُدُ اليَوْمَ وَاحِدًا   مِنَ النَّاسِ أبْقَى مَجْدَهُ اليَوْمَ مُطْعِمَا

"وهذا البيت رديء عند أهل العربية، وهو أنه قدم المكنى على الظاهر ومثله ربما جاز في الضرورة"[65].

ونقل عن المبرد قوله: "كان أبو نواس لحانة فمن ذلك قوله[*]:

فَمَا ضَرَّهَا أَلاَّ تَكُونَ لِجَرْوَلِ   وَلاَ المزْنِي كَعْبٍ وَلاَ زِيَادِ

لحن في تخفيفه ياء النسب في قول: "المزني" في حشو الشعر، وإنما يجوز هذا ونحوه في القوافي"[66].

وعاب المبرد قول أبي العتاهية[67]:

وَاللهُ رَبِّ مِنيَ وَالرَّاقِصَــاتِ بِهَــا   لأَشْكُرَنْ يَزِيدًا حَيْثُـمَا كُنْتُ

مَا قُلْتْ فِي فَضْلِهِ شَيْئًا لأَمْدَحُهُ   إِلاَّ وَفَضْلُ يَزِيدٍ فَوْقَ مَا قُلْتُ

لأنه "صرف يزيد في موضعين لولم يصرفه فيهما لاستقام الشعر بزحاف قبيح"[68].

وروى الأخفش عن المبرد أنه قال: "أنشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه:

وقد مضت لي عشرونان ثنتان.

فقلت له يا أمير المؤمنين هذا لحن لأن إعرابا لا يدخل على إعراب"[69].

---

(63) ينظر البلاغة الاصطلاحية، عبده قليقلة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3 ، 1412هـ/1992: ص26.

(64) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه أ.عبد مهنّا،ط2 ،دار الكتب العلمية،بيروت، 1414 هـ/1994م: ص235

(65) الموشح: ص84.

(*) ديوان أبي نواس، اسكندر أصاف،ط1 ،طبع بالمطبعة العمومية،مصر،1898م: ص74.

(66) الموشح: ص68.

(67) ديوان أبي العتاهية: ص104.

(68) الموشح: ص262.

(69) المصدر نفسه: ص357.

إن هذا من العي وضعف الفصاحة، إذ لا داعي لهذا، فلو قال: أربعون لكان أولى.

2- خلو الكلام من التعقيد:

أ– التعقيد اللفظي: هو أن يكون الكلام "خفي الدلالة على المعنى لخلل واقع في نظمه وتركيبه بحيث لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم أو تأخير، أو فصل أو حذف أو نحو ذلك مما يترتب عليه صعوبة فهم المعنى المراد"[(70)].

إن لترتيب الكلمات في الجملة أثرا كبيرا جدا في فهم المعنى ووضوحه، لذلك لا نعجب من اهتمام النحاة بهذه المسألة، وبيانهم لموقع كل من الفعل والفاعل والمعمولات، وموقع المبتدأ و الخبر، وما يجوز تقديمه من ذلك وما لا يجوز، ولا نعجب من البلاغيين حينما اشترطوا لفصاحة الكلام خلوه من التعقيد اللفظي وهو سوء ترتيب الكلمات في النص.

وكان الفاروق ﷺ أول من عاب التعقيد اللفظي، وذلك عندما أثنى على زهير بقوله: "كان لا يعاظل بين القول ..." [(71)].

وإن كان العلماء اختلفوا في تفسير معنى المعاظلة في قول عمر ﷺ، إلا أني أرجح رأي من ذهب إلى أن المراد بها سوء ترتيب الكلام كقول الأمدي عن المعاظلة: "هي مداخلة الكلام بعضه في بعض، وركوب بعضه لبعض، كقولك: تعاظل الجراد، وتعاظلت الكلاب"[(72)].

وأشهر بيت يستشهد به في هذا المضمار ما ورد في الكامل، حيث يقول فيه المبرد: "ومن أقبح الضرورة، وأهجن الألفاظ، وأبعد المعاني قوله: يعني الفرزدق[(*)]:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكَا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ.

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، و هو خال هشام بن عبد الملك، فقال: *وما مثله في الناس إلا مملكا* يعني بالمملك هشاما، أبو أم ذلك المملك أبو هذا الممدوح، ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحا، وكان يكون إذا وضع الكلام في موضعه أن يقول: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملك، أبو

---

(70) البلاغة الاصطلاحية: ص27.

(71) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، 1952م: 63/1.

(72) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، دراسة وتحقيق عبد الله حمد محارب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1410هـ - 1990م: 293/1.

(*) البيت غير موجود في الديوان.

أم هذا المملك أبو هذا الممدوح، فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد، وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير، حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل واحد مع قوله حيث يقول:

تَصَرَّمَ مِنِّي وُدُّ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَمَا كَادَ مِنِّي وُدُّهُمْ يَتَصَـرَّمُ
قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَيَحْتَقِرُونَـهَا وَقَدْ يَمْلأُ القَطْرُ الإِنَا فَيَفْعَمُ

وكأنه لم يقع ذلك الكلام لمن يقول:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْـلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَـارُ

فهذا أوضح معنى، وأقرب مآخذ"[73].

فالمبرد لاحظ ما في البيت من تعقيد سببه ما فيه من تقديم وتأخير وانفصال الكلام بعضه عنم بعض، فالمبتدأ منفصل عن الخبر، والنعت منفصل عن المنعوت، والمستثنى لم يعقب المستثنى منه، كل هذا واضح من كلام المبرد حين وضع الكلام في موضعه، وفسر معنى البيت بما يقتضيه مراد الشاعر.

و لقد أصبح هذا البيت متداولا لدى المتأخرين كلما تحدثوا عن التعقيد اللفظي.

ب- **التعقيد المعنوي**: هو أن يكون الكلام "خفي الدلالة على المعنى المراد لخلل في انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم من اللفظ لغة، إلى المعنى الثاني المقصود، بحيث يكون إدراك المعنى الثاني من الأول بعيدا عن الفهم يحتاج إلى تكلف، بسبب استعمال اللفظ في معنى مخالف للمعنى الأول"[74].

وقد فرق المبرد بين هذا النوع من الكلام المعقد الغامض، وبين الكلام المبسوط الواضح، ويعقد في ذلك مقارنة بين بيت العباس بن الأحنف المشهور في كتابه البلاغة[75]:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمُ لِتَقْرَبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجَمَدَا

والذي يشرحه بقوله: "أغترب فأكسب ما يطول به مقامي معكم، وقربي منكم"[76].

---

(73) الكامل: 1/28-29.

(74) البلاغة الاصطلاحية: ص28.

(75) ديوان العباس بن الأحنف، شرح و تعليق عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1373هـ/1954م: ص106.

(76) البلاغة، أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، حققها وقدم لها ووضع فهارسها رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 1405هـ / 1985م: ص5.

وبين قول "روح بن قميصة[*]، وهو واقف على باب المنصور في الشمس، فقال ليطول وقوفي في الظل"[77]، ويعقب المبرد على ذلك بقوله: "فهذا كلام مكشوف واضح كانكشاف كلام الربيع"[78].

فهو يشبه الكلام الواضح بكلام الربيع في الحسن والجمال، وإنه أفضل من الكلام الغامض المعقد لأي سبب كان، فالمبرد يرى في بيت عباس بن الأحنف شيئا من الغموض، لأن الشاعر "لم يوفق في أداء المعنى الذي أراده من هذا اللفظ على وجه صحيح، ذلك أنه أراد أن يكنى عما قصده بكنايتين، أصاب في إحداهما، وأخطأ في الأخرى، وتوضيح ذلك هو أنه كنى بسكب الدموع عما يوجبه فراق الأحبة من الحزن والكمد، وهذا صواب: لسرعة فهم الحزن من سكب الدموع، ثم كنى عما يوجبه اجتماع شمله بأحبته من السرور والابتهاج.

نقول: كنى عن ذلك بجمود عينيه، وهذا خطأ: فجمود العينين إنما هو جفافهما من الدمع عند الدافع إليه، أي أن جمودهما إنما هو بخلهما بالدمع وقت الحاجة إليه، لاما أراداه من السرور"[79].

فالمبرد إذن قد تحدث عما سمى فيما بعد بالتعقيد المعنوي والتعقيد اللفظي، والبيتان اللذان ساقهما في هذا الصدد هما البيتان اللذان يترددان في كتب البلاغة عند المتأخرين كأن الأدب العربي كله قد خلا من أمثلة التعقيد بسقيه، ولم يكن فيه غير هذين البيتين فحسب.

ثالثا: مواطن الفصاحة:

أثناء حديث المبرد عن الفصاحة كشف عن العصبية القبلية: "وحدثني هارون بن عبد الله المهلبي، قال حدثني نصر بن علي بن عبد الله عن أبيه وكان أبوه قرين سيبويه، قال سمعت الخليل بن أحمد يقول: أفصح الناس أزد السراة"[80].

---

[*] روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الأزدي، أمير من الأجواد الممدوحين، ولاه الرشيد على القيروان سنة 171هـ فاستمر إلى أن مات فيها سنة 174هـ/ 791م، كان موصوفا بالعلم والشجاعة والحزم، ينظر الأعلام: 34/3.

[77] البلاغة للمبرد: ص 86.

[78] المصدر نفسه: ص 86.

[79] البلاغة الاصطلاحية: ص 28-29.

[80] الفاضل: ص 113.

ولا يخلو هذا الكلام من عصبية قبلية فالمبرد أصله أزدي يمنى، وحتى في كلامه عن مواطن الفصاحة نجد إشارة إلى الأزد يقول: "وحدثني هارون عن نصر بن علي بن الأصمعي قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: أفصح الناس سافلة قريش وعالية تميم، قال: وكنا نسمع أصحابنا يقولون: أفصح الناس تميم وقيس وأزد السراة وبنو عذرة"[81].

وعرض أمرا أراه غريبا، هذا الأمر مؤداه إلى أن هناك قرينة بين الفصاحة في الكلام والتأنق في اللباس، قال: "وحدثني علي بن القاسم الهاشمي قال: رأيت قوما من أزد السراة لم أر أفصح منهم، وكانوا يلبسون الثياب المصبغة، قلت لأحدهم: ما حملك على لبس المصبغ؟ قال: ابتغاء الحسن"[82].

فهل هناك علاقة بين الفصاحة في الكلام والتأنق في اللباس؟ أم أن ابتغاء الجمال في الكلام ينعكس أثره على التأنق في الرداء؟ إنها لفتة ذكية من المبرد للكلام عن الجمال في الجوهر والشكل، وإن كان الجاحظ قد تحدث قبله عن سمت الخطب وهيئته، وأثر ذلك في إقناع السامع والتأثير فيه.

ومن مقتضيات الفصاحة الالتزام بالنموذج القرشي في مستوى المعجم و كيفية الأداء و النطق.

أما المعجم فنموذجه الأسمى "القرآن"، وعلى قدر مجاراة الكلام لألفاظه يكون حظه من الفصاحة والبلاغة، والارتكاز على فكرة المجاراة يقلل من أهمية ارتباط الفصاحة بالمكان وقرب المتكلم من مهبط الوحي، يدل على ذلك هذه الرواية: "قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن مناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون القدر برمة، وتجمعون البرمة على برام، ونحن نقول قدر ونجمعها على قدور، وقال الله عز وجل: ﴿**وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ**﴾[*] ، وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت

---

[81] الفاضل: ص113.

[82] المصدر نفسه: ص 113.

[*] سورة سبأ: الآية 13.

عليّة، وتجمعون هذا الاسم على علالي، ونحن نسميه غرفة وتجمعها على غرفات وغرف وقال الله تبارك وتعالى: ﴿**غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ**﴾(**) . "[83].

أما الأداء فإن "قريش" عرفت ببلاغة المنطق حتى غدت مضرب الأمثال في جهارة الصوت وحلاوة النغمة، فكانوا إذا أرادوا الإشارة إلى فصاحة خطيب قالوا: أشبه قريش نغمة وجهارة (فلان). زد على ذلك أن طريقتها في اللفظ خالية من الشوائب التي علقت بنطق بعض القبائل الأخرى ولذلك عدّ أهلها أفصح الناس.

رابعا:أثر البيئة في الفصاحة:

لم يكن العلماء الأقدمون يعتقدون أن الفصاحة العربية يرثها العربي في لبان أمه، وفي دمه، أو أنها مرتبطة بالبداوة، إذ لا شيء يثبت علميا أن هناك علاقة سببية بين العرق واللسان، فكل ولد يستطيع أن يكتسب لسان أي قوم حتى يصبح هذا اللسان لغة له، شريطة أن يكون ذلك فور ولادته وأن يعيش فيهم طويلا.

والمبرد لم يعد الفصيح هو ذلك العربي الأصيل فقط، بل نجده يعترف بأن كل من نطق العربية بالشكل الصحيح وتعاطي الشعر هو فصيح دليلنا على ذلك أنه حينما "حقر جرير عرضا من شأن الزنج في قصيدة تهكم فيها بالأخطل قال فيها[84]:

لاَ تَطْلُبَنَّ خَؤُولَةً فِي تَغْلِبٍ   فَالزَّنْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمُ أَخْوَالاَ.

انبرى له رياح بن سنيح الزنجي مولى بني ناجية للرد عليه بقصيدة مشهورة معروفة تغنى فيها بمدح بني جلدته وعد أبطالهم وشعرائهم قال فيها:

وَالزَّنْجُ لَوْ لاَقَيْتَهُمْ فِي صَفِّهِمْ   لاَقَيْتَ ثَمَّ جَحَاجِحًا أَبْطَالاَ
مَا بَالُ كَلْبِ بَنِي كُلَيْبٍ سَبَّهُمْ   إِنْ لَمْ يُوَازِنْ حَاجِبًا وَعِقَالاَ"[85].

ولكي يحقر رياح جريرا، مدح في قصيدته خصمه بكلمات المدح التالية:

إِنَّ الفَرَزْدَقَ صَخْرَةٌ عَادِيَةٌ   طَالَتْ فَلَيْسَ تَنَالُهَا الأَجْيَالاَ[86].

(**) سورة الزمر: الآية 20.

(83) البيان والتبيين:1/18-19.

(84) ديوان جرير: ص363

(85) الكامل: 223/2.

(86) المصدر نفسه: 295/2.

وقد وصف المبرد رياح بن سنيح الزنجي فقال: "وكان فصيحا"[87]. رغم أنه عاب عليه تأليفه للكلام، لأن التأليف الطبيعي يقضي: "طالت الأجيال وعلت فليس تنالها"[88]. لكن المبرد لم يرجع هذه الظاهرة إلى أصل الشاعر غير العربي، إذ وجده يعيب على الفرزدق أيضا رداءة التأليف مع ذلك كان يفضله على جرير[89]، ويذكر محاسنه كلما سنحت الفرصة لذلك، من ذلك ما رواه الرواة أنه قال: "الفرزدق يجيء بالبيت وأخيه، وجرير يجيء بالبيت وابن عمه"[90].

وها هو ذا عبيد الله بن زياد والي العراق يصفه المبرّد بأنه كان "كثير المحاورة، عاشقا للكلام الجيد، مستحسنا للصواب منه، لا يزال يبحث عن عذره، فإذا سمع الكلمة الجيدة عرج عليها ... وكان مع هذا ألكن[*] ، يرتضخ لغة فارسية، و قال لرجل مرة، واتهمه برأي الخوارج: أهرودي منذ اليوم"[91]، لأنه عاش مع أمه مرجانة- ويدل الاسم على أن أصلها غير عربي- "التي تزوجت الفارس شيرويه، وسمح لها أبوه، زياد بن أبيه أن تحتفظ بطفلها معها، لذلك كان عبيد الله ينطق الهاء بدلا من الحاء، والكاف بدلا من القاف، وأنه قال عن الأرض: است الأرض، وأمر الجنود يوما فقال لهم: افتحوا (أي سُلُّوا) سيوفكم، مما دعا ابن مفرغ الشاعر أن يسخر منه بقوله:

وَيَوْمَ فَتَحْتَ سَيْفَكَ مِنْ بَعِيدٍ　　أَضَعْتَ وَكُلُّ أَمْرِكَ لِلضَّيَــاعِ

ويروى أن معاوية أوصى زيادا، الذي كان خطيبا مفوها، أن يصلح من لسان ابنه"[92].

فالبيئة تؤثر في الفرد حتى إن حاول جهده، فعبيد الله رغم أن أصله عربي إلا أن حياته مع زوج أم فارسي غيرت من لهجته رغم حبه للعربية.

وقديما تملك الحسن البصري (ت 110) وهو ابن لأحد أسارى العرب من مدينة ميسان، أزمة العربية، بحيث كان رجال ضليعون كأبي عمرو بن العلاء ورؤبة، لا يجدون غضاضة في أن

---

(87) الكامل: 295/2

(88) المصدر نفسه: 295/2

(89) ينظر المصدر نفسه: 295/2

(90) الموشح: ص121.

(*) اللكنة: أن يتعرض على الكلام اللغة الأعجمية، الكامل: 221/2.

(91) الكامل: 258/3-259.

(92) الأمالي لأبي علي القالي، القاهرة، 1344هـ/ 1926م: 5/1.

يضعوه إلى جانب الحجاج، وكان تلاميذه المجتهدون يكتبون عبارات أستاذهم، لا لما تحتويه من علم فحسب، بل لصياغتها اللغوية كذلك[93].

وإذا كانت البادية من حيث هي موطن العربي الفصيح لا من حيث هي بادية كانت مرتعا للسليقة العربية، ومنبعا نقيا للفصاحة السليمة مما قد يشوبها من الخارج، فإذا اللغة العربية تجرى على لسانه، بغير أن يراعي إعرابها ولا أن يتكلف فيها التحسين والتدبيج، فإذا قدر له أن غادر ذلك الوسط، وخالط غير الفصحاء في لغته أسرعت إليه العجمة والخطأ، وذهبت سليقته، وكان لسانه مطاوعا له على النطق بأي حرف، وبأي لفظ.

والمبرد أكد لنا صحة هذه النظرية عندما أورد لنا واقعة جرت للحجاج: "نظر الحجاج فإذا جل من خرج مع عبد الرحمن، من الفقهاء وغيرهم من الموالي، فأحب أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب، ويخلطهم بأهل القرى والأنباط، فقال إنما الموالي علوج، وإنما أوتي بهم من القرى، فقراهم أولى بهم، فأمر بتسييرهم من الأمصار وإقرار العرب بها، وأمر أن ينقش على يد كل إنسان منهم اسم قريته، وطالت ولايته، فتوالد القوم هناك، فخبثت لغات أولادهم، وفسدت طبائعهم، فلما قام سليمان بن عبد الملك أخرج من كان في سجن الحجاج من المظلومين، فيقال إنه أخرج في يوم واحد ثمانين ألفا، ورد المنقوشين، فرجعوا في صورة الأنباط، ففي ذلك يقول الراجز:

جَارِيَةٌ لَمْ تَدْرِ مَا سَوْقُ الإِبِـلْ   أَخْرَجَهَا الحَجَّاجُ مِنْ كَنٍّ وَظِلْ
لَوْ كَانَ بَدْرٌ حَاضِرًا وَابْنُ جَمَلْ   مَا نُقِشَتْ كَفَّاكِ فِي جَلَدٍ جَلَلْ"[94].

لقد تنبه المبرد إلى دور الفصاحة وأهميتها، هذه الفصاحة التي ستصبح من المواضيع التي يوليها البلاغيون أهمية كبرى في مؤلفاتهم وطريقة من الطرق التي يستعملونها لتعريف البلاغة، ومنهم من سيخصصها بتأليف كامل يستعرض فيه أراء اللّغويين ويردها عليهم[95]. أو يطابق في الدلالة بينها و بين البلاغة[96].

(93) ينظر الكامل: 1/119-209-243 – 2/12-44.

(94) الكامل: 2/97.

(95) ينظر سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح القاهرة، 1389هـ: ص76

(96) ينظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، علق عليه، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة: ص35 - 36

المبحث الثاني: مصطلح البلاغة عند المبرد

أولا: مفهوم البلاغة:

يقول صاحب الإيضاح في تعريف البلاغة: "و أما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، و مقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، و مقام الإطلاق يباين مقام التقييد، و مقام التقديم يباين مقام التأخير، و مقام الذكر يباين مقام الحذف، و مقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب و المساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، و كذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب... فالبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب"[97].

ثانيا:مصطلح البلاغة عند المبرد:

إن البلاغة في عصر المبرد كانت مرتبطة بمفهوم واسع يشمل المتكلم والمخاطب والنص، ثم بدأ الاتجاه نحو خصائصها المتعلقة بالنص الفني، وقد مثل هذا الاتجاه المبرد الذي وإن لم يأت بجديد إلا أنه استطاع أن يتحول بمفهوم البلاغة تحولا كبيرا حين قصر دلالته على صفات العبارة الفنية وخصائص فن القول، فقال: "حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول"[98].

والمتصفح لهذا التعريف يلاحظ أن المبرد "لم يبتدع أي طرف من أطرافه فجميعها موجودة بلفظه أو بمعناه في المؤلفات السابقة وفي البيان والتبيين بوجه خاص إلا أن الطريف في الأمر أن المبرد قام بعملية تأليف بين مجموعة من التعريفات حتى يخرج حدا جامعا لأغلب المظاهر التي وقع التعرض إليها بصفة مفردة، ولذلك فإننا لم نقف قبله على تعريف يعادل تعريفه شمولا وإن كانت كل العناصر متوفرة في المادة السابقة"[99].

---

[97] الإيضاح للخطيب القزويني في المعاني و البيان و البديع، عبد المتعال صعيدي، المطبعة المحمودية بالأزهر مصر، 1353هـ/1935م: 26/1-27.

[98] البلاغة للمبرد: ص81.

[99] التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية، دط، 1981م: ص345.

وهذا التعريف اشتمل على عناصر إذا تآلفت بينها كونت مفهوما للبلاغة الحقة كما رآها المبرد، وهذه العناصر هي:

1- إحاطة القول بالمعنى:

إن وظيفة الكلام الأساسية هي الفهم والإفهام، ولقد أدرك القدماء ذلك، فقد جاء عن ابن المقفع قوله: " لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك"(100).

وإن لم يحط القول بالمعنى فقد الكلام مطلبا أساسيا فيه، وكي تتم هذه الإحاطة يجب مراعاة جملة من النّواميس اللّغوية التي تحتل محل الأساس في كل عملية تواصل لغوي مهما كان مستواها، وهذه النواميس هي: ملاءمة اللفظ للمعنى، وملاءمة الكلام للمتلقي، وملاءمة الكلام للحال أو المقام.

هذه العناصر عرفت على المستوى العملي منذ العصر الجاهلي وفي أقدم النصوص الأدبية التي وصلت إلينا، كما جاء القرآن الكريم ضاربا المثل الأعلى لها، والتزمها البيان النبوي حتى كانت من أبرز سماته، وتلقفها بشر بن المعتمر وجعل لها نصيب الأسد من الوصايا التي ضمنها صحيفته، وبدأت تأخذ مكانها في ثنايا تصور شامل للعمل الأدبي، ثم تلقفها الجاحظ ومن بعده المبرد.

أ- ملاءمة اللفظ للمعنى: لا يمكن إيصال المعنى المراد إلى السامع إلا إذا انتقينا اللفظ المناسب لهذا المعنى، لذا قال بشر بن المعتمر: "فمن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما"(101)، وذلك لأن "الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها، فما كان أقرب في تصويرها، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد، وأشد تحقيقا في الإيضاح عن المطلب وأعجب في وضعه، وأرشق في تصرفه، وأبرع في نظمه، كان أولى وأحق بأن يكون شريفا"(102).

(100) البيان والتبيين: 116/1.

(101) المصدر نفسه: 136/1.

(102) إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط4، 1977م: ص119 .

فكل سياق له ألفاظ تناسبه ولا ينوب فيه غيرها عنها، لذلك "ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأن لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث"[103].

و على هذا فإن لكل لفظة موقعا محددا في أداء المعاني، وقدرة الأديب تظهر في مدى حذقه في اختيار اللائق بالمعنى من الألفاظ.

كما يجب أن يلائم اللفظ الغرض المقصود من الكلام لأن "لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء "[104].

فالألفاظ أنواع كما أن الأغراض أنواع لذا ينبغي على الأديب كي تتحقق له اللياقة في التعبير أن يراعي اختيار اللفظ المناسب للغرض المراد.

و مما اختل فيه هذا المبدأ ما رواه المبرد عن أبي تمام حيث قال: "مما يعاب به أبو تمام قوله[*] :

تُثَفَّى الحَرْبُ مِنْهُ حِينَ تَغَلَّى   مَرَاجِلُها بِشَيْطَانٍ رَجِيـــمِ

فجعل الممدوح هو الشيطان الرجيم"[105].

إن الملاءمة بين اللفظ والمعنى احتلت مكانة مرموقة في الموروث البلاغي، وإن لم يفصل المبرد القول فيها إلا أننا نظن أنه كان على دراية تامة بها عندما عبر بقوله: "إحاطة القول بالمعنى" كيف لا وقد تتلمذ على يدي الجاحظ واطلع على صحيفة بشر وهضم كل ما جاء قبله من مؤلفات.

ب– الملاءمة بين الكلام والمتلقي: نادى القدماء من البلاغيين على ضرورة مراعاة المتكلم للمخاطب، لأن مدار الأمر كما يقول الجاحظ "على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم"[106].

---

(103) البيان و التبيين: 20/1.

(104) الحيوان: 39/3.

(*) شرح ديوان أبي تمام: 78/2

(105) الموشح: ص 306.

(106) البيان و التبيين: 93/1.

و يبدو أن الجاحظ يشير بمقدار الطاقة إلى زاد المخاطب اللّغوي ومنزلته في العلم، بينما يشير بـ "أقدار المنزلة" إلى رتبتيه في السلم الاجتماعي وحظه من الجاه والسلطان.

و يشترط في المتكلم أن "يكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة"[107]. لأن الناس أنفسهم طبقات ، والمطلوب من الأديب أن يكون ملما إلماما كافيا بطبقات الكلام بحيث "لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة"[108].

أي أن لكل طبقة معجما معرفيا خاصا بها، ولكل قوم ألفاظ تغلب عليهم ويعبرون بها، ولكل فن من فنون القول ألفاظ تسود، ويؤثر التعبير بما فيه، كنوادر المولدين مثلا تتطلب نوعا خاصا من الألفاظ لا يجوز أن تنأى عنها.

وعلى المتكلم أن يراعي الحالة النفسية لمخاطبيه، ومدى حرصهم على الاستماع منه، قال عبد الله بن مسعود: "حدث الناس ما حدجوك بأبصارهم، وأذنوا لك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك"[109].

والمبرد كان يعي هذا الأمر جيدا دليلنا على ذلك ما جاء في كتابه الفاضل حيث قال: "وقد أردنا أن نصل كتابنا بما شرطناه على أنفسنا من ذكر ما ينتفع به من يأخذه عنا، وينشره من ينسبه إلينا، وقد أتينا منه بعض ما أردنا وقصدنا، وكرهنا الإطالة، وخفنا على قارئه السأمة، وأشفقنا أن يبلغ به حد المجاوزة، فإن الإكثار سرف، كما أن التقصير عجز، ويروى عن بعض الحكماء، أنه قال: من أطال الحديث عرض أصحابه للسآمة وسوء الاستماع"[110].

كما قال في كتابه الكامل: "وهذا باب اشترطنا أن نخرج فيه من حزن إلى سهل، ومن جد إلى هزل، ليستريح إليه القارئ، ويدفع من مستمعه الملال"[111].

و قال أيضا: "نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئا، ليكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال بنفي الملل، لحسن موقع الاستطراف، ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل،

---

(107) البيان و التبيين: 92/1.
(108) المصدر نفسه: 92/1.
(109) المصدر نفسه: 104/1.
(110) الفاضل: ص 99.
(111) الكامل: 3/3.

ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس"[112].

وبالإضافة إلى هذه العناصر الضرورية التي يجب الانتباه إليها عند عملية التواصل، برز مظهر آخر من مظاهر ملاءمة الكلام للمتلقي ألا وهو ملاءمة الكلام لما ينتظره المتلقي، لأن الكلام إذا لم يحدث شيئا جديدا للمتلقي لم يلق قبولا ولم يحقق له البغية، ولأن المتلقى ينتظر دائما من الكلام شيئا جديدا يضيفه إلى رصيده المعرفي، ولعل هذا هو المبدأ الذي انطلق منه المبرد في الرد على اعتراض الكندي الذي رغم أن في الكلام حشوا.

فقد روى ابن الأنباري أنه قال: "ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: "إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: "عبد الله قائم"، ثم يقولون: "إن عبد الله قائم ثم يقولون: "إن عبد الله لقائم"، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم"، إخبار عن قيامه، وقولهم: "إن عبد الله قائم"، جواب عن سؤال سائل، وقوله: "إن عبد الله لقائم"، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني"[113].

فالمتكلم عليه أن يعدل كلامه وفق حال المخاطب ونوع الفائدة التي ينتظرها.

ج– الملاءمة بين الكلام والمقام: لا أحد يشك في قدرة السلف على وضع اليد على أدق خصائص اللغة الأدبية فضلا عن أبرزها كملاءمة الكلام للمقام، فقد عرفت منذ العصر الجاهلي والدليل على ذلك المثل الجاهلي المشهور "لكل مقام مقال"[114]، وقول الشاعر[115]

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَدَاكَ المِليكُ   فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالاَ

إن ملاءمة الكلام مع المقام عند البلاغيين القدماء يقصد به تكييف الكلام مع المقام من حيث الكيف أي الإيجاز والإطناب، وكان كل من الإيجاز والإطناب مظهرا بلاغيا في ظل مقولتي "المقام" و"المقال".

---

(112) الكامل: 2/285-286.

(113) دلائل الإعجاز: ص315.

(114) مجمع الأمثال، الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني، حققه وفصله وضبط غوانيه وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، 1374ه/ 1955م: 126/3 والمثل موجود في كتاب الحيوان للجاحظ: 201/1.

(115) الكامل: 192/2، ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان طه، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، القاهرة، 1378ه، ط1: ص222.

فعندما يقتضي المقام الإيجاز فالبلاغة في أن يأتي الكلام موجزا، وعندما يقتضي الإطناب فالبلاغة في أن يأتي الكلام مطنبا، فقد يكون الاتساع فيه أي الكلام "من باب الإيجاز، وقد يكون الكلام قصيرا، ومع ذلك يعد مطنبا، فالعبرة بالمواقف والمقامات"[116].

قال المبرد في صدر كتابه الكامل: "من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفخم"[117]. وقال أيضا: "فإن الإكثار سرف، كما أن التقصير عجز"[118].

ولعل أول من وضع الملاءمة بين الكلام والمقام كمقياس بلاغي في صيغتها النهائية هو الرماني، وذلك حين قال: "الإيجاز بلاغة والتقصير عي، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عي ... فإن لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعا يكون به أولى من الآخر، لأن الحاجة إليه أشد، والاهتمام به أعظم"[119].

وخلاصة القول إن الكلام إذا جاء مراعيا لهذه الأحوال كلها، من ملاءمة اللفظ للمعنى، والكلام للمتلقي، والكلام للمقام، "كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع"[120]، وتحققت وظيفة الكلام التي يتوخاها المتكلم وينتظره السامع وهي الفهم والإفهام، لذا نجد المبرد يورد قولا للعتابي وهو "قيل للعتابي، ما أقرب البلاغة؟ قال: ألا يؤتى السامع من سوء إفهام القائل ولا يؤتى القائل من سوء فهم السامع"[121].

والذي يلفت الانتباه في هذا القول أن السؤال الذي طرح على العتابي كان ما أقرب البلاغة؟ ولم يكن ما البلاغة؟ وهذا يدل على أن إحاطة القول بالمعنى أمر قرب من البلاغة وليس البلاغة كلها، لذا وجدنا المبرد يأتي بهذا القول دون التعليق عليه لاقتناعه أن الإحاطة عنصر أساس في البلاغة وليس البلاغة بأكملها.

---

(116) البلاغة تطور وتاريخ: ص 48.

(117) الكامل: 17/1.

(118) الفاضل: ص 99.

(119) النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني(296هـ-386هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني و الخطابي و عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3، 1976م: ص78-79.

(120) البيان والتبيين: 8/2.

(121) الكامل: 127/4.

والمبرد استفاد من آراء أستاذه الجاحظ فقرن إحاطة القول بالمعنى في تعريفه للبلاغة بمقاييس أخرى هي "اختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول"[122].

ويتضح من هذا أن المبرد لا يرض بأن تكون الغاية من الكلام الأدبي إفهام المعاني فحسب "لأن الإفهام أمر ميسور، يمكن التأتي إليه بما هو ردئ من اللفظ، أما الكلام الأدبي البليغ فلابد أن يحوز قدرا من الحسن والجمال، وذلك يقتضي من الأديب مزيدا من التأنق والمبالغة، و التجويد والترتيب، لأن ذلك هو مناط البلاغة وبه يرقى الكلام من حيز المألوف الذي لا يتفيأ سوى الإفهام إلى مدارج الجمال البلاغي المؤثر"[123].

و هذا ما عبر عنه الرماني حين قال: "وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ، والآخر عيي"[124].

نستخلص من كل هذا أن المتكلم لا يكون بليغا، ولا يوصف كلامه بالبلاغة حتى يكون قد أولاه قدرا من التأنق والتجويد والجمالية، والخروج عن لغة العامة إلى لغة الخاصة من فصحاء العرب الذين يلجؤون لنقل معانيهم وتجاربهم إلى إعمال الفكر والروية والذوق والخيال والعاطفة في اختيار المعاني، والألفاظ والتراكيب والصور الفنية البلاغية المعبرة عن الغرض في نظم خاص مقصود يتحقق به الإقناع والتأثير في المتلقي، وإلا فإنه يكون في منزلة لا يستحق معها اسم البلاغة.

2- اختيار الكلام:

لقد أدرك البلاغيون الأدباء أهمية الاختيار كمبدأ بلاغي، وأكدوا على ضرورة مراعاته عند صياغة نص، قال عمرو بن عبيد (80هـ – 144م) في تعريفه للبلاغة: "تخير اللفظ في حسن إفهام"[125]. و آلة البلاغة عند الجاحظ أن يكون الكلام "متخير اللفظ"[126]. وقال

---

[122] البلاغة للمبرد: ص81.

[123] مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، حامد صالح خلف الربيعي، معهد البحوث العلمية و إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة 1416هـ/ 1996م: ص71.

[124] النكت في إعجاز القرآن: ص75.

[125] البيان والتبيين: 114/1.

[126] المصدر نفسه: 92/1.

أيضا: "وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة على الطريق ... وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ"[127]. و من أدلة بلاغة البلغاء عنده أنهم "تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني"[128]. وقال المبرد: "حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام ..." [129].

فالمفردات اللّغوية تتفاضل من حيث الصفات النوعية، وحكمها كما يقول ابن الأثير "حكم اللآلئ المبددة، فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم"[130]. لذا فإن أشق ما يلقاه الأديب في تخير اللفظ أن يضع كل لفظ في موقعه اللائق به، وهذا ما ذهب إليه أبو هلال العسكري عندما قال: "مدار البلاغة على تخير اللفظ"[131]. انطلاقا من أن "تخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته"[132].

ومبدأ الاختيار في كل عمل أدبي "تنتفى معه العفوية والاعتباط لأنه يؤكد على عملية الوعي التام في انتقاء الوسائل والوجوه التي ترفع من قدر ذلك العمل، وهذا هو لب المشابهة بين فن الأدب وغيره من الفنون والصناعات الأخرى لأن المبدع في كل منها يعمد إلى الاختيار الواعي للمواد والأدوات والأشكال، ليكون ما يأتي به جميلا"[133].

لذا فالمتكلم يجب أن يكون عارفا بوجوه تصاريف الكلام حتى يتمكن من اختيار ألفاظه وهذا لا يتم إلا للبلغاء والأبيناء ممن جبلوا على طبع أدبي قوموه بالدربة والمران وذكوه بالرواية لعيون الأدب.

ولقد عني البلاغيون بالصياغة اللّغوية وما ينبغي أن تكون عليه من حسن الاختيار والترتيب الذي يجعل من لغة الأدب لغة ذات تشكيل جمالي خاص.

---

(127) الحيوان: 131/3.

(128) البيان والتبيين: 139/1.

(129) البلاغة للمبرد: ص81.

(130) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي و بدوي طبانة، دار الرفاعي الرياض،ط2، 1403هـ: 245/1.

(131) الصناعتين: ص32.

(132) المصدر نفسه: ص159.

(133) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء: ص133.

فاللغة العربية غنية بمفرداتها، هذا الغنى جعلنا أحيانا نتوهم أن هناك مفردات تؤدي نفس المعنى، لكن عند التحقيق تبرز فروقا دقيقة تميز إحداهما عن الأخرى مثل ذلك قولك "(ظننت وحسبت) و(وقعدت، وجلست) و(ذراع، وساعد) و(أنف، ومرسن) "[(134)].

وعلى هذا فقد فطن البلاغيون إلى أن لكل لفظة موقعا ومكانا محددا في أداء المعاني، وقدرة الأديب تبرز في مدى حذقه في اختيار اللائق بالمعنى من الألفاظ.

كما أنه لابد أن تكون للكلمة فائدة فنية إذا ضمت إلى غيرها، وإلا فالعدول عنها أحسن من الإتيان بها، من هنا فقد امتدح البلاغيون الظواهر البلاغية إذا أدى استعمالها إلى فائدة، وذموها إذا خلت من الفائدة "لأن الكلام وضع للفائدة والبيان"[(135)]. كما قال المبرد، ومن هذه الظواهر البلاغية تلك التي تومئ مسمياتها بأن هناك عنصرا لغويا زائدا في السياق كبعض المحسنات البديعية ومنها التجنيس مثلا، فمرجع الحسن في الجناس أن يتضمن لفتة ذهنية، وأن يضيف إلى السياق معنى لا يحصل بدونه، ليكون ذا قيمة في نقل الصورة إلى المتلقي، يقول الإمام عبد القاهر: "فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا"[(136)].

ومبدأ الاختيار يمس أيضا التركيب إلا أن الاختيار في هذا المستوى لا يكون بين البدائل، وإنما يقوم على قدرة الأديب في اختيار "الخصائص التعبيرية المتاحة له ما يراه وافيا بأغراضه الجمالية، وهذه الخصائص اللّغوية المختارة هي التي تكون الملامح التي يمتاز بها أسلوبه"[(137)]. وقد أشار إلى هذا النوع من الاختيار الجاحظ وعبر عنه بنظم المعاني وتنظيمها، وتأليفها وتنسيقها[(138)]. وما شاكل ذلك ويبدو أن المبرد استفاد مما قاله الجاحظ، لذا فقد أشار عند تعريفه للبلاغة إلى "اختيار الكلام".

---

(134) ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، أبي العباس محمد بن يزيد المبرد النحوي، دراسة و شرح و تحقيق أحمد محمد سليمان أبو رعد بجامعة الكويت، ط1، 1409هـ/1988م: ص47.

(135) ما اتفق لفظه و اختلف معناه: ص52.

(136) أسرار البلاغة في علم البيان، تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد الاسكندراني و د.م.مسعود، دار الكتاب العربي، ط2، 1418هـ/1998م: ص06.

(137) الدراسات الأسلوبية في التراث العربي، عبد الحكيم حسان عمر، 1409هـ: ص05.

(138) ينظر البيان والتبيين: 30/3.

وخلاصة القول أن الاختيار في الكلام لا يعني الاختيار بين البدائل المختلفة، وإنما يعني اختيار التركيب الدقيق في أداء المعنى على نحو جمالي والابتعاد عما عداه مما يؤدي الغرض وقد كان المبرد يدرك هذا الأمر إذ لو تصفحنا كتبه الكامل، والمقتضب وما اتفق لفظه واختلف عنه من القرآن المجيد للاحظها تنبهه إلى كل تلك الفروق في التعبير، وهذا ما سندرسه بإذن الله في باب علم المعاني.

3- **حسن النظم:**

شاعت فكرة النظم منذ القرن الثاني الهجري، حيث ساهم مجموعة من الأدباء والعلماء في تطور هذه الفكرة سواء أكان ذلك بالإشارة إليها بالتصريح أو الدراسة، واكتملت على يد عبد القاهر الجرجاني، فأصبحت نظرية متكاملة، وهي من أهم المقاييس النقدية في تراثنا.

النظم عند المبرد:

يرى المبرد أن البلاغة تكون في حسن النظم حيث يقول: "حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم".

ولفظة النظم الواردة في هذا التعريف يقصد بها المبرد -كما يبدو- حسن ترتيب الكلمات في الجملة بعد أن يتم اختيارها، إذ أننا لم نصادف فيما قرأنا من مؤلفات المبرد تعريفا صريحا لها، بل أشار إليها عند تعليقه على بعض الأبيات دون شرح أو تفصيل.

من ذاك قوله: "وكان إسماعيل بن القاسم لا يكاد يخلى شعره مما تقدم من الأخبار والأثار، فينظم ذلك الكلام المشهور، ويتناوله أقرب متناول... "[139].

وقال أيضا: "ومن تشبيههم المتجاوز الجيد النظم ما قد ذكرناه وهو قول أبي الطمحان القيني:

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ   دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَمَ الجَزْعُ ثَاقِبُهْ"[140].

فرغم أن المبرد رأى في هذا البيت تجاوز ومبالغة إلا أنه وصفه بجودة نظم ألفاظه.

كما وصف المبرد أبياتا للنابغة باستواء النظم حيث قال: "ومن عجيب التشبيه في إفراط، غير أنه خرج في كلام جيد وعني به رجل جليل، فخرج من باب الاحتمال إلى باب

(139) الكامل: 11/2.

(140) المصدر نفسه: 129/3.

الاستحسان، ثم جعل لجودة ألفاظه، وحسن رصفه، واستواء نظمه في غاية ما يستحسن"[141].

قول النابغة يعني حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو الفزازي[142]:

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ   وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَالجِبَالُ جُنُوحُ
وَلَمْ تَلْفَظِ الموْتَى القُبُـورُ وَلَمْ تَزُلْ   نُجُومُ السَّمَاءِ وَالأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَـــمَّا قَلِيـــلٍ ثُـمَّ جَاءَ نَعْيُـهُ   فَظَلَّ نَدِيُّ الحَيِّ وَهُوَ يَنُــوحُ

والاستواء في النظم -كما يبدو- هو التلاؤم بين الكلمات والتلاؤم في الأبيات بعضها مع بعض، وهذا ما سماه الجاحظ بالاقتران ويعنى به "انسجام الحروف في بنية الكلمة، وانسجام الكلمات في السياق، وهو السبيل إلى تحقيق التجانس والتناغم الصوتي، فما توافر له ذلك من الكلام فهو المتآلف الجيد وما افتقر إليه فهو المتنافر الرديء"[143].

أما إذا غاب التلاؤم والترتيب في الكلام فقد النظم حسنه وجماله الذي لا يكون إلا وفق التئام واتحاد أجزائه والترابط الذي تتجسد فيه البراعة في البيان المؤثر، ومن ذلك قول أبي البيداء الرياحي:

وَشِعْرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ   لِسَانُ دَعِيٍّ فِي القَرِيضِ دَخِيلُ

وقد علق الجاحظ على هذا البيت قائلا: "وأما قوله "كبعر الكبش" فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية سلسة النظام خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد"[144].

أما المبرد فقد علق على نفس البيت بعد أن سمعه من أستاذه الجاحظ بقوله: "وبعر الكبش يقع متفرقا، فمن ذلك قول بنت حطيئة له لما نزل في بيت بني كليب بن يربوع: تركت

---

(141) الكامل: 129/3.
(142) ديوان النابغة الذبياني، شرح عبّاس عبد الساتر،ط3 ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ/1996م: ص148
(143) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء: ص184 .
(144) البيان والتبيين: 67/1

الثروة والعدد، ونزلت في بني كليب بعر الكبش، قال: والمعنى في ذلك أن قائل هذا البيت أراد أن شعر الذي هجاه مختلف المعاني غير جار على نظم ولا مشاكلة"[145].

وهذه الملاحظة تتكرر في موقف شبيه بالسابق، فقد أخبر المبرد "أن عمر بن لجأ قال لابن عم له: أنا أشعر منك، قال له، وكيف؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه"[146]. فقد ضرب شعر "عمر بن لجأ" مثلا للنظم الجيد، لتلاؤمه وذلك ناشئ عن الأناة والروية، كما ضرب شعر بن عمه مثالا للنظم الرديء، ولذا شبهه ببعر الكبش، لأنه يقع متفرقا، كيفما اتفق. وكان المبرد يفضل الفرزدق على جرير ويقول: "الفرزدق يجيء بالبيت وأخيه وجرير يأتي بالبيت وابن عمه"[147].

و واضح مما سبق أن المبرد أحس بروعة النظم لكنه لم يصل إلى مرتبة الشرح والتفسير والتعليل.

4- حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها:

يجري حسن النظم إلى غايات هي جزء من تعريفه بينها المبرد باستعمال عبارات تؤكد على اللحمة بين الأجزاء، والتناسب بين الوحدات في نطاق البيئة العامة: "حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها" ولاستنطاق هذه العبارات، نقسمها إلى قسمين كي يتضح لنا مقصود المبرد منها:

-أ حتى تكون الكلمة مقاربة أختها:

ربما هذا ما سماه البلاغيون فيما بعد بالملاءمة وتعني حسن الجمع بين عناصر الإبداع الفني، والحرص على اللياقة في ترتيب بعضها على بعض، وقد عرفت بين البلاغيين الأدباء تحت عدد من المسميات أهمها: التناسب[148]، المشاكلة[149]...

والملاءمة بين الكلمة والكلمة، والتي أطلق عليها الجاحظ مصطلح "القران" تعد صورة من الصور الأربع للملاءمة ألا وهي: الملاءمة بين اللفظ والمعنى، والملاءمة بين الكلمة والكلمة،

---

(145) الموشح: ص362-363.

(146) الكامل: 160/2، وينظر البيان والتبيين: 206/1.

(147) الموشح: ص121.

(148) ينظر الحيوان: 93/3.

(149) ينظر الكامل: 160/2.

والملاءمة بين الكلام والمستمع، والملاءمة بين الكلام والحال أو المقام، وإن كانت كل هذه الصور تدخل ضمن إحاطة القول بالمعنى إلا أن المبرد ألح على إعادة الصورة الثانية في هذا المقام إدراكا منه أنها الصورة الأساسية التي بدونها يفقد النص حسن نظمه، وأن الصور الأخرى لا تتم لها الفائدة إلا إذا استوفت الصورة الثانية وتمت بلاغتها.

وهذا النوع من الملاءمة يهتم "بناحية من نواحي الصياغة على مستوى التقاء الكلمات وتأليفها في السياق، لا من حيث التأليف الصوتي، ولكن من حيث التأليف المعنوي وما يكون بين الكلمات من المجانسة والانسجام، وهذا لا يتحقق إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها اللائق بها، وهو من أهم سمات الجودة في الكلام الذي يعتد بها البلغاء"[(150)].

ولقد تنبه القدماء إلى أهمية هذا النوع من الملاءمة وحكموا على الشعر من خلاله، روى الجاحظ قولهم: "فأنشدونا بعض ما لا تتباين ألفاظه، ولا تتنافر أجزاؤه فقالوا: قال الثقفي:

مَنْ كَانَ ذَا عَضُدٍ يُدْرِكْ ظُلاَمَتَهُ ... إِنَّ الذَّلِيلَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ عَضُدُ
تَنْبُو يَدَاهُ إِذَا مَا قَلَّ نَاصِرُهُ ... وَيَأْنَفُ الضِيمُ إِنْ أَثْرَى لَهُ عَدَدُ

... وقال أبو نوفل بن سالم لرؤية بن العجاج: يا أبا الجحاف، مت إذا شئت، قال: وكيف ذاك؟ قال: رأيت عقبة بن رؤبة ينشد رجزا أعجبني قال: إنه يقول، لو كان لقوله قران ... وأنشد ابن الأعرابي.

وَبَاتَ يَدْرُسُ شِعْرًا لاَ قِرَانَ لَهُ ... قَدْ كَانَ نَقَّحَهُ حَوْلاً فَمَا زَادَا

... فهذا في اقتران الألفاظ"[(151)].

في ضوء هذه الأمثلة يبرز الجاحظ أهمية انتقاء الألفاظ التي تكون معها خصوصية الملاءمة المعنوية مظهرا جماليا يسهم في إمتاع المتلقي، ذلك ما عبر عنه بقوله: "إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة ..." [(152)].

(150) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء: ص391.
(151) البيان والتبيين: 1/67-68.
(152) المصدر نفسه: 1/66.

ومما لا شك فيه أن وضع اللفظ في موضعه، وإدراك الفرق بينه وبين ما يقاربه في معناه أمر له قيمته، فهو دليل على الحس الجمالي للغة عند المبدع، وقدرة المبرد من هذه الناحية واضحة جدا، تظهر في قوله: "حدثت أن الكميت بن زيد أنشد نصيبا فاستمع له، فكان فيما أنشده:

وَقَدْ رَأَيْنَا بِهَا حَوَرًا مُنَعَمَّةً　　　بِيضًا تَكَامَلَ فِيهَا الدّلُّ وَالشَّنَبُ

فثنى نصيبا خنصره، فقال له الكميت: ما تصنع؟ فقال: أحصي خطأك، تباعدت في قولك، تكامل فيها الدل والشنب، هلا قلت كما قال ذو الرمة[153]:

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَةٌ لَعَسُ　　　وَفِي اللِّثَاثِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبُ

والذي عابه نصيب من قوله: "تكامل الدلّ والشّنب" قبيح جدا، وذلك أن الكلام لم يجر على نظم، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها، وأول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق، أو يوضع على رسم المشاكلة"[154]. وذلك لأن الدلّ وهو ما يكون من تجنى المحبوب، لا يناسب الشنب وهو ماء ورقة وعذوبة الأسنان، فهما لفظتان لا يتناسبان بتقارب معنييهما ولا بتضادهما.

واضح من هذا القول أن المبرد يقرر أن حسن النظم على مستوى تعليق الكلمة بما يجاورها من الكلمات ولا ريب أن هذه الفكرة كان لها نصيب معتبر في نظرية النظم التي طورها الإمام عبد القاهر إذ أن "لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"[155].

إن نظم الكلام فن كغيره من الفنون، يقتضي من الأديب الدقة واختيار الكلمات ومعرفة مواقعها وكيفية التأليف بينها، وكلما كان الأديب أكثر دراية وعناية بفنه كان عمله أكثر جمالا.

ب- معاضدة شكلها:

ويقصد بها المبرد حسب ما نظن التناسب، وهو من أهم المقاييس الجمالية في فن الأدب، والتناسب في البلاغة هو "محاولة لتحقيق قدر من التنسيق بين مكونات النص الأدبي،

(153) ديوان ذي الرمة، قدم له وشرحه أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1415هـ/1995م: ص12

(154) الكامل: 160/2.

(155) دلائل الإعجاز: ص55.

على مستوى المفردات، والعلاقات البنائية التي تشكل التراكيب في إطار بنية فنية تحقق التواصل بين المبدع والمتلقي، والالتقاء النفسي المتجاوب حول النص وما يثيره من قيم وقضايا"[156]. لأن مبدأ التناسب يحقق عنصر الإيقاع في العمل الأدبي، وذلك من أبرز سماته الفنية، وبه يكون العمل أكثر إمتاعا وتأثيرا في المتلقى.

ومقياس التناسب يتحقق بمراعاة الظواهر البلاغية البديعية أثناء الصياغة، يجمع الشيء إلى ما يناسبه من نوعه، لذا فإن التناسب منه ما يكون بين الألفاظ، ومنه ما يكون بين المعاني، وقد أطلق ابن قيم الجوزي على هذا المظهر البلاغي اسم "المؤاخاة"، وهي عنده على قسمين، الأول: المؤاخاة في المعاني، والآخر: المؤاخاة في الألفاظ، وقال: "ويكون للكلام بها رونق، لأن النفس يعرض لها عند الشعور بشيء يطلع إلى مناسبة فلا يرد إلا بعد تشوق، ولا كذلك المباين، فلذلك يقبح ذكر الشيء مع مباينه في المعنى المذكور فيه"[157].

ومن أهم الظواهر البلاغية التي يتحقق بها مقياس التناسب بين الألفاظ، تناسب اللفظتين من حيث الصيغة، والترصيع، والتصريع، والتجانس، واللف والنشر، والسجع، والتناسب في المقدار.

أما الظواهر البلاغية التي يتحقق بها مقياس التناسب بين المعاني هي: المطابقة والمقابلة المبالغة، الغلو، الإغراق، وغيرها كثير.

ولقد تنبه البلاغيون القدماء إلى ضرورة التناسب بين المعاني والتناسب بين الألفاظ، وأدركوا القيمة البلاغية له في النص الأدبي، واتخذوه مقياسا يراعونه على مستوى الإبداع، وعلى مستوى النقد.

و المبرّد أثبت عنايته بالتناسب، و رهافة سمعه لكل ما يقع غير متناسب، فقد ذكر أبياتا لابن أبي عيينة، جاء فيها هذا البيت:

وَلاَ أَتَتْ سَاعَةٌ فِي الدَّهْرِ فَانْصَرَمَتْ حَتَّى تُؤْثِـرَ فِي قَوْمٍ لَهَا أَثَـــرَا

---

(156) في البنية والدلالة، سعد أبو الرضا، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1987: ص45.

(157) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ: ص137.

ثم قال: "فانصرفت أشبه للمطابقة، والمشهور انصرمت"[158]. كأنه يقول إن "انصرفت" هي التي تقابل "أتى"، وهذه رهافة حس، وقد كان الأوائل ينتبهون إلى مثل هذا كقول الجاحظ: "فالشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله"[159].

و قد اعتبر ابن سنان عدم التناسب في هذا البيت قبيحا كما اعتبره المبرد فقال: "أما إذا كان معنيا الكلمتين غير متناسبين لا على التقارب ولا على التضاد فإن ذلك يقبح"[160].

فالتناسب إذا من أهم الوسائل التي يتوصل بها إلى التأثير في المتلقي نظرا لما يضفيه على النص من أبعاد جمالية على المستويين الصوتي والدلالي.

5- تقريب البعيد:

يقصد المبرد بقوله: "أن يقرب بها البعيد"[161]– في أغلب الظن– استخدام الصورة الفنية عند التعبير عن الأفكار المجردة، وبهذا يكون المبرد قد انتقل في تعريفه للبلاغة من البنية الخارجية للرسالة اللّغوية إلى البنية الداخلية، لأن البلاغة كما قال أبو هلال العسكري هي: "من بلوغ القصد والغاية، إذ هي كل ما تبلغ به المعنى ذهن سامعك فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة أو معرض حسن"[162].

فالبشر العاديون يعبرون عن أفكارهم تعبيرا مباشرا يتوقف عند الحدود الدنيا للإفهام، أما الأديب فيعبر عن أفكاره تعبيرا متميزا عن طريق ما يحققه في هذه الأفكار من صياغة خاصة، تتجاوز مرتبة الإفهام إلى مرتبة التأثير[163].وهذا المعنى أدركه المبرد .

–الصورة عند المبرد:

إن البلاغيين القدامى كانوا يدركون قيمة الصورة الفنية في الأدب عموما وفي الشعر بوجه خاص، إلا أن مصطلح "الصورة" لم يكن واردا عندهم، حيث ظهر هذا المصطلح "في أوربا في

---

(158) الكامل: 14/2.

(159) البيان والتبيين: 138/1.

(160) سر الفصاحة: ص192.

(161) "هي عبارة غاية في التجريد لا تحيل على شيء مضبوط خارجها، لذلك يمكن أن تحصل على معان شتى، وتؤول بطرق مختلفة، وتضبط وظيفة الفن اللغوي من خلالها بالمقابلة القائمة بين طرفيها ومحصل هذه المقابلة أن يصبح المجهول معلوما والمحسوس مدركا وما لا شكل له ذا شكل مضبوط يحيط به ويبين عن حدوده"، التفكير البلاغي عند العرب: ص346.

(162) الصناعتين: ص10.

(163) ينظر الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، ، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992م : ص321-322

القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على يد الرومنتيك، وانتقل بعد ذلك إلى نقدنا الحديث إثر التواصل الحاصل بين الثقافتين الغربية والعربية، ومع أن مصطلح الصورة حديث صيغ تحت وطأة التأثر بمصطلحات النقد الغربي، والاجتهاد في ترجمتها، فإن الاهتمام بالمشكلات التي يشير إليها المصطلح قديم يرجع إلى بدايات الوعي بالخصائص النوعية للفن الأدبي"[164].

والمتأمل في تراثنا العربي القديم يرى بوضوح الأهمية التي أولاها البلاغيون للصورة وذلك من خلال تحليلهم البلاغي للسور القرآنية، وللشعر والشاعر والخصائص التي يتميز بها كل منهما، حتى أنهم أشاروا إلى جذر مصطلح الصورة، والذي جاء في قول الجاحظ المشهور "إنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير ..." [165].

إلا أن الجاحظ لم يقصد إلى جعل التصوير مصطلحا فنيا ولكنه اقتبس لفظة التصوير بمدلولها الحسي ليوضح به مدلولا ذهنيا، يتمثل هذا المدلول الذهني في صياغة الألفاظ المعبرة عن المعاني صياغة دقيقة، بحيث تخرج المعاني في معرض حسن.

والمبرد ابن عصره، تناول في مؤلفاته كل وسائل تكوين الصورة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز لكن دون أن يلفظ مصطلح الصورة إنما أومأ إليه إيماء حين قال: "والكلام يجري على ضروب فمنه ما يكون في الأصل لنفسه ومنه ما يكنى عنه بغيره ومنه ما يقع مثلا فيكون أبلغ في الوصف"[166].

والمقصود من هذا القول أن الكلام أنواع منه ما هو موجه لعامة الناس فتكون فيه الألفاظ صريحة في أداء المعنى، ولا تحقق أي نوع من الإثارة الحسية للنفس، وإنما تقدم ما تراه مشاهدا أمامنا تقديما كلاميا بحيث تتطابق فيه الصورة والأصل، وهذا النوع من الكلام يفهمه كل الناس، ومنه ما هو موجه للخاصة، ويعتمد فيه صاحبه على الخيال الذي يعمل بدافع من الحس والانفعال على اختيار الوسيلة التي يجلوا بها حقيقة الأشياء، ويقدم بها فكرته "في صورة مقبولة ومعرض حسن"[167].

---

(164) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ص08.

(165) الحيوان: 131/3.

(166) الكامل: 290/2.

(167) الصناعتين: ص19.

فقد تكون هناك ضرورة ملحة لاستعمال الكناية أو الاستعمال المجازي للكلمة بحيث لا تغني العبارة الحقيقية في نفس الموضوع، وفي هذه الحالة يكون المجاز هو "التعبير الأصيل، لا يغني غناءه في رسم الصورة المرادة سواه، وفي هذا لا يكون المجاز تجاوزا للحقيقة، وإنما يكون هو الطريق للوقوف على صورة الفكرة والشعور اللذين يراد التعبير عنهما"[168].

ولقد ركز المبرد على الصورة التشبيهية بوجه خاص و ذلك لأمرين :

أولا لأن "التشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد"[169]. لذلك كانت لشواهد المبرد في التشبيه من الكثرة والتنوع مما يدل على صحة هذه المقولة –حتى أن شواهده كانت مادة لكثير من الدارسين للصورة فيما بعد– ولهذا قيل عن التشبيه أنه: "ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغني أحد منهم عنه"[170]. و قيل أيضا: "أنه مما اتفق العقلاء على شرف قدرة وفخامة أمره في فن البلاغة"[171].

ثانيا لأن التشبيه هو أكثر الصور الفنية تحقيقا لمبدأ "تقريب البعيد"، فقد قال عنه الرماني: "والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف"[172]. وقال العسكري: "والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا"[173].

وكانت دراسة المبرد للصورة التشبيهية ترتكز على دعامتين هما:

– العرف اللغوي للعرب في بناء الصورة.

– والدعامة الثانية هي أن جمال الصورة يتمثل في التلاؤم بين طرفيها، فكل الصور التي اختارها تقريبا كانت مادتها مما يقع تحت الحواس ويشترك في إدراكها عامة الناس، لذلك قيل أن المبرد يمثل المنهج العربي المحافظ[174]، لكن هذا لا يعني أنه لم يميز الصورة الأخرى دليلنا على ذلك ما ذكره حول الخلاف الذي أثير حول قوله تعالى : ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ [175].

(168) النقد الأدبي الحديث، غنيمي هلال، دار العودة بيروت لبنان، 1982م: ص495

(169) الكامل: 93/3.

(170) الصناعتين: ص265.

(171) شروح التلخيص: 296/3.

(172) النكت: ص81.

(173) الصناعتين: ص 265.

(174) ينظر الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط3، 1983: ص46.

(175) سورة الصافات: الآية65.

وسبب الخلاف والطعن هو الخروج عن المعتاد، فقد اعتادوا أن تقدم لهم الصورة في قالب محدد يكون فيه المشبه به محسوسا معلوما، فظنوا بذلك أنهم قد وجدوا بغيتهم، وأصابوا دليلا على طعنهم، وقد تولى المبرد الرد عليهم مقتديا بأستاذه الجاحظ فقال: "وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين، في هذه الآية، فقال: إنما يمثل الغائب بالحاضر، ورؤوس الشياطين لم نرها، فكيف يقع التمثيل بها، وهؤلاء في هذا القول كما قال الله جل وعز: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**﴾[176]. وهذه الآية قد جاء تفسيرها على ضربين:

أحدهما أن شجرا يقال له الأستن، منكر الصورة يقال لثمره: رؤوس الشياطين وهو الذي ذكره النابغة في قوله: *تجيد في أستن سود أسافله* ..زعم الأصمعي أن هذا الشجر يسمى الصوم.

و القول الآخر وهو الذي يسبق إلى القلب: أن الله —جل وعز ذكره–شنّع صورة الشياطين في قلوب العباد فكان ذلك أبلغ من المعاينة. ثم مثّل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس" [177]. فالمراد–والله أعلم–تشبيه ثمرة شجرة الزقوم برؤوس الشياطين في البشاعة، وقبح المنظر تنفيرا من الشرك، وبيانا لعاقبة أهله.

فالصورة التشبيهية "جزء من تكوين التجربة الشعورية عند الأديب، وهي ملمح من ملاح العمل الأدبي الفني، وقد تنوعت في أشكال وقوالب تطاوع رغبة الفنان في التعبير، وتنتقل معه في نظرته السريعة، أو في تأمله الطويل، وتكون عونا له في كشف مكنونات صدره في القصائد المتأنية التي يعيد فيها التشكيل اللّغوي ويشذب تداخلها، وكذلك الشأن في تلفت لا يكاد يهدأ عن يمين وشمال وإلى هذا الطرف وذاك البعيد"[178].

والمبرد لم يفهم الصورة فهما ضيقا منطقيا يضطره إلى البحث عن أوجه التشابه، والتناسب مع الواقع الخارجي، بل مفهومها عنده "أعمق من مجرد إدراك التشابه بين طرفيها أو الجمع بين المتباعدات، فالمسألة إذا مسألة حذق في رسم الصورة لا يتهيأ لكل فرد"[179].

---

(176) سورة يونس: الآية39.

(177) الكامل: 39/3.

(178) جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي، دار الفكر المعاصر، ط2، 1424هـ /2003م: ص 94.

(179) مفهوم الخيال و وظيفته ي النقد القديم و البلاغة، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في النقد و البلاغة، جامعة أم القرى، من إعداد فاطمة سعيد أحمد حمدان،1410هـ/1989م: ص334

والصورة عند المبرد ليست حلية تالية يؤتى بها للتزيين ولكنها تعد عنصرا مهما في الشعر لأن المبدع يقدم لنا من خلالها تجربته الشعورية "والأديب الحق هو من يملك القدرة على لم أطراف التجربة وتكثيفها والجمع بين الانغماس في طياتها والقدرة على بلورتها وتجسيدها في عمل أدبي قوامه الألفاظ والتركيب ... ومن الأمور البديهية قولنا: إن اللغة لا تغطي بصورة مباشرة عالم الإنسان وآفاقه لذا يفزع إلى المجاز والتشبيه والاستعارة والرمز وسائر الأساليب الفنية للصورة وللتركيب الجمالي، وكذلك الإيقاع الذي يعطي أبعادا داخلية"[180].

فالمبرد يقول: "والتشبيه كثير، وهو باب كأنه لا أثر له، وإنما ذكرنا منه شيئا لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني"[181]. فهو يعتبر الصورة معنى من معاني الشعر وروحه، فهي القادرة عن التعبير عن إحساس الشاعر وبها يستطيع أن يرسم الناس و الأفعال والأشياء كما هي في نفسه وهذا قد يتطلب منه "أن يجعلها أكبر أحيانا وبلون آخر أحيانا، وقادرة على السير في آفاق أبعد مرات وهكذا يخرج من إطار المحدود إلى مجال يتسع ويستجيب إلى رغبته وهو لا يملك إلا الكلمة وسيلة، فيستحضر بها البعيد ليغدو قريبا ويذهب إلى الماضي سائلا قربا ويجنح إلى المستقبل متشوقا"[182].

مما سبق نستنتج أن الصورة من القضايا الأولى التي درست في التراث البلاغي والنقدي، وإن لم يشر إلى مفهومها، فلقد تناول علماء البلاغة بالحديث المسهب الوسائل التي تؤدى بها الصورة وبينوا أنواعها وأهميتها وعلاقتها بالشاعرية من حيث جودة الصورة والأثر الذي تحدثه في المتلقي، بل إننا نجدهم استعملوا لفظتي "صورة" و"تصوير" في مقابل أنواع بلاغية معينة، هي الاستعارة والتشبيه والكناية، كما كان للصورة مجال آخر غير الدراسات البلاغية كالموازنة بين الشعراء والسرقات إلى آخر ما هنالك من دراسات تفرض فيها الصورة نفسها فلا يجد الدارس مفرا من الحديث عنها لأهميتها في الشعر وارتباطها به.

(180) جماليات الأسلوب: ص37.

(181) الكامل: 152/3.

(182) جماليات الأسلوب: ص72.

6- حذف الفضول:

إن من يتصفح تراثنا العربي يلاحظ احتفاء العرب بالإيجاز، فقد كانوا يفضلونه، وكان البليغ عندهم هو من يصيب الغاية بقليل من اللفظ، وبذلك ارتبط مفهوم البلاغة عندهم بالإيجاز، بل قد بلغ بهم الأمر إلى أن جعلوا البلاغة هي الإيجاز.

قال معاوية لصحار العبدي: "ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز، قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ"(183). وقال معاوية لعمرو بن العاص: "من أبلغ الناس؟ فقال: من اقتصر على الإيجاز، وتنكب الفضول"(184). وسئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: "البلاغة إجاعة اللفظ، و إشباع المعنى"(185). و قيل لأحدهم: "ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز"(186). وقال ابن المقفع: "الإيجاز هو البلاغة"(187). وقال المبرد: "حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى ... وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول"(188).

كل هذه الأقوال و غيرها تبين فضيلة الإيجاز وتعلق العرب به، فما هو الإيجاز؟ "سأل أعرابي المفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، و تقريب البعيد"(189).

و العرب كانوا يحرصون على الإيجاز كل الحرص ويحبذونه في الشعر والنثر على السواء، وكانوا يستعملونه في التفضيل بين الشعراء من ذلك ما أورده المبرد، فقد قال: "قال الأعشى(190):

وَتَبـرُدُ بَرْدَ رِدَاءِ العَـرُو   سِ بِالصَّيْفِ رَقْرَقْتَ فِيهِ العَبِيرَا

---

(183) البيان والتبيين: 96/1.

(184) العمدة: 243/1.

(185) المصدر نفسه: 242/1.

(186) المصدر نفسه: 242/1.

(187) المصدر نفسه: 246/1.

(188) البلاغة للمبرد: ص81.

(189) البيان والتبيين: 97/1.

(190) ديوان الأعشى الكبير ميمون قيس، شرح وتعليق محمد محمد حسين، مكتبة الأدب بالجماميز، المطبعة النموذجية، دط، دت: ص95 وقد ورد فيه بغير هذا اللفظ واللفظ بتمامه:

وَتَبْرُدَ بَرْدَ رِدَاءَ العَرُو   سِ رَقْرَقْتَ بِالصَّيْفِ فِيهِ العَبِيرَا
وَتَسْخُنُ لَيْلَةَ لاَ يَسْتَطِيـ   ـعُ نُبَاحَا بِهَا الكَلْبُ إِلاَّ هَرِيرَا

وَتَسْخُنُ لَيْلَةَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْبَحَ الكَلْبُ إلاَّ هَرِيرَا

فتقبل هذا الكلام واستحسن، ثم قيل في عيبه: إنه أتى به في بيتين وطول به الخطاب، وأجود منه قول طرفه[191]:

تَطْرُدُ البَرْدَ بِحَرٍّ سَاخِنٍ وَعِيكَ القَيْظِ إِنْ جَاءَ بِقُرٍّ

وقيل هذا أجمع وأخصر.

وعيب على طرفة قوله[192]:

أَسْدُ غِيلٍ فَإِذَا مَا شَرِبُوا وَهَبُوا كُلَّ أَمُون وَطِمِرُ

ثُمَّ رَاحُوا عَبَقُ المِسْكِ بِهِم يَلْحَفُونَ الأَرْضَ هُدَّابَ الأَزُرْ

فقد قيل: إنما يهب هؤلاء القوم إذا تغيرت عقولهم، وإنما الجيد ما قال عنترة[193]:

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلِمِ

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

فخبر أن جوده باق، وأن لا يبلغ من الشراب ما يثلم عرضه، ثم قالوا: هو حسن جميل، إلا أنه أتى به في بيتين، هلا قال كما قال امرؤ القيس[194]:

سَمَاحَةَ ذَا وَبَرَّ ذَا وَوَفَاءَ ذَا وَنَائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرَ

فهذا معنى كثير"[195].

وقال: "والعرب تختصر في التشبيه وربما أومأت إليه إيماء"[196]، وقال: "قال معاوية لعباس بن صحار العبدي: ما أقرب الاختصار؟ فقال: لمحة دالة، وقيل: خير الكلام ما أغنى اختصاره عن إكثاره"[197].

---

[191] ديوان طرفة: ص41 ، وقد ورد بغير هذا اللفظ واللفظ بتمامه:

تَطْرُدُ القُرَّ بِحَرٍّ صَادِقٍ وَعِيكَ القَيْظِ إِنْ جَاءَ بِقُرٍّ

[192] المصدر نفسه: ص 55.

[193] ديوان عنترة، مطبعة الآداب لصاحبها أمين الخوري، بيروت، ط4، 1893م: ص82.

[194] ديوان امرئ القيس: ص101.

[195] البلاغة للمبرد: ص82-83-84.

[196] الكامل: 149/3.

[197] المصدر نفسه: 313/2.

و قال أيضا: "حدثت أن صبرة بن شيمان الحدّاني دخل على معاوية والوفود عنده فتكلموا فأكثروا، فقام "صبرة" فقال: يا أمير المؤمنين إنا حيٌّ فِعال، ولسنا بحيٍّ مقال، ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم، فقال: صدقت"[198].

لم يعلق المبرد على الخبر، ويفاد منه أن "صبرة" راع المقام، فأوجز، فقد تكلمت الوفود وأكثرت، ومعلوم أن الرؤساء ومن وكل إليهم أمور الناس يؤثرون الإيجاز، ويرونه فضيلة.

و قال: "وقد أثنى الأصمعي على أعرابي خطب فبلغ في إيجاز"[199].

والمبرد نفسه كان يستحسن الإيجاز ويعيب الإطالة، فقد فضل قول حبيب ابن أوس الطائي[200]:

عَمْرِي لَقَدْ نَصَحَ الزَّمَانُ وَإِنَّهُ لَمِنَ العَجَائِبِ نَاصِحٌ لاَ يُشْفِقُ

على قول ابن أبي عيينة[201]:

ماَ رَاحَ يَوْمٌ عَلَى حَيٍّ وَلاَ ابْتَكَـــرَا إِلاَّ رَأَى عِبْـــــرَةً فِيهِ إِنْ اعْتَبَرَا
وَلاَ أَتَتْ سَاعَةٌ فِي الدَّهْرِ فَانْصَرَمَتْ حَتَّى تُؤْثِــــرَ فِي قَوْمٍ لَهَا أَثَــرَا
إِنَّ اللَّيَـــالِي وَالأَيَّــامَ أَنْفُـــسَهَا عَنْ غَيْرِ أَنْفُسِهَا لَمْ تَكْتُمِ الخَبَرَا

فإذا كان ابن أبي عيينة سبق الطائي إلى المعنى، إلا أنه جاء به في ثلاث أبيات، ولكن الطائي اختصره فأتى به في بيت واحد. قال المبرد: "فأخذ هذا المعنى حبيب بن أوس الطائي وجمعه في ألفاظ بسيرة ... وهكذا يفعل الحاذق بالكلام"[202].

اعتبر المبرد الإيجاز حذقا في الكلام، فالإيجاز يحتاج إلى تأمل وتفكر ليظهر عليه أثر الصنعة البلاغية التي تكون موطن حسن وجمال في الكلام، فالعرب من عادتهم بلاغيا حذف المعلوم، لأن في حذفه إثارة ولفتة للمخاطب ليشارك بما يعلم في إتمام الكلام، وهذه المزية يفتقدها الكلام لو ذكر المحذوف، لكن هذا الحذف لا يجب أن يؤدي إلى التقصير، قال المبرد:

---

(198) الكامل: 97/1.
(199) المصدر نفسه: 108/4.
(200) البيت غير موجود ي شرح الديوان
(201) الكامل: 14/2.
(202) المصدر نفسه: 14/2.

"فإن الإكثار سرف، كما أن التقصير عجز"[203]. أي أن قلة الألفاظ قد تكون بسبب العجز لا بسبب البحث عن الأحسن فيجد المتكلم نفسه يحذف الأساسي من الألفاظ بدل أن يحذف الفضول فقط منها.

و رغم أن الإيجاز كان هو المفضل عند العرب إلا أنهم لم يشترطوه في كل الأحوال، قال المبرد: "من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفخم"[204]. وقال: "قال رجل لخالد بن صفوان: إنك لتكثر، فقال: أكثر لضربين: أحدهما فيما لا تغني فيه القلة ..." [205].

هذا يدل على أن المبرد لم يكن ممن بالغوا في استحسان الإيجاز حتى خرجوا عن جادة الصواب بل كان يعلم أن هناك مقام للإيجاز ومواضع تطلب التفصيل الذي يسمى الإطناب.

بهذا العنصر ينتهي تعريف المبرد البلاغة: "حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول"[206]. هذا التعريف الذي رأى الباحث حمادي صمود أنه "تألف من مستويات تقوم على التدرج: أولها لغوي عام يتصل بعلاقة الدال بالمدلول، وقد بلور هذه العلاقة في لفظة (إحاطة) وفيها معنى المحاصرة والاحتواء، أما المستوى الثاني فيتصل بخصائص الدال ذاته، وقد أبرزها بطريقة غير مباشرة بالتأكيد على مفهوم الاختيار كممارسة من اختصاص المتكلم أو الكاتب ... أما المستوى الثالث فيخرج عن المستوى المفرد وهو مستوى معجمي صوتي إلى مستوى آخر يتصل بالجملة أو هو في المصطلح الحديث خروج من محور الاختيار والاستبدال إلى محور التوزيع..." [207].

ويشرح الباحث صلاح الدين زرال تعريف المبرد للبلاغة وتفسير الباحث حمادي صمود لها بقوله: "وإذا تأملنا مقولة المبرد أو تحليل الباحث "صمود"، فإننا نكتشف أن المبرد وكأنه بلجوئه إلى البحث في المعنى قد اشترط مراحل في ذلك، وهذه المراتب تنطلق أساسا من المعنى المعجمي الذي يعد في نظر اللّغويين الركيزة الأساسية في بناء التصور اللّغوي، أما المرتبة الثانية

---

(203) الفاضل: ص99.

(204) الكامل: 17/1.

(205) المصدر نفسه: 20/2.

(206) البلاغة: ص81.

(207) التفكير البلاغي عند العرب: ص345.

فهي قضية اختيار الكلمات لملاءمة لمقام (وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول)، وتحري المعنى المعجمي وحسن اختيار الكلام يتولد عنه المرتبة الثالثة وهي النظم أو التركيب، وإن لم يكن المبرد أول من اخترع هذا التقسيم، فإنه من اللّغويين الذين ساهموا بهذه النظرة في إخراج اللغة من المجال الضيق إلى المجال الواسع الخاص بربط الأثر الأدبي بعالمه الخارجي"[208].

أرى أن المبرد في تعريفه هذا للبلاغة قد أشار إلى علوم البلاغة الثلاثة "فاختيار الكلام وحسن النظم" تدخل ضمن علم المعاني، "وحتى تكون الكلمة مقاربة أختها معاضدة شكلها" ضمن علم البديع، و"أن يقرب بها البعيد" يقصد بها الصور البيانية، وإنلم تكن هذه التقسيمات قد ظهرت بعد إلا أني أظن أن بذورها قد اشتمل عليها هذا التعريف.

والبليغ عند المبرد هو من يكون طليق اللسان، يتحدث على سجيته دون عناء أو غموض ويفاد هذا من قوله: "وكان خالد بن صفوان يقول: لا تكون بليغا حتى تكلم أمتك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادى قومك، فإنما اللسان عضو إذا مرنته مرن، وإذا أهملته خار"[209].

فالبلاغة عند المبرد تعني: تخير الألفاظ، والملاءمة بينها وبين المعاني مع حسن النظم ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ولقد تأثر البلاغيون بتعريف المبرد للبلاغة، منهم ابن وهب الذي عرفها بقوله: "القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام وفصاحة اللسان" [210].

الإيقاع البلاغي عند المبرد:

إن الدرس البلاغي القديم له مظاهر إيقاعية "ترتبط ارتباطا وثيقا بما في النص من جودة وجمال وحسن ومزية، ولعل الفن البلاغي كان المجال الذي احتضن تلك المظاهر ورعاها لتنمو

---

(208) الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، صلاح الدين زرال، منشورات الاختلاف، ط1، 1429هـ/ 2008م، الجزائر: ص 114.

(209) الكامل: 20/2.

(210) البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب، تحقيق حنفي محمد شرف، مكتبة الشباب بالمنيرة، 1969م: ص163.

وتشارك مشاركة فعالة في إضفاء السمات الأدبية والفنية على النص، دون أن تسفر عن وجهها، أو يكون لها الأولوية في توفير الجمال والحسن في الفن القولي"[211].

والمبرد امتاز بإحساس دقيق مكنه من تلمس بعض الجوانب الإيقاعية في مفهوم البلاغة، وذلك من خلال تعريفها الذي ضمنه الرسالة التي بعث بها إلى بعض أولي الأمر وكان قد أرسل يستوضحه رأيه في أي البلاغتين أبلغ: بلاغة الشعر أم بلاغة النثر، فكانت رسالته أول مؤلف مستقل يحمل اسم البلاغة، وفيها حاول أن يقدم تعريفا شاملا فقال: "حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول"[212].

فالمبرد من خلال هذا التعريف استطاع أن يبرز "بعض الجوانب الإيقاعية الهامة في فن القول، وذلك حين ألح على تلك العلاقة المتواشجة بين اللفظ والمعنى فالإحاطة والاحتواء يبرزان ذلك التفاعل العضوي الذي يقوم على الوحدة والتلاؤم والانسجام، ولا يتم ذلك إلا بحسن التأليف والنظم، واختيار الألفاظ على أساس التناسق بين الوحدات، والتلاحم بين الأجزاء إلى درجة التماسك والتعاضد في نطاق البنية العامة للنص، كما أن الإحاطة والاحتواء، تحتاجان إلى العناية بالجوانب الإيقاعية المعنوية بتقريب البعيد الذي يبرز جانب المقابلة بين البعيد والقريب، والواضح والغامض ... وبحذف الفضول الذي يبرز مبدأ (إصابة المقدار) الذي يقوم على التناسب والتوازي بين اللفظ و المعنى"[213].

كما تفطن المبرد إلى المفاهيم الإيقاعية التي يتعانق فيها المثبت مع المغيب واللفظ مع الإشارة والإيماء والتلويح حين قال: "... الاختصار المفهم، والإطناب المفخم، وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغنى عند ذوي الألباب عن كشفه كما قيل لمحة دالة، وقد يضطر الشاعر المفلق، والخطيب المصقع والكاتب البليغ، فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام غطت على عوراته ..." [214].

[211] الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط3، 1974م: ص49.

[212] البلاغة للمبرد: ص81.

[213] الأسس الجمالية: ص55.

[214] الكامل: 17/1.

و إذا كان التركيب اللغوي من المنظور الشكلي الخارجي يعتمد الارتباطات النحوية وسيلة منطقية للتأليف بين سلسلة المتواليات اللفظية فإن السياق التأليفي الذي تسديه القيم الإيقاعية للمتواليات الصوتية هو الجدير باستظهار المكنونات الانفعالية الباطنية التي يؤال إليها في المقاصد الدلالية.

و إذا كانت الدراسات النقدية تشرح وتحلل طبيعة بلاغات العرب، وكيفيات حصول الانفعال بها، وأساليب تأليف عباراتها المستجدة المتجددة، فالخطاب الأدبي في أليق أحواله قد يأتي مضطربا متفاوتا، وقد يأتي سلسا مستويا مستحوذا على أسباب الأريحية والغبطة وباقي أسباب الابتهاج والالتذاذ، غير أن المنشئ قد تحمله العبارة الأسلوبية خلال مضاميرها السياقية التوقيعية الإلزامية فتأتي في عباراته الأساليب العويصة المستغلة، إلا أن هذا ليس مطبا بالغ الإشكال، لأن جهات الخطاب يحتمل بعضها بعضا فتترافد القيم البلاغية والتوقيعية، من ذلك تواقع قيم السهولة والصعوبة والغموض والوضوح والانقباض والانبساط فيكون الاعتبار في مقروئية الخطاب بجملة ما يتركب منه من القيم البلاغية والإيقاعية، مترافدة متشاكلة عاملة على تشخيص الهوية الفنية والجمالية للخطاب.

و أحسب أن المبرد الذي كان من بين المؤسسين لهوية الخطاب الأدبي، قد احتمل هذا المسار، فتصور الفضاءات التي يمكن أن تفضي إليها سيرورة الإبداع العربي حين قال: "والتشبيه كثير، وهو باب كأنه لا آخر له ..." [215].

و يتأكد الاتجاه الإيقاعي عند المبرد حين جعل ميزان التفاضل بين الشعر والنثر، إذا ما تساويا في بلاغتهما، ما ينتظم الشعر من وزن وقافية، ترتفع بهما وتيرة النظام الإيقاعي فيزداد الكلام بذلك حسنا وبهاء، ويكون أشد فاعلية وتأثيرا[216].

و بهذا نقول أن للإيقاع أهمية كبيرة في إظهار جمالية النص الأدبي وقد تنبه لهذا الأمر القدماء ومن بينهم المبرد.

(215) الكامل: 152/3.

(216) ينظر البلاغة للمبرد: ص 81.

الفصل الثاني:
بلاغة الشعر والنثر

المبحث الأول: بلاغة الشعر

أولا: مفهوم الشعر:

حاول البلاغيون والنقاد العرب تقديم تصور عن الشعر ومفهومه و لغته و أدائه، وقد ظهرت تلك المحاولة في تمييزه عن غيره من أجناس القول، فبرز الوزن والقافية بوصفهما مميزين أساسيين للشعر. لذلك ترى أكثر تعريفاتهم أن الشعر "قول موزون مقفى يدل على معنى"[(1)].

فالشعر لا يمكن أن يخلو من الوزن والقافية فهو " يحتاج إلى البناء والعروض والقوافي"[(2)] وهو "كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم ...ونظمه معلوم محدود"[(3)]، لذا فأول خاصية يتميز بها الشعر هي أنه مقيد بإيقاع الوزن والقافية وهذا يتطلب إمكانيات وبراعة ومهارة .

والمبرد كسابقيه ومعاصريه يصف الشعر بقوله :" الكلام المرصوف المسمى شعرا ...وزاد وزنا وقافية "[(4)]، فالشعر عنده هو كلام كالنثر الفني تماما في بلاغة القول وجماله لكنه يختلف عنه في الشكل، إذ أنه يأتي مرصوفا يقصد بذلك اعتماده على الشطرين بالإضافة إلى تميزه بالوزن والقافية.

وليس من شك في أن تركيز الضوء على كل من خاصتي الوزن والقافية هو الذي يبرر إفراد كل من هاتين الخاصيتين من خواص الشعر اللتين دخلتا كركنين أساسين في تعريفه ،إفراد كل منهما بعلم مستقل يقوم على دراستهما أقصد علم العروض وعلم القافية أو القوافي فالمبرد ألف كتابا خاصا بها سماه كتاب القوافي وكتابا آخر هو كتاب العروض[(5)].

ثانيا: أهمية الشعر

الشعر فن العربية الأول، وأكثر فنون القول هيمنة على التاريخ الأدبي عند العرب خصوصا في عصورها الأولى: لسهولة حفظه وتداوله، و" قل أن نصادف في تاريخ الإنسانية

---

(1) نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3: ص17 وسر الفصاحة لابن سنان خفاجة: ص 286.

(2) طبقات فحول الشعراء: 56/1.

(3) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، تحقيق وتعليق محمد زغلول سلام، منشأه المعارف بالإسكندرية، ط3: ص41.

(4) البلاغة للمبرد: ص 81.

(5) ينظر الفهرست: ص268.

الطويل قوما اهتموا بأدبهم اهتمام العرب بشعرهم، ولا نمطا في العيش داخل الشعر أغلب مستوياته مثل ما وقع في الحياة العربية"[6].

ويعد الشعر وثيقة يمكن الاعتماد عليها في التعرف على أحوال العرب وبيئاتهم وثقافتهم وتاريخهم، فهو " علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"[7] و هو "ديوان العرب"[8].

قال ابن قتيبة فيه:" الشعر معدن علم العرب، وسفر كلامها، وديوان أخبارها ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخناق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النفار، و الحجة الحجة"[9].

وبالشعر عبر العرب عن مختلف العواطف والأحاسيس التي تخالجهم وعن طريقه كانوا يؤثرون في غيرهم ويحملونهم على الحماس، ويغرسون فيهم أخلاقهم ويدلونهم على حسن الشيم.

ولقد اهتم المبرد بالشعر –كسابقيه ومعاصريه- حتى أنه ملأ مؤلفاته به واستشهد به في كل موضع. ولشدة اهتمامه وتقييمه له جاء بأقوال الرسول ﷺ في تثييب الشعر والشعراء منها ما رواه عن أبي الفضل العباس بن الفرج الرياشي أنه قال له: "روى لنا أشياخنا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يستحسن الشعر، ويستنشده من أهله، ويثيب عليه قائله. ثم يروى أن شاعرا أنشده مدحا في الله ومدحا فيه، فأثابه على مدحه الله ولم يثبه على مدحه له"[10].

وروى المبرد أن الرسول ﷺ "كان يستحسن:

أَلاَ كُلُّ شيء مَا خَلاَ الله بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيـــمٍ لاَ مَحَالَة زَائِـــلُ

وكان يقول: إن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحرا"[11].

وأخبرنا المبرد أن حسان بن ثابت كان شاعر الرسول ﷺ وكان يروى أنه "أنشد الرسول ﷺ كلمة يقول فيها:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيَّنَةٌ كَانَتْ بُدَاهَتُهُ تُنْجِيكَ بِالخَبَرِ

---

(6) التفكير البلاغي عند العرب: ص23.

(7) طبقات فحول الشعراء: 22/1.

(8) الفاضل: ص10.

(9) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، لعبد السلام عبد الحفيظ عبد العال، مطبعة دار القرآن، دت، دط : ص122-123.

(10) الفاضل: ص09.

(11) المصدر نفسه: ص09.

فأعجب بذلك ﷺ وأثاب حسانا ودعا له"[12].

وذكر المبرد أن الرسول ﷺ لم يجر الشعر قط على لسانه بل كان يتمثل بالشطر الواحد فقط، منه أنه "كان يتمثل بقول طرفه:" ويأتيك من لم تزود بالأخبار"..وقال يوما لأبي بكر رحمة الله عليه: كيف قال العباس بن مرداس: أتجعل ذهبي وذهب العبيد بين الأقرع و عيينة؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله -ﷺ-: بين عيينه والأقرع، قال أليس هما سواء!" [13].

أما قول الرسول ﷺ " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خيره من أن يمتلئ شعرا" فقد قال المبرد أن عائشة رحمها الله كانت تفسر هذا القول ب: يعني الهجاء منه"[14].

و لتبيان أهمية الشعر عند العرب روى المبرد عن معاوية أنه قال: " اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم فإن فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم فلقد رأيتني يوم الهرير وقد عزمت على الفرار فما يردني إلا قول ابن الإطنابة الأنصاري:

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بِلاَئي وَأَخْذِي الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَبِيحِ
وَإِجْشَامِي عَلَى المِكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرْبِي هَامَةَ البَطَلِ المشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَو تَسْتَرِيحِي"[15].

يبين معاوية تأثير الشعر في النفس، وذلك أنه كاد أن يلوذ بالفرار يوم صدفين وما رده عن ذلك إلا تلك الأبيات تذكرها فبعثت في نفسه الحماس وأهبت فيه الحمية وذلك بسبب التأثير الذي يحدثه في النفس.

ومثل ذلك قول المنتجع لرجل من الأشراف: "ما علمت ولدك ؟ قال الفرائض قال:

ذلك علم الموالي لا أبا لك علّمهم الرجز فإنه يهرث أشداقهم"[16].

وهذا يعني أن الشعر يسهم مع التعاليم الدينية في تربية النشء بالإضافة إلى تقديمه لها نوعا من المعرفة، وإلا لما أدخله مربو الجيل الأول ضمن فروع المعرفة التي ينبغي تعليمها لأبناء

---

(12) الفاضل : ص09-10.
(13) المصدر نفسه: ص09
(14) المصدر نفسه: ص13.
(15) الكامل :68/4.
(16) المصدر نفسه: 61/2.

المسلمين فقد " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"[17] على حد قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كما أشار المبرد إلى دور الشعر في شرح ما غمض من ألفاظ القرآن على العرب وأورد في ذلك أمثلة[18].

وخصص بابا في كتابه الفاضل للشعر حتى أنه تكلم عن شعراء مغمورين داخل الحركة الأدبية في بغداد[19].

كما خصص بابا من الشعر في كتابه التعازي والمراثي جمع فيه مراثي الجاهلية المشهورة وشعر الإسلام من قديم ومحدث، و فسر ترتيبه للأشعار بهذا الشكل فقال:" لننزل بها من خشونة أشعار القدماء إلى لطف المولدين لمشاكله الدهر وصلاحة القول لنمضي من ذلك شيئا"[20].

و قيمة الشعر تكمن في بقائه على طول الدهر، وقد تنبه القدماء لهذا الأمر حيث يروي المبرد أن " نصيبا امتدح عبد الله بن جعفر فأعطاه خيلا وإبلا ودنانير ودراهم وثيابا فقال أحد من حضر: أمثل هذا الأسود يعطي هذا المال؟ فقال: أما إنه لئن كان أسود إن شعره لأبيض، وإن مدحه لعربي، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وما الذي أعطيناه؟ إنما أعطيناه مالا يفنى، و ثيابا تبلى، ومطايا تنفى، وأعطانا ثناء يبقى، ومديحا يروى"[21].

و مثل هذا ما روى عن معاوية أنه قال لرجل" من ولد قيس بن معد يكرب: ما أعطى أبوك الأعشى حين مدحه؟ فقال ثيابا وإبلا وأشياء أنسيتها، قال: لكنه أعطاه ما لا ينسى"[22].

كما أن الشعر لا يبقى على حال واحدة إنما يتغير بتغيير العصر وهذه ملاحظة ترددت في كتب المبرد لوعيه التام بها، منها قوله: " هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة

---

(17) طبقات فحول الشعراء :24/1.

(18) ينظر الفاضل: ص10.

(19) ينظر المصدر نفسه: ص: 23 وما بعدها، ص37 وما بعدها.

(20) التعازي والمراثي لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد حققه وقدم له محمد الديباجي، دار صادر بيروت، ط2، 1402هـ/1992م: ص 152.

(21) الفاضل: ص33-34.

(22) المصدر نفسه: ص34.

مستحسنة يحتاج إليها للتمثيل لأنها أشكل للدهر..." [23].

لهذا وجدنا المبرد ينظر بعين الإنصاف إلى الشعر قديمه وحديثه، لأن الشعر الجيد ليس له عصر، وليس مقتصرا على جيل دون جيل.

ثالثا: أغراض الشعر:

أغراض الشعر العربي هي تلك الموضوعات التي يتناولها الشعر كالوصف والمدح والهجاء والفخر والغزل، والرثاء وغيرها، وحول هذه الأغراض تدور أشعار العرب منذ القديم.

والمبرد شأنه شأن جميع الأدباء والنقاد ملأ مؤلفاته بكل شعر استحسنه، ووجدنا جميع الأغراض المعروفة مبثوثة في كتبه كالمدح[24]، والهجاء[25]، والفخر[26]، والوصف[27]، والغزل[28]، والرثاء[29].

إلا أن المتتبع لهذه الأغراض في كتبه يلاحظ أنه ميز الرثاء عن جميع الأغراض الأخرى إذ خصص له كتابا مستقلا هو" التعازي والمراثي" كما خصص له أبوابا في كتابيه " الكامل"[30] والفاضل"[31]، مستعرضا المشهور من المراثي قديمها وحديثها ذاكرا أراءه في تطبيقاته على النصوص التي يذكرها أو يحللها.

و ربما يرجع اهتمام المبرد بالرثاء لكون هذا الغرض يتميز بالصدق والعفوية في الأداء أكثر من غيره من الأغراض، ذلك لأن عاطفة الشاعر البدوية الفطرية كانت شديدة التوهج فإذا حزن بكى ونحب و ملأ الدنيا عويلا و كلما جفّت الدموع من عينيه استحثها لتسح وتفيض.

ويرى المبرد أن أحسن الشعر ما جمع غرضي الرثاء والمدح قال: " فأحسن الشعر ما خلط مدحا بتفجع، واشتكاء بفضيلة ، لأنه يجمع التوجع الموجع تفرجا، والمدح البارع اعتذار من

---

[23] الكامل: 03/2.

[24] ينظر الكامل: 3/3-4-5- 41/1-49-77-79-29-181-214-286-163/3382.

[25] ينظر المصدر نفسه : 48/1-49-58—10/3-25-26-69-73-83-157-158-163.

[26] ينظر المصدر نفسه : 163/3-49/1-54-61-111-147-260.

[27] ينظر المصدر نفسه: 78/1-150-373-128/2.

[28] ينظر المصدر نفسه: 50/1-68-281-293.

[29] ينظر المصدر نفسه: 66/1-84-211-219-221...41/2-277-278...98/3-29-30-202-203...

[30] ينظر الكامل: 4/4-72.

[31] ينظر الفاضل: ص59 – 68.

إفراط التفجع باستحقاق المرثي وإذا وقع نظم ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين"[32]. ومثل لهذا النوع من الشعر بقول الخنساء " واعلم أن قول الخنساء من أجمل الكلام حيث تقول[33]:

وَإِنَّ صَخْرًا لَوَلِّيُّنَا وَسَيُّدُنَا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُوا لَنَحَّارُ

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّــهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَـــارُ

ثم شرح البيتين كعادته : " فجعلته موضعا للسؤدد ومعنيا بأمر العشيرة لقولها: "لوالينا وسيدنا " وجوادا مفضلا نحارا في وقت الإقتار والشتوة، ثم قالت:" وإن صخرا لتألم الهداة به" فجعلته إمام الأئمة ثم جعلته علما والعلم الجبل، فلم تقتصر على ذلك حتى جعلت في رأسه نارا شهرة في الكرم ونار على علم الهداية"[34].

كما استحسن الأشعار التي تتحدث عن الشيب و الشباب[35] لأنه الشعر المعبر بصدق عن تجربة قائلة.

نستخلص مما سبق أن المبرد فضل الرثاء على سائر الأغراض لأنه ينشد الصدق عند اختياره للشعر، والنفس الحزينة التي تعاني آلام الفراق ينتزع عنها ثوب النفاق والكذب وتلبس ثوب الصدق.

رابعا: الشعر بين الموهبة و الصنعة:

إن العربي اتخذ لكل ما يعينه على قضاء حوائجه وصرف أموره، وتذليل الصعاب التي تواجهه صناعات من شأنها التيسير والتسهيل. ولما كان الشعر وسيلة من وسائل قضاء تلك الحوائج، فقد اتخذه صناعة وكان يعلم كباقي الصناعات: " وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم، والصناعات: منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان"[36].

---

[32] التعازي و المراثي: ص152.

[33] ديوان الخنساء، شرح معانيه و مفرداته حمدو طمّاس، دار المعرفة بيروت لبنان، ط2، 1425هـ/2004م: ص46.

[34] التعازي و المراثي: ص152-153.

[35] ينظر الكامل: 216/1-218 و الفاضل: ص68 - 77.

[36] طبقات فحول الشعراء : 05/1.

وقول ابن سلام هذا يبرز مدى مكانة الشعر وحظوته بين باقي الصناعات؛ إذ لقي الشعر عناية واهتماما كبيرين ليتمثل مرتبة الصناعات الثمينة القائمة على أصول وثوابت من شأنها إبرازه كأداة فعالة في المجتمع القبلي آنذاك. يقول الجاحظ في هذا الشأن:" فإنما الشعر صناعة، و ضرب من النسج، وجنس من التصوير"[37].

و إذا كان الشعر صناعة، فلماذا تعسر على كثير ممن له علم ودراية به وبقواعده أن يبدع فيه؟ مثل الخليل بن أحمد والأصمعي وابن المقفع وغيرهم.

فهناك من الأدباء الحذاق العارفين بفنون الشعر ونقده، ولكنهم مع ذلك لم تمكنهم معرفتهم تلك من قول أبيات شعرية يمكن أن تعد في عداد الإبداع الفني، وليس أدل على ذلك من اعترافهم بهذا العجز وهم من هم في مجال الشعر ونقده، فهذا المبرد يقول: " لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي أنه ليس أحد من المخلوقين يختلج في نفسه مسألة مشكلة إلا ليقيني بها، وأعدني لها، فأنا عالم، ومتعلم، وحافظ ودارس، لا يخفي علي مشتبه من الشعر، والنحو، والكلام المنثور، والخطب والرسائل، وربما احتجت إلى الاعتذار من فلتة أو التماس حاجة فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني ، ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان "[38].

هذه المعرفة التي وصفها المبرد هي قبل كل شيء معرفة علمية أو المعرفة الفنية الشعرية ونستخلص منه أنها معرفة ترتبط بالنشاط الإبداعي؛ مذاهبه وأحكامه و أصوله الفنية، وغير ذلك مما يتطلبه الإبداع الذي لا يمكن ممارسته إلا متى كان المرء قد حباه الله تلك الموهبة التي خص بها بعضا من خلقه، وهكذا فالشعر لا يتعلم " لأن الآلة التي يتوصل بها غير مقدورة لمخلوق"[39] بل هي "مما يجبل عليه الإنسان ومن مواهب الرحمان "[40].

والموهبة الشعرية هي التي اشترطها بشر بن المعتمر في المبدع، لأنها السمة الرئيسية التي تميز المبدع عن غيره، كما أن الإبداع الشعري نسق جمالي ينشأ عن قدرات واستعدادات لدى المبدع، ويصل اهتمام بشر بهذا السمة إلى القول بأن من لم تكن فيه هذه الموهبة كان من

[37] الحيوان: 132/3.

[38] الصناعتين: 171.

[39] سر الفصاحة : ص84.

[40] تحرير التجبير لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حنفي محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ: ص407.

الأفضل له أن ينصرف عن محاولته تلك إلى عمل آخر يكون أقرب إلى طبعه، وأن يتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليه وأخفها عليه[41].

أما الجاحظ فقد أرجع الإبداع الفني عند العرب في كتابه البيان والتبيين إلى أنه وحي وإلهام. قال: " كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجابة فكرة، ولا استعانة ..." [42].

وقد قال الشاعر[43]:

وَقَدْ يَقْرِضُ الشِّعْرَ البَكِيُّ لِسَانُهُ وَتعيِي القَوَافِي المرْءَ وَهُوَ خَطِيبُ

وقيل لابن المقفع في ذلك فقال:" الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه"[44].

لهذه الاستشهادات أهميتها لأنها تشير إلى أن قول الشعر موهبة وإلهام وتكشف عن اتفاق عجيب بين أصحابها، وهو أن الشاعر غير قادر على قرض الشعر دون أن تكون تلك القوة قد سيطرت عليه، أو بالأحرى من لم تكن له موهبة، ولم يكن مهيئا نفسيا لقرض الشعر بل إنه يظل عاجزا عن إبداع عمل فني متكامل، وهذا يعني أن الشعر ليس صناعة، وأن الشاعر ليس صانعا كغيره من البارعين والحذاق فحسب، بل يمتاز بما خصه الله من موهبة وإلهام.

لهذا وجدنا المبرد يقول إنه عالم عارف لكن هذه المعرفة لم تفعل له شيئا عندما احتاج إليها، وهكذا فإن المعرفة بخصائص الإبداع لن تكون سابقة للنشاط الإبداعي، بل هي داخلة فيه مشتركة وإياه في إنتاج العمل الإبداعي، وهذا الضم بين المعرفة والموهبة يميز المعرفة العلمية تميزا جذريا عن الموهبة، وذلك لأن الإبداع ليس مجرد تطبيق لقوانين نظرية ومعرفة المبدع بما ليست بداية يبدأ منها العمل الشعري أصلا، بل هي نهاية العملية التي تهدف إلى أن تنتج عملا متكاملا، ويكفينا في هذا الصدد أن نسوق رأي ابن قتيبة في شعر الخليل بن أحمد:

إِنَّ الخَلِيطَ تَصَدَّعْ فَطِرْ بِدَائِكَ أَوْقَعْ
لَوْلاَ جَوارٍ حِسَان حُورُ المدَامِعِ أَرْبَعْ
أَمُّ البَنِينِ وَأَسْمَـــا ءُو الرَّبَابُ وَبَوْزَعْ

[41] ينظر الرسالة الكاملة في البيان والتبيين للجاحظ : 1/135-138.
[42] البيان والتبيين :3/28.
[43] المصدر نفسه: 1/209.
[44] المصدر نفسه : 1/208.

لَقُلْتُ لِلرَّاحِلِ ارْحَل إِذَا بَدَا لَكَ أَوْدَعْ

يقول بن قتيبة: " وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة"[45].

كما أورد المبرد بيتين للخليل لم يعلق عليهما[46]:

أَبْلِغَا عَنِّي الُمنجِّـــمَ أَنِّي كَافِرٌ بِالَّذِي قَضَتْهُ الكَوَاكِبْ

عَالِمٌ أَنَّ مَا يَكُونُ وَمَاكَا نَ بِحَتْمٍ مِنَ المهَيْمِنِ وَاجِـــبْ

و ملاحظة بن قتيبة ليس خاصة بشعر الخليل بن أحمد بل إنها سمة مميزة يتسم بها أشعار كثير من العلماء، والمبرد لا يعد منهم فقوله: " وربما احتجت إلى الاعتذار من فلتة أو التماس حاجة فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد، ولا لسان " حالة مر بها لكنها لم تصادفه في كل الأحوال. فها هو ذا المرزباني في معجم الشعراء يروي حكاية للمبرد يقول: "محمد بن يزيد بن الأكبر أبو العباس الأزدي النحوي المعروف بالمبرد: ذكر أنه دخل إلى المتوكل فقال له : يا بصري أرأيت أحسن وجها مني ؟ قال : فقلت ولا أسمح راحة ثم تجاسرت فقلت:

جَهَـــرْتُ بِحَفْلَةٍ لاَ أَتَّقِـيهَا لِشَكٍّ فِي اليَمِينِ وَلاَ ارْتِيَـابِ

بِأَنَّكَ أَحْسَنُ الخُلَفَاءِ وَجْهًا وَأَسْمَحُ رَاحَتَـينِ وَلاَ أُحَـــابِي

وَأَنَّ مُطِيعُكَ الأَعْلَى جُدُودًا وَمَنَ عَاصَاكَ يَهْوِي فِي تَبَابِ

فقال لي: أحسنت. وأجملت في حسن طبعك وبديهتك "[47].

فاستحسان المتوكل شعر المبرد يدل على أن المبرد كان متمكنا من قول الشعر، خاصة وأن الخلفاء في العصر العباسي كانوا على دراية بالشعر ونقده وقال الزبيدي يصف المبرد: "ولم يكن أبو العباس محمد يزيد على رياسته وتفرده بمذهب أصحابه وإربائه عليهم بفطنته وصحة قريحته، متخلفا في قول الشعر وكان لا ينتحل ذلك ولا يعتري إليه ولا يرسم نفسه به وله أشعار كثيرة"[48].

---

(45) الشعر و الشعراء: 70/1.

(46) الكامل : 15/2.

(47) معجم الشعراء للمرزباني: ص449.

(48) طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط1، 1979: ص112.

وقال المبرد: " لما توفيت والدة القاضي اسماعيل رأيت من وجهه ما لم يقدر على ستره وكان كل يعزيه، وقد كان لا يسلوا، فسلمت عليه ثم أنشدته

لَعَمْرِي لَئِنْ عَالَ رَيبُ الزَّمَانِ   فَسَاءَ لَقَدْ غَالَ نَفْسًا حَبِيبَـــهْ
وَلَكِنَّ عِلْمِي بِمَا فِي الثَّـــوَا   بِ عِنْدَ المصِيبَةُ يُنْسِي المصِيبَهْ

فتفهم كلامي واستحسنه ودعا بدواة وكتبه ثم انبسط، وزالت عنه تلك الكآبة والجزع"[49].

نستخلص من الشواهد السابقة أن المبرد كان شاعرا ذواقة وكان على علم بقول الشعر وإبداعه ومع ذلك كان عالما في النحو حتى عين على رأ س المدرسة البصرية وقل أن يجتمع هذان الصفتان في شخص واحد (عالم وشاعر) إلا ما ندر.

خامسا: مقاييس بلاغة الشعر:

وضع المبرد مقاييس اعتمد عليها من أجل تحديد جيد الشعر من رديئه. و هذه المقاييس هي:

1) " إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم؛ حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول، فإن استوى هذا في الكلام المنثور، والكلام المرصوف المسمى " شعرا"؛ فلم يفضل أحد القسمين صاحبه"[50].

فكل هذه المقاييس التي ذكرها المبرد إذا توفرت في الشعر عد الشعر بليغا

2) " و أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة و نبه فيه بفطنته على ما يخفي عن غيره، وساقه برصف قوي واختصار قريب." [51].

لقد اشتمل هذا التعريف للشعر الحسن عند المبرد على المقاييس التالية:

أ- المقاربة في التشبيه:

لقد ربط المبرد جودة الشعر بالمقاربة في التشبيه لأن التشبيه هو أكثر الصور البلاغية إيثارا عند العرب، فهو عند اللّغويين -والمبرد منهم- " أكثر الأنواع البلاغية للصورة اهتماما

---

(49) معجم الأدباء: 135/6-136.

(50) البلاغة للمبرد: ص81 وينظر شرح هذه المقاييس في الفصل الأول المبحث الثاني من هذا الباب.

(51) الكامل: 294/1.

وجذبا لانتباههم، والسبب في ذلك أن أداة التشبيه، التي تقوم بدور الرابط المنطقي بين الطرفين، تجعل التشبيه أول ما يلفت انتباه المتلقي للشعر، إضافة إلى كثرة ورود التشبيه في الشعر الجاهلي"[52].

و كان التشبيه معيار براعة الشاعر ومهارته، ذلك لأن هناك ربطا بين الشاعر وبين القدرة على التشبيه. " يروى أن عبد الرحمن بن حسان لسعه زنبور فجاء أباه يبكي فقال له: مالك؟ فقال : لسعني طائر كأنه ملتف في بردي حبرة قال: قلت والله الشعر"[53].

فهذه الرواية تدل على أن العرب كانوا يعتبرون التشبيه هو الشعر نفسه.

و قد خصص المبرد للتشبيه بابا طويلا في كتابه الكامل جمع فيه صنوف التشبيه سواء مما ورد عند القدماء أو المحدثين.

كما عدّه ثعلب أصلا من أصول الشعر، وجعل له نفس الأهمية التي يحتلها المدح والرثاء والهجاء والغزل في الشعر[54].

أما ابن وهب فكان يرى أن التشبيه هو" من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف، كان بالشعر أعرف"[55].

وكثيرا ما قدم شاعر على آخر " لأنه أحسن طبقته تشبيها"[56]، وذلك لأن التشبيه " من أصعب أنواع الشعر، وأبعدها متعاطى"[57]، فهو لا يقع إلا لمن أحسن النظر، وأطال التأمل فأدرك العلاقات الخفية بين الأشياء التي لا تبدو لعين الناظر العادي.

و المقاربة في التشبيه التي ركز عليها المبرد عند حديثه عن أحسن الشعر معناها أن يكون القائل متفطنا لما بين الأشياء من الصلات، وحسن التقدير لهذه الصلات،"فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس، وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين

---

[52] الصورة البلاغية عند العرب عبد القاهر الجرجاني " منهجا وتطبيقا"، أحمد علي دهمان، ط2، 2000م: ص315.

[53] الكامل:1/263-264.

[54] ينظر قواعد الشعر لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، حققه و قدّم له و علّق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1995م: ص33.

[55] البرهان في وجوه البيان: ص130.

[56] طبقات فحول الشعراء: 55/1.

[57] العمدة: 326/2.

وجه الشبه بلا كلفة، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكها له، لأنه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس"[58].

واضح من هذا القول أن صاحبه عالج المسألة من زاوية بلاغية أو بيانية مكتفيا بذكر القوانين التي تحكم علاقة المشبه بالمشبه به، حتى لا يكون التشبيه غامضا، ووجه الشبه محجوبا وهذه أمور معروفة ومشروطة في التشبيه، وقد نص عليها الجرجاني في الوساطة عندما اعتبر اختلاف المشبه بالمشبه به في الصفات عيبا يصيب مقياس المقاربة في التشبيه.

ويقوم التشبيه في المقاربة على قاعدة التجاوز غير المفرط بين سياقين منفعلين تجمع بينهما أداة ملفوظة أو ملحوظة وهي فاصل يحافظ على التوازن بين الطرفين ويقرب الطرف الأول من الطرف الثاني، ويمكن لهذه الرابطة أن تضيف بعض المعاني من الطرف الثاني إلى الطرف الأول بعملية بسيطة تنسجم مع أصول الاستعمال اللّغوي. "فالتشبيه –في هذا الوضع– يقوم على لحظ نوع من النسبة المنطقية بين الأطراف المقارنة أكثر مما يقوم على ما يمكن أن نسميه بالتناسب النفسي الذي ينبع من الانفعالات والمواقف الإنسانية التي يتشكل منها نسيج التجربة الشعرية"[59] لذلك آثر القدماء التشبيه لما فيه من نقل لبعض الأشياء المعنوية البعيدة إلى صور حسية قريبة من الواقع.

تعتبر قاعدة المقاربة عند القدماء والمجسدة في التشبيه سمة من سمات النبوغ والتفوق و الابتكار.

ولقاعدة المقاربة دواعي وأقسام، لاعتبارات مختلفة كالطرفين والجامع والأداة، غير أن بعض هذه الأقسام كان معلما يهتدي به إلى مواطن الجمال، وبعضها الآخر كان سطحيا لم يف بالغرض الجمالي المطلوب.

يقول جابر عصفور في معرض حديثه عن الإصابة والمقاربة في التشبيه: "والإصابة والمقاربة في التشبيه مصطلحان يمكن أن يدرجا تحت ما نسميه التناسب المنطقي بين أطراف التشبيه، لأنهما يرتبطان في النهاية بمدى التوافق الشكلي بين الأطراف"[60].

---

[58] شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، علق عليه و كتب حواشيه تجري الشيخ، وضع فهارسه العامة إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1424هـ/2003م: 1/09-10.

[59] الصورة الفنية في التراث النقدي: ص173.

[60] المرجع نفسه : ص185.

وعموما فإن قاعدة المقاربة في ظل الموروث القديم لا تعدوا أن تكون وجه مقارنة ومقاربة بين صورة في الذهن، وصورة أخرى في الواقع؛ أي عالم الحقيقة حيث ينتفي أو يختفي الخيال، فهي كشف وإثارة يشكلها المبدع من اللغة في موقف انفعالي أو فكري ما.

وما لاحظناه على المبرد في كتابه الكامل أنه لم يكثر من الشواهد حول التشبيه المقارب بل اكتفى بالقليل، كما أنه لم يهتم به كما كان الأمر في التشبيه المفرط بعكس ما كان متوقع، بمعنى أن مفهوم الصورة عنده أعمق من مجرد إدراك التشابه بين طرفيها أو الجمع بين المتباعدات.

ومقياس " التشبيه المقارب" الذي ذكره المبرد عد فيما بعد وخاصة عند المرزوقي عنصرا من عناصر عمود الشعر.

ب– إصابة الحقيقة

تعد الإصابة عنصرا مهما من العناصر التي تبرز بها جماليات المعنى الشعري، لأن بها يتم تحقيق الغاية المثلى في التصوير والوصف. قال الجاحظ: "وهم يمدحون الحذق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإلى إصابة عيون المعاني ويقولون: أصاب الهدف، إذا أصاب الحق في الجملة، ويقولون : قرطس فلان وأصاب القرطاس، إذا كان أجود إصابة من الأول، فإن قالوا: رمى فأصاب الغرة، وأصاب عين القرطاس فهو الذي ليس فوقه أحد"[61].

وتحقيق الغاية المثلى التي تعنيها الإصابة أمر يدركه الذكاء وحسن التمييز " وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز، فما وجدناه صادقا في العلوق مازجا في اللّصوق يتعسّر الخروج عنه والتبرؤ منه، فذاك سيماء الإصابة "[62].

و الإصابة تعني بجوانب كثيرة في المعنى الشعري فهناك الإصابة في البناء، ونظام اللغة والإصابة في اختيار الوزن والقافية، ولكن الذي يهمنا بالدرجة الأولى في هذا السياق هو الإصابة في المعاني، أي فن النظر إلى الأشياء، وطريقة تصويرها.

فمن الإصابة لعيون المعاني أن تكون معاني الشاعر لائقة بغرضه الذي يقول فيه مؤسسة على نوع من الفطنة بملابسات الموقف، فلا تنسيه دقة النظر إلى الأشياء الحفاظ على مبادئ اللياقة. من ذلك إعجاب المبرد بأبيات مدح فيها أبو يزيد عبد الله بن طاهر" قال أبو العباس:

---

[61] البيان والتبيين: 147/1.

[62] شرح ديوان الحماسة: 11/1.

أنشدني أحد الأمراء لشاعر من أهل الري يكنى أبا يزيد شيئا يقوله لعبد الله بن طاهر أحسن فيه وأصاب الفص، وقصد بالمدح إلى معدنه واختاره لأهله:

اشْرَبْ هَنِيئًا عَلَيكَ التَّاجُ مُرْتَفِقًا　　　فِي شَاذَ مَهْرَ وَدَعْ غُمْدَانَ لِلْيَمَنِ

فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَاجِ المِلْكِ تَلْبَسُهُ　　　مِنْ هَوْذَةَ بْنَ عَلِيّ وَابْنَ ذِي يَزَنِ

فأحسن الترتيب جدا، وإن كانت الملوك كلها تلبس التاج في ذلك الدهر."[63]

ومما عابه المبرد التناقض في الكلام حيث "أنشد لمحمود بن مروان بن أبي حفصة:

لِي حِلَلَةٌ فِيمَنْ يَنُــــمُّ　　　وَلَيْسَ فِي الكَذَّابِ حِيلَهْ

مَنْ كَانَ يَكْذِبُ مَا يُرَدِ　　　دُ فَحيـــلَتِي فِيهِ قَلِيــلَهْ

و قال: وقد ناقض هذا الشاعر لأنه قال: "وليس في الكذاب حيلة" ثم قال " فحيلتي فيه قليلة" "[64].

فقد وصف هذا الشعر بالتناقض حرصا على تحقيق فكرة الإصابة التي فرضت على الشعر من الخارج، وكان الحكم على المعنى لذاته لا لفنية التعبير[65].

و من الإصابة في معاني النسيب والغزل أن تكون الألفاظ عذبة رقيقة مظهرة للتودد والوجد و اللوعة. حكى المرزباني عن المبرد قال:" أخبرني إبراهيم بن محمد بن عرفة عن محمد بن يزيد النحوي. قال: قد عابوا على العباس بن الأحنف إدخاله في الغزل هذا البيت[66]:

فَإِنْ تَقْتُلُونِي لاَ تَفُوتُوا بِمُهْجَتِي　　　مَصَالِيتَ قَوْمِي مِنْ حَنِيفة أَوْ عِجْلِ

كما عيب عن الفرزدق قوله: [67]

يَا أُخْتَ نَاجِيَةَ بْن سَامَةَ إِنَّنِي　　　أَخْشَى عَلَيْكِ بَنِيَّ إِن طَلَبُوا دَمِي

وقالوا: ما للمتغزل وذكر أولاد العلات والاحتجاج بطلب الثارات، هلا قال كما قال جرير:

---

[63] الكامل: 24/2.

[64] الموشح: ص350-351.

[65] ينظر شرح ديوان أبي تمام: ص 78/2.

[66] ديوان العباس بن الأحنف: ص209. و قد ورد بغير هذا اللفظ و اللفظ بتمامه:

وَ لَوْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يُقَادُ لَمَا وَنَتْ　　　مَصالَيتُ قَوْمِي مِنْ حَنِيفَةَ أَوْ عِجْلِ

[67] ديوان الفرزدق: ص550.

قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلاَنَا"[68].

و روى عن محمد بن أبي الأزهر قال "حدثنا محمد بن يزيد النحوي قال: لم تجد الرواة ومن يفهم جواهر الكلام لبيت نصيب هذا مذهبا حسنا:

أَهِيمُ بِدَعْدِهَا حَيِيتُ وَإِن أَمُتْ فَوَاحُزْنًا مَنْ ذا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي

قال وقد ذكر عبد الملك ذلك لجلسائه فكل عابه، فقال عبد الملك: فلو كان عليكم كيف كنتم قائلين ؟فقال رجل منهم كنت أقول البيت الأوسط الذي أخره:

" فواحزلنا من ذا يهيم بها بعدي"

فقال عبد الملك: ما قلت والله أسوأ مما قال، فقيل له: فكيف كنت قائلا يا أمير المؤمنين ؟ قال: كنت أقول:

تُحِبُّكُمْ نَفْسِي حَيَاتِي فَإِن أَمُتْ فَلاَ صَلَحَتْ دَعْدٌ لِذِي خُلَّةٍ بَعْدِي"[69].

ولم تقف الإصابة في المعنى الشعري عند علاقة الإنسان بأخيه الإنسان بل قد ترامى الحرص على مبادئ اللياقة والذوق الرفيع حتى مع الحيوان، والحفاظ على النموذج الذي ارتضاه العربي لها، فالشاعر المجيد هو الذي يصف هذا النموذج على ما هو عليه، وأجود موصوف ما انطبقت عليه الصفة المقررة سلفا.

فقد عاب بعض الرواة على الشماخ قوله في وصف ناقته[70]:

إِذَا بَلَّغْتِنِي، وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرِقِي بِدَمِ الوَتِيـنِ

فقد كان ينبغي أن ينظر لها مع استغنائه عنها.

وهذا الدعاء لا يعني حقيقة الدعاء بقدر ما يرمي إلى غاية يرجو تحقيقها، فالشماخ مدلا في دعائه على ناقته يخفي قيمة لا تدرك إلا ببذل الجهد، وإمعان النظر في صيرورة المعنى وحركته في الفكر الشعري، وقد أدرك المبرد هذا الخبئ الذي يومئ إليه بيت الشماخ فقال:

---

[68] الموشح: ص291.

[69] المصدر نفسه: ص190.

[70] ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، حققه و شرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، دت: ص323 و قد ورد البيت بغير هذا اللفظ و اللفظ بتمامه :

إذا بَلَّغْتِنِي وَ حَطَطْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرِقِي بِدَمِ الوَتِينِ

" وقد أحسن كل الإحسان في قوله:

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ، فَاشْرِقِي بِدَمِ الوَتِينِ

يقول لست أحتاج إلى أن أرحل إلى غيره"[71].

ومما سبق يتضح أن الحرص على فكرة الإصابة في معاني الشعر كان واضحا، إذ أصبح جمال الشعر في وفائه بأعراف الواقع، ومطابقته العرفية، ونقله الأمين لحقائق الكون والحياة، وتساوت معاني الشعر مع الأفكار المتداولة.

وفكرة إصابة عيون المعاني يفهم منها إصابة الحقيقة التي ذكرها المبرد في تعريفه.

والحقيقة قد يقصد بها أمران:

1) الحقيقة بمعنى الصدق ضد الكذب.

2) الحقيقة التي تمثل الواقع ضد المبالغة والإفراط والغلو.

- فالأمر الأول مثله رجال عصر النبوة والخلفاء الراشدين وبعض التابعين، وذلك أنهم كانوا يرجعون في الحكم على الأفعال والأقوال في ذلك المجتمع الفتي بما يتفق وتعاليم الدين الإسلامي، فربطوا بين الشعر وبين الصدق، وبعض الأقوال المنسوبة إلى رسول الله ﷺ يفهم منها اشتراط ذلك. فقد "روى أنه سمع بيتا يقول فيه أحد الشعراء أن سيفه في المعركة كان يقتل في ذهابه ومجيئه فقال ﷺ : هل كان كما قال؟"[72]

و لا نجد أحدا اهتمّ بهذا المقياس كعمر ابن الخطاب-رضي الله عنه- فحين استمع إلى قول الحطيئة[73]:

مَتىَ تأتِهِ، تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ، عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدِ

قال: كذب، بل تلك نار موسى نبي الله -ﷺ-و على هذا الأساس فضل زهيرا جاعلا من فضائله أنه "لا يمدح الرجل إلا بما فيه "[74].

---

(71) الكامل:1/129.

(72) الأغاني لأبي فرج الأصبهاني، طبعة دار الكتب المصرية، دت: 2/61.

(73) ديوان الحطيئة برواية و شرح ابن السكيت، دراسة و تبويب مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1413هـ /1993م: ص13

(74) طبقات فحول الشعراء:1/63.

وقد كان المبرد من المعجبين بالشعر الذي يوافق الحق و لا كذب فيه، و يظهر ذلك في تعليقه على أبيات منها:

وَكُلُّ فَتىً فِي النَاسِ بَعْدَ ابْنِ أمِهِ كَسَاقِطَةٍ إِحْدَى يَدَيهِ مِنَ الخَبْلِ
وَبَعْضُ الرِّجَالِ نَخْلَةٌ لاَجَنىَ لهَا وَلاَ ظِلَ إِلاَ أَنْ تُعَدُّ مِنَ النَّخْلِ

و قال : " وهذا من جيد الكلام لصحة معناه، ولأنه وافق حقا"[(75)]

كما أن هناك من رجال العلم من نظر إلى الشعر على أنه يجب أن يكون صورة صادقة لما يجري في الواقع، فارتبطت جماليات المخيلة بالقرب من الواقع والاحتكام إلى العقل لأن الصدق بمعناه الخارجي هو مطابقة الكلام للواقع الخارجي بكل تفاصيله وهو ما يقابل كلمة كذب. روى المبرد أن امرأة عمران بن حطاب قالت له: " أما زعمت أنك لم تكذب في الشعر قط! قال: أوَ فعلت؟ قالت: أنت القائل:

فَهُنَاكَ مَجْزَأَةُ بن ثَوْ رَكَاَن أَشْجَعَ مِنَ أُسَامَه

أيكون رجل " أشجع من الأسد! قال: فقال: أما رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة والأسد لا يفتح مدينة"[(76)].

فإصابة الحقيقة تصبح صور الأشياء بموجبها في الشعر هي صورها في الواقع، ويغدو الشعر نقلا فوتوغرافيا لما هو كائن، وهذا أمر يطمس جانبا من محاسن الشعر، فالشعر عطاء مخيلة لا يمكن أن يحصر في وصف الأشياء على ما هي عليه فحسب بل مبناه على الادعاء وإضفاء قيم جديدة على الموصوفات، من خلالها يتضح التفطن من الناظم المدعي.

إن الصدق بمعناه المعتاد أمر ينبغي ألا نتجاهله، فالنقاد وإن كانوا يدركون قيمته في العمل الشعري، إلا أنهم يستعملون "الصدق" بمعنى مخالف عن المعنى المألوف، وهو المعنى الخارجي لكلمة " صدق" فكثيرا ما يترك هذا المعنى ويحل محله معنى آخر، وهو صدق التجربة أو الصدق الشعوري، ويقصد به صدق الشاعر وأمانته وقدرته على التعبير عن دقائق تجربته الداخلية، بصرف النظر عن اتفاق هذه التجربة مع حرفية الواقع الخارجي أو عدم اتفاقها.

(75) التعازي و المراثي: ص18.
(76) الكامل: 128/3.

ولقد أحس ابن قتيبة بما للصدق الداخلي من أثر في عملية الإبداع الشعري ، لذلك فاضل بين نسيب جميل وكثير، و"قدم جميلا عليه وعلى أصحاب النسيب جميعا في النسيب لأن جميلا كان صادق الصبابة وكان كثير يتقول ولم يكن عاشقا"(77).

و لقد أدرك أن الحب ينبوع هذا اللون من الشعر، وعرف أن العاطفة إذا كانت حقيقة صادقة أثرت في الشعر فجعلته قويا مؤثرا.

كما أن المبرد أكثر في مؤلفاته من شعر المراثي لما فيها من صدق العاطفة فقد روى قصيدة طويلة شملت سبع صفحات لإبراهيم بن مهدي يرثى ابنا له أصيب به بالبصرة وهو واليها وكان فيما يؤثر عنه يستحق أن يرثى وأن يوصف، و قال فيها: "وشعره هذا يستحق أن يبكي القلوب، ويستنزل الدموع لحسن لفظه، وصحة معناه، وشرف قائله، وأنه إذا سمع علم أنه عن نية صادقة"(78).

وقال أيضا في قصيدة لأبي ناظرة السدوسي، وكان رجلا من أهل العلم والمعرفة يرثى البصرة وأهلها: أنها جاءت " بكلام عربي فصيح ينبيء أنه كلام موجع يخرج عن نية صادقة من ألفاظ رجل لا عجز يقعد به عن بلوغ الحاجة، ولا إسراف في قوله وتمحل يتجاوز به القدر"(79).

و في الباب نفسه، باب المراثي، نجد المبرد يستحسن أبياتا لأخت عمرو ذي الكلب ترثيه فيها "وفي هذه القصيدة من حر الكلام وصادق المدح قولها:

وَخَرقٍ تَجَاوَزْتَ مَجْهُـــولَةً بِوَجْنَاءَ حَرْفٍ تَشَكّي الكَلاَلاَ
فَكُنْتَ النَـــهَارَ بِهِ شَمْسُهُ وَكُنْتَ دُجَي اللَيلِ فِيهِ الهَلاَلاَ
فَمَا بَلَغَتْ مَدْحَتِي لاَمْرِئٍ يَزُمُ الكُمَاةَ وَيُعْطِي النَـــوالاَ
وَيَنْزِمُ فِي غُمْرَاتِ الحُرُوبِ إِذَا كَرِهَ المحْجِمُونَ النّــــزَالاَ"(80)

ولنا أن نتساءل بعد هذا هل ينبغي لكي تكون التجربة الشعرية صادقة أن تكون مما قد مر به المبدع فعلا أو بمعنى آخر هل ينبغي أن تكون تجربة واقعية؟

(77) الشعر و الشعراء: 545/2.
(78) التعازي و المراثي: ص153-159.
(79) المصدر نفسه: ص282.
(80) الفاضل: ص60.

إن نجاح الشاعر في التعبير عن هذه التجربة أو تلك يكون نتيجة اشتراك بين الخيال والانفعال، ثم الجهود التي يبذلها المبدع ليتم له إخراج بناء فني متكامل، فأحسن ما يقدمه المحدث للمبدع أن يقترح عليه فحسب، وعليه بعد ذلك أن يختار ويؤلف، لذا لن تكون هناك تجربة فنية صادقة، إلا بالنسبة للمبدع الذي يعرف كيف يلتقطها ويفيد منها، فليس بالضرورة أن يمر المبدع بالتجربة فعلا، ولا أن يلاحظها تحدث في الواقع، فالشاعر بحساسيته وحدة انفعاله يتأثر بما يشاهده ويختزن هذه الانفعالات في نفسه حتى يتكون له رصيد من التجارب عبر السنين.

فالشعر إذا ما أخذناه بمقياس الصدق والكذب بمعناهما الحرفي صار كذبا دون شك ولكن نظرا لأن الشاعر يقدم تجربته هو، فإننا لا نستطيع أن نصفه بالكذب متى ما أدى هذه التجربة بأمانة وصدق، وعلى ذلك فإن الشعر يوصف بالصدق الداخلي ولا يوصف بالكذب.

- والأمر الثاني جاءت فيه الحقيقة مقابلة للمبالغة والإفراط في قول الشعر. و المبالغة عرفها الشعر العربي منذ العهد الجاهلي ولكنها لم تعرف بهذا الاسم الاصطلاحي عند البلاغيين إلا في عهد متأخر، كما هو الحال في كثير من المصطلحات البلاغية والنقدية. غير أن المبالغة في الشعر الجاهلي لم تتجاوزك الحد المألوف بين الشاعر والمتلقي لأن الشعر الجاهلي يغلب عليه الواقعية والوضوح في معظمه.

و في العصر الأموي والعباسي استجاد البلاغيون المبالغة وحبذوها في الأشعار وذلك لأن المبالغة تحقق فيها جمالية لا يحققها الاقتصاد.

على أن إيثار المبالغة لا يعني انقطاع الصلة بين الشعر و الواقع. و على هذا فالإصابة في المبالغة تعني الاعتدال في وصف الأشياء، فلا يبالغ الشاعر في الوصف فيخرج بالموصوف عما يقبله العقل، ولا يصوره على ما هو عليه ويبالغ في الاقتصاد في تصويره فيفقد الشعر قيمته.

فالمبالغة والإفراط هي طريقة العرب في كلامها لتبلغ الغاية المثلى في وصف الأشياء لأن العرب من شأنها أن تبالغ في الوصف والذم كما من شأنها أن تختصر وتوجز ذلك لتوسعها في الكلام واقتدارها عليه[81].

و هكذا فالشعر الجيد هو الذي يتجاوز تسجيل ما هو كائن إلى رؤية ما ينبغي أن يكون.

---

[81] ينظر البرهان في وجوه البيان: ص 153.

والمبرد وإن بدا سيء الظن بالمبالغة والتشبيه المتجاوز، متشبثا بضرورة مطابقة الفن القولي للحقيق الموضوعية أو أن يقع قريبا منها على الأقل في قوله " ومن الإفراط فيه قوله:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتِ مِنِّى مُعَلَّقٌ   بِعُودِ ثُمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُوُدُهَا

الثمام: نبت ضعيف، واحدته ثمامة، و هذا متجاوز كقول القائل:

* وَ يَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَطِيرَ زِمَامُهَا *

وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه فيه بفطنته على ما يخفي عن غيره، وساقه يرصف قوي واختصار قريب."[82]إلا أننا وجدناه يورد مجموعة من الأشعار التى عدها من التشبيه المفرط. والإفراط عند المبرد ليس مرتبط بقيمة المعنى المجرد ولكنه مرتبط بكيفية التأدية وعرضه، كما أن هذا الإحساس يثار من خلال الأفعال والحركات التي يرسمها الشاعر بواسطة اللغة التي يتحول بها المعنى إلى شيء محسوس وقد سبقه الجاحظ فاستحسن بعض المبالغات، وضاق ببعضها غاية الضيق وما عابه منها كان متصلا بالعقيدة.

ومن الأشعار التي جاء تعليق المبرد عليها بلفظه " المفرط المتجاوز" قول بكر بن النطاح يمدح أبا ذلف القاسم ابن عيسى[83]:

لَهُ هِمَمٌ لاَ مُنْتَــهَى لِكِبَــارِهَــــا   وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْـــــرِ

لَهُ رَاحَةٌ لَو أَنَ مِعْشَارَ جُــــودِهَا   عَلَى البرِّصَارَ البَرُّ أَنْدَى مِنَ البَحْرِ

ولَو أَنَّ خَلْقَ اللهِ فِي مَسْكِ فَارِسٍ   وَبَــارَزَهُ كَانَ الخُلِيّ مِنَ العُمْــــــرِ

من الواضح من خلال هذا المثل وغيره كثير أن مراده من التشبيه "المفرط" المبالغ فيه، وهذا هو الأساس الذي بنيت عليه البلاغة العربية في جانب كبير من جوانبها، ويظهر ذلك في تعريفهم للتشبيه كما استقر المتأخرين منهم، فإنه " لا يعمد إليه إلا لضرب من المبالغة"[84].

[82] الكامل: 294/1.

[83] المصدر نفسه: 3 /128.

[84] المثل السائر: 397/1.

التجاوز في الصورة لحدود الواقع ليس عيبا إذا جاء ضمن سياق تآزره فيه تلك الصورة مع بقية عناصره، لتبرز المعنى الذهني الذي يشعر به الشاعر في صورة محسوسة، وذلك من خلال مجموع الطرفين، وما بينهما من مناسبة وملاءمة.

وفي هذه الحال لا يفهم من عبارة المبرد " مفرط متجاوز" أنه مما يعاب في الشعر، إنما العكس صحيح، يرشدنا إلى ذلك تعليقه على أبيات لعريف القوافي، يرثي فيها سليمان بن عبد الملك، و يذكر عمر بن عبد العزيز جاء فيها:

ذَاكَ سَقَى وِدْقًا فَرَوَى وَدَقَهُ   قَبْرَ امْرِئٍ أَعْظَمَ رَبِّي حَقَّهُ

قال المبرد:" وقال قوم وَدْقَهُ يريد وَدْقَةً واحدةً، وهذا رديء في المعنى ليس بمبالغ"[85].

ومما يؤكد ذلك أيضا كثرة الشواهد التي ساقها لهذا الضرب بمقارنة مع شواهد التشبيه المقارب، وهي وإن كانت من التشبيه المفرط المتجاوز، فإنها لم تتجاوز استعمال العرب في تشبيهاتها، وهي بذلك مما يألفه الذوق العام.

إن الصورة إذا جاءت من المفرط المتجاوز، فليست من الكذب في شيء، والكذب عيب ومذمة، فكيف يكون محل إعجاب؟ وقد أعجب المبرد بصورة النابغة في رثاء حصن بن حذيفة، وعبارته صريحة هنا حيث يقول: " ومن عجيب التشبيه في إفراط غير أنه خرج في كلام جيد وعني به رجل جليل، فخرج من الاحتمال إلى باب الاستحسان، ثم جعل لجودة ألفاظه وحسن رصفه واستواء نظمه في غاية ما يستحسن"[86].

فالكلمات " عجيب التشبيه، كلام جيد ،في غاية ما يستحسن " تنص على إعجابه بهذا النوع من الصور ، ولكن هذا الإعجاب لا يكون مطلقا، إنما هناك قيود لا بد منها في الصورة حتى تبلغ هذا المبلغ من الإعجاب عند المبرد، فالتجاوز والإفراط لا يرفع كل صورة يقع فيها إلى درجة الجودة ما لم يكن في صياغة فنية تصور المعنى وتؤديه، وفيها من جودة الألفاظ ما يجعلها من جيد الشعر وفي غاية ما يستحسن.

---

[85] الكامل: 283/2.

[86] المصدر نفسه: 129/3.

إن الإفراط لا يعد كذبا وإنما هو : قول صادق موشى بزينة المبالغة ذلك ما لاحظه المبرد وأعجب به أيما إعجاب وسايره في ذلك حازم القرطاجني(87).

ج- الفطنة بالغوامض:

قال المبرد: " ونبه فيه بفطنته على ما يخفي عن غيره". لقد ربط المبرد بين الشاعرية والقدرة على التشبيه، و بين الشاعرية والابتكار. والابتكار "مصطلح يشير إلى قدرة الشاعر على التوصل إلى شيء جديد لم يسبق إليه، وهو يعني – في جانب من جوانبه- قدرة الشاعر على تكوين تشبيهات أو مجازات جديدة أو ما يسمونه بالمعنى المبتكر، أو المخترع، أو النادر أو الغريب، أو المبتدع"(88).

وإذا راجعنا أحكام المبرد على الشعر والشعراء، وجدنا أن جانبا كبيرا من براعة الشاعر يرد أساسا إلى قدرته على الإتيان بمعنى جديد مبتكر، من ذلك تعليقه على أبيات ذكرها عبد الملك بن مروان لعبدة بن الطيب وهي(89):

لمَّا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلَّ أخْذِيَةٍ وَفَارَ لِلْقَومِ بِاللَّحْـمِ المرَاجِيــلُ

وَرْدٌ وَأَشْقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابِخُهُ مَا غَيَّرَ الغَلْيُ مِنْهُ فَهُوَ مَأْكُولُ

ثُمَّتَ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ أَعْرَافَهُنَّ لِأَيْدِينَــا مَنَــادِيــلُ

حيث قال المبرد عنها: " وإنما أخذ ما في هذه الأبيات من بيت امرئ القيس، فإنه جمع ما في هذه الأبيات في بيت واحد مع فضل التقديم(90):

نَمَشُّ بِأَعْرَافِ الجِيادِ أَكُفَّنَا إِذَا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ"(91)

فامرؤ القيس قدم على غيره من الشعراء، فلولا لطيف المعاني واجتهاده فيها وابتكاره وتجديداته، وإقباله عليها لما تقدم على غيره، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم، ولا ألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم، وإنما

(87) ينظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1981م: ص75.

(88) الصورة الفنية في التراث النقدي : ص106.

(89) الكامل: 146/2.

(90) ديوان امرئ القيس :ص37.

(91) الكامل: 147/2.

احتجوا في تقديمه بأنه كان في إتيانه بالمعاني مبتدئا ولم يكن محتذيا، فقالوا : هو أول من شبه الخيل بالعصا وذكر الوحش والطير وأول من قال: قيد الأوابد، وأول من قال: كذا، وقال كذا، فهل هذا التقديم إلا لمعانيه.

وقال المبرد عن أبيات أنشدها نصيب مدح فيها سليمان بن عبد الملك:

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقَيْتُـــهُمْ قَفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ وَمَوْلاَكَ قَـــارِبُ

قِفُوا خَبِّرُونِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنَّنِي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْـــلِ وَدَّانَ طَالِبُ

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِب

"وهذا في باب المدح حسن ومتجاوز ومبتدع لم يسبق إليه"[92].

كما علق على أبيات لأبي نواس وهي:

أَيُّهَا الرَائِحَانِ بِاللَّومِ لَومَا لاَ أَذُوقُ المدَامَ إلاَّ شَمِيمَـــــا

تَالَنِي بِالملاَمِ فِيهَا إِمَـــامٌ لاَ أَرَى لِي خِلاَفَهُ مُسْتَقِيمَـــا

فَاصْرِفَاهَا إِلَى سِوَاي فَإِنِي لَسْتُ إلاَ عَلَى الحَدِيثِ نَدِيمَا

قائلا: " فهذا المعنى لم يسبق إليه أحد"[93].

فالخاصية النوعية للشاعر الجيد عند المبرد تتمثل في قدراته الإبتكارية الخاصة، وفي إتيانه بالمعنى الجديد الدقيق الذي لم يسبق إليه أحد.

د- الرصف القوي والاختصار القريب:

1) الرصف القوي:

إذا كان المبرد يرى أن أحسن الشعر هو ما سيق برصف قوي فقد سبقه الجاحظ إلى هذا المعنى بقوله: " أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، و سبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"[94].

والرصف القوي عند المبرد هو أن تكون الألفاظ جزلة وأن تكون العبارة فخمة ومتلاحمة الأجزاء فالمبرد بصري، وذوق البصريين يميل إلى الجزالة والقوة والرصانة.

[92] الكامل: 184/1.

[93] المصدر نفسه: 140/3

[94] البيان والتبيين : 67/1.

ومصطلح الرصف يقصد به المبرد" النظم"، فاللفظة عنده لا تكون مؤثرة وشاعرية إلا عن طريق ارتباطها بالألفاظ الأخرى في القصيدة وليست لعلاقتها بالعالم الخارجي فالألفاظ لا تؤثر في النفوس إلا بما تحمله من دلالات خاصة يستطيع الشاعر أن يقدمها في إطار فني معبر.

ومن أمثلة حسن الرصف قوله: "... فمن ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف قول الحطيئة(*):

وَذَاكَ فَتىً إِنْ تَأْتِهِ فِي صَنِيعَةٍ إِلَى مَالِهِ لاَ تَأْتِهِ بِشَفِيعِ"[95].

بينما نجده يعلق على بيتين لشاعر من أهل الري يكنى أبا يزيد وهما:

اشْرَبْ هَنِيئًا عَلَيْكَ التَّاجِ مُرْتَفِقًا فِي شَاذَ مِهْرَ وَدَعْ غُمْدَانَ لِلْيَمَنِ

فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَاجِ الملْكِ تَلْبَسُــهُ مِنْ هَوْذَةَ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُ ذِي يَزَنِ.

بقوله: "أحسن فيه وأصاب الفص ... فأحسن الترتيب جدا"[96].

فالترتيب هنا قد يقصد به ترتيب الألفاظ في البيتين، أو ترتيب البيتين مع بعض، ويعنى به على ما أظن نظم البيتين، والترتيب في النظم أمر مقصود، لأنه مما يحتاج فيه إلى الفكر وإلى الدقة.

لذا فقد دعا ابن طباطبا الشاعر إلى أن " يعد لكل معنى ما يليق به"[97] من كلمات وأن " تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها"[98]. وبهذا يكون الشكل ليس بذي قيمة في ذاته و إنما قيمته تتمثل في الانسجام والتلاحم مع بقية العناصر المكونة للقصيدة، من هنا كانت القصائد " بعضها كالقصور المشيدة والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور"[99].

فالشعر الجيد هو ما كانت عبارته تبنى في تماسك وقوة التحام، وانسجام تام بحيث تؤلف تأليفا فيه علاقات وترابط بين أحرف الكلمة الواحدة من حيث انسجام الأصوات من جهة،

(*) ديوان الحطيئة: ص126

(95) الكامل: 129/3.

(96) المصدر نفسه: 24/2.

(97) عيار الشعر: ص09.

(98) المصدر نفسه: ص213.

(99) المصدر نفسه: ص11.

ومن حيث الكلمات والجمل بعضها مع بعض من جهة أخرى، وإنشاء علاقات بين الجمل. ولعل هذا ما يقصده المبرد بقوة الرصف.

ومصطلح الرصف استخدمه العسكري حيث بين لنا الرصف الحسن من الرصف السيئ فقال: " وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة، إلا حذفا لا يفسد الكلام، ولا يعمى المعنى، ويضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها"[(100)].

فأبو هلال العسكري يتحدث في هذا النص عن " الرصف" أي النظم، ويجعل حسن النظم أن تأتي الدوال المكونة لأي تركيب على النسق المعهود نحويا، والالتزام بالقواعد التركيبية المقررة ولا يستعمل فيها أي تقديم أو تأخير أو حذف أو زيادة إلا بشروط معينة ومميزات خاصة .

و المبرد اختار مصطلح " الرصف" لدقة المصطلح في دلالته على نظم الكلام، وبيان ما يحتاجه هذا الرصف من جهد. فوضع الألفاظ مواضعها كما يقتضي الترتيب المثالي للجملة هو حسن الرصف.

2) الاختصار القريب:

يريد به المبرد الإيجاز المفيد. فالاختصار هو الإيجاز، وقد قال عنه العباس بن صحار العبدي : " هو اللمحة الدالة "[(101)] حينما سأله معاوية: ما أقرب الاختصار؟

وهذا الأسلوب "من أبرز أساليب العرب، فقد اهتموا بالعبارة الموجزة والكلام المختصر ليسهل حفظه ويكون تأثيره في النفوس عظيما"[(102)].

والعرب تحب الاختصار والإيجاز إلى درجة أنها: " تختصر في التشبيه وربما أومأت إليه إيماء"[(103)] لذا قيل:" خير الكلام ما أغنى اختصاره عن إكثاره"[(104)].

---

(100) الصناعتين: ص169.

(101) الكامل: 313/2.

(102) معجم المصطلحات البلاغية و تطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ط2، 2007م: ص46.

(103) الكامل: 149/3.

(104) المصدر نفسه: 313/2.

و قد بلغ بالعرب حبهم للإيجاز إلى درجة الغموض في المعنى حيث يروي المبرد " أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج بن يوسف " بسم الله الرحمان الرحيم- أما بعد- فإنك سا لم والسلام" فأشكل على الحجاج وأرق لذلك ليلته، فقال له ابن هبيرة : ما يسهر الأمير؟ فقال : كتاب كتبه إليّ أمير المؤمنين فيه كذا، قال: فإن أعلمتك معناه فمالي عندك؟ قال ولاية خرسان، فقرأ عليه الكتاب، فقال عمر : أخذه من قول القائل:

يُدِيرُونَنِي عَن سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ　　　وَجِلْدَةُ بَينَ العَينِ وَالأَنْفِ سَالِمُ

فولاه خراسان"[(105)].

والاختصار احتفى به المبرد وجعله إحدى الفضائل الكبرى في الكلام، والذي يطالع مختاراته يلحظ هذا التقدير للإيجاز في نفس المبرد، وقد عقد في أوائل كتابه الكامل بابا ذكر فيه بعض ما للعرب من الاختصار المفهم، والإطناب المفخم، ولكن الذي يمعن النظر يجد أنه أكثر من شواهد الاختصار، و وقف عندها يستحسنها، كما نلاحظ أنه على مذهب أستاذه الجاحظ من أن الاختصار يجب أن يكون مفهما.

قال المبرد: " ومما يستحسن لفظه، ويستغرب معناه، ويحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب:

فَمَنْ يَكُ لَمْ يَغْرَضْ فَإِنِّ وَنَاقَتِي　　　بِحَجْرٍ إِلَى أَهْلِ الحِمَى غَرِضَانِ

تَحِنُّ فَتُبْدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ　　　وَأُخْفِي الذِي لَولاَ الأَسَى لَقَضَانِي

يريد: لقضى علي، فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام أحسن مخرج"[(106)]

وقال:" قال أبي عينة:

مَا رَاحَ يَوْمٌ عَلَى حَي وَلاَ اِبْتَكَرَا　　　إلاَّ رَأَى عِبْرَةِ فِيهِ إِذَا إِعْتَبَرَا

وَلاَ أَتَتْ سَاعَةٌ فِي الدَّهْرِ فَانْصَرَمَت　　　حَتىَّ تُؤَثِرَ فِي قَومٍ لهَاَ اَثَرَا

إِنَ اللَّيَالِي وَالأَيَّامَ أَنْفُسَهَا　　　عَنْ غَيرِ أَنْفُسِهَا لمَ تَكْتُمِ الخَبَرَا

فأخذ هذا المعنى حبيب بن أوس الطائي وجمعه في ألفاظ يسيرة فقال:

عَمْرِي لَقَدْ نَصَحَ الزَّمَانُ وَإِنَّهُ　　　لمنْ العَجَائِبِ نَاصِحٌ لاَ يُشْفِقُ

(105) الفاضل: ص51.

(106) الكامل:32/1.

فزاد بقوله:" ناصح لا يشفق" على قول ابن أبي عيينة شيئا طريفا، وهكذا يفعل الحاذق بالكلام"[107].

فاختصار أبي التمام أبيات أبي عيينة في بيت واحد عده المبرد من الحذق في الكلام أي الذكاء والنباهة.

ويبين المبرد فضل الشمول والإيجاز، ويستشهد على ذلك ببيت امرئ القيس[108]:

سَمَاحَةَ ذَا وَبِرَّذَا وَوَفَاءَ ذَا وَنَائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرْ

فامرؤ القيس قد جمع في هذا البيت الواحد أوصافا كثيرة، كما وصف الممدوح بأنه استمر في جوده في حالتي الصحو والسكر، والمبرد يفضل هذا البيت على قول عنترة[109]:

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يَكْلَمِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقصِّرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

لأن البيتين يحملان معنى بيت امرىء القيس السابق غير أنه أطنب في قوله فأتى المعنى في بيتين فاستحق منزلة دون الأول التي اتصف بالإيجاز[110].

وقد حبذ المبرد الاختصار عند مقارنته بين المنثور والمنظوم قال : " ومما أذكره لتقارب معانيه قول" الحسن" إن امرءً لا يعد بينه وبين آدم أبا حيا، لمعرق له في الموت. فهذا قريب أخذه من قول لبيد"[111].

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ فَاعْتَبِرْ لَعَلَّكَ تُسْلِيكَ القُرُونَ الأَوَائِلُ
فَـإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنَ دُونِ عَدْنَانَ وَالِـدًا وَدُونَ معد فَلْتَـزِعْكَ العَـواذِلُ

وكلام" الحسن" أخصر، وكلام " ليبد" أوزن"[112]، وهكذا يظهر حب المبرد للاختصار وتفضيله في جميع فنون القول.

---

(107) الكامل: 14/2.

(108) ديوان امرئ القيس: ص75.

(109) ديوان عنترة: ص82.

(110) ينظر البلاغة للمبرد: ص 84.

(111) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروت، دط، دت: ص131 والبيتين قد وردا بغير هذا اللفظ، و اللفظ بتمامه:

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تصْدُقْكَ نَفْسُكَ فَانْتَسِبْ لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ القُرُونُ الأَوَائِلُ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنَانَ بَاقِيًا وَ دُونَ مَعَدٍّ فَلْتَزَعْكَ العَوَاذِلُ

(112) البلاغة للمبرد: ص87.

- البعد عن التكلف:

يفضل المبرد كسائر علماء عصره الابتعاد عن التكلف في الشعر فيقول :" ومما يفضل لتخلصه من التكلف وسلامته من التزيد، وبعده من الاستعانة قول أبي حية النميري:

رَمَتْنِي وَسِتْرَ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا عَشِيَةَ آرَامِ الكنَــاسِ رَمِيــمُ

أَلاَ رُبَّ يَومٍ لَوْرَمَتْنِي رَمَيْتُــها وَلَكِنَّ عَهْدِي بِالنِّضَالِ قَدِيمُ"[113]

ويعقب على البيتين بعد أن يشرحهما بقوله: " فهذا كلام واضح"[114]. فالوضوح ضد التعقيد، والتعقيد يكون بسبب التكلف، أما الوضوح فدلالة على الطبع، والمبرد يقدم من كان "أشد على الكلام اقتدارا، وأكثر تسمحا وأقل معاناة، وأبطأ معاسرة." [115]ولا شك أن الكد والمطاولة والمجاهدة والمعاودة والمعاناة هي من قبيل الحركات الذهنية القائمة على التعمد ومحاولة الإتيان بما لا تستجيب له طبيعة الإنسان مما يدخل في عداد التكلف .

والشعر المتكلف " ليس به خفاء على ذوي العلم لتبيينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير، وشدة العناء، ورشح الجبين"[116] لأنه مهما حاول أن يخفي تلك الصنعة، وذلك التكلف، فإنه يبدو واضحا.

- قرب المأخذ:

قال المبرد: " ومن حسن الشعر وما يقرب مأخذه قول مخيس بن أرطاة الأعرجي:

عَرَضْتُ نَصِيــحَةً مِنِّي لِيَحْيَ فَقَالَ: غَشَشْتَنِي والنُّصْحُ مُرُّ

وَ مَا بِي أَنْ أَكُونَ أَعِيبُ يَحْيَ وَيَحْيَ طَاهِرُ الأَثْوَابِ بَـــرُّ

وَلَكِنْ قَدْ اَتَـــيِ أَنَّ يَحْيَ يُقَالُ عَلَيهِ فِي بَقْعَاءَ شَــرُّ

فَقُلْــتُ لَهُ: تَجَنَبْ كُلُّ شَيْءٍ يُعَابُ عَلَيكَ إِنَّ الحُرَّ حُرُّ"[117]

ويشرح لنا المبرد سبب وصف هذا الشعر بقرب المأخذ قائلا: " الكلام ليس فيه فضل

---

[113] الكامل: 29/1.

[114] المصدر نفسه:30/1.

[115] البلاغة للمبرد : ص81.

[116] الشعر و الشعراء: 88/1.

[117] الكامل: 43/1.

عن معناه"[118].

- المعنى البديع:

وهو المعنى الذي يدل على حب العرب لمكارم الأخلاق وعدم المغالاة والإسراف والمبالغة والخروج عن الحدود المقبولة، مثال ذلك ما عيب على طرفه في قوله[119]:

أَسْدُ غِيلٍ فَإِذَا مَا شَرِبُــوا وَ هَبُوا كُــلُّ أَمُونٍ وَطَــمِرْ
ثُمَّ رَاحُوا عَبَقَ المِسْكِ بِهِمْ يُلْحِفُونَ الأَرْضَ هُدَابَ الأَزُرْ

لأنه قصر في المعنى ووصف القوم بالجود إذا تغيرت عقولهم فقط، وأجود منه قول عنترة[120]:

فَإِذَا شَرِبْتَ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِــكٌ مَالِي وَعِرْضِ وَافِرٌ لَمَ يُكْلَــمِ
وَإِذَا صَحَوتُ فَمَا أَقْصَر عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

قال المبرد: "فخبر أن جوده باق وأنه لا يبلغ من الشراب ما يلثم عرضه"[121].

فالمبرد ككل عربي يرى في حسن الخلق والكرم شيمة على العربي أن يتصف بها وأن يدونها في أشعاره.

سادسا: الضرورة الشعرية

لقد أشار المبرد في كتابيه : المقتضب والكامل إلى أنماط من الضرورات الشعرية وقضاياها، وهي في حقيقتها لا تشكل نسيجا متلاحما ومتكاملا ، خاصة وأن النصوص الواردة في كتابيه لم تكن مقصودة فيها لذاتها، لأن المبرد كان يتطرق إليها عرضا كلما سمح له الموقف اللغوي بذلك.

وللمبرد كتاب "ضرورة الشعر" لذا يعد أول من ألف من العلماء في موضوع الضرورات ، وإن كان الكتاب قد عصف به الزمن ، فضاع فيما ضاع من تراث الأمة الإسلامية ، ولولا وقوفنا على إشارات عدد من العلماء إلى هذا الكتاب ما عرفناه ، لأننا لم نعثر بنقولات منه فيما ألف من كتب مستقلة في ضرورة الشعر فيما بعد ولا في المباحث الخاصة بالضرورة في كتب النحو .

---

(118) الكامل: 43/1.
(119) ديوان طرفة بن العبد: ص43.
(120) ديوان عنترة : ص82.
(121) البلاغة للمبرد: ص 84.

ولعل السيرافي (ت368هـ) في قوله: " رأيت بعض من ذكر ضرورة الشعر...." [122]، قد عنى بذلك المبرد وكتابه ضرورة الشعر ، لاحتمال وقوفه عليه ونقله منه ، وكان قد صرح بذكره بعدئذ ابن النديم (ت380هـ)[123]، وياقوت الحموي (ت626هـ)[124]، والقفطي (ت646هـ)[125]، والسيوطي (ت911هـ)[126]، وآخرون[127]، وبضياع هذا المؤلف ضاعت قيمته العلمية ، تاركة لقيمته التأريخية أن تحفظ لمؤلفه فضل السبق والريادة في إفراد الضرورة بتأليف مستقل[128].

1- مفهوم المبرد للضرورة :

إن مفهوم المبرد للضرورة الشعرية يكاد ينسجم مع تعريف الجمهور لها، بأنها مخالفة الشاعر لمقاييس اللغة وأصول النحو، سواء أكان له عنها مندوحة أم لا، مستندين في رأينا هذا إلى الأدلة الآتية:

أولا: إن المبرد لم يقيد جواز الضرورة في الشعر بألا تكون أمام الشاعر مندوحة للهرب من الوقوع فيها ، فكان يقول: " الشاعر إذا احتاج أجراه بلا توكيد لاحتمال الشعر ما لا يحسن في الكلام "[129] ، و"اعلم أن الشاعر إذا اضطر إلى صرف مالا ينصرف جاز له ذلك"[130].

ثانيا: استشهاده بأبيات شعرية كثيرة وقعت فيها ضرورات، وفيها روايات أخرى تلغي ضروراتها ، وسكوته عنها ، كما في قول النابغة الذبياني[131]:

رَدّتْ عَلَيْهِ أَقَاصِيهِ وَلَبّدَهُ   ضَرْبُ الوَلِيدَةِ بِالمِسْحَاةِ فِي الثَّأَدِ

---

[122] ضرورة الشعر، أبو سعيد السيرافي (ت 368هـ)، تحقيق رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1405هـ/ 1985م: ص104.

[123] ينظر الفهرست: ص98.

[124] ينظر معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت 626هـ)، دار الفكر، ط3، 1400هـ/1980م: 122/19.

[125] ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي (ت 646هـ)، تحقيق محمد أبوا الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1370-1393هـ/1950-1973م : 252/3.

[126] بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة، الجلال السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1384-1385هـ/1964-1965 م :270/1.

[127] ينظر ما ذكره رمضان عبد التواب في مقدمة تحقيقيه لكتاب البلاغة للمبرد: ص61.

[128] ينظر الضرورة الشعرية دراسة لغوية نقدية، عبد الوهاب محمد علي العدواني، مطبعة جامعة الموصل، 1410هـ/1990م: ص215.

[129] الكامل: 322/1.

[130] المقتضب: 354/3

[131] لم أجد البيت في الديوان .

"فقد استشهد به على إسكان المنقوص في "أقاصيه " ضرورة في حالة النصب؛ حملا على الرفع والجر"[132]، وأهمل الرواية الأخرى الملغية للضرورة في هذا الشاهد، وهي "ردّت بالبناء للمجهول، ف"أقاصيه " على هذه الرواية في موضع رفع، والياء سكنت لأن الضمة فيها ثقيلة"[133]. و ربما كان يشير إلى هذه الروايات، فضلا عن روايات الضرورة من غير أن يردها، كما فعل في قول حسان[134]:

كَأَنَّ سُلاَفَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ   يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ

فقد استشهد به على الإخبار بالمعرفة "مزاجها " عن النكرة "عسل" ، وذكر أن المازني "كان يرويه: *يكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلاً وَمَاءُ* ،يريد: وفيه ماء، ورواية المازني ملغية للضرورة"[135].

ثالثا: إن من بين الضرورات التي أوردها ما يكون بوسع الشاعر التخلص منه بسهولة ويسر، بتصرف لغوي يسير ، تستبدل فيه حركة بحركة أخرى يعضدها وجه نحوي ، من ذلك استشهاده بقول المغيرة بن حبناء[136]:

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِبَنِي تَمِيمٍ   وَأَلْحَقُ بِالعِرَاقِ فَأَسْتَرِيحَا

فقد أورده شاهدا على نصب الفعل المضارع بعد الفاء في الواجب[137]، وكان بوسعه وضع "لأستريحا "[138] في موضع "فأستريحا" فيخرج البيت من دائرة الضرورة من غير إخلال بالوزن.

رابعا: كان المبرد يرى أن الأمثال"يستجاز فيها مايستجاز في الشعر، لكثرة الاستعمال لها"[139]، وهي غير مقيدة بوزن وقافية كالشعر، فكيف يمكن أن يقال أن الضرورة عنده هي مالا مندوحة للشاعر عنه ؟!

---

[132] المقتضب: 21/4، وينظر الكامل: 21/3 .

[133] شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي (ت 502هـ)، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديد، بيروت، ط4، 1400هـ/1980 م: ص448.

[134] ديوان حسان بن ثابت: ص18.

[135] المقتضب: 91/4-92.

[136] شعراء أمويون، نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1405هـ/1985م: 83/4.

[137] ينظر المقتضب: 24/2.

[138] هي رواية ذكرها الأعلم الشنتمري في النكت في تفسير كتاب سيبويه، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، الكويت ط1، 1407هـ/1987م: 715/1.

[139] المقتضب: 261/4.

2– موقف المبرد من الضرورة في الكلام :

إن عرض هذه القضية مفيد جدا، لأن الضرورة محصورة في أذهان الدارسين بوقوعها في الشعر وحده ، بحيث لم نعد نتوقع وقوعها في أي جنس آخر من أجناس الكلام العربي ، بيد أننا قد وجدنا للمبرد – فيما وقعنا عليه من كلامه – إشارات إلى هذه القضية التي يمكن أن نفرغ كلامنا عليها في مسألتين ، هما :

أ– ضرورات الأمثال :

لقد أجاز المبرد وقوع الضرورة في الأمثال ، على الرغم من أنها لون من ألوان التعبير الفني الاختياري ، لا يخضع لاعتبارات الوزن والقافية ، ولا يوصف قائله بالاضطرار ، ولكن لما كثر استعماله كان موضع تخفيف ، فجاز فيه ما جاز في الشعر ، ولهذا وجدناه يجيز حذف "يا" من النكرة وهو مخصوص بالشعر ، بقوله[140]: "وقالوا في مثل من الأمثال – والأمثال يستجاز فيها ما يستجاز في الشعر لكثرة الاستعمال لها : افتد مخنوق ، وأصبح ليل وأطرق كرا "[141].

كما أجاز أيضا جمع فاعل على فواعل، صفة لمذكر عاقل، وهو خاص بالشعر بقوله: "وقد قالوا: هالك في الهوالك[142]، لأنه مثل مستعمل، والأمثال تجري على لفظ واحد، فلذلك وقع هذا على أصله "[143].

ب– محاذرة القول بوقوع الضرورة في القرآن الكريم :

ومعلوم عندنا أن معظم النحاة يميل إلى أن كل ما جاء في القرآن الكريم على غير القياس والأصل ، ليس من باب الضرورة ، ومن هنا فكل ضرورة في الشعر لها ما يقابلها أو يماثلها في القرآن الكريم تبطل أن تعد ضرورة[144] ، ويبدو أن النحاة قد تمسكوا بهذا الحذر لسببين :

1. التخلص من القول بمماثلة القرآن للشعر، ومن ثم تجنب اشتراكهما في حكم الضرورة.
2. إن الضرورة تحمل في أذهانهم العجز والقصور عن التعبير بصورة سليمة، فلزم من هذا تنزيه كلام الله سبحانه وتعالى عن كل ما يوهم ذلك، تبعا للموقف العام الذي يلزمنا به الاعتقاد

(140) المقتضب: 261/4.

(141) مجمع الأمثال: 35/2، 559/1- 597.

(142) لسان العرب (هلك): 117/15، و لم نجده في كتب الأمثال.

(143) المقتضب: 219/2 و ينظر280/3 ، والكامل : 58/2.

(144) ينظر القزاز القيرواني حياته وآثاره، المنجي الكعبي ، تونس 1388هـ/1968م : ص153، وينظر ضرائر الشعر: ص326 وما بعدها.

المطلق بتمام صفاته وكمالها ، في ذاته – عز وجل — وفي كل ما يتصل به ، لذا فقد أنكر المبرد وقوع الضرورة في القرآن ، لأن القرآن "إنما يحمل على أشرف المذاهب"[145] وقد حمله التزام هذا المذهب على اتخاذ المواقف الآتية:

أولا: تخطئة قراءة حمزة(ت 156هـ) :﴿**وَ اتَّقَوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ**﴾[146] بجر الأرحام ،وهي سبعية، بقوله" وهذا مما لا يجوز الا أن يضطر اليه شاعر"[147]، كما قال[148]:

فَاليَوْمَ قَرَّبْتَ تَهْجُونَا وَتَشْتُمُنَا فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ

وتخطئة قراءته الأخرى : ﴿ **ثَلاَثَ مِائَةِ سِنِينَ**﴾ [149] بالإضافة، بقوله: "وهذا خطأ في الكلام غير جائز ، وإنما يجوز مثله في الشعر للضرورة ، وجوازه في الشعر أنا نحمله على المعنى ، لأنه في المعنى جماعة ، وقد جاز في الشعر أن تفرد وأنت تريد الجماعة ، إذا كان في الكلام دليل على الجمع"[150]، فمن ذلك قوله[151]:

كُلُوا فِي نِصْفِ بَطْنِكُمْ تَعِيشُوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ

ثانيا: تضعيف قراءة أبي عمرو (ت 154هـ): ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ** ﴾[152] بحذف التنوين من (أحد) ، وترجيح القراءة المتواترة بالتنوين ، لأنه وجد أن حذف التنوين كما ورد في الشعر ضرورة ، فكيف يقول بمجيئه في القرآن ، والقرآن "ليس بموضع ضرورة"؟! [153].

ثالثا: إبطاله أن يكون رفع الاسم بتأويل معنى في الكلام ضرورة ، فقول نهشل بن حري[154]:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

---

(145) الكامل: 39/3.

(146) سورة النساء: الآية1.

(147) الكامل: 39/3.

(148) الكتاب: 383/2 ولم ينسبه. ونسب الى عمرو بن معد يكرب في ديوان عمرو بن معد يكرب، صنعة هاشم الطعان، مطبعة الجمهورية، بغداد 1390هـ/1970م : الملحقات 185.

(149) سورة الكهف: الآية 25.

(150) المقتضب: 171/2.

(151) هو في الكتاب: 210/1.

(152) سورة الإخلاص: الآيتان 1-2.

(153) الكامل : 287/1.

(154) عشرة شعراء مقلون، صنعة حاتم الضامن، مطابع دار الحكمة الموصل، 1411هـ/1991 م: ص110.

والشاهد فيه : رفع "يزيد " على أنه نائب فاعل، ورفع "ضارع" و"مختبط" بالمعنى، لأنه لما قال: ليبك، علم أن له باكيا، يبكيه ضارعا لخصومته ومختبط: ضرورة عند أبي سعيد السيرافي[155] ، والقزاز القيرواني (ت 412 هـ) [156] وابن عبد الحليم (ت 1138 هـ) [157] واختيار عند المبرد [158] لمجيء ما يماثله في القرآن الكريم في قراءة بعض الناس : ﴿**زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ**﴾ [159] لما قال: قتل أولادهم، ثم الكلام، فقال: شركاؤهم على المعنى، لأنه علم أن لهذا التزيين مزينا، فالمعنى: زينه شركاؤهم.

3. وجه الضرورة عند المبرد :

إن في قول سيبويه في باب ما يحتمل الشعر: " وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها "[160] تأكيدا على أن الضرورة الشعرية لابد فيها من وجه تخرج عليه حتى لا تنسب إلى الغلط أو اللحن ، وكونها رخصة لا يعني أن الشاعر يستعملها بلا حدود ، وإلا عد خارجا عن سنن العربية.

وحين يعرض المبرد رأيه في الضرورة الشعرية بقوله: إنها "لا تجوز اللحن "[161] وقوله "إن الشاعر إذا اضطر رد الأشياء إلى أصولها"[162]. فإنه لم يفد من عبارة سيبويه إفادة نصية ، غير أنه أكد ذلك المبدأ المعياري بعبارات متقاربة معه[163] ، إذ لابد للضرورة من صلة تربطها بالكلام وهذه الصلة هي المعروفة ب"وجه الضرورة " أو " علتها "[164]، والمتتبع للضرورات التي ذكرها المبرد يجد أن وجودها عنده لا تخرج من أحد أمرين :

---

[155] ينظر ضرورة الشعر: ص202.

[156] ينظر ما يجوز للشاعر في الضرورة، القزاز القيرواني (ت 422هـ)، تحقيق رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي، مطبعة المدني، القاهرة، 1402هـ/1982م: ص187.

[157] ينظر موارد البصائر لفوائد الضرائر، ابن عبد الحليم (ت 1138هـ)، تحقيق حازم سعيد يونس، دار عمار، عمان، ط1، 1420هـ /2000م: ص 426.

[158] ينظر المقتضب: 3/281-282.

[159] سورة الأنعام: الآية 137 ، وينظر المحتسب، ابن جني (ت 392هـ)، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين ، دار سزكين للطباعة، اسطنبول، ط2، 1406 هـ/1986م: 1/229.

[160] الكتاب: 1/32.

[161] المقتضب: 3/354.

[162] المقتضب: 1/141-142.

[163] ينظر الضرورة الشعرية دراسة لغوية نقدية: ص188.

[164] ينظر سيبويه والضرورة الشعرية: ص50.

أولا: رد الأشياء إلى أصولها، فقد ترددت هذه الفكرة كثيرا في كلامه[165]، وصارت قاعدته التي يعالج فيها ما يعرض له من مسائل الضرورات. مثل قوله: "واعلم أن الشاعر إذا اضطر رد هذا الباب إلى أصله"[166].

إن المبرد لا يحيل إلى الضرورة إلا إذا كانت موافقة أصلا من أصول العربية، لأن الجائز في الضرورة عنده، إنما هو الرجوع إلى الأصل لا الخروج عنه[167].

ثانيا: التشابه بين ظاهرتين ، ويعد الخليل صاحب هذه الفكرة ، فهو رأى أن الشاعر حين يضطر إلى أي تركيب من التراكيب ، فان الاستغراق النفسي يسوقه أحيانا إلى أن ينيب بنية مناب بنية ، وهذه العملية – وإن تمت في جو من الاستغراق – فهي تقوم على تداعي الصيغ وتفاعلها[168].

ومن أمثلته قوله : "فأما : إياك الضرب، فلا يجوز في الكلام، كما لا يجوز : إياك زيدا، فان اضطر شاعر جاز ،لأنه يشبهه للضرورة بقوله : أن تقربا "[169]، وبالتشابه علل المبرد أيضا خروج "سوى وسواء " عن الظرفية ،بقوله: " وقد اضطر الشاعر فجعله اسما ، لأن معناه معنى "غير " فحمل عليه"[170]، وذلك قوله[171] :

تَجَانَفُ عَنْ جُلِّ اليَمَامَةِ نَاقَتِي وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهِ لِسَوَائِكِ

وقد ترتبت على فكرة الأصل عنده ثلاثة أمور[172]:

الأول: أن ما خالف الأصول مما يقع في الشعر ليس من باب الضرورة، وإنما هو من باب اللحن، وهذا لا يجوز في العربية شعرا أو كلاما، فالضرورة إنما هي رجوع إلى الأصل، وما خالف الأصل يدخل في دائرة مستوى اللحن، ومن هنا فإن قوله: "وإن اضطر إلى ترك صرف

---

(165) ينظر على سبيل المثال لا الحصر الكامل: 256/1- 58/2، و المقتضب: 139/1 - 141-142، 354/3.

(166) المقتضب: 141/1-142.

(167) ينظر المصدر نفسه: 354/3، و ينظر الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية، السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، ط2، 1401هـ/1981م: ص31، و الضرورة الشعرية دراسة لغوية نقدية: ص188.

(168) نظرية الضرورة في كتاب سيبويه، محمد خير الحلواني، مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق، مج 55 : 129/1-130.

(169) المقتضب: 213/3.

(170) المصدر نفسه: 349/4.

(171) هو الأعشى ، ينظر ديوان الأعشى: ص89

(172) الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية : ص33-37.

ما ينصرف لم يجز له ذلك ، وذلك لأن الضرورة لا تجوز اللحن، وإنما يجوز فيها أن ترد الشيء إلى ما كان له قبل دخول العلة "[173] إنما هو تأكيد على أن الحد بين الضرورة والخطأ، هو الوجه الذي تخرج عليه ضرورة الشاعر، لأن الشاعر في ضرورته إنما يستبدل نظاما بآخر يجاري مقاييس العربية ، في حين أن الخطأ ما خرج عن المبادئ الأساسية للغة[174].

الثاني: أنه أجاز الرجوع إلى الأصل في الضرورة جوازا مطلقا ، وإن لم يرد به سماع ، كقوله: "إذا اضطر شاعر جاز له أن يرد مبيعا وجميع بابه إلى الأصل ، فيقول : مبيوع"[175]، كما قال علمقة بن عبده[176]:

حَتَّى تَذَكَّرَ بَيْضَاتٍ وَهَيَّجَهُ يَوْمُ رذاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَغْيُومُ

الثالث: اعتبار الضرورة بابا من أبواب معرفة الأصل، مثال ذلك قوله: "قد يجيء في الباب الحرف والحرفان على أصولهما، وإن كان الاستعمال على غير ذلك، ليدل على أصل الباب "[177]، وقوله: " فأما دم هو فعل، ومما يدلك على أنه فعل أن الشاعر لما اضطر فأخرجه على أصله، ورد ما ذهب منه جاء به متحركا"[178]، فقال[179]:

فَلَوْا أَنَّا عَلَى حَجَرٍ ذُبِحْنَا جَرَى الدَّمْيَانِ بِالخَبَرِ اليَقِينِ

4- تصنيف الضرورات عند المبرد:

يعد ابن السراج (ت 316هـ) [180]. أول من صنف الضرورات الشعرية تصنيفا منهجيا وحصرها في ستة أنماط، أضاف إليها فيما بعد أبو سعيد السرافي شارح كتاب سيبويه قسما سابعا بقوله: "وضرورة الشعر على سبعة أوجه، وهي: الزيادة، والنقصان والحذف، والتقديم

---

(173) المقتضب: 354/3.

(174) ينظر الضرورة الشعرية دراسة لغوية نقدية: ص171.

(175) المقتضب: 101/1.

(176) ديوان علقمة الفحل الأعلم الشنتمري، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه حنّا نصر الحتي، ،دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1414 هـ/1993م: ص39.

(177) المقتضب: 98/2

(178) المصدر نفسه: 231/1، وينظر 238/2- 153/3

(179) هو المثقب العبدي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، المجلد السادس عشر، القاهرة 1391هـ/1971م: ص283.

(180) الأصول في النحو، ابن السراج (ت 316هـ)، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1405هـ/ 1985م: 453/3.

والتأخير، والإبدال، وتغيير وجه من الإعراب إلى وجه عن طريق التشبيه، وتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث" [181].

أما المبرد فإن دراسته للضرورة الشعرية قد خلت من أي تصنيف للمظاهر العامة لها في أنماطها ومستوياتها، ويعزى سبب ذلك إلى أن الضرورة لم تكن مستقرة بعد في أيامه مفهوما ومصطلحا وتقسيما، ولكننا بعد النظر في شتات شواهده وآرائه وتعليقاته في الضرورة الشعرية يمكننا أن نحصرها في أربعة أنواع، هي:

الأول: ضرورات الزيادة:

أ- **زيادة الحركة:** وتتضمن: فك الإدغام[182]، و تحريك الساكن[183]. وإجزاء المعتل مجرى الصحيح[184].

ب- **زيادة الحرف:** وتتضمن: صرف ما لا ينصرف[185].و تنوين المنادى المبني[186]. وتنوين العلم الموصوف بابن[187]. و مجيء (سبحان) منونا مفردا[188]. وإثبات النون في اسم الفاعل في حال اتصال الضمير به[189]. وإثبات النون في (مائتين)، ونصب التمييز بها[190]. وإشباع الحركة[191]. وإثبات فرحة العلة في الموضع الذي يجب فيه حذفه في سعة الكلام[192].و إثبات

[181] ضرورة الشعر: ص34.
[182] الكامل: 161/2، والمقتضب: 141/1- 142، 171، 200، 252، 99/2، 354/3.
[183] المصدر نفسه: 161/2 -162، 55/4.
[184] المصدر نفسه: 44/4-45، والمقتضب: 142/1، 354/3، 22/4.
[185] الكامل: 89/1، 255، والمقتضب: 142/1 -143، 354/3.
[186] المقتضب: 213/4 -215، 224.
[187] المصدر نفسه: 314/2.
[188] المصدر نفسه: 217/3-218.
[189] الكامل: 364/1.
[190] المقتضب:168/2-169.
[191] الكامل: 253/1، 146/2، والمقتضب :258/2 .
[192] المقتضب:44/1، .354/3.

ألف (أنا) في الوصل[193]. وإثبات همزة (أفعل) في بعض تصاريفها[194]. ويرد اللام المحذوفة إلى الكلمة[195]. ورد واو (مفعول) من الفعل الأجوف اليائي[196].

ج- **زيادة الكلمة:** وتتضمن: دخول الواو العاطفة على حروف العطف[197]. و دخول (يا) على الألف و اللام[198]. و اقتران خبر: كاد، وكرب، ولعل بأن[199]. وزيادة الهمزة قبل هل[200]. والتوكيد بالنون في غير موضعه[201].

الثاني: ضرورات النقص:

أ- **نقص الحركة:** ويتضمن: حذف الفتحة في آخر الفعل المضارع[202]. وحذف الفتحة من آخر الاسم المنقوص[203].

ب- **نقص الحرف:** ويتضمن: حذف التنوين[204]. وحذف (ما) من: إما[205]. وقصر الممدود[206].وحذف الياء والواو الواقعتين صلة لضمير الغائب[207]. وتخفف المشدد في القوافي[208]. وحذف الميم من فم[209]. وحذف الزوائد في التصغير أو الجمع[210].

---

(193) الكامل: 37/2:.

(194) المقتضب: 97/2.

(195) المصدر نفسه: 231/1، 238/2، 153/3.

(196) المصدر نفسه: 101/1.

(197) موارد البصائر: ص 121.

(198) المقتضب: 241/4 -243.

(199) الكامل: 195/1-196، 38/2، والمقتضب: 74/3-75.

(200) المقتضب: 44/1، 291/3.

(201) المصدر نفسه: 14/3-15.

(202) الكامل: 251/3.

(203) الكامل: 21/3، والمقتضب: 21/4-22.

(204) الكامل: 251/1، والمقتضب: 312/2-314.

(205) الكامل: 289/1، والمقتضب: 28/3.

(206) الكامل : 216/1-217، 250، 171/3، 351-352.

(207) المقتضب: 38/1-39، 266-267.

(208) الكامل: 9/4.

(209) المقتضب: 240/1.

(210) المصدر نفسه: 180/4.

ج- **نقص الكلمة:** ويتضمن: العطف على المضمر المجرور دون إعادة الجار[211]. والعطف بلا فاصل على الضمير المرفوع المتصل والمستتر[212]. وحذف العاطف بعد: إياك[213]. وحذف نون الوقاية من: ليت[214]. خبر عسى بغير: أن[215]. حذف همزة الاستفهام[216]. وحذف الفاء من جواب الشرط[217]. وحذف: يا من اسم الجنس المعين[218]. واستعمال الكلمة الخاصة للنداء في غير النداء[219].

الثالث: ضرورات التقديم و التأخير:

الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف والجار والمجرور و الجملة[220]. والفصل بين العدد و تمييزه[221]. و الفصل بين الألف واللام والاسم وبين (قلما) الفعل[222]. تقديم الاسم على الفعل بعد أداة الشرط[223]. وتقديم الاسم على الفعل بعد أداة الاستفهام غير الهمزة[224]. وتقديم النعت على المنعوت[225].

وضع الكلام في غير موضعه[226].

---

(211) الكامل: 39/3.

(212) المصدر نفسه: 322/1.

(213) المقتضب: 213/3

(214) المصدر نفسه: 250/1.

(215) الكامل: 196/1، والمقتضب: 69/3-70.

(216) الكامل: 177/3-178، 244/2-245، والمقتضب: 294/3-295.

(217) الكامل: 133/1-134، والمقتضب :71/2-73.

(218) المقتضب: 259/4-260.

(219) الكامل: 261/1، 301/3-302، والمقتضب: 238/4.

(220) المقتضب: 61/3-62، 376/4-377.

(221) المصدر نفسه: 55/3-56.

(222) المصدر نفسه: 84/1، 94/2.

(223) المصدر نفسه: 75/2.

(224) المصدر نفسه: 75/2.

(225) الكامل: 232/2:.

(226) المصدر نفسه: 28/1.

الرابع: ضرورات الإبدال:

أ- **إبدال الحرف من الحرف:** ويتضمن: إبدال الهمزة ياء أو ألفا[227]. وإبدال الهمزة من الياء[228]. وإبدال الياء من الحروف الصحاح[229].

ب- **إبدال الكلمة من الكلمة:** ويتضمن: وضع الواحد موضع الجمع[230].

ج- **إبدال الحكم من الحكم:** ويتضمن: تذكير المؤنث[231]. و تأنيث المذكر[232]. والإخبار بالمعرفة عن النكرة[233]. والعطف على معمولي عاملين مختلفين[234]. و استعمال الكاف اسما[235]. وخروج الكلمة عن الظرفية[236]. ونصب المضارع بعد الفاء في غير الأجوبة الثمانية[237]. وجزم الفعل المضارع حملا على المعنى[238]. و الجزم بـ: إذا[239]. وإضافة اثنين إلى اسم الجنس[240].

وجمع: فاعل صفة لمذكر عاقل على: فواعل[241]. وإجراء: فعل في الجمع في ذوات الواو مجرى السالم[242].

وبعد هذا كله ندرك أن لغة الشعر تقتضي خصائص نحوية وصرفية ودلالية ، وهي خصائص تفرضها طبيعة التجربة الشعورية التي ينفعل بها المبدع بما فيها من توتر وجيشان ، ولا

---

(227) الكامل :2/99-101 والمقتضب: 1/166-167.

(228) المقتضب: 1/139، 141.

(229) المصدر نفسه: 1/246-247.

(230) المصدر نفسه: 2/172-174.

(231) المذكر والمؤنث، المبرد، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي، القاهرة، 1970م: ص122، والمقتضب: 2/148، 3/349.

(232) المذكر والمؤنث: ص108-109، والمقتضب: 2/148.

(233) المقتضب: 4/91-94.

(234) الكامل: 1/287، 3/99، والمقتضب: 4/195.

(235) المقتضب: 4/140-142، 350.

(236) المصدر نفسه: 4/245، 349-350.

(237) المصدر نفسه: 2/23-24.

(238) المصدر نفسه: 1/132-133.

(239) المصدر نفسه: 2/56-57.

(240) المصدر نفسه: 2/156.

(241) الكامل: 2/58، 3/388-389، والمقتضب: 1/120، 2/218-219.

(242) المقتضب: 1/29، 132، 2/199.

يعني أن لغة الشعر تستقل بخصائص ذاتية تنزع بها عن قوانين اللغة وأعرافها، فهذا أمر لا يصح اعتباره ،فالعلاقة بين لغة الشعر وقوانين اللغة علاقة متينة. يقول إبراهيم أنيس، "ولسنا نزعم أن للشعر نظاما خاصا في ترتيب كلمات يمت لنظام النثر بأي صلة ، بل نقول إن الشاعر كالطائر الطليق يحلق في السماء الخيال وينشد الحرية ، في الفن، فلا يسمح لقيود اللغة أن تلزمه حدا معينا لا يتعداه ، بل يلتمس التخلص من تلك القيود كلما سنحت له الفرص ، فهو في أثناء نظمه لا يكاد يفكر في قيود التعابير إلا بقدر ما تخدم تلك التعابير أغراضه الفنية ، ويقدر ما تعين على الفهم والإفهام." [243]

وقد أدرك القدماء كثيرا من تلك الخصائص، فابن جنى —مثلا- يقول: "والشعر موضع اضطرار، وموقف اعتذار، وكثيرا ما يحرف فيه الكلم عن أبنيته، وتحال فيه المثل عن أوضاع صيغها لأجله "[244].

وما حديثهم عن الضرورة الشعرية بكل ما تحويه من خصائص نحوية وصرفية ودلالية إلا لوعيهم بخصائص هذه اللغة. و إيمانهم العميق بما ينطوي عليه هذا العدول من قيم جمالية وأسرار بلاغية.

المبحث الثاني: بلاغة النثر

لقد كان النثر في البداية شفهيا – طوال القرن الأول للهجرة – و وصل إلى درجة كبيرة من الإتقان. و من أهم مظاهر هذا الإتقان نذكر:الخطابة، والأمثال، والحكم والوصايا، والكتابة، والرسائل، والتوقيعات، والمناظرات، والنثر القصصي.

ولقد جمع المبرد في كتابه الكامل كل هذه الأنواع من النثر الفني حيث قال في مقدمة الكتاب "هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب، مابين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، و رسالة بليغة"[245].

وفيما يلي مقتطفات لما ورد في مؤلفات المبرد من فنون النثر:

---

[243] من أسرار العربية ، الأنجلو المصرية القاهرة، ط5، 1975م: ص339-340

[244] الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، دت، 188/3.

[245] الكامل:02/1

أولا : الكلام المنثور:

جمع المبرد في مؤلفاته كلاما منثورا اختاره لتميزه بمقاييس كان يرى فيها علامة على البلاغة.من أهم هذه المقاييس:

–الإيجاز: قال: "قال قائل للربيع بن خثيم عندما رئي من اجتهاده وإغراقه في العبادة، وانهماكه في الصوم والصلاة وسائر سبل الخير :قتلت نفسك؛ فقال: راحتها أطلب. فهذا كلام محيط بالمعنى، لا فضل فيه عنه." [246]

– الوضوح:قال:"وقيل لروح بن حاتم بن قبيصة، وهو واقف على باب المنصور في الشمس: قد طال وقوفك في الشمس ! فقال:ليطول وقوفي في الظل.فهذا كلام مكشوف واضح، كانكشاف كلام الربيع." [247]

وروى عن الأصمعي أنه قال: " هجم علي شهر رمضان وأنا بمكة فخرجت إلى الطائف لأصوم بها هربا من حر مكة فلقيني أعرابي فقلت له:أين تريد؟ فقال :أريد هذا البلد المبارك لأصوم هذا الشهر المبارك فيه .أما تخاف الحر؟ فقال: من الحر أفر."[248]

فانظر إلى بلاغة القول ووضوحه وإيجازه .

ثانيا : الخطابة :

لقد عرف هذا اللون الفني في الجاهلية كلون من ألوان البيان، وازدهر على أيدي العرب ازدهارا كبيرا، والخطابة في ترتيب أجزائها أقرب إلى المنطق منها إلى الشعر. [249]

والخطابة رسالة نبيلة، تستجيب للمنطق، وتتأثر به بسحر البلاغة وتقدرها حق قدرها. [250]

و الخطب التي أعجب بها المبرد ودونها هي تلك الخطب التي اتسمت بالإيجاز والوضوح والإلمام بالموضوع، واحتوت على كمال المعنى وحسن المبنى.

(246) البلاغة للمبرد: ص85

(247) المصدر نفسه: ص86

(248) الكامل:202/1

(249) ينظر النثر الفني القديم، عمر عروة، دار القصبة الجزائر، ط1، 2000م: ص19

(250) ينظر تاريخ الأدب العربي في الحاضر، إبراهيم علي آبي الخشب، المكتبة المصرية العامة، ط4، 1992م: ص105.

منها خطبة لأبي طالب بن عبد المطلب ألقاها حين خطب لرسول الله ﷺ في تزويجه خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها، قال:"الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل،وجعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس؛ ثم إن محمد بن عبد الله، ابن أخي، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا، وكرما وعقلا، ومجدا ونبلا، وإن كان في المال قُلٌّ؛ فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعليّ." [251]

قال المبرد:"وهذه الخطبة من أقصد خطب الجاهلية ". [252]

تظهر معالم الإيجاز في هذه الخطبة باستعمال الجمل القصيرة .

كما ذكر المبرد خطبة ليزيد بن أبي سفيان التي استخدم فيها نسيجا مختلفا من الخطب التي تفرضها العقلية العربية الميالة إلى الأمثال، فقد"رقي المنبر فتكلم فأرتج عليه، فاستأنف فأرتج عليه، فقطع الخطبة، فقال :سيجعل الله بعد عسر يسرا، وبعد عي بيانا، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال. فبلغ كلامه عمرو بن العاص ، فقال: هن مخرجاتي من الشام استحسانا لكلامه." [253]

فيزيد كان يعلم أن إطالة الخطبة لا يمكنها بأي حال من الأحوال معالجة حرج الموقف الذي سببه ارتجاج المنبر أكثر من مرة، فكان الالتفاف على الخطبة باقتصاره على ثلاث جمل خير حل لمعالجة الموقف.

ومن الخطب التي أعجب بها المبرد خطبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال:"ومما يؤثر من هذه الآداب ويقدم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أول خطبة خطبها. حدثني العتبي قال : لم أر أقل منها في اللفظ، ولا أكثر في المعنى —حمد الله وأثني عليه و هو أهله، وصلى على نبيه محمد ﷺ ثم قال :

أيها الناس، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه." [254]

---

[251] الفاضل: ص108، و الكامل: 4/4

[252] الكامل: 4/4.

[253] المصدر نفسه: 27/1.

[254] المصدر نفسه:12/1

و الذي أعجب المبرد في هذه الخطبة هو موافقة قول عمر ﷺ لعمله: "وإنما حسن هذا القول مع ما يستحقه من قبل الاختيار، بما عضده به من الفعل المشاكل له".[255] وعمر بن الخطاب كان بيانه في مقدار عقله قوة وسدادا، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أي شدقيه شاء[256].

ولا ندري لماذا لم يأخذ المبرد بعين الاعتبار خطبة الوداع للرسول ﷺ ولم يذكرها في مؤلفاته رغم أنها تطرح قضية البلاغة صيغة ومضمونا.

إن الناظر في الخطب التي أثبتها المبرد في مؤلفاته يلاحظ أنها كانت تدور على محورين:

-**المحور الأول** ديني سخرت بمقتضاه الخطب للدعوة إلى التوحيد والإيمان بالعبث، وتقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وفي هذا المحور تدخل خطب الخلفاء الراشدين الذين كانوا "في الذروة من الفصاحة والبلاغة، إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن بترغيب وترهيب وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم"[257].

نذكر منها خطبة أبو بكر الصديق حين اضطرب الناس وماجوا بعد موت الرسول ﷺ صعد المنبر، فحمد الله وكبره وصلى على نبيه ﷺ- وهذه الافتتاحية أصبحت من لوازم الخطبة في الإسلام – ثم أقبل على الناس فقال :"أيها الناس، من كان يعبد محمد فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.أيها الناس، أأن كثر أعداؤكم، وقل عددكم، ركب الشيطان منكم هذا المركب! والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون .قوله الحق، ووعده الصدق، ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾[258]، و﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[259]. والله أيها الناس، لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى أبلي بنفسي عذرا أو أقتل قتلا. و الله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه، واستعنت عليهم الله وهو خير معين." [260]

---

[255] الكامل: 12/1

[256] ينظر البيان والتبيين: 63/1

[257] تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف، دار المعارف، ط11، 1963م :121/2.

[258] سورة الأنبياء: الآية 18

[259] سورة البقرة: الآية 249

[260] الكامل :391/1

فهذه الخطبة تدل على "تأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثرا استحوذ على كل نفسه، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية،...وتدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسه." [261]

و واضح من هذه الخطبة التي اختارها المبرد لأبي بكر الصديق –رضي الله عنه– أنها لم تشتمل على السجع، وأنها جاءت بكلام فصيح جزل واضح الدلالة، متخير اللفظ.

وخطبة علي بن أبي طالب التي جاء فيها: " أيها الناس، اتقوا الله الذي إن قلتم سمع وإن اضمرتم علم، وبادروا الموت الذي إن هربتم منه أدرككم، وإن أقمتم أخذكم."[262] والمعروف عن علي أنه كان خطيباً مفوهاً لا يشق غباره، وكان يخلب ألباب سامعيه ويؤثّر في نفوسهم تأثيراً عميقاً.

والمحور الثاني سياسي، استعملت فيه الخطبة لبسط النفوذ وإقرار نظام الحكم بالترغيب والترهيب ،وهذا المحور متداخل مع السابق لأن الخطيب كثيرا ما يمزج بين البعد الديني والبعد السياسي، ويدعو إلى المذهب عن طريق الموعظة والإشادة، ولا تكاد تخلوا خطبة أثبتها المبرد وكان لصاحبها دور سياسي في الدولة الإسلامية من هذا الجانب.من هذه الخطب خطبة الحجاج بن يوسف حين قدم أميرا على العراق فصعد المنبر وقال :"يا أهل الكوفة، إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ...إني والله يا أهل العراق، ما يقعقع لي بالشنآن، ولا يغمز جانبي كتغماز التين .ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة ...والله لأحزمنكم حزم السلمة، و لأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله ما أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت ...أما والله لتسقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده." [263].

وقد افتتح هذه الخطبة ببيت شعر[264]:

---

[261] تاريخ الأدب العربي :122/2

[262] الكامل: 380/1

[263] المصدر نفسه:381/1-382

[264] المصدر نفسه: 380/1

أَنَا ابْنَ جَلاَ وَ طَلاَّعُ الثَنَايَا مَتَى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

وإن كانت هذه الخطبة تصور سياسة الحجاج، فهي تصور أيضا فصاحته وبلاغته وحفظه للشعر الغريب، إذ اتخذه مقدمة لكلامه، وكأنما يجعله فاتحة موسيقية له وهي فاتحة يتبدى فيها ويطلب التشبه بالبدو لا في لغته فحسب، بل أيضا في ثيابه، وملبسه(265). حتى يغرب على السامعين ويروعهم. ولم يكتف بهذا الضرب من الإغراب فقد عمد إلى طائفة من الصور الغريبة، وهي تتراكم في الخطبة تراكما شديدا. ولعل مما يتصل بميله إلى الإغراب والتهويل في منطقه ما رواه المبرد من أنه" كان إذا صعد المنبر تكلم رويدا، فلا يكاد يسمع، ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد."(266).

ومعنى ذلك أنه كان في مظهره أثناء خطابته وفي صوته وفي لفظه وما يحوي من شعر وصور نادرة يريد التهويل على السامعين ، ويحاول أن يحكم صنعته في الخطابة من جميع أطرافها، حتى في إشارة اليد وفي الهمس بصوته والجهر به حتى يخلب القلوب. وكان يتحامى السجع، ويبتكر الصور والتشبيهات و الاستعارات.

ولقد كان الذروة في البلاغة في عصره، حتى ليقول عنه مالك بن دينار: "ربما سمعت الحجاج يخطب، ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج"(267). وربما هذا ما جعل المبرد يذكره كثيرا في كتابه الكامل ويدون خطبه و رسائله.

و الملاحظ أن المبرد حين بث في مؤلفاته هذه الخطب التي عدها شريفة لم يوضح لنا سبب الاختيار ولا المقاييس التي اعتمد عليها عند اختياره ما عدا الإيجاز الذي ذكره في بعض المواضع.

و لقد قام أحيانا بشرح الخطب شرحا لغويا(268) دون تقديم مواطن البلاغة فيها، ربما لأنه لغوي بالدرجة الأولى ولأنه لم يكن هناك من داع لتبيان مواطن البلاغة في هذه الخطب لأنه أمر كان معروفا في ذلك العصر ولا داعي لشرحه.

(265) ينظر البيان والتبيين: 308/2.

(266) الكامل: 380/1

(267) البيان والتبيين: 394/1.

(268) ينظر الكامل: 382/1-383

واهتمام المبرد ببلاغة الخطب جعله يركز على أداءها أداء سليما فهو يتبع أستاذه الجاحظ، ويضع مواصفات مضبوطة ينبغي أن تتوفر في الخطيب ليبلغ درجة الكمال بخلوه من العيوب الخلقية و الخُلُقية. وإذا كان فيه نقص من المقاييس التي اعتمدها، وقفت هذه الحواجز دونه فلم تدعه يبلغ درجة البلغاء ولا يصنف ضمنهم.

من ذلك القدرة على الكلام، دون بطء ومعاناة حيث قال حين وازن بين المنظوم والمنثور: " فينظر أيهما أشد على الكلام اقتدارا، وأكثر تسمحا، وأقل معاناة وأبطأ معاسرة فيعلم أنه المقدم." [269] وسلامة الأفواه من عيب الصفير وتمام الأسنان حيث كانت البلغاء كما قال المبرد تتفقد ما هو أقل من هذا "فمن ذلك أن الجمحي خطب خطبة ، فأحسنها وأجادها، وكان بين ثنيتيه فرق، وكان يصفر إذا تكلم، فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في وزن كلامه، وحسن نظامه، غير أنه تقدمه في السمع بالسلامة من ذلك الصفير؛ فقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر":

قَلَّتْ قَوَادِحُهَا وَتَمَّ عَدِيدُهَا	فَلَهُ بِذَاكَ مَزِيَة لاَ تُنْكَرُ"[270]

والبعد عن الاستعانة، والاستعانة هي: " أن يدخل في الكلام ما لا حاجة للمستمع إليه ليصحح به نظما إن كان في شعر، أو ليتذكر به ما بعده إذ كان في كلام منثور، كنحو ما تسمعه في كثير من كلام العامة ألست تسمع؟ أفهمت ؟ أين أنت ؟ وما أشبه هذا، وربما تشاغل العيي بفتل إصبعه ومس لحيته، وغير ذلك من بدنه،وربما تنحنح"[271].

بعد تصفح الخطب الواردة في مؤلفات المبرد لاحظت أنه جمع بعض خطب الخلفاء الراشدين وكذا بعض خطب بني أمية ولم يشر إلى خطب العصر العباسي الذي كان يعيش فيه رغم أننا وجدناه عند ذكر الشعر يجمع بين شعر القدماء وشعر المحدثين.

ثالثا: الرسائل:

اختار المبرد مجموعة من الرسائل ودونها في مؤلفاته ووصفها بأنها "رسائل بليغة"[272] وكان أحيانا يعطي رأيه فيها، وفي أحايين كثيرة لا يفعل بل يكتفي بشرح مضمونها شرحا لغويا.

---

(269) البلاغة للمبرد: ص81.

(270) المصدر نفسه: ص81-82.

(271) الكامل:1/30-31.

(272) المصدر نفسه: 1/02.

و الرسائل التي جمعها كانت للخلفاء الراشدين: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

تميزت رسائلهم باستخدام العبارات الواضحة، إذ لم يكن القصد منها التنميق بل إبلا غ أفكارهم دون استخدام أي ضرب من ضروب التزيين، فقد كان حسبهم أن يؤتوا أغراضهم في لغة جزلة متينة يغلب عليها الإيجاز(273).

نذكر من بين هذه الرسائل رسالة عمر بن الخطاب-ﷺ-، قال المبرد: "ومن ذلك رسالته في القضاء إلى أبي موسى الأشعري، وهي التي جمع فيها جمل الأحكام واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونها إماما، ولا يجد محق عنها معدلا، ولا ظالم عن حدودها محيصا، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس. سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس بوجهك...البينة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحا أحل حراما ،أو حرم حلالا. لا يمنعنّك قضاء قضينه اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل...وإياك والغلق والضجر، والتأذي بالخصوم، والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق ليعظم الله به الأجر، و يحسن به الدخر فمن صحت نيته، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس...و السلام "(274).

هذه الرسالة خير ما أثر عن عمر بن الخطاب ﷺ لتضمنها وصايا لولاته في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان. وهذا ما أعجب المبرد إضافة إلى أنها جاءت مختصرة بأحسن الألفاظ و أوضحها.

وكتب عثمان بن عفان- ﷺ — إلى علي كرم الله وجهه حين أحيط به فقال: "أما بعد: فإنه قد جاوز الماء الزبى، وبلغ الحزام الطُّبْيَيْن، وتجاوز الأمر بي قدره، وطمع في من لا يدفع عن نفسه.

(273) ينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، مكتبة الدراسات الأدبية دار المعارف، ط9، دت: ص 106

(274) الكامل: 1/12-13-14.

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولاً فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ إِلاَ فَادْرِكْــنِي وَلِمــاَّ أُمَزَّقِ"[275]

يبدو أن حب المبرد للإيجاز جعله يختار لعثمان ﷺ هذه الرسالة الموجزة المليئة بالأمثال التي تنم عن معان كثيرة شرحها المبرد شرحا لغويا وبين مقصود عثمان بن عفان ﷺ من قوله[276].

في عهد علي كرم الله وجهه كثرت الحاجة بحكم الحروب إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عنه ومما كتب علي رسالة وجهها إلى معاوية جاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم . من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر، أما بعد : فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعا الهوى فأجابه، وقاده فاتبعه زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان. ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى!.

وبعد، فما أنت وعثمان! إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك، فادخل فيما دخل فيه المسلمون..." [277].

واضح أن هذه الرسالة لم يتوخى صاحبها التنميق والتزيين، فجاءت واضحة الدلالة، لا غريب فيها ولا تصنع والغرض بائن من وراءها والهدف ظاهر.

كما دون المبرد رسائل لولاة وخلفاء بني أمية: الحجاج بن يوسف، عبد الملك بن مروان، معاوية بن أبي سفيان، محمد بن عبد الله بن الحسن، عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وغيرهم.

ورسائل العصر الأموي " فيها استمرار لرسائل الفترة السابقة ولكن تصل في النهاية إلى طور يغاير أوائل الفترة الأولى مغايرة تامة، فليست لغتها بلغة الخطاب العادي، ولكنها لغة مهذبة مجملة، ولكن رغم هذا التهذيب لا تصل إلى مرحلة كد الذهن، وإنما هو نوع من التزويق والتجويد، وقد بدأ التزويق منذ أواخر الصدر الأول من الإسلام"[278].

---

[275] الكامل: 17/1.

[276] ينظر الكامل: 17/1-18.

[277] الكامل: 330/1-331

[278] نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية مصر، ط1، 2002 م: 76/2.

من الرسائل التي ذكرها المبرد رسالة كتبها الحجاج إلى عبد الملك بن مروان: "بلغني أن أمير المؤمنين عطس عطسة فشمتته قوم فقال: يغفر الله لنا ولكم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما"[279].

يظهر من أسلوب هذه الرسالة أنها تخالف ما عرف عن الحجاج من أن سياسته في رسائله التي اشتهر بها تقطر شدة وحدة، حتى في مخاطبته لبعض الأمراء. ولكن هذه الرسالة تتميز عن غيرها من الرسائل لأنها موجهة إلى عبد الملك بن مروان " ومعروف أنه كان صنيعة عبد الملك، فهو الذي أظهره، وما زال يرفع من أمره حتى ولاه العراق وخراسان، وكان إذا كتب إليه تأنق ما استطاع في تعبيره"[280].

وهاهو ذا المبرد يعطينا نموذجا أخر لرسائل الحجاج يظهر فيها ما عرف عنه من قوة وشدة وهي من الرسائل السياسية" ثم كتب الحجاج إلى المهلب : أما بعد فإن بشرا رحمه الله استكره نفسه عليك، وأراك غناءه عنك، وأنا أريك حاجتي إليك، فأرني الجد في قتال عدوك، ومن خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله، فإنني قاتل من قبلي، ومن كان عندي و من ولي من هرب عنك فاعلمني مكانه، فإني أدرى أن آخذ الولي بالوليِّ، والسَّمِيِّ بالسِّمِيِ"[281].

رغم الحدة الظاهرة في هذه الرسالة إلا أننا نلاحظ استخدام الحجاج: عنك، إليك، عدوك، قلبك "ولم يكن الحجاج يعمد إلى السجع في كتبه ورسائله دائما، بل لعل ذلك إنما كان في القلة وفي الحين بعد الحين، أما الكثرة فتخلو من السجع. وليس معنى هذا أنه كان يتخلص من محاولة التأنق والتنميق، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائما، وكان يتخذ إليه الإغراب في اللفظ حينا، وحينا يتخذ ما سبق أن لاحظناه في خطابته من الصور والاستعارات الطريفة"[282].

ومن الرسائل الاجتماعية التي زخربها كتاب الكامل رسالة معاوية إلى مروان بن الحكم: "وتحدث الزبيريون أن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم، وهو والي المدينة : أما بعد، فإن أمير

---

(279) الكامل: 110/2

(280) تاريخ الأدب العربي:461/2

(281) الكامل:368/3

(282) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص108.

المؤمنين أحب أن يرد الألفة، ويسل السخيمة، ويصل الرحم، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاخطب إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على يزيد بن أمير المؤمنين، وارغب له في الصداق"[283].

هذه الرسالة اعتنى صاحبها عناية شديدة باختيار الألفاظ وتنسيقها مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى.

والرسائل التي اتسمت بالبلاغة في رأي المبرد رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر المعروف بالرسالة الشخصية التي انتشرت في العصر الأموي، قال المبرد: " وهذه رسالة نذكرها، فإنا استحسنا ألفاظها واستغربنا معانيها، ووقفنا على إبلاغ غطائها وهي رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر من الحبس إلى أبي مسلم:

بسم الله الرحمن الرحيم:

من الأسير في يديه، بغير ذنب إليه، ولا خلاف عليه، أما بعد: فإنك مستودع ودائع، ومولى صنائع، فاذكر القصاص، واطلب الخلاص، وأنبه للفكر قلبك، واتق الله ربك، وآثر ما يلقاك غدا على ما لا يلقاك أبدا، فإنك لاق ما سلفت، غير لاق ما خلفت، وفقك الله لما ينجيك، وآتاك شكر ما يوليك"[284].

إن المقاييس التي جعلت المبرد يعجب بهذه الرسالة هي: حسن اللفظ وغرابة المعنى واشتمالها على عظات بليغة. كيف لا وهذه الرسالة هي من تأليف رجل عرف أنه كان" لسنا بليغا يعرف كيف يحوك الكلم ويصوغه صياغة باهرة"[285]. و الرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة رغبة في التأثير في أبي مسلم من أجل إطلاق سراحه.

إن اختيار المبرد للرسائل التي ضمنها كتابه الكامل لم يكن مقصورا فقط على تلك الرسائل التي تميزت بالإيجاز بل نجده أيضا يورد بعض الرسائل المطولة التي دارت بين المنصور وبين محمد بن عبد الله بن الحسن لأن الطول أصبح " ظاهرة جديدة لم يكن يعرفها العرب في أدبهم إذ كانوا يوجزون...أما منذ هذا العصر فقد استمرت ظاهرة الإيجاز في الشعر، بينما حلت

[283] الكامل: 208/3

[284] الفاضل: ص 58.

[285] تاريخ الأدب العربي :464/2

محلها ظاهرة معاكسة في النثر، وهي ظاهرة لا شك في أنها وليدة التطور العقلي الذي أصابه العرب، فإذا هم يستطيعون أن يبسطوا آرائهم السياسية وأن يفصلوا في معانيها ضروبا مختلفة من التفصيل"[286].

والمبرد حين ذكر هذه الرسائل أورد ما يجوز ذكره وأمسك عن الباقي "فقد قيل: الراوية أحد الشاتمين"[287].

وخلاصة القول إن المبرد عندما جمع في مؤلفه الكامل هذه الرسالة البليغة والتي صدرت من بلغاء عرفوا في عهدهم واشتهروا، قام بمساهمة عظيمة تمثلت في المحافظة على تاريخ الدولة الإسلامية في عصورها الأولى وخاصة في عصر الفتن، حيث يعد الكامل من هذه الناحية مصدرا من مصادر التاريخ العربي الإسلامي.

رابعا: الأمثال:

إن العرب قد اعتنوا بالأمثال عناية قل نظيرها، فقد أقحموها في كل ميادينهم تقريبا فكان لكل ضرب من ضروب حياتهم مثل يلهج به، وبلغت عناية اللغويين مدى مميزا عن سواهم، لأن المثل بالنسبة إليهم كان يجسد اللغة الصافية إلى حد كبير، فأخذوا منها الشواهد الجمة وبنوا على أساسها شاهقات بنائهم اللغوي.

فالمثل هو " الفن من الكلام، الذي يتميز بخصائص ومقومات، تجعله جنسا من الأجناس الأدبية قائما بذاته، وقسيما للشعر والخطابة والقصة والرسالة والمقامة، وهو قول محكم الصياغة قليل اللفظ موجز العبارة، بليغ التعبير، يوجز تجربة إنسانية عميقة مضمرة، ومختزلة بألفاظه نتجت عن حادثة أو قصة قيل فيها المثل، ويضرب في الحوادث المشابهة لها .فهو فن أدبي نثري ذو أبعاد دلالية معنوية متعددة انتشرت على الألسن له مورد وله مضرب ومن أسباب شيوعه خفته وحسن العبارة، عمق ما فيه من حكمة لاستخلاص العبر، إصابة للغرض المنشود منه، الحاجة إليه وصدق تمثيله للحياة العامة ولأخلاق الشعوب"[288].

[286] الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص106.

[287] الكامل:113/4.

[288] فنون النثر في الأدب العباسي، محمود عبد الرحيم صالح، دار جريو عمان، ط2، 2005م : ص 50

لقد بدأ الميداني مقدمة كتابه " مجمع الأمثال" بعرض أراء بعض أهل اللغة والأدب، مستهلا هذا العرض برأي المبرد الذي يقول: " المثل مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه فقولهم: (مثل بين يديه) إذا انتصب معناه أشبه الصورة المنتصبة ، " فلان أمثل من فلان" أي أشبه بما له من الفضل. والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول...فمواعيد عرقوب علم لكل ما يصح من المواعيد"[289].

يرى المبرد حسب هذا التعريف أن المثل يقوم على إسقاط تجربة سابقة على تجربة حالية، والأصل فيه التشبيه، والمبرد لغوي متعلق بالتشبيه كثيرا إلى درجة أنه خصص له بابا مستقلا في الكامل، لذا وجدناه يحتفي بالأمثال ويقدّم لنا مجموعة منها ويشرحها لمالها من علاقة بالتشبيه ولاتصافها بالإيجاز الذي يعد عماد البلاغة عنده.

- **بلاغة الأمثال:**

قال المبرد: " والكلام يجري على ضروب، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه ،ومنه ما يكنى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلا، فيكون أبلغ في الوصف"[290] .

المثل إذا أبلغ صور الوصف عند المبرد لأنه يقوم بوظيفة فنية تتمثل في الإسهام في إنتاج الدلالة وتفعيلها، فضلا عن إثراءه للنص و تضمينه المعارف القيمة التاريخية والرمزية. ونقصد بالإنتاج أن يخرج بالصورة التي عليها، وبالفاعلية كونها عنصرا قادرا على التأثير في المتلقي وإيصال الدلالة وتكثيفها بصورة أفضل، وتكمن جمالية التوظيف الفني للصورة المثلية في أنها استلهام لتعبير تصويري، استلهام لبنية فنية داخل بنية فنية أخرى.

لقد جمع المبرد بعض الأمثال في مؤلفاته، وأعطاها ما تستحق من الاهتمام لأنها في نظره تتميز ببلاغة القول مثل الشعر والخطابة والرسائل. قال في مقدمة الكامل: " هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر موصوف ومثل سائر..." [291].

---

[289] مجمع الأمثال: 2/05-06

[290] المصدر نفسه: 2/290

[291] الكامل: 1/02

وقال في خاتمة الفاضل: " ونحن خاتمو كتابنا هذا بباب يشتمل على فنون من الآداب ويتضمن بعض ما نستحسنه من الأخبار والأشعار الذي يشاكل بعضها بعضا ،ونضيف إلى ذلك من العظات الموجزة والأمثال السائرة، والأشعار الموزونة ،وبالله الحول والقوة"(292).

ومن الأمثال التي جمعها المبرد في مؤلفاته وشرحها: قال: " ومن أمثالهم : رب عجلة تهب ريثا*. وتأويله أن الرجل يعمل العمل فلا يحكمه للاستعجال به، فيحتاج إلى أن يعود فينقصه ثم يستأنف والريث الإبطاء، وراث عليه أمره إذا تأخر." (293).

و الملاحظ على هذا المثل أنه يحوي طباقا بين " عجلة وريثا " فالأمثال أغلبها لم تكن تخلو من محسن بلاغي.

وقال: " و من أمثال العرب." هو أعز من بيض الأنوق"*، وتقول العرب لمن يطلب الأمر العسير: " سألتني بيض الأنوق" وذاك أنها تبيض في رؤوس الجبال، فلا يكاد يوجد بيضها، لبعد مطلبه وعسره . فإن سأله محالا قال: " سألتني الأبلق العقوق" وإنما هو الذكر من الخيل. ويقال: فرس عقوق، إذا حملت فامتلأ بطنها، فالأبلق الحقوق محال"(294).

ويعد هذا المثل من الأمثال التي جاءت في صورة بيانية رائعة تتمثل في التشبيه: أي كمن يبغي ويطلب المحال.

كما عرض علينا المبرد المثل الحواري قال:

" وحدثني علي بن القاسم قال: قلت لأعرابي فصيح: ما معنى قولهم في المثل "كاد العروس أن تكون أميرا"* لما كاد ذاك؟ قال: لأن الأكفاء يخدمونها في تلك الحال"(295).

و تكلم عن المثل الدائر في نطاق الأسطورة، من ذلك قوله: "ومن أمثالهم. روى ذلك أبو عبيدة أن إبليس تصور لابنة الخس فقال لها:أسألك أو تسألني؟ فقالت له سل، قال لها: كاد

(292) الفاضل: ص100.
* مجمع الأمثال: 294/1
(293) الكامل:205/1.
* المصدر نفسه: 44/2
(294) المصدر نفسه: 271/2
* مجمع الأمثال: 158/2
(295) الفاضل: ص115.

،فقالت (كاد النعام أن يطير)*،فقال لها: كاد، قالت: (كاد المنتعل أن يكون راكبا) قال لها: كاد ،قالت: (كاد العروس يكون أميرا)،.." [296].

و المبرد عند دراسته للمثل قد يقتصر على بيان المعنى ومن ذلك قوله: "ومن أمثال العرب: "من عزّ بزّ"، وتأويله: من غلب استلب" [297]. وقوله: "من أمثل العرب: "لم يذهب من مالك ما وعظك". يقول: إذا ذهب من مالك شيء فحذرك أن يحل بك مثله، فتأديبه إياك عوض من ذهابه" [298].

وكثير ما يبين معنى المثل، ومضربه فيقول: "ومن أمثال العرب: "إنه ليسرُّ حسوًا في ارتغاء" ومعنى ذلك، أنه يوهمك أنه يأخذ بفيه تلك الجلدة من اللبن، ليصلحه لك، وإنما هو يحسو من تحتها. يضرب هذا المثل لمن يريك أنه يعينك، وإنما يجترّ النفع إلى نفسه" [299].

ويورد المبرد قول أبي زيد الأسلمي [300]: *وَحَلَبْتُ الأَيَامَ وَالدَهْر أَضْرُعَا*

ويتبعه بقوله: "إنه مثل. يقال للرجل المجرب للأمور: فلان قد حلب الدهر أشطره، أي قد قاسى الشدة، والرخاء، وتصرف في الفقر والغنى" [301].

وأحيانا يذكر مورد المثل ومضربه. فيقول: "وحدثت أن الحسن نفى سابق الحاج، وقد أسرع، فجعل يومئ إليه بإصبعه فعل الغازلة، وهو يقول: "خرقاء وجدت صوفا" وهذا من أمثال العرب. يضربونه للرجل الأحمق الذي يجد مالا كثيرا؛ فيعيث فيه" [302].

وقد يقتصر على مضربه، ومنه قوله: "ومن أمثال العرب: "إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا". يضرب للرجل يكون جلدا؛ فيصادف من هو أجلد منه" [303].

---

(296) الفاضل: ص115

(297) الكامل: 148/1, 71/3، و ينظر: "رب عجلة تهب ريثا"، و"أن ترد الماء بماء أكيس": 205/1.

(298) المصدر نفسه: 205/1.

(299) المصدر نفسه: 91/1.

(300) المصدر نفسه: 188/1.

(301) المصدر نفسه: 192/1.

(302) المصدر نفسه: 243/1، ويضرب للذي يفسد ماله، مجمع الأمثال: 418/1.

(303) المصدر نفسه: 319.

وقد يورد المثل شعرا ثم يقرنه بآخر؛ توضيحا له؛ فقد أورد شعرا لحارثة ابن بدر في رثاء زياد، ومنه قوله [304]:

النَاسُ بَعْدكَ قَدْ خَفَتْ حُلُومُهم　　　كأَنَمَا نَفَخَتْ فِيهاَ الأَعَاصيرُ

ثم يقول في الشطر الثاني": هذا مثل، وإنما يراد : خفة الحلوم، والإعصار فيما ذكر أبو عبيدة: [305] ريح تهب بشدة فيما بين السماء والأرض" [306] .

و قد يقرن المبرد مثلين فأكثر، لاتفاقهما في المضرب فقد أورد قول الفضل ابن جعفر [307].

يَا وُزَرَاءَ السُلْطَان　　　أَنْتُـمْ وَآلُ خَـاقَانْ

كَبَعْض مَا رَوَيْنَـا　　　في سَالفَات الأَزْمَانْ

مَـاءٌ وَلاَ كَصُدى　　　مَرْعًى وَلاَ كَالسعْدَانْ

ثم أتبعه بقوله: "وهذه الأمثال ثلاثة منها قولهم:" مرعي ولا كالسعدان"، و"فتى ولا كمالك" و"ماء ولا كصدى". تضرب هذه الأمثال للشيء الذي فيه فضل وغيره أفضل منه" [308].

تمتاز الأمثال السابقة بوضوح أفكارها ودقتها، كما تمتاز بإيجاز لفظها وجمال عبارتها وكثير من الأمثال يتسم بروعة التشبيه ودقة التعبير، وهي تكون في مضربها استعارة " تمثيلية" حيث استعير المثل من مورده للمضرب وهو الموقف الجديد.

و هي تصور الشخصية العربية الجماعية وتعبر عن الذوق اللغوي الجماعي، وتنقل مستوى العرب الفكري والثقافي في الزمان والمكان الذي شاع فيه المثل، هذا من ناحية المبنى أما من ناحية المعنى والمغزى فإن الأمثال كلها تعكس قيما إنسانية خالدة يشترك فيها العرب مع غيرهم

---

[304] الكامل: 317/1.

[305] قال: الإعصار: "ريح عاصف تهب من السماء كأنه عمود فيه نار"، مجاز القرآن: 82/1.

[306] الكامل: 319/1.

[307] المصدر نفسه: 09/1.

[308] المصدر نفسه: 09/1.

من بني الإنسان لأنها تمثل طموح هذا الكائن إلى الكمال. وبهذا كانت الأمثال فنا أدبيا راقيا جديرا باهتمام المبرد وغيره.

خامسا: الحكم:

ظلت الحكم عند العرب تمثل الفطرة السليمة، التي تعتمد على البساطة، من خلال نظرتهم إلى فلسفة الحياة وتجاربها، إلى أن سقطت الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية سنة 132هـ ، عندئذ " انتشرت حركة النقل، وشاعت الثقافات العالمية بين العرب، وانهال العلماء على كل علم يتدارسونه ويقعدونه، شاع التفكير الفلسفي، وراح العرب ينقلون الحكم والأمثال من الهنود والفرس واليونان ، ويضيفونها إلى حكمهم وأمثالهم..."[309].

والمبرد من الأدباء الذين اهتموا بالحكم وحاولوا جمعها في مؤلفاتهم قال: " ثم نذكر من كلام الحكماء وأمثالهم وآدابهم صدرا"[310].

ومن الحكم التي أعجب بها: " قال الأحنف بن قيس[311] :كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئا عرف به"[312].

وكان يقال: " أربع من كنوز الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان الصدقة، وكتمان الفاقة، وكتمان الوجع." [313].

ومن أقوال الحكماء، قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس: " إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور."[314].

وقال أردشير بن بابك: "إن للآذان مجة ، وللقلوب مللا ، ففرقوا بين الحكمتين يكن ذلك استحماما"[315].

---

(309) مصطلحات نقدية في التراث الأدبي العربي، محمد عزام، وزارة الثقافة، دمشق، 1995م: ص192.

(310) الكامل: 46/1.

(311) اسمه صخر، وقيل الصنهاك، من بني سعد إحدى عشائر تميم لقب بالأحنف لحنيف كان في رجليه جميعا، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف من حنكة وحلم وحزم ومرؤة ودقة بالنفس ومصارحة بالرأي مع حسن البيان وذلاقة اللسان . تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف: ص431.

(312) الكامل:47/1

(313) المصدر نفسه: 41/2.

(314) المصدر نفسه: 03/4

(315) المصدر نفسه: 286/2.

والمبرد حين ذكر هذه الحكم كان يدرك أهميتها في حياة الإنسان وثقافته وأدبه. وقد عبر عن هذه القيمة للحكم أبو هلال العسكري حيث قال: " إني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والحكمة والمثل والكلمة السائرة فإن ذلك يزيد المنطق تفخيما ، ويكسبه قبولا، ويجعل له قدرا في النفوس ، وحلاوة في الصدور... "[316].

وقد حرصت العرب على الحكمة والمثل، ومالت إليهما، لأنهما يمثلان منطق الحياة البسيطة، وفلسفتها الفطرية، بهما يحللون الواقع، ويفسرون طريقة الفهم والاستيعاب، ويعللون منهج التفكير، ويصورون الحياة في شتى مناحيها.

لذا اهتم المبرد بكليهما، ووجدناهما ظاهرتين بين دفتي كتابه الكامل لاتصافهما بلغة موجزة سهلة الفهم بليغة المعنى.

سادسا: الوصايا:

الوصية نوع من أنواع الأدب الحي الرفيع، تنتقي ألفاظها انتقاء ممتازا، وتعرف بأنها خلاصة موجزة عن حياة الإنسان المليئة بالتجارب والخبرة والحنكة والمراس، وهي آخر ما يقدمه المرء إلى أبنائه وذويه في حياته أو نهايتها، بعد أن اختبر الحياة بكل ما فيها من حلو ومر، وللوصية هدف تربوي ترمي إليه يتصل بحياة الأفراد والجماعات وهو فعل الرغائب، واقتناء المحامد، والتبصر في العواقب والتروي عند الحوادث، ويكثر ذلك من الحكماء والكهان لعامة الناس، ومن الآباء للأبناء لصالح خيرهم[317].

وقد حفظ لنا المبرد نماذج من الوصايا الجديرة بالتأمل والدراسة قال: "ونذكر وصايا يؤثر بعضها عن أهل الدين وبعضها عن أهل الآداب والطبائع المحمودة . وقد نجتر إلى أنفسها غير ذلك من سائر الوصايا" [318].

---

[316] جمهرة الأمثال،الشيخ الأديب أبي هلال العسكري، حقّقه و علّق حواشيه و وضع فهارسه محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش، دار الجيل بيروت و دار الفكر للنشر، ط2 ، 1408هـ/1988م : 04/1

[317] ينظر النثر الفني القديم: ص 21.

[318] التعازي و المراثي: ص 116.

فهذا علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه- لما ضرب ثم دخل منزله "اعترته غشية ثم أفاق ، فدعا الحسن والحسين، فقال : أوصيكما بتقوى الله والرغبة في الآخرة ، والزهد في الدنيا. ولا تأسفا على شيء فاتكما منها، اعملا الخير، وكونا للظالم خصما، وللمظلوم عونا"[319].

فهذه الوصية جاءت موجزة تكاد تكون مكتفية بالجملة الأولى" أوصيكما بتقوى الله" وما تلاه من كلام إنما كان تفسيرا لها. و اتسمت بسهولة اللفظ و وضوح الفكرة وقصر الجمل.

وروى المبرد أنه "لما حضر عمر بن عبد العزيز الوفاة قيل له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى يزيد بن عبد الملك فأوصيه بالأمة (خيرا) فقال: وبم أوصه؟ إني لأعلم أنه من بني مروان. ثم أمر بالكتاب إليه: أما بعد فاتّق الله، يا يزيد، الصرعة بعد الغفلة فلا تقال العثرة. ولا تقدر على الرجعة، تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتقدم على من يعذرك (والسلام)" [320].

فهذه الوصية القصيرة جدا ما كان لها أن تكون أصلا، لولا أنها قيلت تحت الطلب، ولعل السبب في ذلك يعود إلى اقتناع عمر بن عبد العزيز بعدم جدواها، يدل على ذلك قوله: "وبم أوصيه؟ إني لأعلم أنه من بني مروان"، وإذا ما ألقينا نظرة على مضمونها وجدناها لا تتعدى التحذير من خطر واحد هو الغفلة، ذلك أن ما ذكر بعده من العثرة وعدم القدرة على الحفاظ على خط الرجعة، إنما هو نتيجة للخطر المذكور آنفا.

وقد تكون الوصية مرتبطة بظرف معين، ثم يتم تعميم المخصوص ليتم اتخاذه قاعدة حياتية عامة، مثلما ورد في وصية أبي عبيدة بن الجراح لما طعن ودعا من حضره من المسلمين فقال: " إني أوصيكم وصية إن قبلتموها لم تزالوا بخير: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا وحجوا واعتمروا، وتواصلوا، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم، ولا تلهيكم الدنيا، فإن امرءًا لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مثل مصرعي هذا الذي ترون. إن الله كتب الموت على بني آدم، فهم ميتون، وأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم ميعاده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يا معاذ بن جبل صل بالناس" [321].

---

(319) الكامل: 224/3

(320) التعازي و المراثي: ص129

(321) المصدر نفسه: ص 122.

دعى أبو عبيدة في هذه الوصية المسلمين إلى الالتزام بأركان الإسلام وتطبيقها كما ذكرهم بالموت الذي هو مآل كل إنسان. والوصية جاءت متماسكة العرى والأطراف قوية السبك، بعيدة المعنى والقصد، وصيغت بأسلوب متين العبارة، ولغتها قريبة إلى ذهن المتلقي.

وقد تأتي الوصية طويلة وذلك حسب السبب الذي أوجدها . من ذلك وصية أبي بكر الصديق ﵁ لعمر بن الخطاب رحمه الله حين استخلفه(322).

و أشار المبرد إلى الوصايا التي تأتي في الشعر حيث ذكر بيتين لحسان بن ثابت يوصي فيهما امرأته(323).

فَإِمَا هَلَكْتُ فَلاَ تَنْكِحِي ظَلُومَ العَشِيرَةِ حَسَّـــادَهَــا
يَرَى مَجْدَهُ ثَلْبَ أَعْرَاضِهَا لَدَيْهِ، وَيَبْغَضُ مَنْ سَادَهَا

واضح من البيتين أن حسان يوصى امرأته أن لا تتزوج بعده رجل يبغض عشيرته ويكرهها.

لقد عرف المبرد ما للوصية من أثر في السامعين بما فيها من معان صادقة وأسلوب راق فجمع بعضها في مؤلفاته وحفظ بذلك تراثنا العربي من الزوال.

سابعا: المناظرات:

-المبرد و المناظرات:

نقل لنا المبرد في كتابه الكامل أخبار الخوارج، ودعم تلك الأخبار بمناظرات وقعت بينهم وبين عبد الله بن عباس وعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه(324). كما عرض لنا مناظرة أهل النخيلة لابن عباس(325).

وهذه مناظرة عبد الله بن عباس للخوارج لما وجهه علي –كرم الله وجهه- ليناظرهم: "قال لهم: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟ قالوا: قد كان للمؤمنين أميرا، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان، فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له فقال ابن عباس: ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر! قالوا: إنه قد حكم، قال: إن الله عز وجل قد أمرنا

(322) ينظر التعازي و المراثي: ص 116-117.
(323) الكامل:211/1 و البيتين في الديوان: ص76
(324) ينظر الكامل: 181/3
(325) ينظر المصدر نفسه: 283/3

بالتحكيم في قتل صيد، فقال عز وجل:﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾(*) فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين ! فقالوا: إنه قد حكم عليه فلم يرض، فقال : إن الحكومة كالإمامة، و متى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما فقال بعضهم لبعض: لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(**).وقال عز وجل: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾***"[326].

تبدو هذه المناظرة وكأنها حوار، وحاول كل طرف من هذا الحوار إثبات رأيه من خلال الأدلة وهي " الآيات القرآنية " ولم تنته هذه المناظرة باعتراف أي من طرفيها بالغلبة للآخر.

و المبرد حين عرض علينا هذه المناظرات أطلعنا على فن من فنون القول كانت له أهمية ودور كبير في تلك الفترة الزمنية، والمبرد عالم لغة بالدرجة الأولى لذا اهتم بكل صنوف القول واستعمال اللغة.

ثامنا: التوقيعات:

تعد التوقيعات فنا أدبيا من فنون النثر العربي، ارتبطت نشأتها وازدهارها بتطور الكتابة. و التوقيع عبارة بليغة موجزة مقنعة، يكتبها الخليفة أو الوزير على ما يرد إليه من الرسائل تتضمن قضية أو مسألة أو شكوى أو طلب. و التوقيع قد يكون آية قرآنية، أو حديثا نبويا، أو بيت شعر، أو حكمة، أو مثلا، أو قولا سائرا. و يشترط أن يكون ملائما للحالة أو القضية التي وقع فيها، فهو مرتبط بفن توجيه المعاملات الرسمية في الإدارة الحديثة.

- المبرد و التوقيعات:

في العصر العباسي افتن الموقعون وتجلت على أسلات أقلامهم ثمار البلاغة يانعة ، وممن بلغ الغاية في ذلك جعفر البرمكي الذي أعجب به المبرد وروى عنه مجموعة من التوقيعات منها: "رفع قوم إليه شكية عاملهم فوقع في قصتهم: يا هذا، قد كثر شاكوك ، وقل حامدوك، فإما عدلت وإما اعتزلت." [327]

---

* سورة المائدة: الآية95.

** سورة الزخرف: الآية58

***سورة مريم : الآية97

(326) الكامل : 165/3.

(327) المصدر نفسه:301/1.

والملاحظ على هذه التوقيعة أنها جاءت مسجوعة، موجزة، سليمة التركيب دقيقة الفكرة، مركزة، تحمل رأي كاتبها في الشكوى.

و منها أيضا: "كتب إلى جعفر بن يحيي: إن صاحب الطريق قد اشتط فيهما يطلب من الأموال، فوقع جعفر: هذا رجل منقطع عن السلطان، وبين ذؤيان العرب بحيث العدد والعدة، والقلوب القاسية، والأنوف الحمية، فليمدد من المال بما يستصلح به من معه ليدفع به عدوه، فإن نفقات الحروب يستظهر لها ، ولا يستظهر عليها"(328). وهكذا تظهر فطرة العرب التي تميل إلى الإيجاز الذي ظهر جليا واضحا في أمثالهم وحكمهم ثم توقيعاتهم، حتى أن جعفر بن يحي قال لكتابه: " إذ قدرتم أن تكون كتبكم كلها توقيعات فافعلوا." (329).

ولقد استشهد المبرد على بلاغة جعفر بن يحيي برأي أستاذه الجاحظ فقال، " وزعم الجاحظ قال: قال ثمامة بن أشرس النميري: ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحي والمأمون." (330).

إن للتوقيعات قيمة أدبية لذا التفت إليها المبرد ولم يهملها ففيها الإيجاز الذي يحبذه، كذا السمو في المعنى، والقوة المختلجة في الألفاظ والأثر في النفس.

المبحث الثالث: المفاضلة بين الشعر و النثر.

إن موضوع المفاضلة بين الشعر والنثر من القضايا التي أولاها العرب القدامى كثيرا من عنايتهم، وخصّوها بمزيد من اهتمامهم. وهي قضية ظهرت جذورها منذ العصر الجاهلي، فقد نقل لنا الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء قوله: "كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم، ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن عزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلمّا كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر، ولذلك قال الأوّل: الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الديني"(331).

---

(328) الكامل:301/1

(329) المصدر نفسه:301/1

(330) المصدر نفسه: 301/1

(331) البيان والتبيين : 24/1.

من هذا النص يمكننا القول أنّ المفاضلة بدأت في العصر الجاهلي، لكن هذه المفاضلة بين الشعر والنثر لم تقم على أسس فنية خالصة بل قامت على أسس موضوعية أخلاقية بالنظر إلى دور كل منهما في المجتمع ومدى قدرتهما على التعبير عن الالتزام بالمبادئ التي يقيمها الناس في رؤيتهم لدورهما.

وبعد نزول القرآن الذي قام بالتقليل من شأن الشعر والشعراء نزل الشعر رتبة، خاصة وأنّ القرآن الكريم جاء بطريقة نثرية مما جعل الاهتمام بالنثر يأخذ أهمية واهتماما أكثر من ذي قبل.

هذا ما أعطى النثر أهمية ، واتجهت الطاقات الإبداعية نحوه، إذ تبيّن أنّ هذا النثر قادر على أن يقوم بالأغراض التي كان يقوم بها الشعر ، بل إنّه يزيد على ذلك حتى وصل درجة الإعجاز ، فتحوّل الناس من دهشتهم بالشعر وقوّة تأثيره في نفوسهم إلى نص جديد أقوى وأكثر تأثيرا، وهو نص مقدّس مؤكّد بالوحي ، ولذا فإنّ التحول نحو النثر نتيجة طبيعية ، كان للإسلام ونزول القرآن الكريم الأثر الأكبر فيها، وفي موقف الرسول والصحابة من الشعر والشعراء ما يدلّ عل وجود صراع بين أنصار الشعر وأنصار النثر، فمنهم من فضّل الشعر ، ومنهم من فضّل النثر ، وعقدوا الأبواب والفصول لفضائل الشعر ومنافعه[332] وكل ذلك في سياق المفاضلة بينهما[333].

وفي العصر الأموي انتشرت الكتابة وبدأت تأخذ شيئا فشيئا مكان الشعر، وقوي تأثيرها على الحياة العامة.

وتطوّرت الكتابة الإنشائية في العصر العباسي تطوّرا ملحوظا، فكثر الكتّاب المختصّون وزاحموا الشعراء ونافسوهم، وأخذوا مكانة وحظوة لدى الخلفاء والأمراء ، فصار النثر عنوان الذوق الأدبي في الثقافة العربية من حيث الاستخدام والاهتمام[334].

---

[332] ينظر مثلا جمهرة أشعار العربي، القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، تحقيق محمد علي الهاشمي، دمشق، دار القلم، ط2، 1986م: ص 146 وما بعدها.

[333] ينظر المفاضلة بين النظم والنثر وأشكال التداخل بينهما في العصر العباسي، بوتبيا الحسن، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2002م: ص 69-70.

[334] ينظر المفاضلة بين النظم والنثر وأشكال التداخل بينهما في العصر العباسي: ص8.

و بدأت الكتابة تأخذ منحى جديدا يوازي أهمية الشعر حتى زادت في ذلك، فلم يعد بينها بين الشعر أي اختلاف إلاّ في الشكل والوزن. يقول ابن خلدون: "وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور، من كثرة الأسجاع والتزام التقفية، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنّه، ولم يتفوّقا إلاّ في الوزن"[335].

فإن النثر قد غدا عمدا على أغراض الشعر، وأبطل أهمية الشعر وما كان معروفا عنه من مناسبته لأغراض معينة، وتعبيره عن العواطف والمشاعر، فتداخلا تداخلا لم يعد معه التفريق بينهما سهلا إلا من حيث الوزن، ومن صور هذا التداخل:

- الجمع بين الشعر والنثر في الرسالة الواحدة[336].
- محاولات الشعراء والكتاب الجمع بين فني النظم و النثر[337].
- السرقات[338].
- تبادل الأغراض و المعاني[339].
- تبادل الألفاظ و الأساليب[340].

وفي هذا العصر، وبسبب تنامي الكتابة ومنافستها للشعر، اشتد الجدل حول قضية المفاضلة بين الشعر والنثر، ويبدو أن هذه المسألة شغلت بال أحمد بن الواثق[*]، مما جعله يستفسر عنها من عالم جليل كالمبرد حيث بعث له رسالة جاء فيها: "أطال الله بقاءك، وأدام عزك، أحببت أعزك الله أن أعلم، أي البلاغتين أبلغ، أبلاغه الشعر، أم بلاغة الخطب، والكلام المنثور والسجع؟ وأيتهما عندك أعزك الله أبلغ؟ عرفني ذلك إن شاء الله"[341].

---

[335] المقدمة، ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، دار الجيل، بيروت، دط، دت: ص 642.

[336] ينظر المفاضلة بين النظم والنثر وأشكال التداخل بينهما في العصر العباسي: ص 18-19.

[337] ينظر البيان والتبيين: 1/ 45 -52.

[338] ينظر الكامل: 12/2- 05/2 – 146/3.

[339] ينظر المثل السائر لابن الأثير: 10/4.

[340] ينظر العقد الفريد تأليف أحمد بن محمد ابن عبد ربّه الأندلسي، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1404هـ/1983م: 250/4 و ما بعدها.

[*] هو ابن الخليفة العباسي المعتصم، والواثق أبو جعفر هارون بن محمد المعتصم، ينظر العقد الفريد: 377/5.

[341] البلاغة للمبرد: ص80

فكتب إليه المبرد: "أطال الله بقاءك، وأدام عزك، سألت -أعزك الله- عن البلاغتين، في الشعر الموصوف، والكلام المنثور، أيتهما أولى بأن تكون المقدمة، وأحق أن تكون على الكمال مشتملة؟

و الذي سألت عنه- أعزك الله- من مسائل العقلاء الفضلاء. وكل ذلك، فأنت ذروته وسنامه فزادك الله، ولا نقصك، وأعلاك ولا وضعك.

الجواب فيما سألت: أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول.

فإن استوى هذا في الكلام المنثور، والكلام المرصوف، المسمى "شعرا"، فلم يفضل أحد القسمين صاحبه، فصاحب الكلام المرصوف أحمد؛ لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه، وزاد وزنا وقافية، والوزن يحمل على الضرورة، والقافية تضطر إلى الحيلة. وبقيت بينهما واحدة، ليست مما توجد عند استماع الكلام اقتدارا، وأكثر تسمحا، وأقل معاناة وأبطأ معاسرة، فيعلم أنه المقدم"[342].

إن أول ما يلفت الانتباه في هذه الرسالة هو "الجهد الواضح في تخطيط الإجابة وإرساءها على أصل ثابت ولو بصفة جزئية، ويبدو هذا المجهود في الانطلاق من تعريف البلاغة، حتى يعتمد الحكم على مقياس واضح"[343]. حيث يبين لنا المرجعية البلاغية المشتركة بينهما.

فالبلاغة عنده "علم يسعى إلى تسطير قوانين عامة للجودة منفصلة في أغلب جوانبها، عن الشكل الأدبي ومستلزماته النوعية، فالبلاغة علم بقوانين تسعى إلى محاصرة ضوابط جودة الكلام بصرف النظر عن القالب الذي نفرغ فيه ذلك الكلام"[344]. أي إذا وجدت البلاغة بمفهومها الذي قدمه في أول كلامه في الشعر أو النثر كانا بليغين ولم يفضل أحدهما على الآخر، وبهذا يكون قد ربط مفهوم البلاغة بالمضمون بصرف النظر عن القالب الخارجي للنص.

---

(342) البلاغة للمبرد: ص80-81.

(343) التفكير البلاغي عند العرب: ص344.

(344) المرجع نفسه: ص 346.

و ذكر المبرد جانبا آخر مشتركا بين الشاعر والناثر وهو من كان "أقدر على المعالجة الفنية، وسلس في اختيار اللفظ والمعنى، فتجود قريحته بالمعاني، وتسرع بديهته بالألفاظ كان هو الأرجح في كفة البلاغة، والمقدم عند البلغاء"[345]. يقول: "فينظر أيهما أشد على الكلام اقتدارا، وأكثر تسمحا، وأقل معاناة وأبطأ معاسرة، فيعلم أنه المقدم"[346]. و يعنى بذلك أيضا عدم التكلف، فالبليغ عنده من كان يحسن الكلام ويقدر عليه دون بذل جهد يوصله إلى المعاناة ومن ثم إلى التكلف.

أما نقاط الاختلاف بين المنثور والمنظوم، والتي على إثرها فضل المبرد المنظوم تظهر في قوله: "فصاحب الكلام المرصوف أحمد؛ لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه، وزاد وزنا وقافية، والوزن يحمل على الضرورة، والقافية تضطر إلى الحيلة"[347]. فالمبرد يرى فضل الشعر البليغ على النثر البليغ "لما في الشعر من عنت ومجاهدة بسبب الوزن والقافية، فالشاعر يبذل قدرا من الجهد حتى تلين له القافية، ويتأتى له الوزن، وهو جهد يبذل في الشكل تضطره إليه المعالجة الشعرية، وقد يستعصي عليه الوزن، وتحرك به القافية، فيبقى مسهدا، وربما يقضي الوقت الطويل، والصورة التي يود التعبير عنها مرسومة في خياله، ولكنه يعجز عن نظم بيت واحد في قصيدة طويلة، فمن هذه الزاوية وحدها كان الشاعر أحق بالحمد من الناثر عند المبرد"[348].

و بذلك يظل الوزن ومقتضياته الموسيقية مرجعا أساسا في المفاضلة بين النظم والنثر عند المبرد، فالشعر أفضل عنده بسببه وكل ذلك ينسجم مع الثقافة الأدبية واللغوية التي تشبع بها، وانقطع لدراستها وتدريسها.

و المبرد حين فاضل في رسالته بين المنثور والمنظوم قام بموازنة أيضا بينهما وذلك بحملهما على نفس المعنى قال: "فأما الكلام المنثور والموزون، فسأخبرك ما جاء منهما في معنى، وفضل أحدهما بما رسمنا أولا على صاحبه"[349].

---

[345] أثر النحاة في الدرس البلاغي، عبد القادر حسين، ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م: ص204.

[346] البلاغة للمبرد: ص81.

[347] المصدر نفسه: ص81.

[348] أثر النحاة في الدرس البلاغي: ص203-204.

[349] البلاغة للمبرد: ص85.

وقدم لنا أمثلة: "قال قائل: للربيع بن خثيم عندما رئي من اجتهاده وإغراقه في العبادة، وانهماكه في الصوم والصلاة وسائر سبل الخير: قتلت نفسك، فقال راحتها أطلب. فهذا كلام محيط بالمعنى، لا فضل فيه عنه.

وقال أحد الشعراء لأهله في هذا المعنى:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ مِنْكُمْ لِتَقْرَبُوا وتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمَدَا

يقول: أغترب فأكسب ما يطول به مقامي معكم، و قربي منكم"[350].

ثم وازن بين القولين فقال: "فهذا أحسن، والأول أوضح"[351].

فهو وإن أعجب بقول الربيع ووصفه بالوضوح والإحاطة بالمعنى إلا أنه وصف البيت الشعري رغم تعقيده بالحسن لأن الشاعر يملك رخصا لغوية لا تعطى للناثر.

وقال أيضا: "وقيل لروح بن حاتم بن قبيصة، وهو واقف على باب المنصور في الشمس، فقال: ليطول وقوفي في الظل. فهذا كلام مكشوف واضح، كانكشاف كلام الربيع.

وأملح ما جاء في هذا المعنى وأحسن قول: أبي تمام حبيب بن أوس الطائي:

أَآلِفَةَ النَّحِيبِ كَمْ افْتِرَاقُ أَظَلَّ فَكَانَ دَاعِيَةَ اجْتِمَاعِ

وَلَيْسَتْ فَرْحَةُ الأَوْبَاتِ إِلاَّ لمِوْقُوفٍ عَلَىَ تَرَحِ الوَدَاعِ

فهذا مليح حسن والأصل ما ذكرنا"[352].

فالأحكام التي ترتبت عن هذه الموازنة تدور حول وضوح المعنى وحسنه "وهما مقياسان مختلفان أولهما عقلي يقوم على مدى استجابة النص لوظيفة الفهم والإفهام، والثاني جمالي مبهم لا يستند إلى معطى موضوعي ثابت، ولذلك نرى أن الجمع بينهما هو تجنب للمقارنة أو هو نتيجة فهم خاص لها"[353].

ومن الأمثلة التي ذكرها المبرد أيضا لتقارب معانيها قول الحسن: "إن امرءا لا يعد بينه وبين آدم أباحيا، لمعرق له في الموت، فهذا قريب أخذه من قول لبيد:

فَإِنْ أَنْتَ لم يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ فَاعْتَبِرْ لَعَلَّكَ تُسْلِيكَ القُرُونُ الأَوَائِـــلُ

---

[350] البلاغة للمبرد: ص85.

[351] المصدر نفسه: ص85.

[352] المصدر نفسه: ص86.

[353] التفكير البلاغي عند العرب: ص 348.

فَإِنْ لم تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنَانَ وَالِدًا   وَدُونَ مَعْدٍ فَلْتَزَعْكَ العَوَاذِلُ"[354].

وعلق المبرد على كلام الحسن وقول لبيد بقوله: "وكلام الحسن أخصر، وكلام لبيد أوزن، وأول هذا المعنى قول امرئ القيس:

فَبَعْضُ اللَّــوْمِ عَاذِلَتِي فَإِنِّــي   سَيَكْفِينِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي

إِلَى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَتْ عُرُوقِي   وَهَذَا المَوْتُ يَسْلِبُنِي شَبَابِي"[355].

أما الأحكام التي ترتبت عن الموازنة الثانية تدور حول: شكل الجنس الأدبي حيث أن المبرد يفضل قول لبيد لأنه جاء موزونا، والحكم الثاني هو تفضيل السبق إلى المعنى.

وفي نهاية هذه الموازنة قال المبرد: "فهذا كلام عربي محض، وهذا –أعزك الله– مفاضلة بين الأشكال والنظراء"[356]. أي أن الشعر والنثر من كلام البشر لذا يجوز المفاضلة بينهما أما ما عدا ذلك من كلام الرسول ﷺ والقرآن الكريم فلا يمكننا أن نفاضل بينهما وبين كلام الناس لأنهما يفوقان كل قول بلاغة وبيانا.

و كيفما كان الأمر فإن المفاضلة بين النظم والنثر عند المبرد جاءت على شكل جواب موجز جامع مؤسس على مقاييس ثلاثة هي القيمة البلاغية والوزن وسرعة البديهة.

وقد تعددت المواقف التي تقدم الشعر على النثر، والتي هي مواقف أملاها في مجملها الجدال والتعصب والدفاع عن المصالح، عن تراث العرب وبلاغتهم أمام التأثير الشعوبي والأجنبي، وتشير المصادر إلى وفرة ما أنتجوه من كتب، ولعل من أوائلها كتاب "تفضيل الشعر والرد على من يحرمه وينقضه" لإسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت 235هـ).

وإلى جانب هذا الاتجاه الذي انتصر للشعر على النثر كان هناك أيضا موقف انتصر للنثر على الشعر، ولعل هذا الموقف كان أهم ما توصلت له العلاقة بين الفنيين، فإن تفضيل النثر على النظم، وجد الظروف الموضوعية والثقافية والتاريخية المناسبة، وكان أصحاب هذا الاتجاه أقوى حجة وأكثر قوة على الإقناع، وذلك بسبب ما صار له النثر، فقد ازدادت أهمية الكتاب في جميع مجالات الحياة، وأخذوا يزاحمون الشعراء، في أغراضهم وأدوارهم، لذلك فإن هذه

---

[354] البلاغة للمبرد: ص87.

[355] المصدر نفسه: ص87.

[356] المصدر نفسه: ص87.

المفاضلة لم تر النور إلا في القرن الثالث الهجري أي بعد أن صار النثر فن الأدباء، والأوسع انتشارا.

وإن أول الملحوظات في هذا المجال نجدها عند الجاحظ الذي تحدث عن رواة الكتاب، ووصفهم بحسن السبك والطبع وجودة الكلام وبلاغة اللسان حيث قال: "إن الكتاب لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى المخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها، وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسن المعاني"[357].

وإلى جانب الموقفين الذي انتصر كل واحد منهما إلى جنس من جنسي القول ظهر موقف ثالث حاول التوفيق بينهما، و كان موقفا وسطا، رأى أصحابه أن لكل واحد منهما خصائصه وميزاته، ومن الذين وقفوا هذا الموقف: القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني (366هـ)، حيث دعا إلى مراعاة الألفاظ والأساليب والتعبير بلطف عن الأغراض، وقال: "إن هذا لا يختص بالشعر دون النثر"[358].

إن الأدب العربي يتشكل بالأساس من مكونين لا غنى للواحد عن الآخر ليصبح بذلك أمر المفاضلة بينهما من النقاشات البيزنطية التي لا طائل يرجى من ورائها ولربما تجاوز هذا الإشكال يمكن أن يتأتي عن طريق الانصراف عن مبدأ المفاضلة وبدل ذلك النظر إلى الخطاب في حدّ ذاته لفهمه، وتذوقه من الداخل عبر تلمس آليات بنائه.

---

(357) البيان والتبيين: 24/4.

(358) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، دار القلم، بيروت، 1386هـ: ص24

الفصل الثالث:
بلاغة الحديث والقرآن

المبحث الأول: بلاغة الحديث النبوي الشريف:

أولا : فصاحته ﷺ :

ولد محمد ﷺ يتيما فقيرا، في مكة بين العرب الأقحاح، والبلغاء الفصحاء، في دولة كلامية بقيت بلا ملك حتى جاءها القرآن، فتولاه ربه بالتربية والرعاية والتأديب، فكان أفصحهم منطقا، وأحذقهم لهجة، وأسحرهم بيانا، وأقواهم حجة وأحسنهم دليلا. فإذا كان العرب قد بلغوا الذروة في فن القول فإن محمدا ﷺ قد فاقهم فيه، وتجاوزهم إلى أفق أعلى، ومكانة أسمى. وقد عبر المبرد عن فصاحة الرسول بقوله: "فإذا جاء قول الرسول ﷺ رأيته من كل منطق بائنا، وعلى كل قول عاليا، ولكل لفظ قاهرا"(1).

فالله تعالى اصطفاه لوحيه، واختاره لبيانه، واختصه لكتابه العزيز الذي جعله الله ملكا على دولة الكلام. فالرسول ﷺكان "لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه؛ ولا تستزله الفجاءة. وما يبده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكمة، بحيث لا يجد النظر إلى كلامه طريقا يتصفح منه صاعدا أو منحدرا؛ ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد، والمجيء في كل ذلك من وراء الغاية"(2).

وفي معرض الإشادة بأدب النبوة، وأسرار الحديث النبوي، يقول القاضي عياض:"أن الرسول ﷺ كان يحمل سلاسة طبع، وبراعة منزح، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، و جزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، وأوتي جوامع الكلم، وخص بدائع الحكم وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله"(3).

(1) البلاغة للمبرد: ص87.

(2) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ص282.

(3) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار السعادة، المطبعة العثمانية، 1312هـ:70/1

فالرسول ﷺ لم تعرف عنه فصاحة قبل البعثة النبوية، وكان مساويا لأقرانه من العرب الفصحاء، بل امتاز بالأمانة والعفة والصدق كما هو معروف واشتهر بهذا ولم يعرف بعلو البلاغة.

وتعود عوامل اكتسابه ﷺ لهذه الفصاحة، أنه تقلب في أفصح العرب فمولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعته في سعد بن بكر في البادية حيث الهواء النقي، فتعلم اللغة العربية من منبعها نقية خالصة من الحواضر، واكتسب صفاء الذهن، ورهافة الحس، وعمق التأمل كما كان من عادة أشراف العرب أن يلتمسوا المراضع لأبنائهم في البوادي ليكون أصح للبدن، وأصفى للعقل، وأقوم للسان[(4)].

حيث يروي عنه ﷺ أن عمر بن الخطاب قال له: "ما رأيت أفصح منك، قال: بيد أني من قريش ونشأت في بني بكر بن سعد بن هوازن"[(5)].

و سيدنا علي كرم الله وجهه وحديثه للرسول ﷺ حين قدم أحد الوفود عليه قائلا: "يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره"، فيجيب المصطفى المختار ﷺ قائلا: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"[(6)]. فمعنى كلمة أدب كما نعتقد لم يقصد بها المعنى الخلقي بل المعنى الأدبي، وإلا فما معنى قول أبي بكر، فما سمعت الذي هو أفصح منك، والفصاحة هنا فصاحة المنطق بشقيه من اللفظ والمعنى وفصاحة رسول الله فصاحة العاقل المكين الذي أرشده القرآن وأفرغ عليه آلاف المعاني.

و الأمر الأهم الذي مكن لفصاحته أن تنمو وتقوى، ويشتد أسرها تأثره ﷺ بأسلوب القرآن الكريم.

قد يدخل ضمن قول المبرد "من كل منطق بائنا" أداؤه ﷺ للحديث حيث أن فصاحته ﷺ لم تكن مقصورة على "جودة الأسلوب، وعمق المعنى، بل تجاوزت ذلك إلى الأداء، فكان ﷺ ضليع الفم، يستعمل فمه جميعه إذا تكلم، ولا يقتصر على تحريك الشفتين

(4) ينظر الحديث النبوي، مصطلحه بلاغته، كتبه، محمد الصباغ، كتب المكتب الإسلامي، 1401هـ/ 1981م: ص53.

(5) الفاضل: ص113

(6) الحديث النبوي، مصطلحه بلاغته وكتبه: ص67.

فحسب"[7]. قالت "أم معبد[*]" في وصفها له ﷺ: "وكان جهير الصوت، حسن النغمة ﷺ"[8].

وكان ﷺ يسرد الحديث سردا لا يرهق المستمع إليه "ويجعله يلهث خلف العبارات ومفهومها، بل انتهج عليه الصلاة والسلام نهج التأني والروية، فيقع الكلام في العقل والقلب، ويتمكن السامع من استيعابه وحفظه، وكأنه كان يوقع على النفس إيقاعا، ويشد النفس ويستحوذ عليها بالهدوء"[9]. و في هذا تقول عائشة رضي الله عنها: "ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه"[10]. وكان لشخصية الرسول الجذابة أثر كبير في كون الأداء قد بلغ الذروة.

ويمكن أن يكون المبرد قد قصد بقوله "من كل منطق بائنا" أسلوبه ﷺ المنفرد. جاء عن الرافعي أنه قال: "إنه أسلوب منفرد في هذه اللغة قد بان من غيره بأسباب طبيعية فيه،وأن ما أشبهه من بلاغة الناس في الكلمات القليلة، والجمل المقتضية، لا يشبهه في العبارات المبسوطة، ولا يستوي له الشبه مع ذلك في كل قليل ولا في كل (مقتضب) حتى يقع التنظير بين الأسلوبين على الكفاية، وحتى يميل الحكم إلى الجزم بأن بعض ذلك كبعضه: بلاغة ونسقا وبيانا"[11].

أي أن منطق الرسول ﷺ وحديثه فاق بلاغة العرب الفصحاء، وبان عنهم وظهر جليا لكل بليغ عالم بألوان القول وأشكاله.

ثانيا: بلاغته:

لقد اختار الله محمدا ﷺ من بين آلاف الفصحاء من قومه ليعجزهم بفصاحة القرآن ووكل إليه أن يفسر كتابه ويبين وحيه حين قال في محكم آياته ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ**

[7] الحديث النبوي، مصطلحه بلاغته وكتبه: ص56.

[*] أم معبد الخزاعية: من ربات الفصاحة والبلاغة، ينظر: "أعلام النساء في عالمي العرب و الإسلام"، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، دت، دط: 62/5.

[8] الحديث النبوي في النحو العربي: ص 17.

[9] الصورة الفنية في الحديث النبوي، أحمد ياسوف، تقريظ الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي، وعصام قصبجي، تقديم نور الدين عمر، دار المكتبي، ط2، 1427هـ/ 2006م: ص55.

[10] المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، رتبه و نظمه لفيف من المستشرقين و نشره أ.ى. ونستك، مكتبة برلين، 1936م: 452/2.

(11) إعجاز القرآن : ص324

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [12].إلى غير ذلك من الآيات التي تنطق بمهمة الرسول في الإبلاغ والتبيين والهداية، فإذا علم أن هذا التبيين كان لقوم يتصاولون بالبيان و يتفارعون بالفصاحة فلابد أن يكون الذي يتولى هدايتهم من الظلمات إلى النور بالبرهان والمنطق أشدهم عارضة و أقواهم حجة.

و لقد تحدث المبرد عن بلاغة الرسول ﷺ وتفوقها على بلاغة العرب الفصحاء بعد أن وازن في رسالته بين أبيات من الشعر تحمل المعنى نفسه، ثم بين أبيات من الشعر وكلام منثور من نفس المعنى. فوصف قول النبي ﷺ بالبلاغة العالية فقال: "وعلى كل قول عاليا"[13].

أي أن منطق الرسول ﷺ وحديثه فاق بلاغة العرب الفصحاء، وبان عنهم وظهر جليا لكل بليغ عالم بألوان القول وأشكاله.

و لقد تحدث القرآن الكريم عن ميزة البلاغة النبوية التي هي مدد رباني فقال تعالى: ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ﴾[14]. وذكر محمد رشيد رضا في تفسير هذه الآية: "وفي الآية شهادة للنبي ﷺ بالقدرة على الكلام البليغ، وتفويض أمر الوعظ، والقول البليغ إليه، لأن الكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين، وهي شهادة له بالحكمة ووضع الكلام في موضعه"[15].

ولله در الرافعي إذ يقول: "والبليغ من البلغاء في صنعته وبيانه كالشجرة المورقة في روائها ونضرتها حتى تتسق له أسباب من الأوضاع البيانية، وتستقل له طريقة في عقدها وإخراجها، فيبلغ أن يكون مثمرا، والثمر بعد متفاوت في أشجار البلاغة نضجا وماء وحلاوة وكثرة، وما أثمرت من ذلك بلاغة عربية ما أثمرته بلاغة السماء في القرآن الكريم، ثم بلاغة الأرض في كلامه ﷺ والناس بعد ذلك أجمعون حيث طاروا أو وقعوا"[16].

فالحديث النبوي في الذروة من البيان، ولا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلا كتاب الله بلاغة وفصاحة وروعة.

(12) سورة النحل: 44.

(13) البلاغة للمبرد: ص87.

(14) سورة النساء: الآية63.

(15) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار بمصر، ط1، 1346هـ: ص20.

(16) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ص328.

ثالثا: الموازنة بين بلاغة الرسول ﷺ وبلاغة الشعر و النثر:

لقد وازن المبرد بين روعة منطق الرسول ﷺ وبين بلاغة الشعر والنثر فقال: "فمن ذلك أنهم قالوا في باب تصرف الزمان، وتصرم الآجال، أقاويل معناها واحد، وقال رسول الله ﷺ، فتفهم مسافة ما بين الكلامين، واتضاح الأقاويل عن قوله عليه السلام، وإن كانت غايات من قول غيره"[17].

أي أن بين كلام الرسول ﷺ في باب تصرف الزمان، و تصرم الآجال، وكلام العرب الفصحاء من شعراء وغيرهم مسافة وبون شاسع. فكل ما قيل يبقى دون قوله عليه السلام حتى وإن كانت غاياتهم هي الوصول إلى مكانة عاليه من البلاغة "لأن بين البلاغة أحدنا وبين بلاغة الرسول كما بين نعمة أحدنا ونعمة الله سبحانه، وإذا وقع للقضية مثال واحد في الوجود علم إمكان وقوعها، وخرجت بذلك من حد الاستحالة والامتناع إلى حد الجواز والإمكان"[18]. وفي هذا المضمار ضرب المبرد أمثلة لتأكيد قوله وترسيخه، حيث قال:

قال لبيد بن ربيعة [19]:

كَانَتْ قَنَاتِي لاَ تَلِينُ لِغَامِـــزٍ فَأَلاَنَهَا الإِصْبَاحُ وَالإِمْسَاءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلاَمَةِ جَاهِدًا لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلاَمَةُ دَاءُ.

و شرح هذه الأبيات كعادته في تناول المادة اللّغوية فقال: "يقول قربني من أجلي"[20].

ثم أورد بيتين آخرين للنمر بن تولب في نفس المعنى[21]:

يَسُرُّ الفَتَى طُولَ السَّلاَمَةِ وَالغِنَى فَكَيْفَ تُرَى طُولُ السَّلاَمَةِ يَفْعَلُ
يَوَدُّ الفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحَّةٍ يَنُـــوءُ إِذَا رَامَ القِيَـامَ وَيُحْمَــلُ

---

(17) البلاغة للمبرد: ص88.

(18) تحرير التحيير: ص156

(19) ديوان لبيد: ص221.

(20) البلاغة للمبرد: ص88.

(21) ديوان النمر بن تولب العكلي، جمع وشرح وتحقيق محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط1، 2000م: ص100-101. وفي الديوان ورد البيت الثاني قبل الأول.

أي: "إن الإنسان بعد اعتدال قامته وصحته في زمن الشباب يكون غاية أمنيته في الشيخوخة أن يقدر على القيام بمشقة، ويحمل، أي: يمسك بيده حتى ينهض، يقال: ناء ينوء: إذا قام مثقلا"[22].

ومثله قول شاعر آخر هو حميد بن ثور[23]:

أَرَى بَصَرِي قَدْ خَانَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ   وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَيَسْلَمَا

وَلاَ يَلْبَثُ العَصْرَانِ يَوْمًا وَلَيْـــلَةً   إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّـــمَا

البيت الأول "يريد أن الصحة والسلامة تؤديه إلى الهرم"[24].

أما البيت الثاني فيقصد به: "على بعد فاتني صاحبي، أي تداركها من الظعن في ظلام"[25].

وقال غيره[26]:

إِذَا بَلَّ مِنْ دَاءٍ بِهِ ظَنَّ أَنَّهُ   نَجَاوِبِهِ الدَّاءُ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ.

وقال أبو حية النمري[27]:

أَلاَ حَيُّ مِنْ أَجْلِ الحَبِيبِ المغَانِيَا   لَبِسْنَ البَلَى مِمَّا لَبِسْنَ اللَّيَالِيَـا

إِذَا مَا تَقَاضَى المرْءُ يَـــوْمٌ وَلَيْلَةٌ   تقَاضَاهُ شَيْءٌ لاَ يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

وقول عنترة[28]:

فَمَا أَوْهَى مِرَاسُ الحَرْبِ رُكْنِي   وَلَكِنْ مَا تَقَادَمَ مِنْ زَمَانِي

ثم أردف هذه الأشعار بقول لأبي الحسن في نفس المعنى: "قيل لأعرابي: مات فلان أصح ما يكو؛ فقال: أو صحيح من في عنقه الموت!" [29].

---

[22] شرح أبيات مغني اللبيب، صنفه عبد القادر بن عمر البغدادي، حققه عبد العزيز رباح و أحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث دمشق، ط1، 1398هـ/1980م: 343/7.

[23] ديوان حميد بن ثور الهلالي: ص7-8، وقد ورد البيت الأول فيه بغير هذا اللفظ، واللفظ بتمامه:

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ حِدَّةٍ   وَحَسْبُكَ دَاءُ أَنْ تُصْحَ وَيسْلَمَا

[24] ديوان حميد بن ثور: ص07.

[25] المصدر نفسه: ص 08.

[26] البلاغة للمبرد: ص89.

[27] الكامل: 218/1.

[28] لم أجده في الديوان.

[29] البلاغة للمبرد: ص 89.

استنتج المبرد بعد ذكر هذه الباقة من الأشعار والكلام المنثور قاعدة نقدية كان قد تنبه لها من قبله ووضعها من بعده ركيزة لتقييم كلام العرب وهي: "فكل هؤلاء محسن مجمل، والفضل منهم لأوزنهم كلاما، وأسبقهم إلى المعنى"[30].

ثم التفت إلى هذه الأشعار و مكانتها وقوله صلوات الله عليه: "كفى بالسلامة داء"[31]. وقال: "ولكن أين هذا كله من قول رسول الله ﷺ "كفى بالسلامة داء"؟ فانظر إلى هذا الكلام، الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، لا يطول المعنى، ولا يقصر عنه، وانظر إلى فخامته وجزالته"[32].

فالرسول ﷺ كان يؤثر الإيجاز على غيره من ضروب الأداء في الكلام تأسيا بالقرآن الكريم، يشهد على هذا قوله لجرير بن عبد الله البجلي "يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك، فلا تتكلف"[33]، وكان يحارب الثرثرة فيما يحارب من الآفات، ويراها مضرة البلاغة في القول، ومدعاة الشغب في العمل، حتى قال: "ألا أخبركم بأبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيهقون"[34]. والمبرد يرى أن الرسول ﷺ في هذا الحديث "يريد الصدق في المنطق والقصد، وترك ما لا يحتاج إليه"[35].

وقد وصفت "أم معبد الرسول ﷺ فقالت: "كل المنطق فصل، لا نزر، ولا هذر، كأن منطقه خرازات، نظمن"[36].

و قد تكلم رجل عند النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: "كم دون لسانك من حجاب فقال: شفتاي وأسناني. فقال له: إن الله يكره الانبعاق في الكلام، فنضر الله وجه رجل أوجز كلامه واقتصر على حاجته"[37].

---

[30] البلاغة للمبرد: ص 90.

[31] سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض، ط1، 1412هـ/1992م:رقم4090. ونستغرب أمر استشهاد المبرد بهذا الحديث الضعيف السند لإثبات بلاغة الحديث النبوي رغم وجود العديد من الأحاديث الموجزة الصحيحة السند.

[32] البلاغة للمبرد: ص90، وينظر الصناعتين لأبي هلال العسكري: ص28.

[33] الكامل: 6/1.

[34] البلاغة للمبرد: 4/1.

[35] المصدر نفسه: 6/1.

[36] الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 8/1.

[37] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 1/ 241

فكلام الرسول ﷺ كما وصفه الجاحظ هو "الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف"[38]. وهو كما وصفه الجاحظ أيضا في موضع آخر من البيان والتبيين قائلا "لم يسمع الناس بكلام قط أتم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ" [39]. ووصفه المبرد قائلا: "هذا الكلام لا زيادة فيه ولا نقصان لا يطول المعنى، ولا يقصر عنه، وانظر إلى فخامة وجزالته".

فقد فطن المبرد إلى الصفتين اللتين ميزتا أسلوب الحديث النبوي وهما الفخامة والجزالة، جزالة لا يفارقها الوضوح والبيان، ولا تنافسها جزالة في متانة التركيب، وفخامة الإيقاع، وعدم الابتذال.

وقد قال النبي ﷺ "أوتيت جوامع الكلم" فالكلم: جمع كلمة، والجوامع: جمع جامعة، والجامعة: اسم فاعلة من جمعت فهي جامعة، كما يقال في المذكر: جمع فهو جامع، والمراد بذلك أنه "أوتي الكلم الجوامع للمعاني"[40].

وجوامع الكلم هي "هذا النوع من الإيجاز الذي يكتفى فيه بألفاظ قليلة لكن سليمة من كل حذف، لبلوغ أشمل المعاني وأبعدها تصورا في الخواطر والأذهان، بحيث لا يبقى لأحد بعد إطلاقها الأمل في إحراز أقل منها لفظا ولا أكثر منها معنى، فهي حقائق عليا في شكلها ومضمونها"[41].

و لعل الإيجاز الذي يبدو واضحا في أسلوب الحديث النبوي يتفق وسمات أسلوب النثر العربي في الفترة التي ظهر فيها الرسول ﷺ فما أثر عن العرب الجاهليين من أساليب النثر في مختلف فنونه من حكم ووصايا وأمثال تميز بالإيجاز أيضا.

ولكنه ﷺ إن رأى وجها للإطالة فكان يطيل الكلام، فأبو سعيد الخذري "روى أنه ﷺ خطب بعد العصر فقال: إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون،

---

[38] البيان والتبيين: 17/2.

[39] المصدر نفسه: 18/2.

[40] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير: 116/2 أو 52/1.

[41] النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ. من خلال "البيان والتبيين"، محمد الصغير بناني، ديوان المطبوعات الجامعية، طبعة 1994م: ص269

فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء. قال أبو سعيد ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف"[42]. إلا أن قلة كلامه كانت الأغلب و الأعم.

و من جوامع كلم النبي ﷺ "كفى بالسلامة داء" والتي استشهد بها المبرد لإظهار بلاغته ﷺ حيث قال عنها "فأي كلام أوعظ، أو زجر في القلب أوقر؟ إن هذا الكلام ليجل عن أن يبلغه وصف، أو يحيط بكنهه قول"[43]. وهذا الحديث النبوي معناه القريب أن الرجل إذا طالت به الحياة وامتد به العمر، كان طول حياته سببا في كبره وضعف صحته وعجزه عن القيام بأموره، ولقد يمتد به ذلك حتى يصير عاجزا عن القيام والقعود وتناول الطعام والشراب والاستمتاع بما يقع تحت بصره من دواعي السرور والفرح وجميع ملذات الحياة ومتعها، أفليس هذا داء لا دواء له إلا أن يستريح الجسم الفاني من متاعب الحياة، ويهذب إلى ربه؟[44]

و هو الحديث الذي يذكرنا بالحديث الشهير "كفى بالموت واعظا"، والصيغتان تحيلان إلى الاستفهام الاستنكاري، إذ نستطيع أن نقول أولا يكفي أن تكون السلامة داء؟ كما نقول أيضا أولا يكفي أن يكون الموت واعظا، والحديث الثاني يحيل أيضا إلى الحقيقة الصارمة في تقريرها والتي تقول من لم يعظه الموت فلا واعظ له.

كذلك يتميز هذا الحديث بالإحكام أي "أن المعنى ملما بالحقيقة من كل أطرافها، فلا تفوته ناحية ولا يند منه جانب"[45]. فكلامه ﷺ بريء من التنافر والتناقض والاختلاف "وقد بلغت المعاني النبوية من الإحكام والانسجام والتسلسل مبلغا عظيما يجعل جزئيات معاني الحديث الواحد مترابطة محبوكة يشد بعضها إلى بعض تماسكا متينا، فكل جزئية من المعنى متممة لما قبلها، ممهدة لما بعدها"[46].

---

[42] رياض الصالحين، أبي زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي، مؤسسة الرسالة، ط6، 1407هـ / 1986م: ص75.

[43] البلاغة للمبرد: ص 90.

[44] ينظر البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م: ص 09-10.

[45] المصدر نفسه: ص 61.

[46] الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه: ص61-62.

ويبدو الحديث: "كفى بالسلامة داء" على إيجازه وإحكامه "مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيه اضطراب ولا نقص ولا إحالة، حتى كأن تلك الألفاظ القليلة إنما ركبت تركيبا على وجه تقتضيه طبيعة المعنى في ذاته، وطبيعته في النفس الإنسانية، فمتى وعاها السامع، واستوعبها القارئ، تمثل المعنى في نفسه على حسب ذلك التركيب، فوقع إليه تاما مبسوطا الأجزاء، وأصاب هو من الكلام معنى عميقا، حتى كأن هذا الكلام قد انقلب في نفسه إحساسا يحسه ويحياه"[47].

ومعنى هذا الحديث يهز النفس و الوجدان هزا عنيفا، ويؤثر فيه ويتغلغل في أعماق النفس، ولذا فإن أثر الحديث مستمر. خاصة إذا عرفنا أن الحديث يحمل موسيقى حلوة رائعة عذبة تنساب في الكلمة الحديثية، فالرسول ﷺ له "قدرة كبيرة على اختيار الكلمات ذوات الإيقاع الموسيقي المحبب، بحيث يتوافر لكل كلمة منها أمران اثنان لهما أهمية كبرى في إعطاء الكلمة موسيقاها الحلوة هما: التعاطف بين المعنى واللفظ، والانسجام في إيقاع الحروف."[48].

وإن الكلمات الحديثية عندما تضم الواحدة منها إلى أخواتها يحلو جرسها وتزيد عذوبتها، ويحسن إيقاعها.

وإذا قارنا عمق الأفكار في الحديث النبوي ومعاني الشعر نلمس في الحديث الحقيقة مجردة واضحة بينه، ولا يدع الحديث جانبا من الفكرة مهما دق دون أن يسلط عليه الأنوار الكاشفة، ولا عجب في ذلك لأنه قبس من نور الله الوضاء، وها هو ذا الحديث بفضل عمق معانيه يحقق سبقا في مجالات عدة وقف الناس اليوم على بعضها وما تزال الأيام المقبلة تحمل كثيرا من هذه الموافقات[49].

وهكذا يكون حديث الرسول ﷺ الشريف أفضل مدرسة تعلمنا بلاغة اللغة العربية في أجود صورها، لهذا استشهد به المبرد في عدة مواضع وعارض بذلك المدرسة البصرية التي آلت رئاستها إليه، وأثبت أنه مجدد وليس مقلدا وحسب، فلعله فطن إلا أن تعنت البصريين في استبعاد الحديث من مجال الاستشهاد فيه بعض الجور والخطأ فعدل عن هذا الخطأ،حيث

---

[47] الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه: ص63

[48] المرجع نفسه: ص91-92.

[49] ينظر المرجع نفسه: ص60

وجدناه يفتتح كتابه الكامل بحديث للرسول ﷺ جاء فيه:" قال رسول الله ﷺ للأنصار في كلام جرى: إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع" (50). كما بدأ كلامه في كتابه الفاضل بحديث له ﷺ:"إن الله عز وجل خلق خلقه لعبادته، وأمرهم بطاعته ونهاهم عما حرمه... و أبعدهم مما حرمه، ونهى عنه: العلماء وذو العقل والفضل من خلقه، فإنه يروى أن رسول الله ﷺ قال:" إن الله يعاقب العاقل بما يعاقب به الجاهل" (51).

وكان المبرد يعتمد على حديث الرسول ﷺ لتعزيز رأيه وتوثيق قوله من ذلك أنه لما تحدث عن رأيه في النحو واللغة وأنهما أفضل العلوم بعد القرآن الكريم استشهد بحديث رسول الله ﷺ فقال، قال ﷺ:" أعربوا في كلامكم تعربوا ي كتاب الله"(52).

للحديث النبوي الشريف أهمية قصوى في الدين الإسلامي وفي حياة المسلم، وكان الصحابة الكرام-رضي الله عنهم- على وعي كامل بهذا في كل حين لذا كانوا حريصين على التقاط كل كلمة تخرج من بين شفتي الرسول ﷺ وكل عمل أو حركة من حركاته، لأنهم كانوا يعلمون أن سر سعادة الدنيا والآخرة موجود ضمنها.

المبحث الثاني: بلاغة القرآن

أولا : فصاحته:

إن العصر الذي بعث فيه محمد ﷺ وعاش فيه، كان أرقى عصور العرب من حيث الفصاحة والبلاغة، وكان هذا العصر موفور الحظ، بارز المكانة، بما امتاز به من فطاحل الشعراء ومصاقع الخطباء الذين إذا قالوا هزوا القلوب واستولوا على المشاعر والأحاسيس.

قال المرحوم مصطفى صادق الرافعي: "بلغ العرب في عقد القرآن مبلغا من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل، فإن كل ما نتج عنهم قبل هذا التاريخ كان أدوارا من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها و اطرادها على سنن الاجتماع... وآخذهم في هذا السمت ما جعل الكلمة

(50) الكامل:3/1.

(51) الفاضل: ص01

(52) المصدر نفسه: ص04

نافذة في أكثرها لا يصدها اختلاف من اللسان، ولا يعترضها تناكر في اللغة، فقامت فيهم بذلك دولة الكلام ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن"[53].

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب كلهم، وتمثلت فيه معظم لهجاتهم[54]، وقد شاع بين الناس والعلماء قديما وحديثا أن القرآن نزل بلغة قريش، والقرآن نفسه يقول بصريح الآيات أنه بلسان العرب وبكل لغاتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [55]. وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [56].

ولم يقل بلسان قريش، والعرب ليسوا قريشا فقط، واسم العرب يتناول جميع القبائل العربية تناولا واحدا، ولم يكن علماء القرن الثالث كغيرهم من العلماء الأفذاذ يجهلون هذه الحقيقة، بل نرى المبرد يذكرها بصريح العبارة قال: "... وإنما يقال بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش على أن القرآن نزل بكل لغات العرب"[57]. كما أنه وصف القرآن بالفصاحة فقال: "والقرآن محيط بجميع اللغات الفصيحة"[58]. وقال أيضا: "والقرآن إنما يحمل على أشرف المذاهب"[59].

و الغرض من هذه الأقوال التي ذكرها المبرد تبيان "أن القرآن وإن خرج عن مألوف الكلام فهو ليس خارجا عن أساليب العرب. وهذه قناعة تحتل حجر الزاوية من كل المحاولات البلاغية التي كان القرآن منشأها"[60].

فاللفظة في القرآن الكريم بلغت أرقى درجات الفصاحة حيث جمعت بين الفخامة والعذوبة. وبلوغها هذه الدرجة من الفصاحة إنما تأتي لجمعها بين ضدين الفخامة والعذوبة، ولا يكادان يجتمعان في بيان على هذا النسق العجيب "وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين؛

---

[53] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي،مكتبة رحاب الجزائر، ط3، 1963م: ص157.

[54] ينظر المزهر في علوم اللّغة و أنواعها،عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، شرحه وضبطه وصححه و عنون موضوعاته و علق حواشيه محمد أحمد جاد المولى بك و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث القاهرة، ط3، دت: 211/1.

[55] سورة يوسف: الآية02.

[56] سورة طه: الآية113.

[57] الفاضل: ص113

[58] الكامل: 97/3.

[59] المصدر نفسه: 39/3.

[60] التفكير البلاغي عند العرب: ص330.

لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن"[61].

و امتازت اللفظة القرآنية بالدقة، فكانت لا تقع إلا في موقعها، وخلت من التنافر، فكانت متلائمة في بنائها، فجمعت بذلك بين فضيلتي الوضوح السمعي والإدراك العقلي التي يطلبها المتلقي من الخطاب اللغوي.

أما معانيه الكريمة فقد كانت في درجة متناهية من الفصاحة بلغت حد الإعجاز. والتنامي في بلاغة المعاني ليس بالأمر الهين "فالأمر في معاناتها أشد؛ لأنها نتائج العقول،ودلائل الأفهام، وبنات الأفكار"[62]. فهي متناسقة منسجمة، واضحة، لا تخفى على أحد، مع هذا فهي تتكشف لكل إنسان على قدر إدراكه وحسن نظره "وإنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه، وحسن معناه"[63].

وهذا الصنع البديع الذي حضيت به هذه المعاني الشريفة ضمن لها الإبلا غ والإفهام.

وبهذا فقد جمع القرآن بين فصاحة اللفظ وصحة المعنى وحسن التركيب لأنه "لا يتفاوت ولا يتباين"[64]. فالتفاوت والانحطاط مما يعتري كلام البشر؛ لأنه نتاج نفس إنسانية يعتورها الضعف، وتغشاها القوة، ولهذا خلا نظم القرآن الكريم من خصائص النفس الإنسانية، فكان دليلا على الكمال الإلاهي المنزه عن النقص.

ثانيا: بلاغته:

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الكبرى "إذ لم يبلغ أي كتاب ديني أو دنيوي ما بلغه من روعة البيان والبلاغة ومس المشاعر وأسر القلوب سواء حين يتحدث عن عظمة الله وجلاله أو حين يشرع للناس ما به صلاح معاشهم و آخرتهم أو يصور لهم الثواب و العقاب و الفردوس

---

[61] بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (319هـ-388هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص26

[62] المصدر نفسه: ص36.

[63] المغنى في أبواب التوحيد والعدل، أبو الحسن عبد الجبار، أسد آبادي، قوم نصه أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد صقر، دار المعارف بمصر، 1963م : 16/ 197

[64] إعجاز القرآن: ص36

و الجحيم، أو يقص عليهم من أنباء الرسل والأولين ما فيه عبرة ومزدجر للمؤمنين، فقد نزل في أسلوب لا يبارى في قوة إقناعه وبلاغة تركيبه"[65].

وبلاغته العالية أدهشت قرّاءه والمتأملين فيه منذ نزوله فالفراء مثلا لاحظ ذلك النسق الصوتي في القرآن وحاول أن يتتبعه وأدرك الروابط بين الكلمات وانسجام النغم، وتوافق الفواصل في آخر الآيات. ورأى النظم القرآني يختار ما يتفق والمقاطع أو الفواصل-رؤوس الآيات- وينسجم مع الموسيقى العام في آيات السورة[66].

والجاحظ بعده كان يرى أن الإعجاز متصل بالنظم وحده- بصرف النظر عما يحويه القرآن من المعاني-"لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم و بلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها و مخرجها، و في لفظها و طبعها، أنه عاجز عن مثلها" [67]

كما اعترف الجاحظ بأن القرآن هو الذروة العليا من البلاغة لذلك نراه يقدم الشاهد القرآني في صدر كلامه ثم يأتي بأمثلة من الشعر والنثر، ويضع هذا المنهج أمام الباحثين.

أما ابن قتيبة السني فقد قال في مقدمة كتابه مشكل القرآن: "وقطع منه بعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلمين، وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة، ومسموعا لا تمجه الآذان، وغضا لا يخلق على كثرة الرد، وعجيبا لا تنقضي عجائبه"[68].

وحاول المبرد أن يصف روعة وبيان القرآن الكريم كما فعل سابقوه ومعاصروه، فأتى بتعريف جامع استوعب فيه ما ذكر حوله ورد فيه على الطاعنين فقال: "فإذا جاء أمر القرآن نظرت إلى الشيء الذي هو أوحد، والقول الذي هو منبت؛ ألا ترى أن الله جعله الحجة والبيان، والداعي والبرهان، وإنما وضع السراج للبصير المتخبئ، لا للأعمى والمتعامي"[69].

---

(65) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص44.

(66) ينظر أثر القرآن في تطور النقد االعربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، مكتبة الشباب، ط1، 1372هـ/1952م: ص63-62

(67) حجج النبوة، ضمن مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق و شرح عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط1، 1411هـ/1991م: 229/3

(68) تأويل مشكل القرآن: ص03.

(69) البلاغة للمبرد: ص90.

إن المبرد يشير في قوله: "الشيء الذي هو أوحد، والقول الذي هو منبت" إلى أن بلاغة القرآن الكريم لا مثيل لها فقد فاقت بلاغة الشعراء والخطباء إلى درجة أن العرب الفصحاء الذين بلغوا النهاية في حسن القول وبراعة الكلام، عجزوا على أن يأتوا بمثله. فالقرآن كلام فريد من نوعه مقارنة بأنواع الكلام التي درسها المبرد، فهو نسيج وحده، وصورة ذاته، فلا هو شعر، ولا هو نثر ولا هو سجع، وإنما هو قرآن. كما أنه وصفه بالقول المنبت أي حسبما نظن القول الآتي من الأصل والأصل في الكلام كلام الله تعالى.

ونلاحظ في تعريف المبرد للقرآن أنه طرح سؤالا تقريريا يبين فيه هذه المعجزة الإلاهية التي خص بها الله تعالى رسوله ﷺ فقال: "ألا ترى أن الله جعله الحجة والبيان، والداعي والبرهان" فالقرآن الكريم هو الحجة التي ضحد بها الرسول الكريم قريشا وبين لهم بها أنه رسول الله المبعوث إليهم.

وقد كتب أحد المستشرقين في هذا الوجه عن القرآن قائلا: "هذه المقاطع المفعمة بالألم والسرور، وبالحب والشهامة، وهذه العاطفة التي تتجاوب أصداؤها في آذاننا الآن، كانت زاخرة بأنغامها في أيام محمد، ولم يكن محمد ليكتفي بمنافسة جيد المجيدين، من بلغاء زمانه، بل ليخرسهم بتفوقه عليهم، وكان يظهر هذا التفوق في كل آية وكل نغم. وقد اتخذ ذلك دليلا على إعجاز قرآنه وصدق رسالته"[70].

وفي هذا الصدد يقول محمد عبد الله الدراز: "ومضى عصر القرآن والتحدي قائم، ليجرب كل امرئ نفسه وجاء العصر الذي بعده، وفي البادية وأطرافها أقوام لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا على الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم لفعلوا، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، كما فعل بأشياعهم من قبل، ثم مضت تلك القرون، وورث اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد أشد عجزا، وأقل طمعا في هذا المطلب العزيز، فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم، وكان برهان الإعجاز قائما أمامهم"[71].

---

[70] روح الإسلام، تعريب عمر الدايروي، دار العلم، بيروت، ط3، 1975م: ص382.

[71] النبأ العظيم: ص78.

فالقرآن الكريم برهان على نبوة الرسول الكريم ﷺ، دعى به الناس كافة إلى عبادة الواحد الديان، والابتعاد عن عبادة الأوثان، لهذا كان سبب نزول الوحي بالقرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، هذا ما جعل المبرد يشبه القرآن بالسراج فيقول: "إنما وضع السراج للبصير المستضيء، لا للأعمى والمتعامي"[72]. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾[73]. فها هو الوليد بن المغيرة يصف القرآن فيقول: "والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس و لا الجن، و إن له لحلاوة، و عليه لطلاوة، و إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق"[74]. ومع ذلك يتعامى ويكفر بما جاء به الرسول المصطفى، فالمشركون لم يجرؤ أحد منهم على أن يصف القرآن بالنقص، حتى عندما قالوا إنه شعر، وسحر، وكهانة، وأساطير، فقد وصفوه بقوة التأثير.

وقد وصف الزركشي –من بعد المبرد– أيضا القرآن بالسراج فقال: إنه "سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه، وبحر لا يدرك غوره. بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه"[75].

والمبرد لم يكتف بوصف بلاغة القرآن بل جعله أفضل ما قصد في العلم، انتبه إليه إذ يقول: "وأفضل ما قصد به من العلوم كتاب الله جلّ ذكره، والمعرفة بما حلّ فيه من حلاله وحرامه، وأحكامه، وإعراب لفظه، وتفسير غريبه". [76]

ثالثا : الموازنة بين بلاغة القرآن وبلاغة الشعر:

و لتوضيح تفوق بلاغة القرآن على بلاغة البشر وتبيان روعة بيانه وازن المبرد بين قول أحد الشعراء و آيات من القرآن، فقال "قال أحد الشعراء في وصف قوم يحملون الشعر ولا يفهمونه، قولاً أجاد فيه، وتقدم كلام كثير من المخلوقين، فقال:

---

(72) البلاغة للمبرد: ص90

(73) سورة الحج: الآية46.

(74) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص44.

(75) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، 1276هـ/ 1957م:1/3-4.

(76) الفاضل: ص04.

زَوَامِلُ لِلأَشْعَارِ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُمْ   بِجِيـدِهَا إلاَّ كَعِلْـمِ الأَبَـــاعِرِ
لعَمْرُكَ مَا يَدْرِي البَعِيرُ إِذْ غَدَا   بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الغَرَائِرِ" [77]

وقال الله تعالى ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾[78]. وعبر عن الفرق الشاسع بين التعبير القرآني وتعبير الشاعر بقوله: "فهيهات هذا من قول الله تعالى"[79].

فقد جمع سبحانه بين الأمرين في إيجاز بليغ، حيث شبه هؤلاء الذين يضيعون العلم بحفظه دون دراية به- اعتمادا على روايته- بالحمار الذي يحمل أسفارا ولا يدري ما بها، يسير بها لينقلها من مكان إلى آخر غير منتفع بما فيها ولا ملم به فحاله كحال هؤلاء الذين لا يعملون بما علموه ولا ينتفعون به.

والمبرد لم يستطع شرح ما توصل إليه، ربما لأن بلاغة القرآن أثرها يظهر في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به، كما أن ألفاظ القرآن لها عذوبة في السمع وهشاشة في النفس يصعب تفسيرها. إلا أن من بعده تمكن من ذلك فالخطابي مثلا يقول: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط له ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا نرى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها. و الترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها"[80].

ويقول أيضا: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمنا أصح المعاني"[81].

---

(77) البلاغة للمبرد: ص90.
(78) سورة الجمعة: الآية5.
(79) البلاغة للمبرد: ص91.
(80) بيان إعجاز القرآن: ص24.
(81) المصدر نفسه: ص36.

كما علل الخطابي سبب بلاغة القرآن وعلوها فوق كل البلاغات بقوله: "فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فامتزج لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة. "[82].

و من هنا نلاحظ أن الخطابي تمكن إلى حد كبير من استنباط ذلك الفارق الذي يميز البلاغة القرآنية عن البلاغة البشرية والتي أحس بها القدماء كالمبرد لكنهم لم يتمكنوا من وصفها.

واصل المبرد موازنته بين القرآن والشعر فأتى ببيتين مشهورين للخنساء ترثى فيهما أخاها صخرا[83]:

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ البَاكِينَ حَـــوْلِي عَلَى إِخْوانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُعَزِّي النَّــفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

و قوله تعالى للمشتركين ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ [84]. مع شرح معنى الآية بقوله: "أي ما نزل بكم أجل من أن يقع معه التأسي، ونظر بعض إلى بعض"[85].

ولم يقدم لنا المبرد أسبابا موضوعية ولم يضع يدنا على خصائص فنية، لهذا التفصيل وتلك الموازنات، وإنما اعتمد على إحساسه الصادق وعلى ذوقه الصافي.

وقد أدرك أبو هلال ما للشاهد القرآني من روعة بمقارنته بالنصوص الشعرية والنثرية، لذلك أكثر من الإشارة إليه، وإيراده، ثم المقارنة بين فنون القول فيه، فيقارن مثلا بين التشبيه في قوله تعالى ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾ [86]. وبين قول ابن الرومي[87]:

تَأْتِي عَلَى القَمَرِ السَّارِي نَوَائِبُهُ حَتَّى يُرَى نَاحِلاً فِي شَخْصِ عُرْجُونِ.

ويعلق على ذلك بقوله: "وأين يقع هذا من لفظ القرآن؟!"[88].

---

[82] بيان إعجاز القرآن: ص23-24.
[83] ديوان الخنساء :ص72
[84] سورة الزخرف: الآية39.
[85] البلاغة للمبرد: ص91.
[86] سورة يس: الآية39
[87] ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط3، 1423هـ/ 2002م: 3 /399
[88] الصناعتين: ص185

فالشاهد القرآني هو المثل الأعلى للفن البلاغي عنده، لذلك وضعه في رؤوس الأبواب كما فعل غيره من قبل.

وإذا كانت كل شطرة من شطرات الشعر لا تتصف بجمال النظم وحسن النسق إذا فصلت عن أختها، أو عما يتبعها ويسبقها من شعر، فهو عكس ما هو مشاهد في القرآن من أن كل آية ذات نسق كامل، وبلاغة لا مثيل لها، ومعان ساحرة لا يختلف في ذلك وجيزها وطويلها. و يعبر مالك بن نبي عن هذه الفكرة بأسلوبه الخاص فيقول: "تتميز اللغة الجاهلية بالتعبير الموسيقي الموزون في شكل أبيات من شعر، وبالتعبيرات المجازية التي تستعير عناصرها من سماء بلا سحاب، وصحراء بلا حدود... وقد جاء القرآن فطوى بعبقريته الخاصة هذه اللغة كيما يعبر عن فكرة عالمية، واختار القرآن للتعبير عن هذه الفكرة صورة جديدة هي الجملة، فالآية القرآنية قد أقصت شعر البادية جانبا، وإن ظل نسقه باقيا، إذ هي تحررت من الوزن فحسب، فاتسع مجالها"[89].

وقد قام الباقلاني أيضا بموازنة بين القرآن والشعر العربي في أزهى عصوره، فأثبت أن نظم القرآن "ليس له مثال يحتذي عليه، ولا إمام يقتدي به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا"[90]. وأنه "جنس متميز، و أسلوب متخصص، وقبيل عن النظير متخلص"[91]. وأنه كلام الله الذي جاء مستويا مطردا، خلا من التفاوت كالسهولة والتكلف، والرفعة والضعة، و النادر والبارد ،بخلاف نتاج النفوس الانسانية فإن مبناه على التفاوت وعدم الاستواء.

وإذا كانت موازنة الباقلاني بغرض الانتصار لفكرة الإعجاز ونفي الاعتقاد القائل بأن في القرآن ما هو على وزن الشعر كقوله تعالى: ﴿ **وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ** ﴾[92]. على أنه من الرمل، فإن المبرد كان الغرض من موازنته –على ما نعتقد– إظهار أن القرآن أبلغ من الشعر، فالشعر ليس سرا من الأسرار، و هو ليس أكثر غرابة من بقية أجناس الأدب الأخرى،

[89] الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، بيروت، ط3، 1968م: ص231

[90] إعجاز القرآن: ص112.

[91] المصدر نفسه: ص159.

[92] سورة سبأ: الآية13.

مع ذلك فقد توهم بعضهم أن الشعر من شأنه أن يولد تأثيرا يشبه الأثر الذي يحدثه القرآن الكريم، و قد ضلل مثل هذا الظن أناسا موكلين بالخطابات، مولعين بالبلاغات[93].

إنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يشتبه بغيره إلاّ عند الناقص في معرفة البلاغة الذي "يعبر عن نقصه، ويدل على عجزه، ويبيّن عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه، وركاكة عقله"[94]، والناقص في معرفة البلاغة لن تضيف له تلك الموازنة جديد يطمح إليه.

وإذا كان القرآن الكريم قد بلغ في بلاغته حدّ الإعجاز ، وكان له نسقه الخاص في بناء لغته، فلا يعني أن تخضع لغة الشعر لذلك النسق، فلغة القرآن لها خصوصيتها بوصفها لغة هدى وبيان، تعنى بالإبلاغ والإمتاع معا، وتهدف إلى إفهام جميع الطبقات، فإنّ لغة الشعر لها أيضا خصوصيتها التي بمقتضاها تهدف إلى الإمتاع أوّلا ثمّ الإفهام ثانيا، وتلك لغة بيان تخاطب العقول والقلوب معا، أمّا هذه فهي نتاج مخيلة وخطابها موجه إلى القلوب والمشاعر.

على أنّ بعض البلاغيين لم يقف عند هذا الحدّ الذي أخضعت بمقتضاها لغة الشعر للغة الإعجاز القرآني، باعتبار هذه اللغة عنوان الفصاحة، فقد اتخذ بعض البلاغيين من ذم الشعر العربي منهجا للانتصار لفكرة الإعجاز.

رابعا : الموازنة بين نظم القرآن والكلام المنثور:

إن القرآن الكريم جاء مطابقا لأحوال العرب في لغتهم، وتأكيدا لهذه المطابقة دأب العلماء على مقارنة أسلوب عباراته بأسلوب كلام العرب، فهذا المبرد بعد أن وازن بين القرآن الكريم والشعر انتقل إلى الموازنة بين النثر والقرآن الكريم فقال: "قال: "أردشير بن بابك"، في عهده: "وقد قال الأولون منا: القتل أقل للقتل""[95]. وشرح المبرد هذا القول: "إذا قتل القاتل امتنع غيره من التعرض للقتل"[96]. ثم علق عليه: "فهذا أحسن الكلام من كلام مثله، وقد اضطره لعلم الفهم ما يعني"[97]. ثم جاء المبرد بقول آخر اعترض فيه على الأول: "ولو اعترض معترض فقال: من القتل ما يهيج القتل، ويبعث عليه، لكان ذلك له، وإن لم يكن ما قصد له

---

(93) ينظر حجج النبوة، ضمن مجموع رسائل الجاحظ: 275/3

(94) إعجاز القرآن: ص125.

(95) البلاغة للمبرد: ص92.

(96) المصدر نفسه: 92

(97) المصدر نفسه: 92

القائل"[98]. أي أن القول الثاني يمكن أن يكون صحيحا لكنه لا يعادل القول الأول "القتل أقل للقتل" في المعنى، ثم أتى المبرد بآية قرآنية تحمل معنى القول الأول ولا يمكن معارضتها: "فإذا جاء قوله عز وجل: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾[*]، جاء ما لا اعتراض عليه، ولا معارضة له، وقوله: ﴿ **يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ خطر ثان، فتبارك الله الذي ليس كمثله شيء"[99].

فحب المبرد للإيجاز جعله يعجب بقول بعضهم: "القتل أقل للقتل"، لكن إعجابه بالآية ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ كان أكبر، إلا أنه لم يفصل أوجه المفاضلة بين الآية وكلام العرب، وقوله: ﴿ **يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ "خطر ثان" أي أن الله تعالى خاطب المكلفين حتى يلتفتوا إلى ذلك الحكم وتعيه عقولهم.

وربما كان المبرد أول من عقد هذه الموازنة أو وضع أساسها، فأبو عبيدة أغفلها، والفراء تجاوز الآية إلى ما بعدها وابن قتيبة فسر الآية دون موازنتها بغيرها من كلام البشر فقال: "سافك الدم إذا أقيد منه، ارتدع من يهم بالقتل فلم يقتل خوفا على نفسه أن يقتل فكان في ذلك حياة"[100]. والجاحظ حاد عنها وشرح آية أخرى أظهر فيها بلاغة الإيجاز في القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴾[101]. فقال: "قالت الحكماء: إنما تبنى المدائن على الماء والكلأ والمحتطب، فجمع بقوله: ﴿ **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴾"[102].

ولقد حاول فصحاء العرب أن يأتوا بجملة واحدة تحوي من المعاني ما هو موجود في الآية ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾: "فقال بعضهم في المعنى الباعث على تقليل القتل ظلما أو نفيه بالكلية "كثرة القتل تقلل القتل" وقال آخر "قتل البعض إحياء للجميع" وقال ثالث:

---

(98) البلاغة للمبرد: 92

(*) سورة البقرة: الآية179.

(99) البلاغة للمبرد: ص92.

(100) تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م: ص 72

(101) سورة النازعات: الآيتان 30-31

(102) البيان والتبيين: 31/3.

"القتل أنفى للقتل" فأعجب الجميع بإيجاز هذه العبارة في إيجازها"[103]. وظهرت لهم فضيلة الآية على سائر كلام العرب.

وإن لم يفصل المبرد في أوجه المفاضلة بين الآية وقول العرب إلا أنه فتح الباب أمام البلاغيين بعده من أجل استنباط هذه الأوجه واقفين على ما في الآية من الإعجاز تارة وما في قولهم من القصور أخرى، فهذا الرماني بنظره الثاقب وحسه الجمالي الواضح يوازن بين قول العرب "القتل أنفى للقتل" والآية الكريمة ويقول: "وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم "القتل أنفى للقتل" وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز، وذلك يظهر في أربعة أوجه: أنه أكثر في الفائدة وأوجز في العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة"[104].

ويزيد الرازي وجوها ثلاثة فوق هذه الأربعة: أولها أن قولهم به تناقض إذ جعل حقيقة الشيء منافية لنفسه... و إنما يصح إذا خصص فقيل: القتل قصاصا أنفى للقتل ظلما، فيصير كلاما طويلا. والوجه الثاني: أن القتل قصاصا لا ينفي القتل ظلما لأنه قتل بل لأنه قصاص، والثالث: أن دافع صدور القتل عن الإنسان هو صارف قوي بداخله فليس أنفى الأشياء للقتل هو القتل[105].

ويتناول علي بن محمد الجرجاني بلاغة الآية وما بها من الفضل على قول العرب ويرجع ذلك الفضل إلى ثمانية أوجه في الآية ليس بها جميعا كثيرا ابتكار عما قيل قبله[106].

وتتسع دائرة التفاضل لاستخراج كنة هذه الآية وما تحمله من إيجاز حتى أننا نجد الزركشي يصل بهذه المفاضلة إلى عشرين وجها[107].

أما عبد القاهر الجرجاني فيرى أن الموازنة بين بعض آيات القرآن وبين ما قاله الناس في معناها خطأ، وعمد إلى نفس الآية السابقة ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ وما قاله بعضهم من أنها تحمل معنى قول أحدهم (قتل البعض إحياء للجميع) وقال "فإنه وإن كان قد جرت

---

(103) لطائف المعاني، في ضوء النظم القرآني، عبد الله محمد سليمان الهنداوي، مطبعة الأمانة، دط، دت: ص148-149.

(104) النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني: ص77

(105) ينظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، ط1، 1985م: ص349

(106) ينظر الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي بن محمد، تحقيق عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، 1977م: ص146

(107) ينظر البرهان في علوم القرآن: 3/222-225

عادة الناس بأن يقول في مثل هذا: "إنهما عبارتان معبرهما واحد" فليس هذا القول قولا يمكن الأخذ بظاهره، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من آخر"[108].

إن هذه الموازنة كانت بين كلام الله تعالى وكلام البشر، وكيف يمكن لكلام البشر أن يبلغ كلام الله تعالى إذا كان حتى حديث رسول الله ﷺ لم يرق إلى بلاغة القرآن الكريم لأن "الفرق عظيم جدا بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث في طريقة البيان العربي، فبينهما شقة واسعة، لا يشبه أحدهما الآخر لدى أهل البصر باللغة وأساليبها وبالمأثور المألوف من بيانها قديمه وحديثه ... فالحديث جاء على الأسلوب المعتاد للعرب في التخاطب وإن كان قد ارتقى في سلم البيان والإيجاز والبلاغة إلى درجة عالية، أما القرآن فهو أسلوب مبتكر لا شبيه له فيما يعرف من كلام العرب"[109].

فانظر الفرق بين قوله تعالى ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ وقول رسول الله ﷺ: "إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا"[110]. فأسلوب حديث الرسول ﷺ "أسلوب التخاطب المألوف بين العرب، الذي يمتاز بأنه من جوامع الكلم ومن حكيم البيان، وفصيح اللغة، وإنه العقل الناطق بأبلغ تعبير معتاد وأوجزه، أما أسلوب القرآن فيتجلى فيه الأسلوب الذي لم يعهد له مثيل ولا يشبهه شيء من كلام العرب في طرائق بيانه و مناهج خطابه"[111].

إن المبرد كان يدرك مدى إعجاز القرآن ببلاغته لأنه عاش في عصر كانت الدراسات حول إعجاز القرآن وبلاغته في أوجها فألف عدة كتب حول القرآن منها:"كتاب معاني القرآن ويعرف بالكتاب التام...كتاب إعراب القرآن...كتاب الحروف في معاني القرآن إلى سورة طه...كتاب ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن"[112].

---

(108) دلائل الإعجاز: ص261

(109) في الحديث النبوي الشريف، تأليف الشيخ مصطفى الزرقا، ترجمة و تحقيق مجد مكي، دار البشائر الإسلامية، ط3، 2009م: ص 75-78.

(110) سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع الرياض، ط2، 1406هـ:ج1رقم 231.

(111) في الحديث النبوي: ص80-81.

(112) الفهرست: ص267-268.

فلقد حاول في مؤلفاته أن يوضح صور البيان والبديع في بعض أي القرآن الكريم، سنأتي على ذكرها، أما كتابه "البلاغة" فإنه أشار فيه إلى تلك البلاغة التي تؤثر في النفوس ولا تملك هذه النفوس تفسيرا لها بكلمات واضحة.

والمبرد جاء بهذه الموازنة من أجل إثبات مساهمته هو أيضا في الدفاع عن نظم القرآن كما فعل قبله الفراء وأبو عبيدة والجاحظ وابن قتيبة ، فقد قال الناس: "هو وزن الشعر، أو قريب منه، فظنوه من وهمهم شعرا، ورأى آخرون التزامه الفاصلة على روي أحيانا، فظنها بعضهم على مثال القصيدة حين تلتزم قافية بعينها، وحاول آخرون من ناحية أخرى أن يوجدوا تشابها بين نظم القرآن وما كان يجرى على ألسنة بعض الكهان العرب من كلام مسجوع، فظنوه من ذلك الوادي سجعا"(113). لذلك انبرى العلماء يدرسونه ويقارنون وزنه مع وزن الشعر بعد أن تم ضبطه بالعروض والقوافي والتفعيلات فتأكدوا حينئذاك بأنه ليس بشعر ولا سجع.

(113) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ص96.

الباب الثاني

علوم البلاغة

الفصل الأول:

علم المعاني

يعد علم المعاني من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث بلاغية لها ارتباط بالجملة. وقد عرفه الخطيب القزويني "بأنه علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتفى الحال"[1]. وكان حده لعلم المعاني أكثر دقة وأقرب معنى، لأن المسائل البلاغية التي تبحث في هذا العلم تتصل بالتراكيب وما يقع بين الجمل من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وحصر وقصر، وفصل ووصل، وغير ذلك من المسائل، وقد تابعه في هذا المنهج البلاغيون المتأخرون والشراح والملخصون[2].

وإذا عدنا إلى شيخ البصريين المبرد، الذي عاش في القرن الثالث، يتضح لنا أن علم المعاني لم يكن قد نما بعد وظهرت فروعه وأغصائه. لكننا نجد بعض الإشارات والدراسات التي ظهرت في مؤلفاته وأهمها المقتضب والكامل، والتي ساعدت على ظهور هذا العلم وبروزه للاحقين. وهذا ما سنلحظه بعون الله في هذا الفصل.

المبحث الأول: الخبر:

ذكر سيبويه الخبر مقابل الاستفهام[3]، وفعل مثله الفراء[4]. و بدأ هذا النوع يدخل الدراسات البلاغية ويأخذ صورة محدودة على يد المبرد الذي عرف الخبر قائلا: "الخبر ما جاز على قائله التصديق والتكذيب"[5]. أي أن الخبر يكون له واقع خارجي من ثم يوصف بالصدق أو الكذب حسب مطابقته لهذا الواقع أو عدمها.

و للخبر غرضان: فإن قصد إفادة المخاطب الحكم يسمى: فائدة الخبر، وإن قصد إعلام المخاطب بالحكم الذي يعلمه فهو يسمى لازم فائدة الخبر[6].

لقد أشار المبرد في كتابه المقتضب إلى فائدة الخبر حيث قال: "فالابتداء نحو قولك: زيد، فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع؛ ليتوقع ما تخبره به عنه فإذا قلت (منطلق) أو ما أشبهه، صح

(1) شروح التلخيص :154/1.
(2) ينظر البحث البلاغي عند العرب، أحمد مطلوب، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1402هـ / 1982م: ص09.
(3) ينظر الكتاب: 119/1-134-135.
(4) ينظر معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة 207هـ، عالم الكتب بيروت، ط3، 1403هـ/1983م: 335/1-354-85-84/2.
(5) المقتضب: 89/3.
(6) ينظر الإيضاح: 1 /40-41.

معنى الكلام، وكانت الفائدة للسامع في الخبر، لأنه قد كان يعرف زيدا كما تعرفه، ولولا ذلك لم تقل له زيد، ولكنت قائلا له: رجل يقال له زيد. فلما كان يعرف زيدا، ويجهل ما تخبره به عنه، أفدت الخبر، فصح الكلام"[7]. و قال: "ألا أنك لو قلت: كان رجل قائما، وكان إنسان ظريفا لم تفد بهذا المعنى، لأن هذا مما يعلم الناس أنه قد كان، وأنه مما يكون، وإنما وضع الخبر للفائدة. فإذا قلت: كان عبد الله، فقد ألقيت إلى السامع اسما يعرفه، فهو يتوقع ما تخبره عنه، وكذلك لو قربت النكرة من المعرفة بما تحملها من الأوصاف، لجاز أن تخبر عنها، وكان فيها حينئذ فائدة، نحو قولك: كان رجل من بني فلان فارسا، وكان رجل من أهل البصرة شجاعا. وذلك لأن هذا التجوز ألا يكون، أو يكون فلا يعلم. فلذلك ذكرنا أن الاسم المعروف هو الذي له هذا الموضع"[8].

وعند حديثه عن "قد" قال: "أما (قد) فأصلها أن تكون مخاطبة لقوم يتوقعون الخبر، فإذا قلت: قد جاء زيد لم تضع هذا الكلام ابتداء على غير أمر كان بينك وبينه، أو أمر تعلم أنه لا يتوقعه. فإن أدخلت اللام على (قد) فإنما تدخلها على هذا الوجه"[9].

وقال في موضع آخر: "فالابتداء نحو قولك: زيد. فإذا ذكرته فإننا تذكره للسامع؛ ليتوقع ما تخبره به عنه فإذا قلت (منطلق) أو ما أشبهه صح معنى الكلام، وكانت الفائدة للسامع في الخبر؛ لأنه قد كان يعرف زيدا كما تعرفه، ولولا ذلك لم تقل له زيد، ولكنت قائلا له: رجل يقال له زيد فلما كان يعرف زيدا، ويجهل ما تخبره به عنه، أفدته الخبر، فصح الكلام؛ لأن اللفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئا، وإذا قرنتها بما يصلح حدث معنى، واستغنى الكلام"[10].

وقد تنبه المبرد إلى تنوع الخبر؛ فقد روى ابن الأنباري عن الكندي المتفلسف أنه "ركب إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم: فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف

---

(7) المقتضب: 126/4.

(8) المصدر نفسه: 88/4.

(9) المصدر نفسه: 335/2.

(10) المصدر نفسه: 126/4.

الألفاظ. فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني فما حار الفيلسوف جوابا"[11].

إن بدت هذه المسألة نحوية إلا أن البلاغيين المتأخرين تنتبهوا إلى قيمة ما اهتدى إليه المبرد، وذكروا فضله في فتح بصائرهم على مختلف المعاني التي يؤديها الخبر الواحد إن اختلف جواره اللغوي كما تنبهوا إلى "ضرورة أن يكون المتكلم عالما بأحوال المخاطبين، خبيرا بنفسياتهم وما يجول في خواطرهم ويتردد في أذهانهم، وأن يلقى إليهم كلامه ملائما لتلك الأحوال، فإذا كان المخاطب خالي الذهن ألقي إليه الكلام بدون تأكيد ... فيتمكن هذا في ذهنه لمصادفته إياه خاليا وإذا كان المخاطب مترددا في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر ألقي إليه الكلام مؤكدا بمؤكد واحد استحسانا... وإذا كان المخاطب منكرا للحكم وجب تأكيد الخبر له حسب إنكاره"[12].

وبذلك فتح المبرد بهذه الملاحظة للبلاغيين فصلا من فصول علم المعاني أطلقوا عليه أضرب الخبر وسموا الخبر الأول في سؤال الكندي وإجابة المبرد: ابتدائيا، والثاني طلبيا، والثالث إنكاريا[13].

ومن مؤكدات الخبر التي ذكرها المبرد حروف الزيادة فقال: "في "ما" تدخل على ضربين أحدهما: أن تكون زائدة للتوكيد فلا يتغير الكلام بها عن عمل ولا معنى"[14].

وقال في موضع آخر: "وقد تقع (ما) زائدة مؤكدة لا يخل طرحها بالمعنى، كقول الله عز وجل ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ** ﴾[*]، وكذلك: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ**﴾[**]"[15].

---

[11] دلائل الإعجاز: ص 242.

[12] علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار القاهرة، ط2، 1425هـ/2004م: ص36-37.

[13] ينظر الإيضاح: 46/1.

[14] المقتضب: 54/2.

[*] آل عمران: 159.

[**] سورة النساء: 155.

[15] المقتضب: 48/1.

وقال في باب "من أبواب (أنَّ) مكررة": "وذلك قولك: قد علمت أن زيدا- إذا أتاك- أنه سيكرمك. وذلك أنك قد أردت: قد علمت أن زيدا- إذا أتاك- سيكرمك فكررت الثانية توكيدا. ولست تريد بها إلا ما أردت بالأولى، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ**﴾(*) . فهذا أحسن الأقاويل عندي في هذه الآية"[16].

أما في باب (أنْ) و(إنْ) الخفيفتين فيذكر وجه تكون فيه أن الخفيفة في الكلام فيقول: "ووجه رابع: أن تكون زائدة مؤكدة، وذلك قولك: لما أن جاء زيد قمت، ووالله أن لو فعلت لأكرمتك"[17].

و من حروف الزيادة التي ذكرها المبرد الكاف مثل قول الشاعر[18]:

إِلاَّ كَخَارَجَة المكَلِّفِ نَفْسَهُ وَابْنَيْ قَبِيصَةَ أَنْ أَغِيبَ وَيَشْهَدا

"الكاف زائدة مؤكدة كتوكيدها في قول الله جل وعز ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾(*)"[19].

كما تحدث المبرد عن لام الابتداء في باب "(إن) إذا دخلت اللام في خبرها" وقال عنها: "فلما كان معناها في التوكيد"[20]. و أضاف: "وذلك قولك: أشهد أن زيدا منطلق، وأعلم أن زيدا خير منك. فإذا أدخلت اللام قلت: أشهد إن زيدا لخير منك، وأعلم إن زيدا لمنطلق. قال الله عز وجل: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾(*). فلولا اللام لم يكن إلا (أن)؛ كما تقول: أعلم زيدا خيرا منك. فإذا أدخلت اللام قلت: أعلم لزيد خير منك. وقال: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ(٩)وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ(١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ**﴾(**) . فهذا مجاز اللام"[21]. و في موضع ثالث قال عند

(*) سورة المؤمنون: الآية35.

[16] المقتضب: 356/2.

[17] المصدر نفسه: 362/2 وينظر: 49/1.

[18] ديوان الأعشى : ص231

(*) سورة الشورى: الآية11.

[19] المقتضب: 418/4.

[20] المصدر نفسه: 434/2.

(*) سورة المنافقون: الآية01

(**) سورة العاديات: 9-11.

[21] المقتضب: 345/2.

حديثه عن إن: "إن نصبت بها لم تحتج إلى اللام إلا أن تدخلها توكيدا كما تقول: إن زيدا لمنطلق"[22].

ومن مؤكدات الخبر أيضا عند المبرد ضمير الفصل قال: "ونظير تكرير (أن) ها هنا قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ**﴾[*] "[23]. وقال أيضا عند حديثه عن: هو، ونحن، وهم وما أشبه ذلك: "فمما جاء من توكيدها في القرآن قوله: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾[*] . وقال: ﴿**إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**﴾[**] . وقال: ﴿**تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾[***]." [24]وإنما زيدت في هذا الموضع، لأنها معرفة، فلا يجوز أن تؤكد إلا المعرفة، ولا تكون زائدة إلا بين اسمين لا يستغنى أحدهما عن الآخر: نحو اسم كان وخبرها، أو مفعولي ظننت وعلمت وأشبه ذلك، والابتداء والخبر، وباب (إن).

و بهذا يكون المبرد قد بين لنا المواضع التي تكون فيها ضمائر الفصل زائدة مؤكدة. لأنه هناك مواضع أخرى قد تأتي فيها ضمائر الفصل ولكن لا تكون زائدة مؤكدة لأنها إذا حذفت فسد الكلام، منها ما ذكره المبرد: "ولو قلت، كان زيد أنت خير منه، أو: كان زيد أنت صاحبه لم يجر إلا الرفع"[25]. لأن من شرط ضمير الفصل أن يطابق ما قبله ف الخطاب والغيبة والتكلم. ونوني التوكيد الخفيفة والثقيلة، قال: "وذلك قولك إذا لم تأت بهما: اضرب، ولا تضرب، فإذا أتيت بها قلت: اضربن زيدا، ولا تضربن زيدا، وإن شئت ثقلت النون، وإن شئت خففتها. وهي إذا خففت موكدة، وإذا ثقلت فهي أشد توكيدا، وإن شئت لم تأت بها فقلت: اضرب، ولا تضرب، قال الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا**﴾[*].

---

[22] المقتضب: 363/2.

[*] سورة الأعراف: الآية45

[23] المقتضب: 356/2.

[*] سورة الزخرف: الآية76.

[**] سورة الأعراف: الآية113.

[***] سورة المزمل: الآية20.

[24] المقتضب: 4/104-105.

[25] المصدر نفسه: 105/4.

[*] سورة الكهف: الآية23.

وقال: ﴿**وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(**). وقال: ﴿ (**فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾(***) .

وقال الشاعر في الخفيفة:

فَإِيَّاكَ وَالِميتَاتِ لاَ تَقْرَبَنَّهَا		وَلاَ تَأْخُذَنْ سَهْمًا حَدِيدًا لِتَفْصِدَا"[26].

و قد تفاد من الخبر بمعونة الحال أغراض كثيرة ذكر المبرد بعضها:

- **الدعاء**: قال المبرد: "وذلك قولك: ليغفر الله لزيد وتقول: اللهم اغفر لي، كما تقول: اضرب عمرا فأما قولك: غفر الله لزيد، ورحم الله زيدا، ونحو ذلك فإن لفظه لفظ الخبر ومعناه الطلب؛ وإنما كان كذلك لعلم السامع أنك لا تخبر عن الله عز وجل، وإنما تسأله"[27].

وقال الحسن البصري (رضي الله عنه) في ختام دعائه لعلي كرم الله وجهه: "لم يزل أمير المؤمنين علي رحمه الله يتعرفه النصر، ويساعده الظفر حتى حكم، فلم تحكم والحق معك! ألا تمضي قدما لا أبالك وأنت على حق!

قال أبو العباس: وهذه كلمة فيها جفاء، والعرب تستعملها عند الحث على أخذ الحق والإغراء، وربما استعملتها الجفاة من الأعراب عند المسألة والطلب، فيقول القائل للأمير والخليفة: انظر في أمر رعيتك لا أبالك"[28].

قوله: "لا أبالك" جملة خبرية منفية، وهي توهم الدعاء، أو إهانة المخاطب، ولكنها جرت على ألسنة العرب وقصد منها معان كثيرة مثل الحث على أخذ الحق، والإغراء على فعل الشيء نحو: افعل الخير لا أبالك وتستعمل في المسألة والطلب.

- **التهكم**: قال المبرد معلقا على قول الشاعر:

وَ إِنِّي لَأَرْجُوكُمْ عَلَى بُطْءِ سَعْيِكُمْ		كَمَا فِي بُطُونِ الحَامِلاَتِ رَجَاءُ.

"يقول: هذا رجاء غير صادق ولا موقوف عليه، كما أن هذه الحوامل لا يعلم ما في بطونها وليس بميئوس منه، وإنما يتهكم بهم وهو يعلم أن سعيهم غير كائن.

(**) سورة يونس: الآية89.

(***) سورة البقرة: الآية132.

[26] المقتضب: 12/3.

[27] المصدر نفسه: 132/2.

[28] الكامل: 216/3.

ألا تراه يقول:

أُخَبِّرُ مَنْ لاَقَيْتُ أَنْ قَدْ وَفَيْتُمْ وَلَوْ شِئْتُ قَالَ المخْبِرُونَ أَسَاءُوا"[29].

- **الاستفهام الإنكاري**: قال المبرد وهو يتحدث عن الاستفهام الإنكاري: "ومن كلام العرب: أتميميا مرة وقيسيا أخرى! وكذلك إن لم تستفهم وأخبرت قلت: تميميا مرة علم الله وقيسيا أخرى، أي تنتقل"[30].

فقوله: "كذلك...قلت: تميميا مرة، علم الله، وقيسيا أخرى" خبر، الغرض منه الإنكار على المخاطب؛ حيث لا يستقر على مبدأ، أو قبيلة ينتمي إليها.

- **المدح و الذم**: قال المبرد: "والمختار من الشعر الأول قوله[*] يقصد كثيرا:

مِنَ النَّفَرِ البِيضِ الَّذِينَ إِذَا اعْتَزَوْا وَهَابَ الرِّجَالُ حَلَقَةَ البَابِ قَعْقَعُوا

يخبر بجلالتهم ومعرفتهم بأقدارهم، و ثقتهم بأن مثلهم لا يرد. وقد قال جرير للتيم خلاف هذا، وهو قوله[**]:

قَوْمٌ إِذَا احْتَضَرَ المُلُوكَ وُفُودُهُمْ نُتِّفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الأَبْوَابِ"[31].

فالغرض من الأول المدح، ومن الثاني الذم، لا مجرد الإخبار.

- **القسم**: قد يخرج الخبر إلى معنى القسم، قال المبرد: "كما أن قولك: علم الله لأقومن إنما لفظه لفظ. رزق الله، ومعناه القسم، لأنك في قولك: (علم) مستشهد"[32].

المبحث الثاني: التقديم و التأخير:

يقول عبد القاهر: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف

---

(29) الكامل: 1/81-82.

(30) المصدر نفسه: 3/174، وينظر المقتضب: 3/265، والكتاب: 1/172.

(*) ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، لبنان، 1391هـ، 1971م، لم أجده في الديوان.

(**) ديوان جرير: ص52، وقد ورد البيت في الديوان كالآتي:

قَوْمٌ إِذَا احَضَرَ المُلُوكُ وُفُودَهُمْ نُتِّفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الأَبْوَابِ

(31) الكامل: 1/182.

(32) المقتضب: 2/132.

لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكانه إلى مكان"[33].

وكان العلماء قبل عبد القاهر يكتفون ببيان المقدم والمؤخر دون ذكر الدواعي والأسرار، وأحيانا يقولون: إن التقديم للعناية والاهتمام، ولم يكن صنيع المبرد بعيدا عن هؤلاء العلماء، غير أنه انتفع بثقافته النحوية فجاء تعليقه على الأمثلة طويلا، ومفيدا، وسنبين ذلك.

يشترط المبرد في وقوع التقديم والتأخير أن يكون الكلام موضحا فيقول: "ألا ترى أنك إذا قلت: ظننت زيدا أخاك، فإنما يقع الشك في الأخوة، فإن قلت ظننت أخاك زيدا، أوقعت الشك في التسمية، وإنما يصلح التقديم والتأخير إذا كان الكلام موضحا عن المعنى، نحو: ضرب زيدا عمروا، لأنك تعلم بالإعراب الفاعل والمفعول، فإن كان المفعول الثاني مما يصح موضعه، إن قدمته فتقديمه حسن، نحو قولك: ظننت في الدار زيدا، وعلمت خلفك زيدا"[34].

فالتقديم والتأخير عند المبرد يأتيان لتحرير المعنى وضبط الدلالة فلو أخطأ الإنسان فيهما لاختلطت المعاني في التراكيب، والتبست الدلالات في الأساليب، وضلت الأفهام عند التماس الحقيقة، وتاهت العقول في البحث عن المفهوم.

وفي نفس المعنى يقول في موضع آخر: "والنحويون يجيزون: المعطية أنا زيدا. والمعطية هو درهم، وهذا في الدرهم يتبين لعلم السامع بأنه لا يدفع إليك زيدا ولكن قد يقع في مثل هذه المسألة: (أعطيت/ زيدا عمرا) فيكون (عمروا) المدفوع، فإن قدمت ضميره صار هو القابض والدافع عند السامع، فالوجه في هذا وفي كل مسألة يدخلها اللبس أن يقر الشيء في موضعه؛ ليزول اللبس. وإنما يجوز التقديم والتأخير فيما لا يشكل. تقول: ضرب زيد عمرا. وضرب زيدا عمرو، لأن الإعراب مبين"[35].

فالمبرد يشير هنا إلى ضرورة ضبط الكلمات بالإعراب كي يتضح المقدم من المؤخر ولا يلتبس المعنى على السامع.

---

(33) دلائل الإعجاز: ص73.

(34) المقتضب: 3/95-96.

(35) المصدر نفسه: 3/118.

وقال أيضا: "ألا ترى أنك تقول: أما زيدا فاضرب، فإن قدمت الفعل لم يجز؛ لأن (أما) في معنى: مهما يكن من شيء؛ فهذا لا يتصل به فعل، وإنما حد الفعل أن يكون بعد الفاء، ولكنك تقدم الاسم، ليسد مسد المحذوف الذي هذا معناه، ويعمل فيه ما بعده"[36].

وتحدث المبرد عن تقديم الحال فقال: "وقول الله عز وجل -عندنا على تقديم الحال- والله أعلم، وذلك: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ**﴾[*].

وكذلك هذا البيت: مُزْبِدًا يَخْطِرُ مَا لَمْ يَرَنِي وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ

... و قال الشاعر: ضَاحِكًا مَا قَبَّلْتُهَا حِينَ قَالُوا نَقَضُوا صَكَّهَا، وَرُدَّتْ عَلَيَّا"[37].

و قال المبرد على ذلك أمثلة مصنوعة كقولهم: "ضاربا عمرا رأيت زيدا، وأنت تريد رؤية العين، وشاتما أخاه أقبل عبد الله"[38].

فالمبرد يستشهد بالقرآن وبالشعر على صحة ما يقول دون لفت إلى سر بلاغي وراء هذا التقديم.

وعندما يرى المبرد أن الحال قد جاء متقدما كما في القرآن والشعر العربي القديم، فإنه يطمئن إلى صحة وضع القاعدة التي تجيز تقديم الحال على عاملها "فإذا كان العامل في الحال فعلا صلح تقديمها وتأخيرها؛ لتصرف العامل فيها، فقلت: جاء زيد راكبا، وراكبا جار زيد، وجاء راكبا زيد ..." [39].

ومن ثم فإن المبرد يجيز تقديم الحال مستشهدا بالقرآن والشعر و هذا الرأي يخالفه فيه الباحث إبراهيم أنيس الذي يعد هذا التقديم نوعا من الفوضى التي لا تقبلها لغة منظمة إذ "لا يرى النحاة غضاضة من تقديم الحال أو تأخيرها في غير هذين الأسلوبين، أسلوب الإضافة مثل أعجبني وجه هند مسفرة، وأسلوب الحصر نحو ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾[40]. بل يفهم من كلامهم أن أي تركيب من تراكيب التقديم والتأخير في الحال جائز

---

[36] المقتضب: 27/3.

[*] سورة القمر: الآية07.

[37] المقتضب: 4/169-170.

[38] المصدر نفسه: 170/4.

[39] المصدر نفسه: 300/4.

[40] سورة الأنعام: الآية48.

لا غبار عليه" [41]. و يعقب على ذلك بقوله: "ولعمري تلك هي الفوضى التي لا تقبلها لغة من اللغات فضلا عن لغة منظمة دقيقة النظام كلغتنا العربية"[42]. ثم يزعم أنه استقرأ جميع الحالات المنفردة في القرآن الكريم فلم ير بينها مثلا واحدا يؤيد ما يزعمه النحاة من تقديم الحال، ويستشهد على صحة ما يراه بخمس عشرة آية من القرآن التزم فيها تأخير الحال عن صاحبها وعاملها معا[43].

وروى المبرد أبياتا للصلتان العبدي ومنها قوله[44]:

فَمِلَّتُنَا أَنَّنَا المسْلِمُونَ عَلَى دِينِ صِدِّيقِنَا وَالنَّبِي

ثم قال: "وقوله: "على دين صديقنا و النبي". والعرب تفعل هذا، فهو في الواو جائز، أن تبدأ بالشيء والمقدم غيره"[45].

ثم ذكر أمثلة للعطف بالواو دون ذكر معنى بلاغي، ثم عاد فذكر هذه الأمثلة في موضع آخر مع بيان الفرق بين بعض حروف العطف، قال: "... فإن العرب إذا كان العطف بالواو قدمت وأخرت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[**] . قال: ﴿**وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾[***] . ولو كان بـ "ثم" أو بـ "الفاء" لم يصلح إلا تقديم المقدم ثم يليه واحد فواحد"[46].

قدم في هذه الآيات: الكافر على المؤمن، كما قدم السجود على الركوع مع أن الترتيب في الفعل يكون بالعكس، والذي جوز ذلك هو العطف بالواو، ومعلوم أنها لمطلق الجمع بخلاف "الفاء" أو "ثم"، فإنه يجب معهما مراعاة الترتيب. قال السيوطي (ت 911 هـ): "واو العطف، وهي لمطلق الجمع، فتعطف الشيء على مصاحبه نحو: ﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ**﴾[*] .

[41] من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مطبعة الأنجلو، ط6، 1978م: ص334.
[42] من أسرار اللغة: ص334.
[43] ينظر من أسرار اللغة: ص335.
[44] الكامل: 183/3.
[45] المصدر نفسه: 175/3.
[**] سورة التغابن: الآية02.
[***] سورة آل عمران: الآية43.
[46] الكامل: 18/2.
[*] سورة العنكبوت: الآية15.

وعلى سابقه نحو ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ**﴾(**) ....والشيء على مرادفه: ﴿**صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾(***) .[47].

وفي التحرير والتنوير أن تقديم الكافر في الآية الأولى لأنه "هو المقصود بالكلام تعريضا و تصريحا"[48].

وروى المبرد قول محكان السعدي:

وَلَسْتُ وَ إِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيبَةٌ بِبَاكٍ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

ثم قال: "إنما هو تقديم وتأخير، أراد: ولست بباكٍ على الدنيا وإن كانت إلي حبيبة، ولولا هذا التقدير لم يجز أن يضمر قبل الذكر، ومثله:

إِنْ تَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِمَا تَلْقَا السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا

وكذلك قول حسان:

قَدْ ثَكَلَتْ أُمُّهُ مَنْ كُنْتُ وَاحِدُهُ أَوْ كَانَ مُنْتَشبًا فِي بُرْثُنِ الأَسَدِ

يقول من كنت واحدة قد ثكلت أمه" [49].

التقديم والتأخير في البيت بين جملتي: ولست بباك على الدنيا، وإن كانت إلى حبيبة وبينهما ارتباط في المعنى، ارتباط المسبب بالسبب، وذلك أن حب الشيء يستدعي البكاء عليه عند زواله أو توقع ذلك، فهما كالجملة الواحدة...وتقدير التقديم والتأخير هو الذي جوز جعل اسم كان ضميرا مستترا فيها، وعائدا على "الدنيا"، وذلك أن مرجع الضمير وإن كان مؤخرا في الذكر إلا أن رتبته التقديم، ولذا جاز الإضمار، ومن المعلوم: أن عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة ممنوع[50].

ويروي المبرد مقطوعة لعروة بن الورد، ومنها قوله[51]:

(**) سورة الحديد: الآية26.

(***) سورة البقرة: الآية157.

(47) الإتقان في علوم القرآن، للحافظ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، دط دت: 1212/4.

(48) تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط1، 1984م: 262/28.

(49) الكامل: 199/1-200.

(50) ينظر الإيضاح: 18/1.

(51) الكامل: 132/1.

وَإِنْ بَعُدُوا لاَ يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ   تَشَوُّفَ أَهْلِ الغَائِبِ المُنْتَظِـــرِ
فذَلِكَ إِنْ يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَهَا   حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرِ

الضمير في: "وإن بعدوا" للفقراء، لأنه كاد يهتم بهم.

يقول المبرد: "وقوله: "وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه" على التقديم والتأخير. أراد؛ لا يأمنون اقترابه وإن بعدوا، وهذا حسن في الإعراب إذا كان الفعل الأول في المجازاة ماضيا، كما قال زهير (*):

وَ إِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ   يَقُولُ: لاَ غَائِبٌ مَالِي ولاَ حَرِمُ

فإن كان الفعل الأول مجزوما لم يجز رفع الثاني إلا ضرورة، فسيبويه يذهب إلى أنه على التقديم والتأخير، وهو عندي على إرادة الفاء ... فمن ذلك قوله:

يَا أَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ يَا أَقْرَعُ   إِنَّكَ إِنْ يُصْرَعْ أَخُوكَ تُصْرَعُ

أراد سيبويه، إنك تصرع إن يصرع أخوك، وهو عندي على قوله: إن يصرع أخوك فأنت تصرع يا فتى"(52).

التقديم في بيت عروة هو: "وإن بعدوا" وهي جملة شرطية وقعت حالا وفعلها ماض، وهذا جائز، وحسن أن يكون فعل المجازاة مرفوعا إذا كان فعل الشرط ماضيا، كما سبق في بيت زهير، وقد استرسل المبرد في هذه المسألة نحويا؛ لأن الكتاب في اللغة والأدب.

وتقديم المفعول جائز عند أمن اللبس، والمبرد يبين ذلك عند بيان اتصال الفعل باللام، فهو يورد قول أبي النجم: "سبي الحماة وأبهتي عليها".

ثم يقول: "إنما يريد ابهتيها، فوضع "ابهتي" في موضع: اكذبي، فمن ثم وصلها بـ "على و الذي يستعمل في صلة الفعل اللام؛ لأنها لام الإضافة، تقول: لزيد ضربت" و"لعمرو أكرمت" والمعنى: عمرا أكرمت، وإنما تقديره: إكرامي لعمر، وضربي لزيد، فأجرى الفعل مجرى المصدر، وأحسن ما يكون ذلك إذا تقدم المفعول. لأن الفعل إنما يجيء وقد عملت اللام، كما قال الله جل وعز: ﴿**إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**﴾(*) و إن أخر المفعول فهو عربي حسن، والقرآن محيط

(*) ديوان زهير ابن أبي سلمى، شرحه وقدم له علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1408هـ/1988م: ص115.
(52) الكامل: 1/133-134.
(*) سورة يوسف: الآية43.

بجميع اللغات الفصيحة... والنحويون يقولون في قوله جل ثناؤه: ﴿**قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم**﴾(**) . إنما هو ردفكم"[53].

فقد بين المبرد أن تقديم المفعول في اللغة "عربي حسن" يعنى جائزا مع أن الأصل التأخير، والفعل المتعدى قد يتصل باللام فالجار والمجرور في محل المفعول معنى.

وفي موضع في المقتضب بين جواز تقديم المفعول به فقال: "ولو قلت: غلامه كان زيد يضرب ،كان جيدا أن تنصب الغلام بيضرب، لأنه كل ما جاز أن يتقدم من الأخبار جاز تقديم مفعوله"[54].

و تقول على هذا: "غلام لك عبد الله، وظريفان أخواك، وحسان قومك"[55]. و أنت تريد كلا من (عبد الله) و(أخواك) و(قومك) مبتدأ مؤخر على خبره.

كذلك يجوز عند المبرد، تقديم معمول الخبر على المبتدأ فتقول (زيدا عمرو ضارب)، و(عبد الله زيد ضارب) و(عبد الله جاريتك أبوها ضارب)، ف (ضارب)، يقول المبرد: "يجري مجرى الفعل في جميع أحواله من العمل، فالتقديم والتأخير في الفعل، وما كان خبرا للأول، مفردا أو مع غيره، فمجراها واحد"[56]. ذلك "أن كل ما جاز أن يتقدم من الأخبار جاز تقديم مفعوله"[57].

من خلال هذه الآراء للمبرد نلاحظ أنه قد غلبت الدراسة النحوية على هذا المبحث فلا نجد أثرا للأسرار البلاغية من وراء التقديم والتأخير.

(**) سورة النمل: الآية72.

[53] الكامل: 97/3.

[54] المقتضب: 101/4.

[55] المصدر نفسه: 127/4.

[56] المصدر نفسه: 156/4.

[57] المصدر نفسه: 101/4.

المبحث الثالث: الحذف:

الحذف من أدق طرق التعبير، يدرك منزلته من أوتي حظا من البيان، وكان من ذوي البصر بصناعة الكلام، فالإمام عبد القاهر (ت 471 هـ) يقول فيه: "وهو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة أو تجدك أنطق ما يكون إذا لم تنطق، وأتم ما يكون بيانا إذا لم تبن"(58). فللحذف سحره ومكانته في البلاغة.

و الحذف يتوقف على أمرين: القرينة الدالة على المحذوف، والغرض المرجح للحذف. والحذف عند البلاغيين يتناول كلا من: المسند، والمسند إليه، ومتعلقات الفعل، هذا عدا الحرف، أو الحرفين من الكلمة كما أثر عن القدماء.

وسنبين ما تناثر من هذه الأنواع في مؤلفات المبرد.

1- **حذف الحرف:** قال المبرد: "ويجوز في الشعر حذف ألف الاستفهام، لأن "أم" التي جاءت بعدها تدل عليها، قال ابن أبي ربيعة:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيًا		بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانٍ

يريد: أبسبع؟"(59).

والشاهد: حذف همزة الاستفهام، ودليل الحذف (أم) المعادلة، إذ هي تقع في حيز الاستفهام المراد به التصور.

ويقول في موضع آخر متحدثا عن القسم: "فأما قوله: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾(*). فإنما وقع القسم على قوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ وحذفت اللام لطول القصة، لأن للكلام إذا طال كان الحذف أجمل"(60). فالغرض من حذف اللام في هذه الآية حسب المبرد هو الإيجاز وقد وافقه على ذلك الألوسي(61).

---

(58) دلائل الإعجاز: ص146.

(59) الكامل: 177/3، والمقتضب: 294/3، وينظر الكامل: 244/2، والمقتضب: 35/2.

(*) سورة الشمس: الآية01.

(60) المقتضب: 337/2.

(61) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفى سنة 1270هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، دط، دت: 143/30.

ويقول أيضا: "قال عز وجل: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾(*) . أي: من قومه"[62]. ويذكر المبرد عن سيبويه أن هذه هي طريقة العرب فيقول: "ومن العرب من يقول: "الله لأفعلن" وذلك أنه أراد حرف الجر، وإياه نوى؛ فجاز حيث كثر في كلامهم، وحذفوه تخفيفا، وهم ينوونه"[63].

ولكن المبرد لا يوافقه في المقتضب على ذلك، فهو يقول: "واعلم أن من العرب من يقول: الله لأفعلن، يريد الواو، فيحذفها. وليس هذا بجيد في القياس، ولا معروف في اللغة، ولا جائز عند كثير من النحويين. وإنما ذكرناه لأنه شيء قد قيل، وليس بجائز عندي؛ لأن حرف الجر لا يحذف ويعمل إلا بعوض"[64].

و لما كان "الكامل" قد ألف بعد "المقتضب" فإن المبرد يرى بعد هذا الحذف من البلاغة، ويضرب له الأمثلة، والشواهد الكثيرة، فهو يقول: "ومما يستحسن لفظه، ويستغرب معناه ويحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب:

فَمَنْ يَكُ لَمْ يَعْرِضْ فَإِنِّي وَنَاقَتِي بِحَجْرٍ إِلَى أَهْلِ الحِـــمَى غَـرِضَانِ
تَحِنُّ فَتُبْدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَــةٍ وَأُخْفِي الَّذِي لَوْلاَ الأَسَى لَقَضَانِي

يريد لقضى علي، فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام أحسن مخرج؛ قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾(*) . والمعنى إذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم ... ومن ذلك قول الفرزدق(**) :

وَمِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرِّجَالُ سَمَاحَةً وَجُودًا إِذَا هَبَّ الرِّيَاحُ الزَّعَازِعُ

أي من الرجال، فهذا من الكلام الفصيح"[65].

(*) سورة الأعراف: الآية155.

(62) المقتضب: 2/321-342-4/330، والكامل: 1/32.

(63) الكتاب: 2/144.

(64) المقتضب: 2/336.

(*) سورة المطففين: الآية03.

(**) ديوان الفرزدق: ص360و قد ورد في الديوان كالآتي:

وَمِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرِّجَالُ سَمَاحَةً وَخَيْرًا إِذَا هَبَّ الرِّيَاحُ الزَّعَازِعُ

(65) الكامل: 1/32.

ويقول: "وكان يقال لرؤبة: كيف أصبحت؟ فيقول: خير عافاك الله، فلم يضمر حرف الخفض ولكنه حذف لكثرة الاستعمال"[66].

والشريف الرضى (ت 406 هـ) يرى البلاغة في حذف حرف الجر، وأن الحذف عريق في أصول العربية فهو حين يتعرض لقوله تعالى حاكيا عن إبليس ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[67]. يقول: "و المراد لأقعدن لهم على صراطك المستقيم. والحذف ههنا أبلغ في الفصاحة وأعرف في أصول العربية"[68].

ويشير المبرد إلى حذف الحرف استخفافا فيقول: "ومما حذف استخفافا لأن ما ظهر دليل عليه قولهم في كل قبيلة تظهر فيها لام المعرفة، مثل بني الحارث، وبني الهجيم، وبني العنبر: هو بلعنبر، و بلهجيم، فيحذفون النون لقربها من اللام، لأنهم يكرهون التضعيف، فإن كان مثل بني النجار، والنمر، والقيم لم يحذفوا، لئلا يجمعوا عليه علتين: الإدغام، والحذف ويقولون: علماء بنو فلان، يريدون: على الماء فيحذفون لام على، كما قال:

وَمَا سُبِقَ القَيْسِيُّ مِنْ ضُعْفِ حِيلَةٍ وَلَكِنْ طَفَتْ عَلْمَاءِ قُلْفَةُ خَالِدِ"[69].

و المبرد وإن لم يوضح لنا السير البلاغي من وراء حذف الحروف إلا أن إشارته إلى الرغبة في الإيجاز والتخفيف أعان المتأخرين في إيجاد الأسرار البلاغية من الحذف.

2- حذف الفاعل:

يرفض المبرد حذف الفاعل في مواضع كثيرة من كتابه المقتضب[70] إلا أننا نجده في الكامل يجيزه، فيقول عند شرحه لبيت شعر[71]:

لاَحَ سَحَابٌ فَرَأَيْنَا بَرْقَهُ ثُمَّ تَدَانَى فَسَمِعْنَا صَعْقَهُ

---

[66] الكامل: 92/2.

[67] سورة الأعراف: الآية16

[68] تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق و تقديم علي محمود مقلد، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، دط، دت: ص68

[69] المقتضب: 251/1 ،و ينظر الكامل : 299/3.

[70] ينظر المقتضب : 19/1

[71] الكامل: 278/2.

"قوله: "لاح سحاب"، إنما معناه: ألاحه الله، فالفاعل كالمذكور، لأن المعنى عليه، ونظيره قوله جل وعز: ﴿**إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾(*) . ولم يذكر الشمس، وكذلك: ﴿**مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ**﴾(**) . ولم يذكر الأرض"[72].

فالمراد في الآية الأولى: حتى توارت الشمس، وحذفت لظهورها، ظهورا تاما، و لإذان الحذف بالمواراة والاختفاء، وكأن إسقاطها من العبارة ينبئ بالغروب والاختفاء.

3- حذف الفعل:

أجاز المبرد حذف الفعل فقال: "وقد يحذف الفعل في التكرير وفي العطف وذلك قولك: رأسك والحائط، ورأسه والسيف يا فتى، فإنما حذف الفعل للإطالة والتكرير، ودل على الفعل المحذوف بما يشاهد من الحال. ومن أمثال العرب: "رأسك والسيف" ومن أمثالهم: "أهلك والليل"(*) . و قد دل هذا على أنه يريد: بادر أهلك والليل.

والأول على أنه: نح رأسك من السيف، وتقدير في الفعل: اتق رأسك والسيف"[73].

و قد أشار المبرد في هذا النص إلى الغرض من حذف الفعل وهو التكرير والإطالة كما أشار إلى ضرورة وجود قرينة تدل على المحذوف وترشد إليه.

وفي موضع آخر يبين المبرد أن الغرض من حذف الفعل الاستغناء، قال: "ونظير هذا الفعل الذي يضمر إذا علمت أن السامع مستغن عن ذكره- نحو قولك- إذا رأيت رجلا قد سدد سهما فسمعت صوتا: القرطاس والله، أي: أصاب القرطاس، أو رأيت قوما يتوقعون الهلال، ثم سمعت تكبيرا قلت: الهلال والله، أي: رأو الهلال"[74].

و في الكامل وردت عدة أمثلة لحذف الفعل منها قوله: "تقول ضربا زيدا... الأمر لا يكون إلا يفعل، فكان الفعل فيه أقوى، فلذلك أضمرته، ودل المصدر على الفعل المضمر، قال الله عز وجل: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ**﴾(*) ، فكان في موضع "أضربوا" حتى

(*) سورة ص: الآية32.

(**) سورة فاطر: الآية45.

(72) الكامل: 282/2.

(*) مجمع الأمثال: 52/1.

(73) المقتضب: 215/3.

(74) المصدر نفسه: 29/4، وينظر المصدر نفسه: 318/2.

(*) سورة محمد: الآية04

كأن القائل قال: فاضربوا، ألا ترى أنه ذكر بعده الفعل محضا في قوله ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ** ﴾(**) ."(75).

فقد ذكر المبرد الفعل المحذوف، ونص على دليل الحذف، وهو أن الأمر لا يكون إلا بفعل؛ يدل عليه بالمصدر كما دل عليه بالفعل المذكور: "أثخن".

ومن ذكر الفعل، وحذفه ما جاء في قول المبرد:" "لو" لا يليها إلا الفعل مضمرا، أو مظهرا؛ لأنها تشارك حروف الجزاء في ابتداء الفعل وجوابه، تقول: لو جئتني لأعطيتك، فهذا هو ظهور الفعل، وإضماره قوله عز وجل: ﴿ **قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي** ﴾(*)، والمعنى -والله أعلم- لو تملكون أنتم فهذا الذي رفع "أنتم"، ولما أضمر ظهر بعده ما يفسره، ومن مثله:

وَلَوْ غَيْرَ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ العَرَانِينِ مَيْسَمَا"(76).

الأداة "لو" مختصة بالدخول على الفعل، فإذا لم يوجد كان مقدرا، فالضمير، "أنتم" فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده، فحذف ثم أبدل من الضمير المتصل وهو واو الجماعة: الضمير المنفصل، إذ الأصل :لو تملكون تملكون، فدليل الحذف وجود المفسّر. والغرض منه الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ، وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر يرز الكلام في صورة المبتدأ والخبر.

4- حذف المبتدأ:

قال المبرد: "ولو قلت على كلام متقدم عبد الله أو منطلق، أو صاحبك، أو ما أشبه هذا لجاز أن تضمر الابتداء إذا تقدم من ذكره ما يفهمه السامع.

فمن ذلك أن ترى جماعة يتوقعون الهلاك، فقال قائل منهم: الهلال والله، أي هذا الهلاك"(77).

و ذكر في موضع من الكامل نفس المثال فقال: "واستعمل هذا فكثر، حتى حذف استخفافا، لعلم السامع بما يريد القائل كقولك: "الهلاك والله، أي هذا الهلاك، وأغنى عن قوله:

(**) سورة محمد: الآية04

(75) الكامل: 178/1.

(*) سورة الإسراء: الآية100.

(76) الكامل: 278/1-279.

(77) المقتضب: 129/4.

"هذا" والقصد والإشارة"[78]. فقد أشار إلى المحذوف، وقرينته، وسر الحذف، وهو قوله استخفافا، فالحذف هو التخفيف من ثقل الكلام وعبء الحديث، ومن هنا يفضل الخفة على الثقل، مادامت الخفة هي المطلوبة، والمقام يستدعيها، والحال يطلبها، ففي الخفة تلك تكمن البلاغة، ويسمو الكلام.

ويشترط المبرد في حذف المبتدأ وجود الدليل يقول" فإذا ذكرت ما يدل على الشيء فهو كذكرك إياه، ألا ترى أنهم يقولون: من كذب كان شرا، يريدون، كان الكذب، وقال الله عز وجل: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم** ﴾[*] ، لأن المعنى: البخل هو خيرا لهم، فدل عليه بقوله (يبخلون)" [79].

وذكر قول عمران بن حطان[80]:

و مَا مِنْهُمَا إلاَّ يُسَرُّ بِنِسْبَةٍ تُقَرِّبُنِي مِنْهُ وَإِنْ كَانَ ذَا نَفَرِ

ثم قال: "معناه: وما منهما واحد، فحذف لعلم المخاطب، قال عز وجل: ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾[*] ، وإن من أحد ومعنى "إن" معنى ما"[81]. ففي الآية تقدير المبتدأ أحد، وذلك أن الجار والمجرور خبر مقدم، وهو يحتاج إلى مبتدأ. قال أبو حيان في الآية الكريمة:" "إن" هنا نافية، والمخبر عنه محذوف، قامت صفة مقامه، التقدير: وما أحد من أهل الكتاب"[82].

ومن أمثلة حذف المبتدأ أيضا عند المبرد قوله في تفسير الآية التالية: ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ** ﴾[*]، والمعنى: "أزواجهم يتربصن بأنفسهن"[83]. ثم قال: "فهذا كثير، منه قول الشاعر:

---

[78] الكامل: 92/2.

[*] سورة آل عمران: الآية180.

[79] المقتضب: 136/2.

[80] الكامل: 176/3.

[*] سورة النساء: الآية159.

[81] الكامل: 179/3، وينظر ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص82.

[82] تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي المتوفى سنة 745هـ، دراسة و تحقيق و تعليق عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، قرظه عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1413هـ/1993م: 407/3

[*] سورة البقرة: الآية234.

[83] ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص82-83.

وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ.

ومن كلامهم: ما منهما مات حتى رأيته"[84]. فموضع الحذف في البيت أن المراد: وما الدهر إلا تارتان، فمنهما تارة أموت فيها وتارة أخرى أبتغي، أما في كلام العرب فالمراد: ما منهما أحد مات حتى رأيته.

و المبرد وإن بين لنا الحذف وسبب وقوعه وضرورة وجود قرينة دالة عليه، إلا أنه لم يظهر لنا السر الجمالي فيه.

5- حذف جواب الشرط:

ذكر المبرد أن حذف جواب الشرط معروف جيد، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا**﴾[85]. وقال: "لم يأت بخبر لعلم المخاطب ومثل هذا الكلام كثير، ولا يجوز الحذف حتى يكون المحذوف معلوما بما يدل عليه من متقدم خبر أو مشاهدة حال"[86].

و يفسر المبرد جواب الشرط المحذوف في الآية في كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه قائلا: "والذي يعبر عنه بحذف الخبر، تقديره، كما يقول نقلا عن المفسرين، (لكان هذا القرآن)"[87].

6- حذف الخبر:

و من حذف الخبر قال المبرد: "ويقول القائل: أما بقي لكم أحد فإن الناس ألب عليكم، فتقول: إن زيدا، وإن عمرا، أي: لنا"[88].

قال الأعشى[89]:

إِنَّ مَحَلاً وَإِنَّ مُرْتَحَلاً وَإِنَّ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَى مَهَلاً

(84) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص83.
(85) سورة الرعد: الآية31.
(86) المقتضب: 81/2.
(87) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص75.
(88) المقتضب: 130/4.
(89) ديوان الأعشى:ص 233.

"يريد: إن لنا، فحذف لعلم السامع"[90]. لأن القصد إن لنا محلا في الدنيا وإن لنا مرتحلا عنها إلى الآخرة، ومحلا مرتحلا مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال، والسفر: اسم جمع بمعنى المسافرين، والمراد بهم في البيت: الموتى، والمهل: مصدر بمعنى الإمهال وطول الغيبة، والمعنى: إن في غيبة الموتى طولا وبعدا، لأنهم مضوا مضيا لا رجوع معه إلى الدنيا. فالشاعر يصف السرعة الخاطفة في الحلول والارتحال وكأن هذه السرعة التي يحسها بزوال الدنيا قد انعكست على عبارته فطوى فيها كثيرا من الكلمات، لأن سياق المعنى في البيت طي وإضمار واختصار، حلول يخطفه ارتحال، وارتحال دائم وسفر لا أوبة لهم.

كما مثل المبرد لهذا النوع من الحذف بقول النابغة:

كَأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْشٍ يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَن.

وقال: "خلف رجليه، ولم يذكر أولا ما ترجع الماء إليه، ولكنه دل عليه بقوله: من جمال بني أقيش: يريد كأنك جمل"[91].

7 -**حذف المفعول:**

كما في قوله تعالى ﴿**وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾[92]. يقول المبرد: "المعنى إذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم، ألا ترى أن أول الآية: (﴿**الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ**﴾[93]. فهؤلاء أخذوا منهم ثم أعطوهم"[94]. المحذوف هنا ضمير الغائبين

قال أبو البقاء: في "هم" وجهان؛ أحدهما: "هو ضمير مفعول متصل، والتقدير: كالوا لهم، وقيل هذا الفعل يتعدى بنفسه تارة، وبالحرف أخرى، والمفعول هنا محذوف: أي كالوهم الطعام "[95].

(90) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص76، وينظر المقتضب: 130/4.

(91) المقتضب: 139/2، ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص81.

(92) سورة المطففين: الآية03.

(93) سورة المطففين: الآية02.

(94) الكامل: 32/1.

(95) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد اله ابن الحسين العكبري، تحقيق سعد كريّم الفقّي، دار اليقين، ط1، 1422ه/2001م: 775/2.

و من حذف المفعول الأول ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ [96]. يقول: "مجاز الآية أن المفعول الأول محذوف، ومعناه يخوفكم من أولياءه"[97]. التقدير على هذا: يخوفكم شر أوليائه، بأن يعظمهم في قلوبهم.

8 -**حذف المضاف:**

تحدث المبرد عن الإيجاز بالحذف وأن مسوغه "إذا كان فيما يبقى دليلا على ما يلقى"[98]. ومثل لذلك يقوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ**﴾ [99]. و قال: "لما كانت القرية والعير لا يسألان ولا يجيبان علم أن المطلوب غيرهما"[100]. أي أن المقصود أهل القرية وأصحاب العير، فحذف المضاف في الموضعين، وحذفه يشير "إلى شهرة السرقة وذيوعها وكأنهم يريدون: أن أمر سرقته قد اشتهر وذاع إلى حد أنك لو سألت الجمادات لأجابت، ولو سألت الحيوانات لنطقت وأخبرت"[101].

وذكر المبرد نفس الآية في موضع من الكامل وشرحها قائلا: "نصب لأنه كان، واسأل أهل القرية"[102]، و أشار في نفس الموضع إلى مثال آخر مثلها وهو: "وتقول: بنو فلان يطؤهم الطريق. تريد أهل الطريق، فحذفت "أهل" فرفعت "الطريق"، لأنه في موضع مرفوع"[103].

قال ابن فارس: "من سنن العرب الحذف و الاختصار... ومنه في كتاب الله جل ثناؤه ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾ أراد أهلها"[104].

و منه ما جاء في قول كثير عندما حبس محمد بن الحنفية في سجن عارم:

تَخَيَّرْ مَنْ لاَ قَيْتَ أَنَّكَ عَـائِدٌ　　　بَلْ العَائِدُ المحْبُوسُ فِي سِجْنِ عَارِمِ
وَصِيُّ النَّبِي المصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ　　　وَ فَكَّاكُ أَعْنَاقِ وَ قَاضِي المغارِمِ.

---

(96) سورة آل عمران: الآية175.
(97) الكامل: 127/4.
(98) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص77.
(99) سورة يوسف: الآية82.
(100) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص77.
(101) علم المعاني: ص399.
(102) الكامل: 151/1.
(103) المصدر نفسه: 151/1.
(104) الصاحبي في فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب في كلامها، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، علق عليه و وضع حواشيه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1418هـ/1997م: ص156.

قال المبرد: "أراد: ابن وصي النبي، والعرب تقيم المضاف إليه في هذا الباب مقام المضاف"[105].

و من أمثلة حذف المضاف عند المبرد قول الله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ** ﴾[106]. ومعناه عنده: "أن الذين كفروا يتشبهون بالمنعوق به، وهي الشاء، وأنتم كمن ينعق بها، فتأويل الكلام: مثل الذين كفروا ومثلكم، أو مثلكم ومثل الذين كفروا، كمثل الناعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، فاختصر وحذف"[107].

وقد وافق ابن الأنباري ما ذهب إليه المبرد في تفسير هذه الآية وما يوجد فيها من اختصار حيث يقول: في تقدير الآية وجهان[108]:

أحدهما: أن يكون التقدير: مثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه.

و الثاني: أن يكون التقدير فيه: مثل دعاء الذين كفروا كمثل دعاء الذي ينعق، فحذف المضاف في الموضعين وأقام المضاف إليه فيهما مقام المضاف.

و المتأمل في الوجهين يرى فيهما اختصارا يدخل في باب مختصرات القرآن الكريم الذي يتحدث عنه المبرد هنا، والوجه الأول يطابق ما ذهب إليه المبرد، فليس الفرق بينه وبين رأى المبرد إلا وضع "داعي" بدلا من "ناعق".

و من أمثلة حذف المضاف أيضا قوله: "ومثله في الحذف والاختصار: ما من أيام أحب إلى الله تعالى فيها الصوم من عشر ذي الحجة"[109]. و تقدير الاختصار هنا: وما من أيام أحب إلى الله تعالى فيها الصوم من صوم عشر ذي الحجة.

---

(105) الكامل: 204/3.

(106) سورة البقرة: الآية171.

(107) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص80.

(108) ينظر البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق طه عبد الحميد طه و مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1400هـ/1980م: 136/1.

(109) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص81.

9 -**حذف المضاف إليه:**

كما في قوله تعالى: ﴿ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾[110]. قدر المحذوف بقوله: "المعنى – والله أعلم- بل مكركم في الليل و النهار" [111].

فقد يتردد الحذف بين المضاف والمضاف إليه كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ** ﴾[112]. يقول المبرد: "... فجائز أن يكون المعنى: بر من آمن، وجائز أن يكون لكن ذا البر من آمن بالله، والمعنى يؤول إلى شيء واحد"[113].

فعلى التقدير الأول الحذف للمضاف، وعلى الثاني المضاف إليه.

10 -**حذف الموصوف:**

حكى المبرد عن العرب أنواع الرياح، وأنها تكون نعوتا فقال: "يقول أكثر العرب: هذه ريح جنوب، وريح شمال، وريح دبور، فتجعل جنوبا وشمالا، ودبورا وسائر الرياح نعوتا قال الأعشى[114].

لَهَا زَجْلٌ كَحَفِيفِ الحَصَا تَصَادَفَ بِاللَّيْلِ رِيحًا دَبُورَا.

في قول العرب أضيفت الموصوفات إلى صفاتها. وفي البيت وصفت الريح بالدبور. ثم قال: "ويقال في أكثر العرب: هبت جنوبا، وهبت شمالا، فيستغني عن ذكر الريح. وهذا ما يؤكد أنها نعوت؛ لأن الحال إنما بابها أن تقع فيما يكون وصفا قال جرير(*).

هَبَّتْ شِمَالاً فَذِكْرَى مَا ذَكَرْتُكُمْ عِنْدَ الصَّفَاةِ التي شَرْقِيَّ حُورَانَا"[115].

---

(110) سورة سبأ: الآية33.

(111) المقتضب: 3/105-4-331 والكامل: 1/218.

(112) سورة البقرة: الآية177.

(113) الكامل: 1/287.

(114) ديوان الأعشى الكبير: ص99 والبيت بلفظه وتمامه:

لَهَا جَرَسٌ كَحَفِيفِ الحَصَا دِ صَادَفَ بِاللَّيْلِ رِيحًا دَبُورَا

(*) ديوان جرير: ص493.

(115) الكامل: 3/60.

11 -حذف الجملة:

في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾ [116]، قدر المبرد المحذوف بقوله: "فيقال لهم، كما قدره في قوله عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ [117]، بقوله: أي: ويقولون"[118].

وتحذف الجملة مع "لولا" التي يفاد منها التحضيض. يقول المبرد:" "لولا" التي تقع في معنى: "هلا" للتحضيض ومن ذلك قوله: ﴿**لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾ [119]، أي هلا، وقوله عز وجل: ﴿**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ**﴾ [120]، فهذه لا يليها إلا الفعل؛ لأنها للأمر والتحضيض مظهرا، أو مضمرا"[121].

و من أمثلة الحذف أيضا عند المبرد ما رواه عن النبي ﷺ "أنه استسقى على المنبر فسقي، فقال: يا أبا طالباه لو رأيت ابن أخيك إذ تقول:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ

ولم يقل لرأيت ما يسرك"[122].

ومثل لحذف جواب الاستفهام بقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**﴾ [123]. و قال: "ولم يقع بعد ذلك تفسير. ومجاز هذا عند أهل النظر حذف الخبر لعلم المخاطب، يريد تعظيم الأمر كقولك: لو رأيت فلانا، وفي يده السيف، أي لرأيت بارعا، فاستغنى عن ذلك"[124].

و خلاصة القول أن المبرد درس الحذف دراسة نحوية إلا أنه كان في أحايين كثيرة يظهر لنا السر من وراء الحذف فيقول: "فكل ما كان معلوما في القول جاريا عند الناس فحذفه جائز

---

(116) سورة آل عمران: الآية106.
(117) سورة الزمر: الآية03.
(118) الكامل: 378/1.
(119) سورة النور: الآية12.
(120) سورة المائدة: الآية63.
(121) الكامل: 278/1.
(122) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص74-75.
(123) سورة الحاقة: الآية03.
(124) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص14.

لعلم المخاطب فعلى هذا فأجره"[125]. و"إنما تحذف إذا علم المخاطب ما تعنى"[126].

فتركيز المبرد على ضرورة علم المخاطب أو السامع باللفظ المحذوف وربطه إياه بوجود دليل على الحذف أمر له علاقة بالبلاغة أكثر من النحو.

المبحث الرابع: أسلوب القصر:

القصر في البلاغة هو: "تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص"[127].

أشار المبرد إلى القصر وطرقه وإن لم يسمه، فمن طرق القصر التي درسها في كتابه المقتضب:

1- النفي والاستثناء:

قال في الاستثناء: "والاستثناء على وجهين: أحدهما أن يكون الكلام محمولا على ما كان عليه قبل دخول الاستثناء. وذلك قولك: ما جاءني إلا زيد، وما ضربت إلا زيدا، وما مررت إلا بزيد. فإنما يجري هذا على قولك: جاءني زيد، ورأيت زيدا، ومررت بزيد، وتكون الأسماء محمولة على أفعالها وإنما احتجت إلى النفي والاستثناء؛ لأنك إذا قلت: جاءني زيد فقد يجوز أن يكون معه غيره. فإذا قلت: ما جاءني إلا زيد، نفيت المجيء كله إلا مجيئه، وكذلك جميع ما ذكرنا"[128]. فالقصر بالنفي و الاستثناء يكون إذا كان أمر ينكره المخاطب ويشك فيه.

وقال في النفي: "وعلى هذا مجرى النفي، وإن كان الأجود فيه غيره؛ نحو: ما جاءني أحد إلا زيد. وما مررت بأحد إلا زيد. وذلك لأنك لما قلت: جاءني القوم وقع عند السامع أن زيدا فيهم، فلما قلت: إلا زيدا، كانت (إلا) بدلا من قولك: أعنى زيدا، وأستثنى فيمن جاءني زيدا، فكانت بدلا من الفعل"[129].

من خلال هذين النصين نلاحظ أن المبرد اهتم بغرض المتكلم من استعمال النفي والاستثناء وهي التخصيص ومنع اللبس "قد يحوذ أن يكون معه غيره". و حال المخاطب التي

---

(125) المقتضب: 254/3.

(126) المصدر نفسه: 130/4.

(127) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، قرأه و قدم له يحيى مراد، مؤسسة مختار للنشر، ط2، 1427هـ/2006م: ص157

(128) المقتضب: 389/4.

(129) المصدر نفسه: 390/4.

وقف عليها المتكلم "وقع عند السامع أن زيدا فيهم"، وهذه النظرة إلى أسلوب النفي والاستثناء هي نظرة بلاغية أكثر منها نحوية.

2- **العطف بلا وبل ولكن**:

"**لا**" صالحة لكل أنواع القصر، والمقصور عليه بها هو المقابل لما بعدها "ويشترط لدلالتها على القصر أن يكون المعطوف بها مفردا وألا يتقدمها نفي أو نهي وألا يكون ما بعدها داخلا في عموم ما قبلها"[130].

قال فيها المبرد: "ومنها (لا)، وهي تقع لإخراج الثاني مما دخل فيه الأول، وذلك قولك: ضربت زيدا لا عمرا، ومررت برجل لا امرأة"[131]. و القصر بلا يكون في قصر القلب وقصر الإفراد والتعيين أي حسب اعتقاد المخاطب من شركة، أو عكس حكمك، أو التردد في إثبات الحكم لواحد بعينه.

و"**بل**" تفيد القصر "إذا وليها مفرد، وقدمها نفي أو نهي، لأنها في هذه الحال تقرر حكم ما قبلها وتثبت ضده لما بعدها فتتضمن النفي والإثبات وذلك عماد القصر"[132].

و معناها عند المبرد: "الإضراب عن الأول، والإثبات للثاني: نحو قولك: ضربت زيدا بل عمرا، وجاءني عبد الله بل أخوه، وما جاءني رجل بل امرأة"[133].

وجاء في المغنى: "و إن تقدمها أمر أو إيجاب فهي تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه فلا يحكم عليه بشيء وإثبات الحكم لما بعدها. و إن تقدمها نفي أو نهي فهي لتقرير ما قبلها على حالته وجعل ضده لما بعدها و أجاز المبرد أن تكون ناقلة معنى النفي والنهي إلى ما بعدها..."[134].

و "**لكن**" تفيد القصر "إذا سبقها نفي أو نهي ووليها مفرد"[135]. و عرفها المبرد: "ومنها لكن وهي للاستدراك بعد النفي. ولا يجوز أن تدخل بعد واجب إلا لترك قصة إلى قصة أخرى

---

(130) علم المعاني: ص245.

(131) المقتضب: 11/1.

(132) علم المعاني: ص246.

(133) المقتضب: 12/1.

(134) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق و شرح عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية 1421هـ/2000م: 187/2-188.

(135) علم المعاني: ص 247.

تامة؛ نحو قولك: جاءني زيد لكن عبد الله لم يأت، وما جاءني زيد لكن عمرو، وما مررت بأخيك لكن عدوك. ولو قلت مررت بأخيك لكن عمرو لم يجز"[136].

3- إنما: قال المبرد: "إنما زيد أخوك. منعت "ما" "إن" عملها"[137]. وقال في موضع آخر: "كما تدخل (ما) على (إن) الثقيلة، فتمنعها عملها، وتردها إلى الابتداء في قولك: إنما زيد أخوك و﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (*)."[138]. فموضوع إنما أنها تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، فقولك إنما زيد أخوك لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به، إلا أنك تريد أن تنبه للذي يجب عليه من حق الأخ.

وقد عد البلاغيون بعد المبرد إنما والمكونة من "إن" و"ما" الكافة لإن طريقة من طرق القصر. فقالوا في شرح قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ "حيث قصر خشية الله على العلماء قصرا حقيقيا غير تحقيقي، لأن غير العلماء يخشون الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكنه لم يعتد بذلك، لأن المقام مقام حث على العلم والنظر والتأمل في عجيب صنع الله"[139].

4- **التقديم:**

و من طرق القصر "التقديم" وهو باب واسع من أسلوب البلاغة، قال المبرد في شرح بيت شعر:

بِقَبْرِ امْرِئٍ تَقْوِي الكَئِينَ عِظَامُهُ		وَلَمَ يَكُ إِلاَّ غَالِبًا مَيِّتٌ يَقْرِى

"وقوله: "ولم يك إلا غالبا ميت يقرى" فإنه نصب غالبا لأنه استثناء، مقدم"[140].

وقال أيضا: "فإذا قدمت المستثنى بطل البدل، لأنه ليس قبله شيء يبدل منه، فلم يكن فيه إلا وجه الاستثناء، فتقول: ما جاءني إلا أباك أحد، و ما مررت إلا أباك بأحد. و كذلك

[136] المقتضب: 12/1.
[137] المصدر نفسه: 54/2.
(*) سورة فاطر: الآية28.
[138] المقتضب: 363/2.
[139] علم المعاني: ص258.
[140] الكامل: 88/2-89.

تنشد هكذه الأشعار، قال كعب بن مالك الأنصاري لرسول اللهﷺ:[*]

النَّاسُ أَلْبٌ عَلَيْنَا فِيكَ لَيْسَ لَنَا إِلاَّ السُّيُوفَ وَأَطْرَافَ القَنَا وَزَرُ

وقال الكميت بن زيد[*]:

فَمَا لِي إِلاَّ آل آل أَحْمَدَ شِيعَةٌ وَمَالِي إِلاَّ مَشْعَبَ العقُ مَشْعَبٌ.

لا يكون إلا هذا"[141].

و هكذا يكون المبرد قد أشار إلى بعض طرق القصر و درسهم دراسة أقرب إلى النحو منها إلى البلاغة. إلا أن دراسته هذه لا يمكن الاستهانة بها في مجال البلاغة.

المبحث الخامس: الأساليب الإنشائية:

الإنشاء هو: "قول لا يحتمل الصدق و الكذب"[142].

ينقسم الإنشاء إلى نوعين: إنشاء طلبي و إنشاء غير طلبي. سنحاول في هذا المبحث أن نجمع مصطلحات الإنشاء التي ذكرها المبرد في مؤلفاته.

الإنشاء الطلبي: وهو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ويشمل أساليب الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء .

أولا: الأمر:

الأمر في الاصطلاح هو: "هو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء"[143]، أو كما يقال من الأعلى إلى الأدنى.

تناول المبرد هذا المصطلح دون أن يعرفه، وتحدث عنه من خلال سياق الكلام، ونغمة المتكلم في إلقاء الجملة، وبين المعاني الكثيرة التي يخرج فيها الأمر عن معناه الأصلي وهي:

(*) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني، منشورات مكتبة النهضة، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1386هـ /1999م: ص209

(*) ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع و شرح و تحقيق محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط1، 1420هـ/2000م، و البيت لم أجده في الديوان.

(141) الكامل: 90/2.

(142) شروح التخليص: 166/1.

(143) جواهر البلاغة: ص69.

أ- الأمر للإباحة: نص المبرد على معنى الإباحة عند حديثه عن "أو" فقال: "وقد يكون لها موضع آخر، معناه: الإباحة. وذلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، و ائت المسجد أو السوق: أي قد آذنت لك في مجالسة هذا الضرب من الناس، وفي إتيان هذا الضرب من المواضع"[144]. فليس المراد هنا طلب الفعل استعلاء، ولكن لما كان السامع يتوهم عدم جواز الجمع بين مجالسة الحسن وابن سيرين، أباح المتكلم له مجالسة أيهما شاء، فالأمر يفيد الإباحة، حيث يبيح للسامع أن يجالس أحد العالمين أو كليهما أو لا يجالس، وليس ملزما له بفعل شيء.

و ظل مثال "جالس الحسن أو ابن سيرين" يدور في كتب البلاغة عن الكلام على خروج الأمر للإباحة.

ب- التخيير: ذكره المبرد عند شرحه لمعنى "إما" فقال: "وكذلك وقوعها للتخيير، تقول: اضرب إما عبد الله، وإما خالدا، فالأمر لم يشك ولكنه خير المأمور؛ كما كان ذلك في (أو). ونظيره قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[*] . وكقوله: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً**﴾[**] ."[145].

والفرق بين الإباحة والتخيير أن الإباحة إذن في الفعل وإذن في الترك فهي إذنان معا، أما التخيير فهو إذن في أحدهما من غير تعيين، ولذا فالتخيير لا يجوز الجمع بين الشيئين والإباحة تجوزه.

ج- الوعيد: قد يخرج الأمر عن معناه الأصلي وهو طلب حدوث الشيء إلى معنى آخر وهو الوعيد، كما قال المبرد: "وأما قوله عز وجل: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا**﴾[*] ، فعلى الجواب فإن قال قائل: فأمر الله بذلك ليخوضوا ويلعبوا؟

قيل: مخرجه من الله عز وجل على الوعيد، كما قال عز وجل: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾[**]،

---

(144) المقتضب: 11/1.

(*) سورة الإنسان: الآية03.

(**) سورة محمد: الآية04.

(145) المقتضب: 11/1.

(*) سورة الحجر: الآية03.

(**) سورة فصلت: الآية40.

﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(***) .

أما قوله: ﴿**ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾(****)، فإنه ليس بجواب، ولكن المعنى: ذرهم لاعبين، أي ذرهم في حال لعبهم"(146).

د– الدعاء: اعتبر المبرد الدعاء معنى من معان الأمر فقال: "واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر... وإنما قيل: دعاء وطلب للمعنى لأنك تأمر من هو دونك، وتطلب إلى من أنت دونه، وذلك قولك: ليغفر الله لزيد، وتقول: اللهم اغفر لي، كما تقول: اضرب عمرا"(147).

وقال في موضع آخر: "والدعاء، يجري مجرى الأمر ... وإنما سمي هذا أمرا...، و قيل للآخر طلب للمعنى، فأما اللفظ فواحد، وذلك قولك في الطلب: اللهم اغفر لي، ولا يقطع الله يد زيد. وليغفر لخالد. فإنما تقول سألت الله. ولا تقل: أمرت الله. وكذلك لو قلت للخليفة: انظر في أمري، أنصفني / لقلت: سألته، ولم تقل: أمرته"(148).

ثانيا : النهي:

النهي في الاصطلاح: "هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وله صيغة واحدة وهي المضارع المسبوق بـ "لا" الناهية الجازمة"(149).

وقد تخرج هذه الصيغة عن معناها الأصلي إلى معان أخرى، تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال كالدعاء، والتمني والتوبيخ والتهديد ...

والمبرد وإن لم يعرف النهي إلا أنه مثل له فقال: "والنهي مثل: لا تأتني فأكرمك، كقوله عز وجل: ﴿**لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ**﴾(*) ، وكقوله عز وجل: ﴿**وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**﴾(**) "(150).

(***) سورة الكهف: الآية 29.

(****) سورة الأنعام: الآية 91.

(146) المقتضب: 86/2.

(147) المصدر نفسه: 132/2.

(148) المصدر نفسه: 44/2، وينظر: 267/2.

(149) جواهر البلاغة: ص74.

(*) سورة طه: الآية61

(**) سورة طه: الآية81.

(150) المقتضب: 15/2.

فالآيتان فيهما نهي يراد به التهديد والله أعلم.

وبين المبرد النهي الذي يخرج إلى معنى الدعاء فقال: "واعلم أن الطلب من النهي بمنزلته من الأمر، يجرى على لفظه كما جرى على لفظ الأمر؛ ألا ترى أنك لا تقول: نهيت من فوق ولكن طلبت إليه، وذلك قولك: لا يقطع الله يد فلان، ولا يصنع الله لعمرو، فالمخرج واحد، والمعنى مختلف"[151].

وقد أورد المبرد في "الكامل" قول عبد الله بن رواحة الأنصاري لما أمره رسول الله ﷺ بعد زيد وجعفر على جيش مؤتة، وهو[152]:

إِذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْـــلِي ... مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الحِسَــاءِ

فَشَأْنَكِ فَانْعَمِي وَخَلاَكِ ذَمٌّ ... وَلاَ أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي

الخطاب في "بلغتني وحملت" للناقة.

قال المبرد: "وقوله: "ولا أرجع إلى أهلي ورائي" مجزوم لأنه دعاء"؛ فقوله: "لا يعني الجازمة، ومعناه: اللهم لا أرجع، كما تقول: زيد لا تغفر له، فهذا الدعاء ينجزم بما ينجزم به الأمر والنهي، كما تقول: زيد ليقم، وزيد لا يبرح"[153].

فالغرض من قول الشاعر حسب المبرد "ولا أرجع" هو الدعاء، والمعنى: اللهم لا أرجع فالفعل مجزوم بـ "لا" الناهية.

وقد يخرج النهي عن معناه الأصلي إلى معنى آخر بلاغي وهو النصح والإرشاد. قال المبرد: "فإذا نهيت عن هذا قلت: لا تأت زيدا أو عمرا أو خالدا. أي لا تأت هذا الضرب من الناس، كما قال الله عز وجل: ﴿**وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**﴾(*) ."[154]. فالآية يفيد فيها النهي النصح و الإرشاد والله أعلم.

وقد قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "قلت: معناه: ولا تطع منهم راكبا لما هو إثم داعيا لك إليه، أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك إليه ... وقيل الآثم عتبة والكفور الوليد؛ لأن عتبة

---

[151] المقتضب: 135/2.

[152] الكامل: 129/1.

[153] المصدر نفسه: 130/1.

(*) سورة الإنسان: الآية24.

[154] المقتضب: 301/3.

كان ركابا للمآثم متعاطيا لأنواع الفسوق، وكان الوليد غالبا في الكفر شديد الشكيمة في العتو؛ فإن قلت: معنى "أو" ولا تطع أحدهما، فهلا جيء بالواو ليكونا نهيا عن طاعتهما جميعا؟ قلت: لو قيل ولا تطعهما جاز أن يطيع أحدهما، وإذا قيل لا تطع أحدهما علم أن الناهي عن طاعة أحدهما عن طاعتهما جميعا أنهى"[155].

ثالثا :الاستفهام:

الاستفهام هو: طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، وهو الاستخبار الذي قالوا فيه: "طلب خبر ما ليس عند المستخبر، وهو بمعنى الاستفهام"[156]. وقال فيه الزركشي (794 هـ) "وهو طلب خبر ما ليس عندك"[157]. أي طلب تصوره و إدراكه، أو طلب التصديق بين طرفي النسبة.

وكثيرا ما يراد بالاستفهام معان بلاغية تفاد من الحال، ويعين عليها سياق الكلام وأدواته: الهمزة، وهي أم الباب، وهل، ما، من، أي، كم، كيف، أين، أنى، متى، أيان. ويمكن أن نقسم هذه الأدوات، كما فعل البلاغيون، إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يستفهم عن التصور والتصديق، وهو "همزة الاستفهام" فقط، وهو حرف لا يكون له محل من الإعراب في الجملة.

القسم الثاني: ما يستفهم عن التصديق فقط، وهو حرف "هل"، ولا يكون له محل من الإعراب في الجملة، والتصديق معناه إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتا أو نفيا.

القسم الثالث: ما يستفهم عن التصور فقط، وهي سائر أدوات الاستفهام، وهي جميعها أسماء: مَن، أي، ما، أم، متى، أين، والتصور هو إدراك أحد أجزاء الجملة المسند أو المسند إليه، أو أحد المتعلقات.

أ- أدوات الاستفهام و بيان ما يتعلق بكل منها عند المبرد:

لقد شرح المبرد هذه الأدوات في حديثه عن الاستفهام، ويمكن توضيح ذلك بحسب الأقسام السالفة الذكر، منها:

---

(155) الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، شرحه و ضبطه و راجعه يوسف الحمادي، مكتبة مصر، دط، دت: 521/4.

(156) الصاحبي: ص134.

(157) البرهان ي علوم القرآن: 326/2

القسم الأول: تعرض لهمزة الاستفهام التي تعد أصل أدوات الاستفهام كلها، لأنها "تدخل على كل ضرب منه"[158]، وذكر أن هذه الأداة تختص عن سائر الأدوات بجواز حذفها، وتقديرها ذهنيا لدلالة النظم، وخاصة إذا جاءت بعدها (أم). قال: "ويجوز حذف ألف الاستفهام؛ لأن "أم" التي جاءت بعدها تدل عليها، قال ابن ربيعة[159]:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيًا بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

يريد: أبسبع"[160].

فأما قول الأخطل [161]:

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ، أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلاَمِ مِنَ الرَّبَابِ خَيالاَ

فيكون على ضربين :

يجوز أن يكون : أكذبتك عينك ،فحذف الألف[162].

كما ذكر أنها تحتمل تقديم الاسم نحو قولك: "أزيد قام؟ لأنها أصل الاستفهام"[163]. بينما بقية أدوات الاستفهام لا يصلح فيهن إلا تقديم الفعل.

القسم الثاني: "هل" ذكر المبرد أنها للاستفهام، "نحو قولك: هل جاء زيد؟، وتكون بمنزلة (قد) في قوله عز وجل: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾[*]."[164]، معناه: "هل أتى على الذي صار إنسانا حين من الدهر لم يكن إنسانا، ولا مخلوقا، ولا مذكورا، ويجوز أن يكون المعنى قد أتى على آدم حين من الدهر، وهو مصور لم يكن شيئا مذكورا

(158) المقتضب: 53/2.

(159) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، تأليف محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط1، 1371هـ/1952م: ص258.و قد ورد بغير هذا اللفظ.و اللفظ بتمامه:

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي وَ إِنِّي لَحَاسِبٌ بِسَبْعٍ رَمَيْتُ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

(160) الكامل: 178/3.

(161) ديوان الأخطل، شرحه و صنف قوافيه و قدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط2، 1414هـ/ 1994م : ص245.

(162) المقتضب : 295/3

(163) المصدر نفسه: 74/2.

(*) سورة الإنسان: الآية01.

(164) المقتضب: 43/1.

مخاطبا، والعرب تقول: كم أتى عليك من الدهر لم تكن فيه شيئا ولا إنسانا، أي: ممن تفكر فيه ويخطر على الباب، وإن كان ثابتا موجودا"[165].

وتدخل عليها حروف الاستفهام؛ "نحو قولك: أم هل فعلت؟ وإن احتاج الشاعر إلى أن يلزمها الألف فعل كما قال:

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعَ بِشِدَّتِنَا   أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ القُفِّ ذِي الأَكَمِ؟"[166].

القسم الثالث: يمثل بقية أدوات الاستفهام منها:

أم: "فأما (أم) فلا تكون إلا استفهاما، وتقع من الاستفهام في موضعين: أحدهما أن تقع عديلة الألف على معنى (أي). وذلك قولك: أزيد في الدار أم عمرو؟ وكذلك: أأعطيت زيدا أم حرمته؟ فليس جواب هذا (لا)، ولا (نعم)، كما أنه إذا قال: أيهما لقيت؟ أو أي الأمرين فعلت لم يكن جواب هذا (لا) ولا (نعم)..." [167].

و الموضع الثاني "أن تكون منقطعة مما قبلها، خبرا كان أو استفهاما. وذلك قولك فيما كان خبرا: إن هذا لزيد أم عمرو يا فتى، وذلك أنك نظرت إلى شخص، فتوهمته زيدا. فقلت على ما سبق إليك. ثم أدركك الظن أنه عمرو، فانصرفت عن الأول. فقلت: أم عمرو مستفهما. فإنما هو إضراب عن الأول على معنى (بل)، إلا أن ما يقع بعد (بل) يقين. وما يقع بعد (أم) مظنون مشكوك فيه"[168].

كم: قال المبرد في"كم": "اعلم أن (كم) اسم يقع على العدد ولها موضعان: تكون خبرا، وتكون استفهاما، فمجراها مجرى عدد منون. وذلك قولك: كم رجلا عندك؟ و كم غلاما لك؟ تريد: أعشرون غلاما أم ثلاثون، وما أشبه ذلك ... إلا أنه يجوز لك في (كم) أن تفصل بينها وبين ما عملت فيه بالظرف فتقول: كم لك غلاما؟ وكم عندك جارية؟ و إنما جاز ذلك فيها لأنه جعل عوضا لما منعته من التمكن"[169].

---

[165] نكت الانتصار لنقل القرآن، دراسة وتحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية القاهرة، دط، 1971م: ص192.

[166] المقتضب: 44/1.

[167] المصدر نفسه: 286/3.

[168] المصدر نفسه: 288/3-289.

[169] المصدر نفسه: 55/3.

أيّ: و"(أي) داخلة في كل موضعه تدخل فيه أم مع الألف. تقول: قد علمت أيهما في الدار. تريد: أذا أم ذا. قال الله عز وجل: ﴿**فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا**﴾ (170). وقال: ﴿**لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ**﴾ (171). لأن المعنى: أذا أم ذا؟ وعلى ذلك قول الشاعر:

سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتَهُ أَسَاعَةَ نَحْسٍ جِئْتَهُ أَمْ بِأَسْعُدِ"(172).

وقال المبرد أيضا: "اعلم أن (أيا) تقع على شيء هي بعضه، لا تكون إلا على ذلك في الاستفهام. وكذلك قولك: أي إخوتك زيد؟ فقد علمت أن زيدا أحدهما، ولم تدر أيهما هو"(173).و قال في موضع آخر: "و اعلم أنه إذا ذكر شيء من غير الآدميين، وقعت عليه أي كما تقع على الآدميين لأنها عامة"(174).

من: "إنما هي لما يعقل خاصة حيث وقعت"(175). و قال أيضا عنها: "لا تقول في جواب من عندك؟ فرس ولا متاع، إنما تقول: زيد أو هند"(176).

ما: وهي "سؤال عن ذات غير الآدميين، وعن صفات الآدميين"(177). "ألا ترى أنك تقول: ما عندك؟ فتقول: فرس، أو حمار، هذا إلا أن تقول رجل فتخرجه إلى باب الأجناس"(178). "و الصفات للآدميين التي تقع عليها (ما) فهي نحو قولك: عندي زيد فأقول: وما زيد؟ فيكون جوابه" طويل، أو قصير، أو شريف، أو وضيع"(179).

أين: "إنما هي سؤال عن المكان لا يقع إلا عليه"(180).

متى: "سؤال عن الزمان"(181).

---

(170) الكهف: الآية19.

(171) الكهف: الآية12.

(172) المقتضب: 288/3.

(173) المقتضب: 294/2.

(174) المصدر نفسه: 305/2.

(175) المصدر نفسه: 63/3.

(176) المصدر نفسه: 296/2.

(177) المصدر نفسه: 63/3-41/1-184/4.

(178) المصدر نفسه: 41/1.

(179) المصدر نفسه: 291/2-185/4.

(180) المصدر نفسه: 289/3.

(181) المصدر نفسه: 289/3.

كيف: "سؤال عن الحال"[182].

ب- **خروج الاستفهام عن أصل دلالته إلى معان أخرى:**

و قد يخرج الاستفهام عن أصل دلالته إلى معان أخرى لطلب الإفهام، فيشار إليها به، وقد تنبه المبرد إلى هذه المعاني، وذكرها في دراسته:

- **استفهام التقرير**: تحدث المبرد عن همزة الاستفهام وقال أنها تتخطى الاستفهام إلى التقرير، ومثل له: "فالتقرير قولك: أما جئتني فأكرمتك"[183]. و قال أيضا: "ألا ترى أنك تقول: أما زيد في الدار على التقرير"[184]. وفي موضع آخر ذكر قوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[185]. وقول الشاعر:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطَايَا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

ثم قال: "وأنت تعلم أنه لم يستفهم، ولكن قررهم بأنهم كذلك وأنه قد ثبت لهم"[186].

ومثله قول كثير[187]:

أَلَيْسَ أَبِي بِالنَّضْرِ أَمْ لَيْسَ وَالِدِي لِكُلِّ نَجِيبٍ مِنْ خُزَاعَةَ أَزْهَرَا

"ترك استفهام الأول، ومال إلى الثاني. وإنما أخرجه مخرج التقرير في اللفظ كالاستخبار"[188].

و أورد المبرد مقطوعة لعبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب في مؤلفه الكامل مطلعها[189]:

رَأَيْتُ فُضَيْلاً كَانَ شَيْئًا مُلَفَفًا فَكَشَفَهُ التَّمْحِيصُ حَتَّى بَدَا لِيَــا

أَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةٌ فَإِنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لاَ أَخَالِيَا

---

(182) المقتضب: 289/3.

(183) المصدر نفسه: 53/2.

(184) المصدر نفسه: 289/3.

(185) سورة الزمر: الآية60.

(186) المقتضب: 292/3 وينظر ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص69.

(187) ديوان كثير: ص40. و قد ورد البيت بغير هذا اللفظ، و اللفظ بتمامه:

أَلَيْسَ أَبِي بِالصَّلْتِ أَمْ لَيْسَ إِخْوَتِي بِكُلِّ هَجَّانٍ مِنْ بَنِي النَّضْرِ أَزْهَرَا

(188) المقتضب: 293/3، وينظر ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص69.

(189) الكامل: 212/1.

ثم قال: "وقوله: *أأنت أخي ما لم تكن لي حاجة.* تقرير[190] وليس استفهام، ولكن معناه: أني قد بلوتك تظهر الإخاء فإذا بدت الحاجة لم أنل من إخائك شيئا"[191].

وقول الله عز وجل: ﴿**الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**﴾ [192]. وقوله: ﴿**أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا**﴾ [193]. وما كان مثله، نحو قوله عز وجل: ﴿**أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ**﴾ [194]. "فإن ذلك ليس على جهة الاستفهام، لأن المستخبر غير عالم، إنما يتوقع الجواب فيعلم به، والله عز وجل منفي عنه ذلك. وإنما تخرج هذه الحروف في القرآن مخرج التوبيخ والتقرير، ولكنها لتكرير توبيخ بعد توبيخ عليهم"[195].

- **استفهام التوبيخ:**

مثال ذلك قوله عز وجل: ﴿**أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ [196]. قال المبرد: "إنما هو توبيخ وليس استفهام، وهو جل وعز لعالم بأن عيسى لم يقله"[197].

ومجاز قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**﴾ [198]. "على التوبيخ لهم، وأنهم قالوا، فنبه الرسول والمسلمين على إفكهم. وترك خبرا إلى خبر لا على جهة الإضراب ولكن على جهة تكرير خبر بعد خبر: كما يقع أمر بعد زجر. وأمر بعد أمر للترغيب والترهيب والله أعلم"[199].

كما يقول المعاقب للمعاقب: ألست الفاعل كذا؟ أتذكر يوم كذا ما فعلت كذا؟ ليس ليعلم ذلك من قبله، ولكن لتوبيخه بما فعل.

---

(190) تقرير: هو أن نحمل المخاطب على الاعتراف. كان ذلك في الإثبات أو ي النفي. رغبة الآمل : 15/3

(191) الكامل: 213/1.

(192) سورة السجدة: الآيتان1-2.

(193) سورة القلم: الآية46.

(194) سورة الزخرف: الآية 16.

(195) المقتضب: 292/3.

(196) سورة المائدة: الآية 116.

(197) الكامل: 213/1.

(198) سورة السجدة: الآية03.

(199) المقتضب: 292/3.

و قد يقال "لغير صاحب الذنب احتجاجا على الذنب وتوبيخا له: أما قال لك هذا ذنب؟ أما تعرف من هذا مثل ما أعرف؟ أأنت قلت لهذا ما ذكره عنك؟ على علم السائل أنه لم يقل، كقوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ ليوبخ بذلك من حكاه عنه"[200].

ومثال استفهام التوبيخ قول الله عز وجل: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [201]. وقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [202]. ومثله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ [203]. قال المبرد: "فخرج هذا مخرج التوقيف والتوبيخ، ومخرجه من الناس يكون استفهاما ويكون توبيخا"[204].

و يوافقه ابن يعيش فيقول عن الآية: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ "فهو من الناس استفهام ومن القديم سبحانه توقيف وتوبيخ للمشركين خرج مخرج الاستفهام، ولا خير في واحد منهم إنما هو على ادعائهم أن هناك خيرا، ففزعوا بهذا على هذه الطريقة فاعلم"[205].

و قال المبرد أيضا: "وتقول: يا زيد أسكوتا والناس يتكلمون توبخه بذلك وقد وقع منه السكوت"[206].

- **استفهام الإنكار:**

وذلك قولك: "أقياما وقد قعد الناس، لم تقل هذا سائلا، ولكن قلته موبخا منكرا لما هو عليه، ولولا دلالة الحال على ذلك يجز الإضمار؛ لأن الفعل إنما يضمر إذا دل عليه دال؛كما أن الاسم لا يضمر حتى يذكر، وإنما رأيته في حال قيام في وقت يجب فيه غيره، فقلت له منكرا.

ومثله: أقعودا وقد سار الناس، كما قال: *أطربا وأنت قنسري*. فإنما قال إنكارا على نفسه الطرب وهو على غير حينه"[207].

---

(200) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص68.

(201) سورة ص: الآية63.

(202) سورة النازعات: الآية27.

(203) سورة الدخان: الآية37.

(204) المقتضب: 3/286-287.

(205) شرح المفصل للزمخشري، لموفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي المتوفى سنة643هـ، قدم له و وضع حواشيه و فهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1422هـ/2001م : 17/5.

(206) المقتضب: 3/289.

(207) المصدر نفسه: 3/264-228.

ومثل له المبرد أيضا بقول الشاعر:

أَفِي الوَلاَئِمِ أَوْلاَداً لِوَاحِدَةٍ وَفِي المحَافِلِ أَوْلاَدًا لِعِلاَّتٍ.

ثم قال: "العلات، سميت لأن الواحدة تعل بعد صاحبتها، وهو من العلل: وهو الشرب الثاني أي يختلفون ويتحولون في هذه الحالات.

ومن كلام العرب: أتميميا مرة وقيسيا أخرى؟ ... أي أتنتقل؟ ومن ثم قال له زفر بن الحارث أزديا مرة، وأوزاعيا أخرى"[208].

المعنى على الإنكار، فالشاعر ينكر عليهم عدم الاستقرار والثبات على حالة واحدة في الولائم والمحافل، كما ينكر في المثال الثاني على شخص انتسابه مرة إلى تميم وأخرى إلى "قيس" إذ الأولى أن يعرف الشخص قبيلته، وينتسب إليها دائما.

–استفهام التسوية:

يرى المبرد أنه "يدخل في باب التسوية مثل قولك: سواء علي أذهبت أم جئت، وما أبالي أقبلت أم أدبرت، وليت شعري أزيد في الدار أم عمرو؟ فقولك (سواء علي) تخبر أن الأمرين عندك واحد، فأدخلت حروف الاستفهام ها هنا؛ لإيجابها التسوية.

ألا ترى أنك إذا قلت: أزيد في الدار أم عمرو، أنهما في علمك مستويان، فهذه مضارعة، ولهذا تقول: قد علمت أزيد في الدار أم عمرو؛ لأنهما قد استويا عند السامع كما استوى الأولان في علمك"[209].

و يقول أيضا: "و التسوية: ليت شعري أقام زيد أم قعد. وقد علمت أزيد في الدار أم عمرو"[210].

- استفهام التعجب والإنكار:

قال المبرد: "فأما التعجب و الإنكار. فقول المشركين ﴿ **أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ**﴾ [211]"[212].

---

[208] الكامل: 174/3.

[209] المقتضب: 287/3-288.

[210] المصدر نفسه: 53/2.

[211] سورة الصافات: الآيتان16-17.

[212] المقتضب: 308/3.

- **استفهام الوعيد:**

مثل له بقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[213].
ثم قال: "وقد علم المستمعون كيف ذلك ليزجرهم عن ركوب ما يؤدى إلى النار"[214].

- **استفهام التهكم و السخرية:**

قال المبرد: "واعلم أن هذا البيت ينشد على ثلاثة أوجه، و هو:

كَمْ عَمّة لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَة فَدْعَاءَ قَدْ حَلَبَتْ عَلَيَّ عِيشَارِي.

... و لذا قلت: كم عمةً؟ فعلى الاستفهام"[215].

فالمبرد يرى أن (كم) استفهامية في البيت وتوجيه ذلك بأن الاستفهام ليس على معناه الحقيقي، ولكنه على سبيل التهكم والسخرية. فكأن جرير يقول: أخبرني عن عدد عماتك وخالاتك اللاتي حلبن على عشاري، فقد ذهب على عددها.

- **استفهام التعظيم:** "ومما جاء في القرآن على هيئتين في الاستفهام فوقع مع أحدهما التبيين، ولم يقع مع الآخر، على أن يخرج الاستفهام فيهما جميعا مخرج للتقرير والتعظيم، قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾[216]. و﴿**وَمَا يُدْرِيكَ**﴾[217]"[218].

- **استفهام التحقير:** ذكر المبرد كتاب "علي" إلى "معاوية" رضي الله عنهما وقد جاء فيه: "وبعد، فما أنت و عثمان؟ إنما أنت رجل من بني أمة وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه". ثم قال: "وأما قوله: "فما أنت وعثمان؟ فالرفع فيه الوجه؛ لأنه عطف اسما ظاهرا على اسم مضمر منفصل، وأجراه مجراه، وليس هاهنا فعل فيحمل على المفعول، فكأنه قال: فما أنت وما عثمان؟ هذا تقديره في العربية، و معناه: لست منه في شيء"[219].

فالغرض هنا: التقليل والتحقير، وذلك أن عليا (رضي الله عنه) يقلل من أمر "معاوية" ويبين له أن أمر "عثمان" لا يعنيه، فهناك من يهتمون بدم عثمان ويطالبون به.

---

(213) صورة فصلت: الآية40.

(214) المقتضب: 292/3.

(215) المصدر نفسه: 58/3.

(216) الحاقة: الآية03، المدثر: الآية27، المرسلات: الآية14، الانفطار: الآيتان17-18، القارعة: الآيتان3-10.

(217) سورة الأحزاب: الآية63، الشورى: الآية17، عبس: الآية03.

(218) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص73.

(219) الكامل: 333/1.

- **استفهام التنبيه:** مثل له بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾ (220). و قال: "فهذا هو الوجه؛ لأنه ليس بجواب؛ لأن المعنى في قوله: ﴿ألم تر﴾ إنما هو: انتبه وانظر. أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا. وليس كقوله: ألم تأت زيدا فليكرمك؛ لأن الإكرام لم يقع بالإتيان. وليس اخضرار الأرض واقعا من أجل رؤيتك"(221).

و مثل له أيضا بقول الرجل: ""السعادة أحب إليك أم الشقاء" ثم قال: لتوقفه أنه على خطأ وعلى ما يصيره إلى الشقاء"(222). فهنا استفهام للتنبيه على وقوع الرجل في الخطأ.

فالمبرد يورد الكثير من أساليب الاستفهام، ويبين المراد منها وهي: التقرير وما يوحي به من التوبيخ، وللإنكار ويتضمن التوبيخ، والتعجب والتحقير.

رابعا : النداء:

النداء هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة: "أدعو"، وحروف النداء هي: الهمزة، وأي، ويا، وآ، وأى، وأيا، وهيا، ووا، وأكثرها استعمالا هي "يا". وهذه الأدوات نوعان: ما ينادى به القريب وهو الهمزة وأي، وما ينادى به البعيد وهو بقية الأدوات(223).

و يرى المبرد أنه "إذا كان صاحبها قريبا منك أو بعيدا ناديته بـ (يا): تقول يا زيد، ويا أيا فلان.

و أما (أيا) و(هيا) فلا يكونان إلا للنائم، والمستثقل والمتراخي عنك لأنهما لهذا الصوت.

وتقع (وا) في الندبة، وفيما مددت به صوتك،كما تمده بالندبة"(224)، وأضاف قائلا: "واعلم أن للنداء أسماء يخص بها، فمنها قولهم، يا هناه أقبل، ولا يكون ذلك في غير النداء، لأنه كناية للنداء"(225).

ويأتي أسلوب النداء مفيدا لمعان بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن أحواله، وقد ذكر المبرد بعض هذه الأغراض وهي:

(220) سورة الحج: الآية63.
(221) المقتضب: 20/2.
(222) المصدر نفسه: 292/3.
(223) ينظر علم المعاني: ص329-330.
(224) المقتضب: 233/4-235.
(225) المصدر نفسه: 235/4.

- **الاختصاص**: هو "ذكر اسم ظاهر بعد ضمير لبيانه"[226]. و قد مثل له المبرد بـ: "اللهم اغفر لنا أيتها العصابة". وشرح الاختصاص في هذا المثال: "فأجروا حرف النداء على العصابة وليست مدعوة؛ لأن فيها الاختصاص الذي في النداء، وإنما حق النداء أن تعطف به المخاطب عليك، ثم تخبره، أو تأمره، أو تسأله، أو غير ذلك مما توقعه إليه، فهو مختص من غيره في قولك: يا زيد، ويا رجل.

فإذا قلت: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. فأنت لم تدع العصابة؛ ولكنك اختصصتها من غيرها، كما تختص المدعو، فجرى عليها اسم النداء، أعني (أيتها)، لمساواتها إياه في الاختصاص

و على هذا تقول: على المضارب الوضيعة أيها الرجل، ولا يجوز أن تقول: يا أيها الرجل، ولا يا أيتها العصابة؛ لأنك لا تنبه إنسانا إنما تختص و(يا) إنما هي زجر وتنبيه"[227].

فقولهم: "اللهم اغفر لنا أيتها العصابة "أي اللهم اغفر لنا مخصوصين من بين العصائب؛ فصورته صورة النداء وليس به؛ إذ لم يرد به إلا ما دل عليه ضمير المتكلم السابق؛ ولذا لا يجوز إظهار حرف النداء فيه.

- **الاستغاثة**: يقول المبرد: "فإذا دعوت شيئا على جهة الاستغاثة فاللام معه مفتوحة. تقول: يا للناس، ويا لله، وفي الحديث: لما طعن العلج، أو العبد عمر -رحمه الله- صاح: يا لله للمسلمين"[228].

و من أمثلتها في الشعر ذكر المبرد بعض الأبيات هي:

قال الحارث بن خالد[229]:

يَاَ لَلرِّجَالِ لِيَوْمِ الأَرْبِعَاءِ، أَمَّا يَنْفَكُّ يَبْعَثُ لِي بَعْدَ النَّهْيِ طَرَبًا

قال آخر:

يَا لَقَوْمِ مَنْ للنُّهَى وَ المِسَاعِي يَا لَقَوْمِي مَنْ لِلنَّدَى وَالسَّمَاحِ؟
يَا لَعَطَّافِنَا وَ يَــا لَــرِيَــاحِ وَأَبِي الحَشْرَجِ الفَتَى الوَضَّـــاحِ.

---

(226) جواهر البلاغة: ص333.
(227) المقتضب: 289/3-299.
(228) المصدر نفسه: 256/4، والكامل: 271/3.
(229) المصدر نفسه: 256/4-257.

وقال آخر[230]:

تَكَنَّفَنِي الوُشَاةُ فَأَزْعَجُونِي فَيَا لَلنَّاسِ لِلْوَاشِ المطَاعِ!.

- **الندبة**: وهي "نداء المتوجع منه أو المتفجع عليه"[231]، وتقع عند المبرد "فيما مددت به صوتك: كما تمده في الندبة"[232]. ولا يجوز أن تحذف منها العلامة وهي (يا) و(وا) "لأن الندبة لإظهار التفجع ومد الصوت"[233]. لأنه "من لم يجعل للندبة علامة جعلها بمنزلة الندابة الصحيح"[234].

و يشترط المبرد "أن لا تندب نكرة ولا مبهما ولا نعتا... لأن الندبة عذر للتفجع، وبها يخبر المتكلم أنه قد ناله أمر عظيم، ووقع في خطب جسيم"[235].

ومثل لذلك في موضع آخر فقال: "و لو قلت: وامن حفر زمزماه، وا أمير المؤمنيناه – كان جيدا؛ لأنك قد نذبت معروفين، ولو قلت: وا أميراه لم يجز؛ لأنك لم تدل على المندوب. وكذلك لو قلت: وا هذاه– لم يجز؛ لأنك إنما ندبت اسما معروفا بالإشارة إليه، و لن تدل عليه بإضافة. وإنما تتفجع له باسم أو إضافة تجمع عليه، أو شيء من أسمائه يعرف به يكون عذرا للتفجع، كقولك: واسيد العرباه. إذا كان المندوب معروفا بذلك"[236].

- **التعجب**:

قال المبرد في بيت شعر للصلتان:

أَيَا شَاعِرًا لاَ شَاعِرَ اليَوْمَ مِثْلَهُ جَرِيرٌ وَلَكِنْ فِي كُلَيْبٍ تَوَاضُعُ.

"فكان الخليل يزعم أن هذا ليس نداء من أجل المعنى. وذلك أنه لو ناداه كان قد نادى منكورا، وكان كل من أجابه ممن له هذا الاسم فهو الذي نادى، كقولك: إذا جاء رجل فأعلمني، فإنما أخبرته بأن يعلمك إذا جاء واحد ممن له هذه البنية. قال: فكيف يكون نكرة وهو يقصد إلى واحد بعينه، فيفضله. ولكن مجازه أنه قال: (يا)، فنبه، ثم قال: عليكم شاعرا لا

(230) الكامل: 271/3.

(231) علم المعاني: ص334.

(232) المقتضب: 233/4.

(233) المصدر نفسه: 268/4.

(234) المصدر نفسه: 272/4.

(235) المصدر نفسه: 268/4.

(236) المصدر نفسه :275/4.

شاعر اليوم مثله وفيه معنى التعجب كأنه قال: حسبك به شاعرا؛ لما فيه من المعنى، واللفظ على ما شرحت لك"[237].

وقال في الكامل: "على معنى قوله: فلله دره شاعرا"[238].

فالشاعر نصب شاعرا بإضمار فعل على معنى التعجب والمنادى محذوف، والمعنى يا هؤلاء أو يا قوم عليكم شاعرا أو حسبكم به شاعرا.

وقد جاء في الكامل: "وكان العلاء بن مطرف السعدي ابن عم عمرو القنا، وكان يجب أن يلقاه في تلك الحروب مبارزة، فلحقه عمرو القنا وهو منهزم، فضحك عمرو وقال متمثلا:

تَمَنَّانِي لِيَلْقَانِي لَقِيطٌ أَعَامِ لَكَ ابْنَ صَعْصَعَةَ بْنَ سَعْدِ.

ثم صاح به: انج أبا المصدى! وكان عمرو القنا يكنى أيضا أبا المصدى ... و قوله: "أعام لك" يريد يا عامر، فرخم، وإنما يريد الحي تعجبا، أي لكم أعجب من تمنيه للقائي!"[239]. فالنداء في البيت الغرض منه التعجب.

المبحث السادس: القلب:

عرف البلاغيون القلب فقالوا: "هو أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكان الأول على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر"[240].

وقد أثر عن سيبويه أنه لسعة الكلام قال: "أما قوله أدخل فوه الحجر، فهذا جرى على سعة الكلام، والجيد أدخل فاه الحجر، كما قال: أدخلت في رأسي القلنسوة، والجيد: أدخلت في القلنسوة رأسي، قال الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فِيهاَ مُدْخِلَ
الظِلِّ رَأْسَهُ و سَائِرُهُ بَادِ إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعُ"[241].

ومع هذا فسيبويه يرد القلب، ويرى أنه بعيد عن الجودة حيث يقول: "فوجه الكلام فيه هذا كراهية الانفصال"[242].

---

(237) المقتضب: 4/215-216.

(238) الكامل: 3/257.

(239) المصدر نفسه: 3/257.

(240) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: 1/486-487.

(241) الكتاب: 1/92.

أما المبرد فالقلب عنده جائز للاختصار، وبشرط أمن اللبس، وقد ذكر له الأمثلة ووضحها فمن ذلك قوله:

وقال الحارث بن خالد المخزومي:

فَرَّ عَبْدُ العَزِيزِ لمِاَّ رَأَى أَلاَ يُطَالُ بِالسَّفْحِ نَازِلُوا قَطَرِياً.

ويروى:

فَرَّ عَبْدُ العَزِيزِ إِذْ رَاءَ عِيسَىَ وَابْنَ دَاوُدَ نَازِلاً قَطَرِياً

ثم قال: "قوله: "إذ راء عيسى" الأصل: رأي، ولكنه قلب، فقدم الألف، وأخر الهمزة... والقلب كثير في كلام العرب، وسنذكر منه شيئا في موضعه إن شاء الله"[243]. والقلب بين "راء" و"رأى" لغوي، وموضعه علم الصرف.

وقال في موضع آخر "وقال المفسرون والنحويون في قول الله عز وجل: ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾(*). أي لشديد من أجل حب الخير والخير هنا: المال من قوله تعالى ﴿**إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ**﴾(*) . و قوله "لشديد" أي: لبخيل، والتقدير، والله أعلم، إنه لبخيل من أجل حبه للمال"[244]. و يقول تعالى: ﴿**إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا**﴾(*) . "أي لم يقرب من رؤيتها، و إيضاحه؛ لم يرها، ولم يكد"[245]، والمبرد متأثر بأبي عبيدة حيث علق بقوله: "خرج مخرج: لم يرها ولم يكد"[246]. فأبو عبيدة يرى نفي المقاربة مرة، والرؤية مرة أخرى. وهو أبلغ في نفي الرؤية كما ذهب عبد القاهر[247]. ذلك أن جملة جواب الشرط منفية، ولذا قدرها أبو عبيدة في المعنى بجملتين، ومعلوم أنه إذا نفى مقاربة الشيء فقد نفى الشيء من أصله، فيكون أبلغ من نفيه.

---

[242] المصدر نفسه: 18/1.

[243] الكامل: 360/3.

(*) سورة العاديات: الآية8.

(*) سورة البقرة: الآية180.

[244] الكامل: 360/1.

(*) سورة النور: الآية40.

[245] الكامل: 195/1

[246] مجاز القرآن: 67/2.

[247] ينظر دلائل الإعجاز: ص75.

وأورد المبرد بيت النمر بن تولب[248]:

يَرُدُّ الفَتىَ بَعْدَ اعْتِداَلٍ وَصِحَّةٍ　　　　يَنوُءُ إذاَ رَامَ القِياَمَ وَيُحْمَلُ

ثم قال: "قوله: "ينوء إذا رام القيام" يقول: ينهض في تثاقل. قال الله تعالى: ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾(*) . والمعنى أن العصبة تنوء بالمفاتيح "[249].

ويعود المبرد إلى هذه الآية ويبين ما فيها من القلب فيقول:

وقال الفرزدق و قد نزل به ذئب فأضافه(*) :

وَأَطْلَسَ عَساَّلٍ، وَماَ كاَنَ صَاحِباً　　　　رَفَعْتُ لِناَرِي مَوْهِناً فَأَتَانِي

ويذكر المقطوعة ثم يقول: "قوله: "رفعت لناري "من المقلوب، إنما أراد: رفعت له ناري والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار، قال الله عز وجل: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾. والعصبة تنوء بالمفاتيح؛ أي تستقل بها في ثقل، و من كلام العرب: إن فلانة لتنوء بها عجيزتها... ويروى أن يونس بن حبيب قال لأبي الحسن الكسائي: كيف تنشد بيت الفرزدق؟ فأنشده:

غَدَاةَ أَحَلَّتْ لابْنِ أَصْرَمَ طَعْنَة　　　　حُصَيْنٍ عَبِيطَاتِ السَّدائِفِ وَالخَمْرُ.

فقال الكسائي... تم الكلام. فحمل الخمر على المعنى، أراد: وحلت له الخمر. فقال له يونس: ما أحسن ما قلت! ولكن الفرزدق أنشدنيه على القلب، فنصب الطعنة ورفع العبيطات والخمر على وصفنا من القلب، والذي ذهب إليه الكسائي أحسن في محض العربية، وإن كان إنشاد الفرزدق جيدا"[250].

ويفسر المبرد نفس الآية في كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه، لكنه يطلق لفظ التحويل بدل مصطلح القلب فيقول: "ومما في القرآن مما يجيء مثله في كلام العرب من التحويل، كقوله: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ**﴾. وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح، ومن كلام

(248) ديوان النمر بن تولب: ص100

(*) سورة القصص: الآية76.

(249) الكامل: 217/1.

(*) ديوان الفرزدق: ص628

(250) الكامل: 370/1-371، وينظر تفسير الآية في الكامل: 373/3.

العرب: إن فلانة لتنوء بها عجيزتها. ويقولون: أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت الخف في رجلي. وإنما يكون مثل هذا فيما لا يكون فيه لبس ولا إشكال ولا وهم"[251].

وليس ما قاله عن مفهوم التحويل في الآية متفق عليه؛ فقد ذكروا أن الفعل (تنوء) من الأضداد لأن معناه تثقل، يقال: ناء به الحمل إذا أثقله فسقط، وقيل معناه: تنهض بجهد ومشقة؛ يقال: ناء بالحمل إذا نهض به بجهد ومشقة، والمرأة تنوء بها عجيزتها: أي تثقلها، وهي تنوء بعجيزتها كما ينوء البعير بحمله: أي تنهض بها مثقلة. وتساءلوا في الآية: هل تنوء المفاتيح بالعصبة، أم العصبة هي التى تنوء بالمفاتح؟ و تنبهوا إلى ما في المعنى الثاني من تحويل الفعل إلى المفاتح على سبيل القلب[252].

وذكر الطبري أن المعنى الأول في تأويل الآية أولى بالصواب؛ لأنه تأويل موافق لظاهر التنزيل، ولما فيه من الدلالة على كثرة كنوز قارون؛ وذلك إذا وجه إلى أن معناه إن مفاتحه تثقل العصبة وتميلها؛ لأنه قد تنهض العصبة بالقليل من المفاتيح وبالكثير[253].

و الخلاصة أن قول المبرد: "والقلب كثير في كلام العرب" ثم إيراده الأمثلة الكثيرة يدل على أنه جائز، غير أن قوله: "والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب؛ للاختصار". لا يسلم له، فقد جعل الاختصار غرضا للقلب، وهذا ما لم يقل به أحد؛ إذ الكلام المقلوب لا اختصار فيه.

المبحث السابع: التغليب:

وهو "إعطاء أحد المصطحبين، أو المتشاكلين حكم الآخر يجعله موافقا له، وإجراء المختلفين مجرى المتفقين، وهو يجري في أنواع من المعاني وأساليب من الكلام كثيرة"[254]. فقد يغلب المخاطب على الغائب، والمذكر على المؤنث، والعاقل على غير العاقل، والمفرد على المركب، وهكذا. وأمثلته عند المبرد كثيرة، فقد ورد في المقتضب قوله: "تقول في (من): من يأتني آته، فلا يكون ذلك إلا لما يعقل. فإن أردت بها غير ذلك لم يكن.

[251] ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص84.

[252] ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي: 288/3.

[253] ينظر تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (224هـ-310هـ)، تحقيق عبد الله ابن عبد المحسن التركي، مركز البحوث و الدراسات العربية و الإسلامية، ط1، 1422هـ/2001م: 319/18.

[254] البرهان في علوم القرآن: 302/3.

فإن قال قائل: "فقد قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾(*) . فهذا لغير الآدميين، وكذلك ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾(**) . قيل: إنما جاز هذا؛ لأنه قد خلط مع الآدميين غيرهم بقوله﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾، وإذا اختلط المذكوران جرى على أحدهما ما هو للآخر إذا كان في مثل معناه؛ لأن المتكلم يبين به ما في الآخر وإن كان لفظه مخالفا، فمن ذلك قول الشاعر:

شَرَّابَ أَلْبَانٍ وَتَمْرٍ وَإِقْطِ

فالتمر والإقط لا يقال فيهما: شربا، ولكن أدخلهما مع ما يشرب فجرى الله واحدا"[255].

ومن أمثلته في الكامل قول المبرد في إحدى النساء "وكانت من المجتهدات من الخوارج ولو قرأت: من المجتهدين، وأنت تعني امرأة كان أفصح؛ لأنك تريد رجالا ونساء هي أحدهم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾(*)، وقال جل ثناؤه: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾(**) "[256].

وقد عدت "مريم" رضي الله ضمن الذكور بطريق التغليب، إشعارا بأن لها ما للقانتين من صلاح الدين، وصلاح التقوى، فطاعتها لم تقل شأنا عن طاعتهم[257]. و المراد بالعجوز في الآية الثانية: امرأة "لوط" عليه السلام؛ فقد كانت امرأة سوء، راضية بفعل القوم، فلحقها من الموت والعذاب ما لحقهم، فقوله تعالى: (من الغاربين) بجمع المذكر السالم إشعارا بأنها منهم وهي في العذاب معهم[258]. والله أعلم.

(*) سورة النور: الآية45.

(**) سورة النور: الآية45.

[255] المقتضب: 2/50-51 وينظر: 2/225.

(*) سورة التحريم: الآية12.

(**) سورة الشعراء: الآية171.

[256] الكامل: 3/247.

[257] ينظر عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: 2/51.

[258] ينظر أنوار التنزيل و أسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي، للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت791هـ)، حققه و علق عليه و خرج أحاديثه و ضبط نصه محمد صبحي بن حسن حلاق و محمود أحمد الأطرش، دار الرشيد دمشق، ط1، 1421هـ/2000م: 2/179.

وذكر المبرد قول الفرزدق[259]:

وَمِناَّ الّذِي أَعْطىَ يَدَيْهِ رَهِينَةً لِغاَرَيْ مَعَدٍّ يَوْمَ ضَرْبِ الجَماَجِمِ
عَشِيَّةَ ساَلَ المِرْبَداَنِ كِـلاَهُماَ عَجاَجَةَ مَوْتٍ بِالسُّيُوفِ الصَّواَرِمِ

ثم قال: "قوله: عشية سال المربدان كلاهما. يريد: المربد، وما يليه مما جرى مجراه. والعرب تفعل هذا في الشيئين إذا جريا في باب واحد، قال الفرزدق:

أَخَذْناَ بِآفاَقِ السَّماَءِ عَلَيْكُمُ لَناَ قَمَرَاهاَ وَالنُّجُومُ الطّوَالِعُ

يريد: الشمس، القمر؛ لأنهما قد اجتمعا في قولك: "النيران"، وغلب الاسم المذكر، وإنما يؤثر في مثل هذا الخفة، وقالوا: "العمران" لأبي بكر، وعمر فإن قال قائل: إنما هو عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، لم يصب، لأن أهل الجمل نادوا بعلي بن أبي طالب –رحمة الله عليه– أعطنا سنة العمرين.

فإن قال قائل: فلم لم يقولوا: أبوي بكر، وأبو بكر أفضلهما؟ فلأن عمر اسم مفرد، وإنما طلبوا الخفة"[260].

فالعرب كانت تنشد الخفة في كل شيء حتى في الجمع بين المتناسبين، لذا نرى المبرد يركز على هذه النقطة ويكررها في كلامه: "وإنما يؤثر في مثل هذا الخفة"، "وإنما طلبوا الخفة".

وقال أيضا: "وأنشد التوزي عن أبي عبيدة لجرير:

وَماَ لِتَغْلِبَ إِنْ عَدُّوا مَساَعِيهِـمْ نَجْمٌ يُضيِءُ وَلاَ شَمْسٌ وَلاَ قَمَرُ
ماَ كاَنَ يُرْضِي رَسوُلَ اللهِ فِعْلُهُمْ وَالعُمَرَيْنِ: أَبوُ بَكْرٍ وَلاَ عُمَرُ

هكذا أنشدنه، وقال آخر:

قُدْنِي مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قُدْنِي

يريد: عبد الله، ومصعبا ابني الزبير. وإنما أبو خبيب: عبد الله، وقرأ بعض القراء: ﴿ **سَلاَمٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ** ﴾[261]، فجمعهم على لفظ "إلياس". ومن ذا قول العرب: المسامعة، والمهالبة، والمناذرة؛ فجمعهم على اسم الأب"[262].

---

[259] ديوان الفرزدق:ص620

[260] الكامل: 142/1.

[261] سورة الصافات: الآية130.

[262] الكامل: 143/1.

فقراءة: ﴿**سلام على آل ياسين**﴾ هي على تغليب "إلياس" -على آله السلام- ولذا جمع لفظ "إلياس" جمع مذكر سالم ليشملهم، قال أبو حيان: "قرأ زيد بن علي ونافع وابن عامر "على آل ياسين" وزعموا أن (آل) مفصولة في المصحف، و(ياسين) اسم لإلياس ... وقرأ باقي السبعة "على إلياسين" بهمزة مكسورة. أي: إلياسين جمع المنسوبين إلى إلياس معه، فسلم عليهم، وهذا يدل على أن قومه من كان اتبعه على الدين، وكل واحد ممن نسب إليه كأنه "إلياس" فلما جمعت خففت فيه، و حرف العلة الذي للجمع فحذفت لالتقائهما، كما قالوا: الأشعرون، والخبيبون، و المهلبون"[263].

فالمبرد بين التغليب بالأمثلة والشرح وكان كلامه شافيا، وفي التغليب إيثار: خفة اللفظ، وكذا الإفراد على التركيب، وفيه إيجاز واختصار، وتنويه بمن غلب اسمه، وكذلك معنى النسب، فيقال المناذرة بتغليب النعمان بن المنذر على سائر قومه رجالا ونساء، ولا يخفي أن النسب هنا غير قياسي كما هو موضح في علم الصرف.

المبحث الثامن: الفصل و الوصل:

ظاهرة الفصل والوصل إحدى مجالات علم المعاني، وتكتسي أهمية بالغة في دراسات البلاغة، وقد نوّه بأهميتها الكثير من العلماء.

الفصل اصطلاحا معناه أن نفصل بين جملتين، ويكون ذلك يترك العاطف[264]، أما الوصل فهو أن يصل بين الجملتين بأحد حروف النسق[265].

وشيخ البصريين المبرد ذكر هذين المصطلحين دون أن يعرفهما، وعقد في مؤلفه "المقتضب" بابا لحروف العطف ومعانيها، وعرض فيه لدلالات متنوعة لأدوات الربط والعطف مثل: "الواو"، و"الفاء"، و"ثم"، و"أو"، و"لا"، وغيرها.

و بما أن حروف العطف جزء مهم في ظاهرة الفصل والوصل، سأبين معانيها الأصلية والثانوية عند المبرد:

---

[263] تفسير البحر المحيط: 358/7.

[264] ينظر دلائل الإعجاز: ص222.

[265] ينظر المصدرنفسه: ص222

معاني حروف العطف:

إن معرفة مواقع حروف العطف والتمييز بين مواضعها أمر ضروري في تمام حسن النظم، فقد ذكر أبو يعقوب السكاكي أن العطف في باب البلاغة "يعتمد معرفة أصول ثلاثة: أحدها الموضع الصالح من حيث الوضع، وثانيها فائدته، وثالثها وجه كونه مقبولا لا مردودا"[266]. وهي الأمور التي حاول البلاغيون تلمسها داخل النصوص.

و قد كانت للمبرد بصمة جليلة في هذا الأمر حيث أنه عقد بابا في كتابه المقتضب سماه معاني حروف العطف بين فيه حروف العطف وهي عنده عشرة:

1- **أم**: تأتي في الكلام على ضربين، فتكون متصلة ومنقطعة.

أم المتصلة: سميت كذلك لأن ما بعدها متصل بما قبلها، والمبرد لم يشر إلى هذا المصطلح، لكننا نستشفه من خلال حديثه عن أم المنقطعة. و(أم) تكون متصلة عند المبرد بعد ألف الاستفهام، وتكون معادلة لهذه الألف، نحو أزيد في الدار أم عمرو؟ وكذلك: أأعطيت زيدا أم حرمته؟[267].

و من أمثلة (أم) في هذا القسم[268]. قوله تعالى: ﴿**أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ**﴾[269]. وقوله: ﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا**﴾[270].

وتأتي (أم) تارة عاطفة بعد همزة التسوية. ومعنى التسوية عند المبرد "أن تخبر أن الأمرين عندك واحد"[271]. نحو: "سواء علي أذهبت أم جئت. وما أبالي أقبلت أم أدبرت، وليت شعري أزيد في الدار أم عمروا؟"[272]. فأنت تخبر أن الأمرين عندك سواء.

أم المنقطعة: ذكرها المبرد فقال: "تأتي أم منقطعة بعد الخبر والاستفهام جميعا"[273]، و قال:"ولا تكون بمنزلة (أي)"[274]، وسميت بالمنقطعة "لأن ما بعدها قائم بنفسه غير متعلق بما قبله"[275]،

---

(266) مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة 626هـ، دار الكتب العلمية، دط، دت: ص135.

(267) ينظر المقتضب: 286/2.

(268) ينظر المصدر نفسه: 287/3.

(269) سورة ص: الآية63.

(270) سورة النازعات: الآية27.

(271) المقتضب: 287/3.

(272) المصدر نفسه: 287/3.

(273) المصدر نفسه: 288/3، وينظر الكتاب: 182/3.

(274) المصدر نفسه: 294/3

(275) مغنى اللبيب: 44/1.

ولأن "الإضراب لا يفارقها"[276]. فهي تأتي على معنى بل "إلا أن ما يقع بعد (بل) يقين وما يقع بعد (أم) مظنون مشكوك فيه، وذلك أنك تقول: ضربت زيدا ناسيا غالطا، ثم تذكر أو تنبه، فتقول: بل عمرا مستدركا مثبتا للثاني، تاركا للأول ف (بل) تخرج من غلط إلى استثبات، ومن نسيان إلى ذكر، و(أم) معها ظن أو استفهام، وإضراب عما كان قبله"[277].

2- **أو**: تعد (أو) من حروف العطف لأنها تجرى ما بعدها على ما قبلها[278]، نحو قوله تعالى: ﴿**سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ**﴾ [279]: "أي يكون هذا، أو يكون هذا"[280].

و(أو) تفيد معان ذكر المبرد بعضها وهي:

أ- الشك نحو: "أتيت زيدا أو عمرا. وجاءني رجل أو امرأة. هذا إذا شك"[281]، كل السمك، أو اشرب اللبن: أي لا تجمع بينهما.

ب- التخيير: أي "اختر أحد الأمرين مثل: أعطني دينارا، أو ألبسني ثوبا"[282].

ج- الإباحة: "وذلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، وأتت المسجد أو السوق: أي قد أذنت لك في مجالسة هذا الضرب من الناس، وفي إتيان هذا الضرب المواضع"[283].

د- الإشراك: "يتسع بها الباب، فيدخلها المعنى الذي في الواو من الإشراك على أنها تخص ما لا تخضه الواو "[284].

3- **بل**: معناها "الإضراب عن الأول والإثبات للثاني: نحو قولك: ضربت زيدا، بل عمرا. وجاءني عبد الله، بل أخوه، وما جاءني رجل بل امرأة"[285].

---

[276] مغني اللبيب:289/3.
[277] المصدر نفسه: 289/3.
[278] ينظر المقتضب: 28/2.
[279] سورة الفتح: الآية16
[280] المقتضب: 28/2.
[281] المصدر نفسه: 10/1-301/3
[282] المصدر نفسه: 10/1 و301/3.
[283] المصدر نفسه: 11/1 .
[284] المصدر نفسه: 301/3.
[285] المصدر نفسه: 12/1.

و أجاز المبرد أن تكون ناقلة معنى النفي و النهي إلى ما بعدها، وعلى قوله يصح:"ما زيد قائما بل قاعدا"، و "بل قاعدٌ"، و يختلف المعنى[286].

4- **ثم**: من حروف العطف، توحي أن الجملة الثانية تحصل بعد الأولى بمهلة أطول مما في الفاء. مثل: ضرب زيدا ثم عمرا، وأتيت البيت ثم المسجد[287]. وهي تعطف الجمل كما تصل بين المفردات.

5- **حتى**: إن (حتى) تكون حرف عطف، فتشرك بين المعطوفين لفظا ومعنى[288]، لأن معناها في جميع الكلام الغاية، "فهي تصل ما بعدها بما قبلها، نحو: أكلت السمكة حتى رأسها. فالرأس قد دخل في الأكل..." [289]. لذا فإن من شروط معطوفها أن يكون بعض المعطوف عليه أو كبعضه.

6- **الفاء**: هي في كل الأحوال تضم الشيء إلى الشيء مثل الواو، غير أن هذا الضم يأتي معها متسقا بعضه في إثر بعض[290]. فالربط والترتيب لا يفارقانها.

7- **لكن**: إن (لكن) إذا عطفت جملة على جملة يشترط أن يكونا مختلفين في المعنى أي في الإيجاب والنفي نحو: "جاءني زيد لكن عبد الله لم يأت. وما مررت بأخيك لكن عدوك"[291]. فإذا لم يقع نفي لم يجز العطف بـ (لكن).

8- **لا**: وهي تقع لإخراج الثاني مما دخل فيه الأول. "و ذلك قولك: ضربت زيدا لا عمرا، ومررت برجل لا امرأة"[292].

9- **إما**: هي في الخبر بمنزلة أو ولها معنيان[293]:

– إما تبتدئ بها شاكا وذلك قولك: جاءني إما زيد وإما عمرو: أي أحدهما.

---

[286] ينظر مغني اللبيب:188/2.

[287] ينظر المقتضب: 10/1.

[288] ينظر المقتضب: 38/1.

[289] المقتضب: 43/2.

[290] ينظر المقتضب: 10/1. وينظر الكتاب: 117/4.

[291] المقتضب: 10/1.

[292] المصدر نفسه: 11/1.

[293] المصدر نفسه: 11/1.

– و إما للتخيير كقولك: اضرب إما عبد الله وإما خالدا. فالآمر لم يشك ولكنه خير المأمور؛ كما كان ذلك في (أو).

ونظيره قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [294]. وكقوله: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً**﴾ [295].

10- **الواو**: تعد الواو أصل حروف العطف لكثرة دورانها في النصوص العربية، ولعل السر في ذلك أنها لا تدل على أكثر من الإشراك بين المتعاطفين في الإعراب والحكم، في حين أن بقية الحروف توجب زيادة في المعنى. [296]

فالواو معناها: "إشراك الثاني فيما دخل فيه الأول، وليس فيها دليل على أيهما كان أولا؛ نحو قولك: جاءني زيد وعمرو. ومررت بالكوفة والبصرة، فجائز أن تكون البصرة أولا، كما قال الله عز وجل: ﴿**وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [297]. و السجود بعد الركوع"[298]. أي أن الواو معناها "الجمع بين الشيئين وتتصل بقولك: كلكم"[299].

الواو العاطفة بين الجمل: تصل الواو، كغيرها من حروف العطف، بين المفردات والجمل على حد سواء[300]. فإذا أردت بالثاني ما أردت بالأول من الإجراء على الحرف "لم يكن إلا منسوقا عليه. تقول: أريد أن تأتيني وتكرمني"[301].

تناول المبرد الفصل والوصل من خلال حديثه عن واو الابتداء، ومتى يتحتم وجودها في الكلام ومتى يجوز، فإذا وقعت الجملة بعد نكرة أو معرفة وفيها ضمير يتصل بالكلام السابق، فذكر الواو حينئذ ليس حتما في الكلام اكتفاء بذكر الضمير الذي يربط الكلام بعضه ببعض "فتقول مررت برجل زيد خير منه، وجاءني عبد الله أبوه يكلمه، بغير الواو، وإن شئت قلت،

[294] سورة الإنسان: الآية03.
[295] سورة محمد: الآية04.
[296] ينظر شرح المفصل للزمخشري: 06/5.
[297] سورة آل عمران: الآية43.
[298] المقتضب: 10/1.
[299] المصدر نفسه: 26/2-272/3.
[300] ينظر شرح المفصل: 07/5
[301] المقتضب: 33/2.

وزيد خير منه، وأبوه يكلمه بالواو، فإذا قلت مررت يزيد عمرو في الدار، فهو محال إلا على قطع خبر واستئناف آخر، فإن جعلته كلاما واحدا قلت: مررت بزيد وعمرو في الدار"[302].

واضح من العبارة الأخيرة من كلام المبرد أنه يتحدث عن كمال الانقطاع، وعن التوسط بين الكمالين، كما سمي عند المتأخرين من البلاغيين، فقوله: "مررت بزيد عمرو في الدار "فإذا كان بين المرور بزيد وبين وجود عمرو في الدار صلة ما، فلابد من ذكر الواو، للربط بين الجملتين حتى يبدو الكلام متصلا بعضه ببعض، وبغير ذكر الواو يبدو الكلام مستحيلا ولا معنى له، وذكر الواو في مثل هذا المقام هو ما يسمى بالتوسط بين الكمالين عند البلاغيين. أما إذا لم يكن ثمة صلة على الإطلاق بين مرور زيد، وبين وجود عمرو في الدار، وإنما قال القائل مررت بزيد، ثم قطع الكلام، واستأنف كلاما جديدا، فلابد من حذف الواو، لعدم الصلة بين الجملتين، وهذا ما يسمى في عرف البلاغيين بكمال الانقطاع.

وقال المبرد في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ**﴾[303]. "وقول الله عز وجل ﴿لا فارض ولا بكر﴾ هو تمام الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿عوان بين ذلك﴾ والفارض ها هنا المسنة، والبكر الصغير" [304].

فالفصل بين "عوان" وما قبلها لاختلاف المعنى يعد من كمال الانقطاع.

كما تحدث المبرد عما سمي يشبه كمال الاتصال، وذلك إذا كان الكلام جوابا لسؤال مقدر، ونستشف ذلك مما ذكره ابن الزملكاني: "يصح لك ما قاله أبو العباس في "إن زيدا منطلق" إنه جواب عن سؤال مجيئه في جواب القسم، وفي التنزيل ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ كأنه قيل: فإذا قال لكما ما شأنها فقولا ذلك"[305].

و خلاصة القول إن المبرد درس ظاهرة الفصل والوصل دراسة نحوية، ولم تكن له مساهمة بلاغية إلا عند دراسته لمعاني حروف العطف.

---

(302) المقتضب: 125/4.

(303) سورة البقرة: الآية68.

(304) الكامل: 199/1.

(305) التبيان في علم البيان، لابن الزملكاني كمال الدين عبد الواحد، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1974م: ص63.

المبحث التاسع: الإيجاز والإطناب و المساواة:

أولا: الإيجاز: الإيجاز في الاصطلاح هو "اختصار بعض ألفاظ المعاني ليأتي الكلام وجيزا من غير حذف لبعض الاسم، ولا عدول عن لفظ المعنى الذي وضع له"[306].

و هو نوعان:

1- إيجاز القصر: وهو "أن تتضمن الألفاظ القليلة معان كثيرة، دون حذف شيء من التركيب"[307].

و قد أورد المبرد في مؤلفاته العديد من الأمثلة التي تدخل ضمن هذا المبحث[308]. منها: "إذا قلت، أما زيد فمنطلق. مهما يكن من شيء فزيد منطلق، وكذلك: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**﴾[309]. إنما هي: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم"[310]. و هذا من إيجاز القصر؛ لأنه أريد بكل من الآية الكريمة والمثال معنى أكثر من اللفظ، فكلمة: أما حرف بسيط فيه معنى الشرط والتفصيل والتوكيد.

ومن الإيجاز الاستفهام بكلمة "مهيم"؟ "فهي حرف استفهام، معناه: ما الخبر؟ وما الأمر؟ فهو دال على ذلك محذوف الخبر، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ رأى بعبد الرحمن بن عوف درع خلوق، طيب، فقال: "مهيم"؟ فقال: تزوجت يا رسول الله. فقال: أولم ولو بشاة"[311]. فقولهم: "مهيم" اختصار لجملة اسمية هي: ما الخبر، وهو من إيجاز الحذف.

2- إيجاز الحذف: وهو كل كلمة تسقط من العبارة، وتكون مفهومة من سياق الكلام فتدخل في إيجاز الحذف، والمحذوف إما: جزء جملة، أو جملة، أو كلمة مفردة ... وقد بينت ذلك في مبحث الحذف.

---

(306) تحرير التحبير: 459/1.

(307) الصناعتين: ص180.

(308) ينظر الباب الأول: الفصل الثاني.

(309) سورة الضحى: الآية09.

(310) الكامل: 288/1.

(311) المصدر نفسه: 356/3.

ثانيا: الإطناب:

هو "أداء المقصود بأكثر من العبارة المتعارفة وأن يخبر المطلوب بمعنى المعشوق بكلام طويل، لأن كثرة الكلام عند المطلوب مقصودة، فإن كثرة الكلام توجب كثرة النظر وقيل: الإطناب أن يكون اللفظ زائدا على أصل المراد"(312).

للإطناب مواطنه، كما أن للإيجاز مواضعه، ولكل موقعه من البلاغة. فالجاحظ يبين منهج العرب في الخطابة بقوله: "جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والحضر على ضربين: منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه"(313).

و جاء في نقد النثر قول جعفر بن يحي: "إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرا، وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار هذرا"(314). هذا منهج العرب في القول.

و قد أشار إليه المبرد بقوله: "من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفخم"(315). وقد نبه علماء البلاغة على أن زيادة اللفظ لابد أن تكون لفائدة.

وللإطناب صور كثيرة مثل: البيان بعد الإبهام، والتوشيح، والاعتراض ... فمن البيان بعد الإبهام قول المبرد في قول الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿**لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ**﴾ (316). "وهو تمام الكلام، ثم استأنف، فقال: ﴿**عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ**﴾" (317). وصفت البقرة أولا بأنها: "لا فارض ولا بكر" وفي هذا النوع من الإبهام، ثم وضح وبين بأنها "عوان" فتم المراد من الوصف؛ فهذا من "البيان بعد الإبهام".

و فائدته: التعريض بغباوة بني إسرائيل واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يترك لهم مجالا لإعادة السؤال (318).

(312) التعريفات: ص29.
(313) البيان والتبيين: 7/2.
(314) نقد النثر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، حققه و علق حواشيه طه حسين بك و عبد الحميد العبادي، المطبعة الأميرية ببلاق، 1941م : ص109.
(315) الكامل: 27/1.
(316) سورة البقرة: الآية68.
(317) الكامل: 199/1.
(318) ينظر تفسير التحرير والتنوير: 551/1.

لقد عني المبرد بالإيجاز، وأورد ما أثر فيه عن العلماء، كما أورد له الكثير من الأمثلة، فهو يميل إلى الإيجاز والاختصار، وأما الإطناب فلم أجد له سوى صورة البيان بعد الإبهام.

ثالثا: المساواة:

في الاصطلاح: "أن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض"[(319)].

عرض الجاحظ للمساواة وقال: "حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا وتلك الحال لها وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا"[(320)].

ولقد ألمح لها المبرد دون أن يذكرها حين علق على أبيات منها:

عَرَضْتُ نَصِيحَةً مِنِيّ لِيَحْيِيَ فَقَاَلَ: غَشَشْتَنِي وَالنُّصْحُ مُرُّ
وَماَ بِي أَنْ أَكُونَ أَعِيبُ يَحْيَى وَ يَحْيَى طاَهِرُ الأَثْواَبِ بَـــرُّ ...

وقال: "فهذا كلام ليس فيه فضل عن معناه"[(321)]. أي أن ألفاظه قوالب لمعانيه لا يزيد بعضها على بعض.

وخلاصة القول إن اهتمام المبرد بالإيجاز كان واضحا في مؤلفاته أما الإطناب والمساواة فكانت نظرته إليها ليست ذا بال لأن الإيجاز من أهم خصائص لغة العرب، فقد كانوا يميلون بسليقة إلى الألفاظ القليلة التي تحتوي على ألوان من المعاني المختلفة والكثيرة.

(319) الصناعتين: ص185.
(320) البيان والتبيين: 93/1.
(321) الكامل: 43/1.

الفصل الثاني:
علم البيان

علم البيان يتتبع ورود المعنى الواحد في طرق مختلفة، وذلك عن طريق التشبيه و المجاز والاستعارة والكناية وغيرها "ليحترز بالوقوف على ذلك الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[1]،

المبحث الأول: التشبيه:

التشبيه فن من فنون التعبير الجميل المؤثر تعتمده النفوس البشرية بالفطرة حين يدعوها إلى ذلك غرض أو آخر من أغراضه التي رصدها البلاغيون القدامى [2]، والمعاصرون [3] فرسخوا بخصوبتها وغناها آفاقه الرحبة التي اتسعت لفئات الأمة وطبقاتها في تحقيق مآربهم الفكرية وخلجاتهم الشعورية ومقاصدهم اليومية [4].

و التشبيه قبل المبرد كان موزعا في كتب السابقين، يصادفنا خلال حديث المؤلف عن موضوع بعينه قد يكون بعيدا كل البعد عن التشبيه، فيستطرد منه إلى مثال في التشبيه، أو تعقيب على بيت من الشعر تضمن تشبيها، أو بعض آيات من القرآن حفلت بالتشبيه وعلى كل، فلم يكن الحديث عن التشبيه قبل المبرد هو القصد الأول الذي يرمي إليه المؤلف وإنما نراه داخلا في طيات غيره.

ولما جاء المبرد أفرد له بابا مستقلا أطال فيه الحديث عنه، بدأه بقوله: "وهذا باب طريف نصل به هذا الباب، الجامع الذي ذكرناه وهو بعض ما مرّ للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم" [5].

من استقراء المبرد للنماذج الشعرية الكثيرة استخلص معلومات نظرية تدور حول محورين أساسيين: حد التشبيه وأقسامه:

---

(1) مفتاح العلوم: ص 86.

(2) ينظر الإيضاح: 186/2.

(3) ينظر فن التشبيه، علي الجندي، ط2، 1368هـ، 1966م، القاهرة: ص218.

(4) ينظر البلاغة و التطبيق، أحمد مطلوب وكمال حسن البصير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجمهورية العراقية، ط1، 1402هـ/ 1982م: ص311.

(5) الكامل: 40/2.

أولا: حد التشبيه:

حاول المبرد أن يقدم لنا حدا للتشبيه فقال: "واعلم أن للتشبيه حدا، فالأشياء تشابه من وجوه، وتتباين من وجوه، فإنما يُنظَرُ إلى التشبيه من أين وقع، فإذا شبّه بالشمس فإنما يراد: الضياء والرونق، ولا يُراد العظم والإحراق"[6].

وفي موضع من المقتضب قال: "لأن الشيء لا يشبه الشيء في جميع حالاته، وإنما يشبهه من حيث تشبه به، ولا يكون إلا على مقدمة: تقول: كان خالد القسري مثل حاتم الطائي، لم ترد الزمان والقدم، ولم ترد الجاهلية والإسلام، ولم ترد أن القبيلة تجتمع عليهما، ولكنك ذكرت جود خالد فقرنته بحاتم لما سبق له.

وكذلك لو قلت كان جرير كامرئ القيس بعد أن تذكر الشعر والمرتبة فيه، فهذا دليل التشبيه. فإن قلت هذا مثيل هذا وقد قدمت نحوا مما ذكرنا علم أنك حقرته من حيث حقرت المشبه به بالمعنى يصلح اللفظ ويفسد" [7].

من خلال هذين التعريفين نلاحظ أن المبرد عنى بحد التشبيه ما عرف بعد عند علماء البلاغة بـ"وجه الشبه".

ثانيا: أقسامه:

إن أبرز مجهود شخصي بذله المبرد يتعلق بالبلاغة العربية، ذلك الباب الطريف الذي عقده للتشبيه. فهو في هذا الباب كله لم يعتمد على أسلافه من علماء البلاغة والنحو واللغة كسيبويه والفراء، وأبي عبيدة وابن قتيبة، وإنما اعتمد على استقراءاته في الشعر العربي، وجمع الشواهد الشعرية التي تحقق له إفراد باب بأكمله في موضوع واحد. فكان أول من قسم التشبيه إلى أقسام عديدة وهي :

يقول المبرد: "والعرب تشبه على أربعة أضرب؛ فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير، ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام" [8].

---

[6] الكامل: 52/3.

[7] المقتضب: 274/2.

[8] الكامل: 128/3.

لقد قدّم لنا المبرد مجموعة من الأوصاف للتشبيه ، ولكنه أراد أن ينبه إلى أن هذه الأضرب هي أصول التشبيه التي يدور في فلكها كل ما تجود به قرائح الشعراء والمتكلمين من تشبيهات في شتى الأغراض. وسأبين هذه الأضرب:

-**التشبيه المفرط**: هو التشبيه "المبالغ فيه، أو المبالغ في الصفة التي تجمع بين المشبّه والمشبه به" (9) أو بمعنى آخر "هو التشبيه الذي يتجاوز الحدود، ويتخطى ما تعارف الناس عليه" (10).

وحاسة المبرد الفنية وذوقه الأدبي لهما أثر في إدراك هذا الإفراط والإعجاب به، وقد أيد كلامه بنصوص من أدب القدماء والمحدثين. والشيء الهام في نظر المبرد هو الإقناع الفني الذي يتمكن فيه الشاعر بملكاته الخيالية من تبرير الصورة، وإقناعنا بها (11). والشاعر بهذا الإقناع الفني يمكّن للصورة الأدبية، ويجعل المتلقي يسلم بها، ويعرف قدرها.

يقول المبرّد (12): ومن التشبيه المتجاوز المفرط قول الخنساء (13).

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ.

ومن هذا الضرب قول العجّاج (14):

تقضَّى البازي إذا البازيُّ كَسرْ

والتقضي: الانقضاض، وإنما أراد سرعتها (15).

شبهت الخنساء أخاها صخرا بالجبل، "واشترطت أن يكون "في رأسه نار" لأنه يزيد في الشهرة والوضوح، والإفراط جاء من هذا الشرط، وشبه العجاج انقضاض "ابن معمر" من الشام بانقضاض البازي، وزاد في المشبه به شرطا هو قوله: "إذا البازيُّ كسر" أي ضم جناحيه، ليزيد انقضاضه"(16).

(9) علم المعاني و البيان والبديع، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت: ص269.

(10) المختصر في تاريخ البلاغة، عبد القاهر حسين، دار الشروق، ط1، 1402هـ/1982م،: ص67.

(11) ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي: 2/3.

(12) الكامل: 46/3.

(13) ديوان الخنساء: ص46.

(14) ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي و شرحه، تحقيق عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، 1971م: 42/1.

(15) الكامل: 47/3.

(16) أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل، مصطفى السيد جبر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م: ص241.

والتشبيه المفرط ليس مما يعاب في الشعر بل العكس، يرشدنا إلى ذلك أنه من الكثرة الكاثرة في كلام العرب حيث يقول المبرد: "فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخي:هو كالبحر، وللشجاع: هو كالأسد وللشريف: سما حتى بلغ النجم"[17].

فقد ضم إلى الإفراط في التشبيه كل من: التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مكان المشبه، والعكس؛ للمبالغة، وكذا: التشبيه الضمني الذي يفهم من النص، دون التصريح به. يقول: "فمن الإفراط في السرعة قول ذي الرُّمة [18]:

كأَنَّه كوكبٌ في إِثْر عِفْرِيَةٍ مُسوَّمٌ في سوادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ

يقال: عفريت، وعِفْرية في معنى واحد. والتاء في "عفريت" زائدة"[19]. فهو يشبه ثورا ولي منهزما، من كلاب صيد بالكوكب في سرعته وبياضه، وانقضاض الكوكب أسرع، ولذا كان التشبيه متجاوزا.

ولكن المبرد يخلط بين التشبيه المفرط، وغيره من أساليب البيان، فمما مثل به قول أبي الطمحان القيني[20]:

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهم ووُجُوهُهم دُجَى الليلِ حتى نظَّم الجزْع ثاقِبُه

فهو من الاستعارة المكنية. يجعل الأحساب والوجوه من المصابيح.

كما مثل بقول أبي بكر بن النطّاح [21]:

لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبـَارِهَـا و هِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِـنَ الدَهْـرِ
لَهُ راَحَةٌ لَوْ أَن مِعْشَارَ جُودِها عَلَى البَر كَانَ البرُّ أَنْدَى مِنَ البَحْرِ

فالصورة هنا أدخل في المبالغة [22] وبالتالي فهي أدخل في الخيال لذا قال عنها من "المفرط المجاوز" .

---

(17) الكامل: 128/3.
(18) ديوان ذي الرمة: ص19، والضمير في "كأنه" راجع إلى "أزهر" في بيت قبله، وهو:
ولاح أزْهرَ معروفٌ بِنُقبَتِهِ كأنه حين يعلو عاقراً لهبُ
هاجَتْ له جُوَّعٌ زُرقٌ مخصرةٌ شوازبٌ لاحها التغريثُ والجَنْبُ
(19) الكامل: 107/3.
(20) المصدر نفسه: 129/3.
(21) المصدر نفسه: 128/3.
(22) ينظر الإيضاح: 47/3.

ومن شعر المحدثين المفرط المتجاوز ذكر المبرد أبياتا، "قال بعض المحدثين في رجل يهجوه والمهجو داود بن بكر وكان ولي الأهواز" [23]، والشعر لأبي الشمقمق [24]:

وَلَهُ لِحْيَةُ تَيْسٍ　　　وَلَــهُ مِنْقَــارُ نَســرٍ
ولَهُ نَكْهةُ لَيْثٍ　　　خَالَطَتْ نَكْهَةَ صَقْرِ

إن الإفراط في التشبيه لا يعد كذبا وإنما هو قول صادق موشى بزينة المبالغة، تلك التي لاحظها المبرد وأعجب بها أيما إعجاب [25]، وما سايره في ذلك حازم القرطاجني. [26]

– **التشبيه المصيب**: يعتبر المبرد التشبيه المصيب من أهم أقسام التشبيه "لأنه يحقق صفات التطليق بين الأطراف الخارجية لعناصر المشابهة، ويقوم على لياقة عقلية واضحة"[27].

وهو ما يتفق الناس على صدقه [28] وكان وجه الشبه مفيدا للتماثل بين طرفي التشبيه. وهذا النوع يتسم بالصدق والاعتدال، وتحقيق الغرض دون إفراط، فهو على النقيض من التشبيه المفرط، ولذا عقّب الزجاجي على قول الشاعر:

وَيَوْمٍ عِنْدَ دَارِ أبي نُعيمٍ　　　قَصِيرٍ مِثْلِ سَالِفةِ الذُبابِ

بقوله: "وأنا أقول: إن هذا نهاية في الإفراط، وخروج عن حدود التشبيه المصيب"[29].

والمبرد يؤثر التشبيه المصيب، وينبه عليه بقوله: "وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبَّه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبّه فيه بفطنته على ما يخفى عن غيره، وساقه بوصف قوي، واختصار قريب"[30].

---

[23] الكامل: 51/3 .

[24] ديوان أبي الشمقمق، جمعه وحققه وشرحه واضح محمد حمد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1415هـ/1995 م:ص 44.

[25] ينظر المختصر في تاريخ البلاغة: ص 66-67.

[26] ينظر منهاج البلغاء: ص 75.

[27] الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي: ص214.

[28] ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي: ص215

[29] الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية، للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن القاسم الزجاج، دار الكتاب العربي بيروت، دط، دت: ص123.

[30] الكامل: 294/1.

ولكنه لم يحدد كلا من التشبيه المصيب، والمقارب تحديدا دقيقا، "وترك هذا التحديد اعتمادا على منهج العرب، واكتفاء بالدلالة اللغوية، وإشارته الذكية إلى المراد ببعض التشبيهات"[31].

ويطالعنا التشبيه المصيب في الكامل كثيرا، وقد بدأ به المبرد "باب التشبيه" فقال: "وهذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامع الذي ذكرناه، وهو بعض ما مرّ للعرب من التشبيه المصيب، وللمحدثين بعدهم، فأحسن ما جاء بإجماع الرواة ما مر لامرئ القيس في كلام مختصر أي بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين مختلفتين بشيئين مختلفين". [32]وهو قوله: [33]

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطْباً وَيابِساً لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحَشَفُ البَالِي.

فالاختصار في إيراد هذين التشبيهين مع الوفاء بالمعني هو الغرض من أسباب إصابة هذا التشبيه، ولذا أثني عليه الرواة كما قال المبرد.

ومما مثل به المبرد قول "الشيباني للحجاج:

هَلاَّ بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةٍ فِي الوَغَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ

فهذا يجوز أن يكون في الخفقان، وفي الذهاب البتة" [34].

حيث شبه الشيباني قلب الحجاح وخوفه من "غزالة" حتى بلغ هذا المبلغ. والمبرد هنا ذكر تعدد وجه الشبه. وهذا البيت أقوى في الدلالة على الخوف.

وقريب من هذا ما تضمنه البيت الذي رواه المبرد وهو [35]:

كَأَنِّي بَيْنَ خَافِيَتَيْ عُقَابٍ أَصَابَ حَمَامَةً في يَوْمِ غَيْنٍ

حيث صور الشاعر نفسه وقد سيطر عليه اليأس بالحمامة التي أوقعها القدر في مخلب عقاب في يومٍ غائمٍ.

و ذكر المبرد أبياتا لذي الرّمة ثم قال: "وفي هذه القصيدة من التشبيه المصيب قوله[36]:

---

[31] أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل: ص243.

[32] الكامل: 32/3.

[33] ديوان امرئ القيس: ص129.

[34] الكامل: 38/3.

[35] ينظر المصدر نفسه: 84/3.

[36]المصدر نفسه: 41/3 والبيت بديوان ذي الرمة: ص12، وقد ورد بغير هذا اللفظ. و اللفظ بتمامه:

كَحْلاَءُ فِي بَرَجٍ، صَفْرَاءُ فِي نَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

بَيْضَاءُ فِي دَعَجٍ صَفْرَاءُ فِي نَعَجٍ كَأَنهاَ فِضَةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

ولم يعلق عليه.

بينما علق عليه ابن جني (ت392هـ) حينما أشار إلى أن ذا الرمة كان من أنصار مدرسة الصنعة مثل زهير، وابن أبي حفصة صاحبي الحوليات... فقال: "وكذلك الحكاية عن ذي الرمة أنه لما قال: * بَيْضَاءُ فِي دَعَجٍ صَفْرَاءُ فِي بَرَجٍ* أجبل حولا، لا يدري ما يقول إلى أن مرت به صِينية فضة، قد أشربت ذهباً فقال: *كأنها فضة قد مسَّها ذهب*"[(37)]

شبه بياضها المشوب بصفرة بفضة مسّها يسير من الذهب. وفيه نوع من التفصيل الذي يحتاج إلى الفكر والتأمل.

ونعود إلى المبرد حيث يقول:" ثم نرجع إلى التشبيه المصيب.

قال امرؤ القيس في طول الليل [(38)] :

كَأَنَ الثُّرَيا عُلِقّتْ فِي مَصَامُهاَ بِأَمْرَاسِ كِتَّانِ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ

فهذا في ثبات الليل وإقامته. و المصامّ: المقام...وقال في ثبات الليل:

فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

المغار: الشديد الفتل...ويذبل: جبل بعينه" [(39)].

البيتان في الحديث عن طول الليل وثباته." ففي الأول جعلت الثريا كأنها عقلت بحبال كتان، مشدودة إلى حجارة صُمّ، فهي عنده لا تتحرك، وفي الثاني صورت النجوم في ثباتها كأنها مشدودة بحبال محكمة الفتل إلى جبل"[(40)].

و التشبيه فيهما مصيب؛ لأن فيه تصويرا دقيقا لكل من الخائف والمهموم ونحوهما فالشاعر يشعر بثقل الليل وطوله.

[(37)] الخصائص: 324/1.

[(38)] ديوان امرىء القيس: ص117. و ينظر. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ابن الأنباري، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، ط4: ص79.

[(39)] الكامل: 113/3.

[(40)] أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل: ص248.

– **التشيه المقارب**: هو ذلك التشبيه الصريح الذي يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى تفسير أو تأويل، لأنه ظاهر مكشوف يتسم بالبساطة و الوضوح [41].

أي هو ما تقارب فيه طرفا التشبيه، فكان واضحا لا يحتاج إلى تبيين. وهذا التقارب في الصفة يعطي التشبيه جودة و حسنا.

يقول المبرد: "وأحسن التشبيه ما قارب فيه القائل إذا شبه"[42] ومما مثل به قول "عقبة العنزي في صفة فرس: لَهُ بَيْنَ حَوَاشِيه نُسُورٌ كَنَوَى القَسْبِ

وقد أتبعه بقوله: "فهذا تشبيه مقاربٌ جدا" [43].

شبهت النسور بالتمر اليابس الجاف في الشكل والحجم والصلابة، ونعته بأنه "مقارب جدا" تنبيها إلى ما بين طرفيه من تقارب شديد.

وقد عدّ المبرد بيتا لذي الرمة بأنه "من حلو التشبيه وقريبه، وصريح الكلام وبليغه" [44]، فهو–عنده– من التشبيه المقارب: ولكنه من التشبيه المقلوب [45] :

وَرَمْلٍ كَأَوْرَاكِ العَذَارَى قَطَعْتُهُ وَ قَدْ جَلَّلَتْهُ الظُّلُمَاتُ الحَنَادِسُ

هو أول شواهد ابن جني في "باب غلبة الفروع على الأصول" وذكر أنه لا يجيء شيء في هذا المعنى إلا والغرض منه المبالغة. قال: "أَفَلاَ تَرَى ذا الرُّمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا. وذلك أن العادة والعرف في نحو هذا أن تشبّه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء...فَقَلَبَ ذو الرّمة العادة والعرف في هذا، فشبّه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء. وهذا كأنه يخرج مخرج المبالغة، أي قد ثبت هذا الموضع في هذا المعنى لأعجاز النساء وصار كأنه الأصل فيه ، حتى شبَّه به كثبان الأنقاء". [46]

من الملاحظ أن الأمثلة التي ذكرها المبرد لهذا الضرب من التشبيه مما يعرفه كل أحد لأن طرفيه ما يقع تحت البصر في تلك البيئة.

---

[41] ينظر المختصر في تاريخ البلاغة : ص67

[42] الكامل: 3 /113

[43] المصدر نفسه: 3 /113

[44] المصدر نفسه: 109/3 .

[45] ديوان ذي الرمة: ص146.

[46] الخصائص: 300/1-301.

– **التشبيه البعيد:** فسره المبرد بأنه "يحتاج إلى التفسير، ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام"[47]. و هذا النوع مردود؛ إذ لا يعلم المراد منه إلا بتفسير، وهو نوعان:

الأول: إذا شبه بموجود، وقصد القائل معني لا يتبادر إلى الذهن عند ذكر المشبه به ومثل له بقول الشاعر:

بَلْ لَوْ رَأَتْنِي أُخْتُ جِيرَانِناَ　　　إِذْ أَناَ فِي الدَارِ كَأَنِي حِمَارُ.

ثم أتبعه بقوله: "فإنما أراد الصحة. فهذا بعيد؛ لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره، وقال الله —عز وجل– وهذا البين الواضح: ﴿ **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾[48]، والسِّفر: الكتاب: وقال: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ** ﴾في أنهم تعاموا عنها، وأضربوا عن حدودها، وأمرها، ونهيها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها.

وهجا مروان بن سليمان بن يحي بن أبي حفصة قوما رواة الشعر بأنهم لا يعلمون ما هو على كثرة استكثراهم روايته؛ فقال:

زَوَامِلُ لِلْأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ　　　بِجَيِّدِهَا إِلاَّ كَعِلْمِ الأَبـَاعِـــرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي البَعِيرُ إِذاَ غَدَا　　　بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الغَرَائِرِ" [49]

شبه الشاعر نفسه بالحمار على إطلاقه. قال المبرد: "فإنما أراد الصحة؛ فهذا بعيد"؛ "إذ لا قرينة تدل عليه، وإنما يفهم ذلك بقرينة خارجية. فالمتبادر في العرف عند التشبيه بحمار الوحش هو: الغباء، والبلادة والبلاهة، لا الصحة كما عني الشاعر. فالتشبيه على هذا يوقع في الحيرة؛ ولذا كان بعيدا"[50].

ثم إنَّ تعليق المبرد تضمن تفسيرا طريفا للإبعاد في قوله: "لأن السَّامِعَ إنما يستدل عليه بغيره"وهو يشير إلى "وجه من وجوه إدراك المعنى حيث تفسر اللغة باللغة ويقوم الاستعمال الدارج مقام العلامة الراشدة في المعنى. فكأنه تتكون لدى الإنسان بمفعول الزمن، ردود فعل

---

(47) الكامل: 3/128–132 وهذا غير التشبيه البعيد الغريب الذي يحتاج إلى فضل تأمل وفكر، لخفاء وجه الشبه أول الأمر إما لكثرة التفصيل، أو لندور حضور المشبه به في الذهن عند حضور المشبه؛ لبعد المناسب بينهما. ينظر الإيضاح: 3/72.

(48) سورة الجمعة: الآية5.

(49) الكامل:3/132، والبيتان من: شعر مروان بن أبي حفصة، جمعه و حققه و قدم له حسين عطوان، دار المعارف القاهرة، ط3،دت: ص 58.

(50) أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل : ص250.

معينة تبادر بها، متى وقع المنبه، إلى معنى دون معنى آخر، فإذا خرج مستعمل تلك العبارة عن المعنى اللصيق بها يكون أبعد، ولاسيما إذا تعلق الأمر بالأمثال المشتركة الشائعة مثل المثال السابق" [51].

و الثاني: إذا لم يكن للمشبه به واقع، فإذا شبه بما لم يقع فكيف يتصور المعنى !؟ و قد نبه المبرد على ذلك بقوله: "وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم، وعن أصل أخذوه أن يشبهوا عن المرأة بعين الظبية، أو البقرة الوحشية..." [52]، فالتشبيه إذا كان عن أصل كان مستحسنا، وإلا كان بعيدا ومردودا.

وروي المبرد نقد نُصيب للكميت في أبيات، فقال: "ثم أنشده في أخرى:

كَأَنَّ الغُطَامِطَ مِنْ جَرْيِهَا أَرَاجِيزُ أَسْلَمَ تَهْجُو غِفارَا

فقال له نصيب: ما هجت أسلم غِفاراً قط؛ فاستحيا الكميت؛ فسكت" [53].

وسبب النقد أن الكميت شبه بما لا واقع له؛ فيكون التشبيه قياسا على مجهول ! فلا يتبين المراد.

يقول الجاحظ: "فجعل الأراجيز التي شبهها في لغطها والتفافها بصوت غليان القدر لأسلم دون غفار" [54] فالتشبيه بعيد لأنه لا يعلم المراد منه.

بالإضافة إلى هذا التقسيم أطلق المبرد على كثير من التشبيهات أوصافا، فهو يصف بعض التشبيهات بالحسن، وبعضها الآخر بالجودة، وبعضا ثالثا بالملاحة، ورابعا بالاستطراف، كما وصف بعضها بصفات: المحمود، والعجيب، والمطّرد... ولم يكتف بهذا؛ فاشتق من الوصف الواحد أوصافا، وبمعنى آخر جعل الوصف دراجات، فقال: "تشبيه حسن" و"تشبيه مستحسن" وأحسن التشبيه، بل وكون صفة من صفتين؛ فقال: "تشبيه قاصد صحيح"، و"حسن مستطرف"، و"التشبيه الحسن الذي نستطرفه" وقال: "ومن أحسن التشبيه ومليحه".

---

(51) التفكير البلاغي عند العرب: ص 366-367.

(52) الكامل:3/ 132.

(53) المصدر نفسه: 160/2.

(54) البيان والتبيين: 224/2.

إن الأمثلة لهذه الأوصاف وردت في "الكامل" على غير نظام وترتيب، والسبب أن الكتاب لم يؤلف خالصا للبلاغة وإنما هو اختيارات أدبية، ثم شرح لما يراه المبرد من مفرداتها اللغوية، وبيان للمستغلق من المعاني.و هذه دراسة لبعض تلك التشبيهات:

-**التشبيه الحسن**[55]: تتفاوت درجات النظم في الحسن؛ ويبدو هذا واضحا في التشبيه؛ فاشتراك طرفيه في أكثر الصفات يعد من أسباب الحسن، وأما زيادته فترجع إلى أسباب مثل إصابة الحقيقة دون إفراط، أو جودة النظم وما يحوي من خصوصيات كالإيجاز، وكذا إيراد التشبيه على غير الصورة المعهودة[56].

يقول المبرد: "وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبَّه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه بفطنته على ما يخفى عن غيره، وساقه بوصف قوي، واختصار قريب"[57].

ويقول في أول باب التشبيه: "فأحسن ما جاء بإجماع الرواة ما مر لامرئ القيس في كلام مختصر. أي بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين مختلفتين بشيئين مختلفين وهو قوله[58]:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطيرِ رطباً ويابساً لَدَى وَكْرِهَا العُنّابُ والحَشَفُ البالِي.

فهذا مفهوم المعنى. فإن اعترض معترض فقال: فهلا فصل، فقال: كأنه رطب العُنّاب، وكأنه يابس الحشب ! قيل له: العربي الفصيح اللقن يرمي بالقول مفهوما، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عِيا..."[59]

فالاختصار هنا أن الشاعر ذكر لقلوب الطير تشبيهين بأداة واحدة كي لا يقع التكرير، وأورد هذا في رصف قوي، ونظم بديع.

ومن أمثلته قول زهير [60]:

كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ.

---

[55] يدرس في هذا المبحث: التشبيه الحسن ومشتقاته مثل: أحسن التشبيه، وتشبيه مستحسن للاطلاع ينظر الكامل: 3/41-46-113-142-148-151-42-133-46.

[56] ينظر أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل : ص209.

[57] الكامل: 1/294.

[58] ديوان امرئ القيس: ص129.

[59] الكامل:3/31 .

[60] ديوان زهير بن أبي سلمى: ص105.

يقول المبرد: "الفنا: شجر بعينه يثمر ثمرا أحمر، ثم يتفرق في هيئة النَّبق الصغار. فهذا من أحسن التشبيه" [61].

المشبه: فُتات العهن، والمشبه به: حب الفنا. وقد وصف بقيد تحقق به التماثل. وهو قوله: "لم يحطم". وذلك أن: "حب الفنا" إذا كُسر ظهر له لون آخر غير الحمرة. فحسن التشبيه بسبب هذه الزيادة. فقد شبه ما تفتت من العهن الذي علق على الهودج إذا نزلن منه منزلا بحب الفنا.

ويقول المبرد: "ومن التشبيه المستحسن قول علقمة بن عَبدة [62]:

كَأَنَّ إبْرِيقَهُم ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُفَدَّمُ بِسِبَا الكتَّانِ مَلْثُومُ .

فهذا حسن جدا "[63].

شبه الإبريق بظبي "في طول عنقه وإشرافه. و جعله على شرف لأن ذلك مما يزيد في طول عنقه للناظر"[64] فقوله: "على شرف" قيد يتحقق به وجه الشبه وهو من أسباب حسن التشبيه.

وجاء في الكامل: "وحدثت أن العماني الراجز أنشد الرشيد في صفة الفرس:

كَأَنَّ أُذُنَيْهِ إذَا تَشَوَّفَا قَادِمَةً أو قَلَّمًا مُحَرَّفاَ

فعلم القوم كلهم أنه قد لحن، ولم يهتد منهم أحد لإصلاح البيت إلا الرشيد؛ فإنه قال له: قل: *تخال أذنيه إذا تشوفا*

والراجز وإن كان لحن فقد أحسن التشبيه "[65].

فسبب الحسن أن الراجز ولَّد ذكر التحريف في القلم [66]، فزاد صفة تقارب بها التشبيه؛ "إذ يندر عادة حضور المشبه به عند حضور هذا المشبه، ومعلوم أن الأداة (كأن) تفيد تحقيق التشبيه وتأكيده، بخلاف "تخال" فإنها تفيد الظن، أو الشك. وأما اللحن ففي الإعراب؛ لأن

[61] الكامل:92/3.
[62] ديوان علقمة بن عبدة الفحل: ص46.
[63] الكامل:42/3.
[64] البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد و مراجعة إبراهيم مصطفى، طبعه مصطفى الحلبي، دت: ص179.
[65] الكامل: 141/3، و رغبة الأمل: 47/7.
[66] ينظر العمدة: 264/1.

"العماني" نصب خبر "كأن" وما عطف عليه"[67]. وقد راعى الراجز في كل من "المشبه" و"المشبه به" شرطا لتحقيق وجه الشبه، وبهما اكتسب التشبيه صفة الحسن.

وأتبع المبرد هذا البيت بقوله: "ومن التشبيه الحسن الذي نستطرفه قوله:

تَعَاطيكَهَا كَفٌّ كَأَنَّ بَنَانَهَا إذا اعْتَرَضْتَها العَيْنُ صَفُّ مَدَارِي"[68]

ولم يعلق بشيء.

فقد شبهت البنان في الدقة والاستواء بأسنان المشط. وسبب الاستطراف ندور حضور المشبه به في الذهن عند حضور المشبه، لبعد المناسبة بينهما.

و قال المبرد في موضع آخر: " وقد وقع على ألسنة الناس من التشبيه المستحسن عندهم، وعن أصل أخذوه: أن يشبهوا عين المرأة، والرجل بعين الظبي، أو البقرة الوحشية، والأنف بحد السيف، والفم بالخاتم، والشعر بالعناقيد، والعنق بإبريق فضة...فهذا كلام جاري على الألسن"[69].

وقال: "ومن التشبيه الحسن قول جرير في صفة الخيل:

يَشْتفنَ للنَّظرِ البَعِيدِ كأنَّما إرنانُها بِبَوَائِنِ الأشطانِ

قوله: "يشتفن" و"يتشوَّفْن" في معنى واحد. وقوله:"كأنما إرنانها ببوائن الأشطان" أراد: شدة صهيلها. يقول: كأنما يصهلن في آبار واسعة، تُبين أشطانها عن نواحيها. ونظير ذلك قول النابغة الجعدي:

وَيَصْهَلُ في جَوْفِ الطَّوِيِّ صَهِيلاً يُبِينُ للمُعربِ" [70]

فقوله: "تبين أشطانها عن نواحيها" أي "تبعد حبالها عن جوانبها. وهذا يدل على سعة أجواف الخيل عند صهيلها. وكذا الحال في بيت النابغة فهو يصف سعة أجوافها. فكأن جوف الواحد منها عند الصهيل بئر، وبه يعرف الخيل أنه عربي؛ فالمراد بقوله: "يُبين للمعرب" أنه إذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم أنه عربي" [71].

---

[67] أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل: ص212.

[68] الكامل: 141/3.

[69] المصدر نفسه: 133/3.

[70] المصدر نفسه: 46/3.

[71] الخصائص: 36/4.

وقال المبرد: "ومن حسن التشبيه قول عنترة [72]:

غَادَرْنَ نَضْلَةَ فِي مَعتَرَكٍ   يَجُرُّ الأسِنَّةَ كالمحْتَطِب.

يقول: طعن وغودرت الرماح فيه؛ فظل يجرها كأنه حامل حطب"[73]. و وجه الشبه: حال المجهد الذي يعاني من أشياء تزيد من آلامه فالتشبيه مركب.

-**التشبيه الجيد**: إن التشبيه الجيد هو المظهر العملي لقدرات الشاعر الذهنية الخاصة لا تتوافر فيمن حوله من البشر العاديين، وهي قدرات تمكنه من أن يعرف-أكثر مما يعرفون- ويدرك-أكثر مما يدركون-العلاقات الكامنة بين الأشياء [74].

أعجب المبرد بكثير من التشبيهات، ووصفها بالجودة ، وروعة التصوير؛ و من الشعراء الذين عدّهم المبرّد ذوي فطنة مكّنتهم من قول الشعر الذي يحتوي على التشبيه الجيّد أبو نواس.قال: "وفي هذا الشعر من التشبيه الجيد قوله:

خَبِّرْ فُؤَادَكَ أَوْ سَتُخْبِرُهُ   قَسَماً لِيَنْتَهِينَّ أَوْ حَـلَفاَ

اَلْحُبُّ ظَهْرٌ أَنْتَ رَاكِبُهُ   فَإِذَا صَرَفْتَ عِنَانَهُ انْصَرَفاَ" [75].

فقوله: "الحب ظهر" من التشبيه البليغ الدال على الادعاء المفضي إلى المبالغة، وفيه من الجودة ما لا يخفى. ويقول: ومن التشبيه الجيد قوله [76]:

فَكَأَنِّي بِماَ أُزَيِّنْ مِنْهَا   قَعَدِيٌّ يُزَيِّنُ التَحْكِيمَا

و كان سبب هذا الشعر أن الخليفة تشدد عليه في شرب الخمر، وحبسه من أجل ذلك حبسا طويلا.

والتشبيه مركب؛ "فقد شبه الشاعر حاله في تزيينها لغيره مع الامتناع عنها بحال القعدي الذي يرى التحكيم بين عليّ؛ ومعاوية-رضي الله عنهما-ولا يمضي إلى القتال ووجه الشبه: حال من يرى الشيء لغيره، ولا يراه لنفسه"[77].

---

(72) ديوان عنترة بن شداد: ص13.

(73) الكامل :46/3.

(74) ينظر الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي: ص131.

(75) الكامل: 142/3.

(76) ديوان أبي نواس: ص325.

(77) أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل :221.

و سبب الجودة عقد الشبه بين شيئين لا يخطر اجتماعهما على البال عادة، ويبدو أن من أسباب جودة التشبيه أيضا عند المبرد السبق إلى المعنى لأنه علق على هذه الأبيات قائلا: "فهذا المعنى لم يسبق إليه أحد" [78].

ويورد المبرد للتشبيه الجيد قول الحسن بن هانئ [79]:

تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلَى بَاب دَارِهِ كَأَنَّهُمْ رِجْلاَ دَبَى وَ جَرَادِ .
فَيَوْمٌ لإِلْحَاَقِ الفَقِيرِ بِذِي الغِنَى وَيَوْمُ رِقَاَبِ بُوكِرَتْ بِحَصاَدِ.

الدِّبي: الجراد قبل أن يطير أصغر النمل. يعني: أن الذين يقصدون دار الممدوح كالدِّبي في الكثرة، والحركة، والانتشار.

– **التشبيه المحمود**: و هو الذي بين طرفيه تلاؤم، فهو يتفق في المعنى مع كل من التشبيه الحسن والجيد. وقد ورد هذا التشبيه في الكامل مرة واحدة. قال المبرد: "ومن التشبيه المحمود قول الشاعر:

طَلِيــقُ اللهِ لَمْ يَمْـنُنْ علَيْـهِ أَبـُو دَاوُدَ وَابـْنُ أَبــِي كَثِيرِ
وَلَا الحَجَّاجَ عَيْنَيْ بِنْت ماءٍ تُقَلِبُ طَرْفَهاَ حَذَرَ الصُّخُورِ

و هذا غاية في صفة الجبان ونصب "عيني بنت ماء" على الذمّ "[80]. قال الجاحظ: "كان الحجاج أخيفش [81]، منسلق الأجفان، ولذلك قال إمام بن أقرم النميري: وكان الحجاج جعله على بعض شرط أبان بن مروان، ثم حبسه، فلما خرج قال: "البيتين"؛ لأن طير الماء لا يكون أبدا إلا منسلق الأجفان "[82].

شبه الشاعر عيني الحجاج عند الخوف والحذر بعين طائر الماء إذا رأى الصقر ونحوه. فالشبيه دقيق، و مصور لحال المشبه. فكان محمودا.

[78] الكامل: 140/3.
[79] المصدر نفسه: 140/3، ورغبة الآمل:36/7، والبيتان بديوان أبي نواس: ص74
[80] المصدر نفسه: 38/3، ورغبة الآمل: 154/6.
[81] الخفش: ضعف البصر، وضيق في العين. وقيل: صغر في العين خلقه. و قيل: هو فساد في جفن العين، واحمرار تضيق له العيون من غير وجع ولا قُرح...وفي كتاب عبد الملك إلى الحجاج: قاتلك الله. أخيفش العين. هو تصغير الأخفش. اللسان (حفش):153/4.
[82] البيان والتبيين: 386/1.

- **التشبيه القاصد الصحيح**: و هو المعتدل المستقيم البعيد عن الإفراط و التهويل. قال المبرد: "ومن التشبيه القاصد الصحيح قول النابغة [83]:

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ، فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِـعُ
فَبِتُّ كَأَنِّي سَـاوَرَتْنِي ضَئِيـــلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ
يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَمَامِ سَلِيمُــها لِحَلْى النِّساءِ فِي يَدَيْهِ قَعَـاقِــعُ
تَنَاذَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّــها تُطْلِقُــهُ طَوْراً و طَوراً تُراجِـــعُ

فهذه صفة الخائف المهموم." [84] ومثله "قول آخر

تَبِيتُ الهُمُومُ الطَّارِقاتُ يَعُدْنَنِي كَمَا تَعْتَرِي الأَوْصَابُ رَأْسَ المطَلَّقِ

و المطلق هو الذي ذكره النابغة في قوله: *تطلقه طورا وطورا تراجع*.

وذلك أن المنهوش إذا ألَحَّ الوجع به تارة، وأمسك عنه تارة فقد قارب أن يوءس من بُرْئِهِ، وإنما ذَكَرَ خوْفهُ من النّعمان وما يعتريه من لوعة في أثر لوعة، والفترة بينهما والخائف لا ينام إلا غرارًا، فلذلك شبه بالملدوغ المسهّد.

وقوله: *لِحَلي النساء في يديه قعاقعُ* لأنهم كانوا يعلقون حلى النساء على الملدوغ، ويزعمون أن ذلك من أسباب البُرءْ؛ لأنه يسمع تقعقعها، فيمنعه النوم فلا ينام، فيدب السم فيه، ويُسهّدُ لذلك" [85].

فالنابغة يصور حاله مع الهم الذي ألم به بسبب وعيد النعمان بحال الملدوغ المسهّد في الليل الطويل من تعليق الحلى عليه لتزعجه بقعقها، فلا ينام كي لا يسري السم فيه، وهي صورة معبرة أتم تعبير عما قصده الشاعر، وهو خوفه من الملك، وهي في نفس الوقت تبين ما كان يفعله بعض العرب في ذلك الحين.

-**التشبيه المطّرد**: عرّفه أحمد مطلوب فقال:"هو أن يجري على الصورة المطردة وذلك بأن يكون المشبه به أدخل في المعنى الجامع بينه وبين المشبه إما بالكبر أو الإيضاح أو البيان" [86].

---

(83) الأبيات بديوان النابغة الذبياني: ص 54 ، وهي في مدح النعمان بن المنذر، والاعتذار إليه.
(84) الكامل:130/3.
(85) المصدر نفسه: 3/130-131.
(86) معجم المصطلحات البلاغية و تطورها: ص343.

وهو المشهور بين العرب، الجاري على ألسنتهم؛ لأنه يعبر عن طباعهم و عاداتهم و تقاليدهم، و على ما تقع عليه أنظارهم و لاسيما ما يألفونه في الطبيعة المحيطة بهم، فصور هذه الأشياء تتوارد على خواطرهم؛ ولذا وقع التشبيه بها في كلامهم كثيرا، و من أمثلته عند المبرد قال: "ويقال للخطيب: كأن لسانه مبرد، فهذا الجاري في الكلام، كما يقال للطويل: كأنه رمح، ويقال للمهتز للكرم: كأنه غُصن تحت بارح"[87].

وقوله: "ومن التشبيه المطرد على ألسنة العرب ما ذكروا في سير الناقة وحركة قوائمها، قال الراجز:

كَأَنَّهَا لَيْلَةُ غِبِّ الأَزْرَقِ وَقَدْ مَدَدْنَا بَاعَهَا للسُّوقِ

"خَرْقَاءُ بَيْنَ السُلَّمَيْنِ تَرْتَقِي"

قوله: "ليلة غب الأزرق" إنما يعني موضعا وأحسبه ماء" [88].

شبهت قوائم الناقة وقد أجهدت في السير برجلي امرأة خرقاء تصعد بين سلمين ووجه الشبه: التخبط، والاضطراب، وفقد الإتزان.

وأورد المبرد تشبيهات كثيرة ومنها قوله: "وقال آخر:

كَـــأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَــا بَذِيَّـــةٍ مُفَجَّعةٍ لَاقَتْ خـلَائِــلَ عَنْ عَفْــرِ

سَمِعْنَ لَهاَ و اسْتَفْرَغَت فِي حَدِيثِهاَ فَلَا شَيْءَ يَفْرِي بِاليَدَيْنِ كَمَا تَفْرِي

ولو قيل: إن هذا من أبلغ ما قيل في هذا الوصف ما كان ذلك بعيدا. وصفها بأنها بذِيَّة، وقد فُجِعَتْ بما أُسْمِعَتْ، ونيل منها، ولقيتْ خلائلها بعد زمان. وتلك الشكوى كامنة فيها، وأصغين لها فتسمّعن. والفرى: الشق" [89].

والتشبيه يصور هيئة سرعة حركة اليدين، واضطرابهما يمنة ويسرة، وصعودا وهبوطا.

ومن الأمثلة قول امرئ القيس [90]:

كَأَنَّ الحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا إِذاَ نَجَلَتْهُ رِجْلُهَا حَذْفُ أَعْسَرَا

كَأَنَّ صَلِيلَ المَرْوِ حِينَ تَشُــدُّهُ صَلِيلُ زُيُــوفٍ يُنْتَقِدْن بَعَبْقَرا

---

[87] معجم المصطلحات البلاغية و تطورها: 134/3.

[88] الكامل: 102/3 .

[89] المصدر نفسه: 106,105/3.

[90] ديوان امرئ القيس: ص63.

يقول المبرد: "قوله: حذف أعسرا: يريد أنه يذهب على غير قصد. وقوله "صليل زيوف" يقال إن الزائف شديد الصوت صافيه" [91].

قال شارح ديوانه: "إذا سارت الناقة فرقت الحصى إلى كل جهة، لشدة سيرها. شبه صوت الحجارة إذ رمت بها، ووقوع بعضها على بعض بصوت الدراهم الزيوف إذا انتقدها الصَّيْرف، وقلبتها. والزيوف: الرديئة. واحدها زائف..وإنما خصها؛ لأن صوتها أشد من صوت غيرها؛ لكثرة نحاسها" [92].

والتشبيه في البيتين حسي، وقد راعى الشاعر في الصفة المشتركة شيئا من التفصيل، وهو يستدعي التأمل والفكر.ففي الأول جعل الرمي من أعسر وهو يناسب تفريق الدابة للحصى في غير انتظام. وفي الثاني راعى صوت النقد-الزيوف- تحقيقا للتماثل في الصوت.

– **التشبيه العجيب:** وصف هذا النوع بالعجيب لكونه مركبا، أو لأن أحد طرفيه اتصف بقيد يتحقق به التماثل، أو لما حوى من المبالغة، وهذا يحتاج إلى فضل تأمل وإعادة نظر كما يتبين من أمثلته.

يقول المبرد: "ومن تمثيل امرئ القيس العجيب [93]:

كأَنَّ عُيونَ الوحْشِ حوْلَ خِبائِنا وأرحُلنا الجُزعُ الذي لم يُثقَّبِ

ومن ذلك قوله [94]:

إذا ما الثُّريا في السماءِ تعرَّضَتْ تَعَرُّض أثناء الوِشاحِ المفصَّلِ

قد أكثروا في الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ" [95].

في البيت الأول شبهت عيون الوحش لما فيهن من سواد وبياض بالخرز، وجعله غير مثقب لأن ذلك أصفى له، وأتم لحسنه، إذ كانت عيون الوحش غير مثقبة، فقوله: "لم يثقب"

---

(91) الكامل: 3/106-107.

(92) ديوان امرئ القيس: ص64.

(93) المصدر نفسه: ص37.

(94) المصدر نفسه: ص114.

(95) الكامل: 3/33.

جملة يتم بها المعنى، وفائدتها تحقيق التشبيه، وهذا يسمى: "الإيغال" [96].

وفي البيت الثاني: "إذا" معمول قوله: "تجاوزت" في البيت الذي قبله و هو:

تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا وَأَهْوَالَ مَعْشَرٍ عَلَيَّ حِراصٍ لَوْ يُشرُّن مَقْتَلِي

يقول: تجاوزتُ هذه الأهوال والأحراس حين تصوَّبت الثريا للمغيب وذلك أن الثريا تستقبلك بأولها، فإذا أرادت المغيب تعرضت. أي أرتك عُرضها، أي ناحيتها.

فشبهها بالوشاح المفصّل إذا تلقاك بناحيته. "والمفصل الذي جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤ "[97]. وقال التبريزي (ت 502هـ): "شبه اجتماع كواكب الثريا، ودنو بعضها من بعض بالوشاح المنظم بالودع المفصل بينه "[98]. وزيادة "المفصل" إيغال، وبه يتحقق التشبيه وهو سبب وصفه بالعجيب. وكلا التشبيهين صحيح، ووجه نقده إلى الشطر الأول. وهو: "أن الثريا لا تتعرض، وإنما تتعرض الجوزاء؛ فذكر الثريا على الغلط كما قال الآخر: كأحمر عاد، وإنما هو: كأحمر ثمود، وهو عاقر الناقة" [99] .أو أن الشاعر عني بها الجوزاء.

ويقول المبرد: ومن أعجب التشبيه قول النابغة [100]:

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الذي هُوَ مُدركي وإنْ خِلْتُ أنَّ المنْتَأي عنْكَ واسِعُ

وقوله:

خَطَاطِيفُ حُجْنٍ في حِبالٍ متينةٍ تُمدُّ بها أيْدٍ إلِيْكَ نوازِعُ

في البيت الأول: شبه النعمان بالليل في وصوله إلى أي مكان، ولذا فإنه لن يفلت منه هارب؛ لأن له أعوانا يردونه عليه وهذا الوصف وإن كان يتحقق أيضا بالنهار إلا أن إيثار الليل أنسب للمقام؛ فالشاعر يعبر عن قلقه وخوفه من النعمان بعد أن توعده، والليل مخيف بظلمته وكثرة همومه، وتوقع الأعداء والوحوش. [101]

[96] وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، الإيضاح: 137/3.

[97] ديوان امرئ القيس: ص117

[98] شرح القصائد العشر: ص25.

[99] الشعر و الشعراء: 111/1.

[100] ديوان النابغة الذبياني: ص56.

[101] ينظر الديوان: ص56 -57.

ووجه ابن قتيبة نقدا إلى البيت الثاني؛ فقال: "رأيت علماءنا يستجيدون معناه، ولست أرى ألفاظه جيادا، ولا مبينة لمعناه؛ لأنه أراد: أنت في قدرتك عليَّ كخطاطيف عُقف يُمدّ بها، وأنا كدلو تُمدُّ بتلك الخطاطيف، وعلى أني لست أرى المعنى جيدا" [(102)].

وللشاعر عذره؛ فهو متأثر بالبيئة البدوية، فهذه الصورة وأمثالها لا تفارق خياله، فعبر بها عن حالته النفسية، وما قد يصير إليه حاله مع النعمان بن المنذر.

– **التشبيه العجيب**: من التشبيه المليح عند المبرد قول الراجز [(103)]:

وكأنَّ سَلْمَى إذْ تُوَدِّعُنَا وَقَدْ اشْرَأَبَّ الدَّمْعُ أَنْ يَكِفَا
رَشَأ تَوَاصَيْنَ القِيَانُ بِهِ حَتَى عَقَدْنَ بـأذنِهِ شُنُفَا

ويقول في موضع آخر: "ومن مليح التشبيه للمحدثين قول عبد الصّمد بن المعذل في صفة العقرب:

تُبْرزُ كَالقَرْنيـــْنِ حِـــينَ تُطْلِعُـــهُ تُزْحِلُهُ مَـــرًّا ومَـــرًّا تُرْجعُـــهُ
في مِثْلِ صَدْرِ السَّبْتِ خَلْقٌ تُفْطِعُهُ أعْصَلُ خطَّارٌ تَلــــوحُ شَنَعُهُ
أَسْوَدُ كالسُّبْجَةِ فيـــــــهِ مِبْعَضُهُ لا تَصْنَعُ الرَّقْشاءما لا يَصْنَعُهُ" [(104)]

وهذا الوصف الدقيق ينبئ عن قوة الملاحظة، وإمعان النظر وتكرره، ولذا جاء التشبيه مطابقا لما وصف من أمر العقرب وخطورته. والملاحة تعني عند المبرد الحسن.

ويجمع المبرد بين الحسن والملاحة حيث يقول: "ومن أحسن التشبيه ومليحه قول رجل يهجو رجلا برثاثة الحال:

يأتيكَ في جُبَّة مخرَّقـةٍ أطولُ أعمار مثلها يومُ
وطيلسانٍ كالآل يلبسُهُ عَلَى قَمِيصٍ كَأَنَّهُ غيـمُ" [(105)]

رسم الشاعر صورة مزرية لرجل رقيق الحال، رث الهيئة، فشبه أولاً:

الطيلسان الذي يلبسه بالسراب في الخداع وسرعة الزوال. وثانيا: القميص بالغيم في الخفة، وسرعة الزوال.

---

(102) الشعر و الشعراء: 78/1, 171.

(103) الكامل: 142/3 .

(104) المصدر نفسه: 150/3.

(105) المصدر نفسه: 151/3.

و أقول: إن في الملاحة معنى الحسن، ولكن الشاعر قصد التفكه والسخرية فهو على حدّ

–التشبيه المختصر: إن حب العرب للإيجاز والاختصار جعلتهم يختصرون حتى في التشبيه، قال المبرّد: "والعرب تختصر في التشبيه، وربما أومأت إليه إيماء" (106) والإيماء إلى التشبيه بمعنى إيراده مختصرا وعلى غير الصور المعهودة، ومن ثم فإنه يحتاج إلى فكر وفضل تأمل.

وأورد المبرد لهذا النوع من التشبيه مثالا واحدا فقال:"قال أحد الرُّجاز:

بِتْنَــا بِحَسَّان ومِعْزاهُ تَئِــطُّ مَازِلْتُ أَسْعى بَيْنَــهُم و أَلْتَبِــطْ

حَتَّى إذا كَادَ الظَّلامُ يَخْتَلِطْ جَاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأيْتَ الذِّئب قَطّْ!

يقول في لون الذئب، واللبن إذا جهد وخلط بالماء ضرب إلى الغُبْرة "(107)

والمراد هنا تشبيه اللبن المختلط بالماء في الغبرة والكدورة بلون الذئب، قال ابن رشيق: "إنما أشار إلى تشبيه لونه؛ لأن الماء غلب عليه: فصار كلون الذهب" (108).

إن لذوق المبرد أثر واضح في اختياراته لأساليب التشبيه، فهو يدرك بحاسته البيانية الخصوصيات التي بها تتفاوت درجات التشبيه.

–التشبيه الجامع: وقال المبرد "ومن حسن تشبيه المحدثين قول بشار (109):

وكَــأَنَّ تَحْــتَ لِــسَانِهَــا هَارُوتَ يَنْفُثُ سِحْراً.

وَتَخَالُ مَا جَمَعَتْ عَلَيْهِ ثِيَابَهَا يَنْفُثُ ذَهَبًا وَ عِطْرًا.

وهذا "التشبيه الجامع"، ونظيره في جمع شيئين لمعنيين ما ذكرت لك من قول مسلم بن الوليد: "كَأَن في سرْجِه بدرا وضِرْغاماً" (110)

والمبرد سماه: "التشبيه الجامع" وهو الذي عرف بعد ب"تشبيه الجمع" (111) وإلى المبرد يرجع الفضل في تسمية هذا النوع مقترنا بالمثال. و فائدته أنه يبين بالمثال الواحد الكثير من أحوال الموصوف، ففيه فضيلة الإيجاز.

(106) الكامل:149/3 .

(107)المصدر نفسه: 149/3.

(108) العمدة: 303/1.

(109)ديوان بشار بن برد، شرح و تكميل محمد الطاهر ابن عاشور، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر بالقاهرة، 1376هـ /1957م.والبيت غير موجود في الديوان.

(110) الكامل: 148/3.

(111) التشبيه باعتبار تعدد طرفيه، أو أحدهما أربعة أنواع: ملفوف، ومفروق، وتسوية، وجمع، ينظر الإيضاح: 54/3،

وقد ألمح ابن قتيبة (ت 276هـ) إلى هذا النوع من التشبيه بقوله: "وشبه زهير امرأة في الشعر بثلاثة أوصاف في بيت واحد، فقال:

تَنازَعَتِ الْمَهَا شَبَهًا وَدُرَّ البُحـُ ـورِ وَشَاكَهَتْ فيهَا الظَّبَاءُ

معنى: شاكهت: شابهت. قال ثعلب: أراد: فيها شبه من البقر في العيون، ومن الدر في الصفاء، ومن الظباء بطول العنق" [112].

تشبيهات المحدثين:

ذكر المبرد في أول "باب التشبيه" أنه سيصل هذا الباب الجامع بما ذكر قبل من تشبيهات العرب والمحدثين بعدهم [113] وما ذكره يتفق مع ما ذهب إليه من أنه لا فضل لقديم على محدث "ولكن يُعطى كلٌّ ما يستحق" [114] ولذا وجدنا في الكامل كثيرا من تشبيهات المحدثين مشفوعة بصفات الحسن والجودة والملاحة أحيانا وبالسخف أحيانا أخرى.

1) **تشبيه المحدثين المستطرف:**

قرب نهاية "باب التشبيه" يفي المبرد بما وعد فيقول: "ثم نذكر بعد هذا طرائف من تشبيه المحدثين وملاحاتهم، فقد شرطناه في أول الباب إن شاء الله" [115].

قال المبرد: "و من أكثرهم تشبيها؛ لاتساعه في القول، وكثرة تفننه، واتساع مذهبه، الحسن بن هانئ" [116] فهو أكثر المحدثين تشبيها؛ ولذا أورد له ثلاثة عشر تشبيها، فمنها قوله في وصف السفينة [117]:

بُنِيَتْ عَلَى قَدَرٍ وَلاءَمَ بَيْنَهَـا طَبَقَانِ مِنْ قِيرٍ وَمِنْ أَلْـواحِ
فَكَأَنَّهَا وَ المَاءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَـا وَ الخَيْـزُرَانَةُ فِي يَدِ الْمَـلاَّحِ
جَوْنٌ مِنَ العِقْبَانِ يَبْتَدِرُ الدُّجَى يَهْوِي بِصَوْتٍ واصْطِفَاقِ جَنَاحِ

(112) الشعر والشعراء: 1/139-140.
(113) ينظر الكامل: 3/32.
(114) المصدر نفسه: 1/28.
(115) المصدر نفسه: 3/134.
(116) المصدر نفسه: 3/134 .
(117) المصدر نفسه: 3/143.

شبهت السفينة وهي تشق عباب الماء؛ فتحدث أصواتا تختلف ارتفاعا وانخفاضا بعقبان بيض، تنقض بأصواتها وأجنحتها؛ لا ترهب الظلمة. ووجه الشبه: السيطرة والقوة.

وقوله: [118]

مَاَ حَطَّكَ الوَاشُونَ مِنْ رُتْبَةٍ عِنْـدِي وَلَا ضَـرَّكَ مُغْتَـابُ
كَأَنَّـمَاَ أَثْنَـوْا وَلَمْ يَعْلَمُـوا عَلَيْكَ عِـنْدي بِالـذِي عَلِمُـوا

شبهت وشايتهم وغيبتهم للممدوح دون أن يعلموا بالثناء عليه، فقد أحسنوا إليه من حيث قصدوا الضرر به.

ومنها قوله: "وفي قصيدة الحسن هذه:

إِنْ جِئْتَ لَمْ تَأْتِ وَإِنْ لَمْ أَجِئ جِئْتَ فَهَذَا مِنْكَ لِي دَأْبُ
كَأَنَّمَـا أَنْتَ-وَإِنْ كُـنْتَ لَا تَكْذِبُ فِي المِيعَادِ-كَذَابُ

وهذا كلام طريف"[119]. أي ظاهره هزل ولكنه في واقع الأمر جدّ، قصد به التفكه والذم، يقول: دأبك معي إخلاف الموعد، فشبه إخلاف مخاطبه له في الحالين بقول الكذب، ووجه الشبه: الخلف في كل.

وأورد المبرد في هذا المقام مثالين لبشار بن برد، ومسلم بن الوليد ووصفهما بالحسن. وهما من التشبيه الجامع [120].

و من تشبيهات المحدثين ما تناقلته كتب البلاغة والنقد؛ لأنها من بديع المركب الحسي. حيث لوحظ فيها من القيود ما جعلها موضع الاستشهاد والمقارنة، فمنها قول دعبل بن علي في صفة المصلوب[121]:

لَمْ أَرَ صَفًّا مِثْلَ صَفِّ الزُّطِ تِسْعِينَ مِنْهُمْ صُلِبُوا فِي خَطٍّ
مِنْ كُلِّ عَالٍ جِذْعُه بِالشَطِّ كَـأَنَّهُ فِي جِذْعِـه المشْتَطَّ

[118]ديوان أبي نواس: ص339 والكامل: 145/3.

[119] الكامل: 147/3، وينظر مثالا آخر: 144/3.

[120] ينظر المصدر نفسه: 148/3.

[121] شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعة عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط2، 1402هـ/1983م: ص179. الزُّط: جبل أسود من السّند، و المراد: جماعة منهم كان رئيسهم يقال له: محمد بن عثمان. غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا، وأخذوا الغلاّت، وأخافوا السبيل، فوجه المعتصم "عجيف بن عنبسة" لحربهم سنة 219هـ فقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل، وأسر خمسمائة رجل،: الكامل لابن الأثير، المجلد السادس: ص443.

أَخُـو نُعاسٍ جَدَّ في التَمَطِّي		قَــدْ خَامَرَ النَّوْمَ وَلم يَغِـــطِّ[122]

وقول الأخطل في صفة مصلوب [123]:

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ		يَوْمَ الوَداعِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلِ

أَوْ قَائِمٌ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُوثَتُهُ		مُوَاصِلٌ لِتَمَطِيهِ مِنَ الكَسَلِ

في قول الأخطل تشبيهان:

شبّه المصلوب أولا بالعاشق يوم وداع محبوبه، فهو يقف في سكون،حال كونه مادا صفحة عنقه،باسطا ذراعيه.و هذه الهيئة نجدها في المصلوب:سكون واستقرار أعضاء، وامتداد جسم.

وشبهه ثانيا بقائم من نعاس، مواصل التمطيِّ بسبب الكسل، وفي كلا التشبيهين تفصيل يكون به التقارب بين طرفي التشبيه. وموضع التفصيل الشرط الأخير؛ فقوله: "مواصل لتمطيه" قيد يبين استدامة التمطي، وقوله: "من الكسل" بيان لسببه.

وبعد أن بين هذا عبد القاهر قارن بين هذا القيد، والقيد في قول "دعبل" فقال: "فقوله: جدّ في التمطّي" شرط يتم التشبيه كما أن قوله: "مواصل" كذلك إلا أن في اشتراط المواصلة من الفائدة ما ليس في هذا. و ذاك أنه يجوز أن يبالغ ويجتهد ويجد في تمطيه ثم يدع ذلك في الوقت، ويعود إلى الحال التي يكون عليها في السلامة مما يدعو إلى التمدد...

فأما قوله بعد: "قد خامر النوم ولم يغِط" فهو إن كان كأنه يحاول أن يرينا هذه الزيادة من حيث يقال: إنه إذا أخذه النعاس؛ فتمطي ثم خامر النوم فإن الهيئة الحاصلة من جدّه في التمطي، تبقى له فليس ببالغ مبلغ قوله: "مواصل لتمطيه" وتقييده من بعد بأنه "من الكسل" واحتياطه قبل بقوله: فيه لوثته" [124].

وأخيرا فإن مهارة الأخطل تبدو في إبراز هذه الصورة المؤلِمة للمصلوب في صورة أخرى فيها سكون وهدوء وراحة نفسية تخفف من هذا الألم. والشعر في هذا قليل.

---

[122] الكامل: 148/3.

[123] لم أجد البيتين في الديوان. ينظر الكامل: 49/3.

[124] أسرار البلاغة: ص150-151.

تشبيه سخيف:

رغم إعجاب المبرد بأبي نواس واستشهاده بتشبيهاته كلما سنحت له الفرصة، إلا أننا وجدناه ينقد أبياتا له ويصفها بأنها "من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين" [125] وهي قوله في وصف الخمر[126]:

فَإذا مَـا لمِسْتَـهَا فَهَبَـاءٌ تَمْنَعُ اللَّمْسَ مَا تُبِيحُ العُيونَا
دَرَسَ الدَّهْرُ مَا تَحَتَّمَ مِنْهَا و تَبْقَّى لُبَـابَـهَا المكنوناَ
فَهِيَ بِكْرٌ كأنَّها كلُّ شَيْءٍ يَتَمَنَّى مُخَيَّـرٌ أَنْ يَكُونَـا
في كُؤُوسٍ كَأَنَّـهُنَّ نُجُومٌ جَارِيـاتٌ بُرُوجُـهَا أيْدينَـا
طَالِعَتٍ مَعَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا فَإِذَا مَـا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَـا

ويبدو أن اعتراض المبرد على هذه المقطوعة "اعتراضا فِقْهِياً..من اختلاف في الفكر بين الرجلين فهو لا يقبل قول الشاعر، "كأنها كل شيء يتمنى مخيَّرٌ أن يكون" ورؤية المبرد تنطلق من هذا الفكر السلفي المؤمن بثوابت لا تتغير، والموقن بتفوق السلف وتخلف الخلف، وإنكار كل جديد مبتدع والنظر إليه نظر الشك والريبة" [127].

إن دراسة المبرد لأساليب التشبيه تدل على ذكاء وفطنة لمواقع الحسن، وكذا لمواضع العيب والنقد، وهو في هذا يتوخى منهج العرب.

ولقد جمع المبرد في كتابه الكامل أمثلة للتشبيه لكنه لم يصفها كعادته، ربما لأنه أراد أن يعمل القارئ فيها فكره فيهتدي إلى ما تضمنته من تصوير وبيان للمعنى، وقد تداولت كتب النقد والبلاغة الكثير من أمثلة هذا النوع ولاسيما تشبيهات القرآن الكريم. من هذه التشبيهات:

قوله: "فإذا شبه الوجه بالشمس والقمر فإنما يراد به الضياء والرونق، ولا يراد به العظم والإحراق. قال الله عز وجلّ: ﴿ **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ** ﴾ [128]، والعرب تشبه النساء ببيض النعام، تريد رونقه ورقة لونه، قال الراعي [129]:

---

[125] الكامل: 48/3.

[126] ديوان أبي نواس: ص339.

[127] تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى أواخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ط3، منشأة المعارف الإسكندرية: ص377.

[128] سورة الصافات: الآية49.

[129] ديوان الراعي: ص55.

كَأَنَّ بَيْضَ نَعامٍ في مَلاحِفِهَا إِذَا اجْتَلاَهُنَّ قَيْظٌ لَيْلُهُ وَمِدُ" [130]

فالمبرد في هذا المثال ذكر أن منهج العرب تشبيه النساء ببيض النعام، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: "تريد رونقه، ورقة لونه" واستشهد بآية قرآنية: ﴿ **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ** ﴾. والتي قال فيها الزمخشري: "شبههن ببيض النعام المكنون في الأداحي، وبها تشبه العرب النساء، وتسميهن: بيضات الخدور" [131]، أما البيت الذي أورده للراعي فإن الشاعر يشبه فيه النساء إذا برزن من خدورهن في الملاحف في الليل الشديد الحر ببيض النعام في الرونق والبهاء.

ويرينا ابن ناقيا البغدادي فضل تشبيهات القرآن على غيرها عند دراسته لآية الصافات فيقول: "وجاء في التفسير أنه تعالى شبههن بالبيض لحسنه في صفائه ورونقه. وقد تناقل الشعراء هذا التشبيه؛ فقال العبادي:

كَدُمَى العَاجِ فِي الْمَحَارِيبِ أَوْ كَالبَيْضِ في الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُستنيرُ

وقد استحسن هذا البيت جماعة من أصحاب المعاني، وذكروا فيه أنه شبه ألوان الثياب التي عليهن بألوان نور الرياض وزهره وحمرته، وصفرته. وجعل البيض في الروض ليكون أحسن له، وكذلك قالت الأوسية:

أَحْسَنُ الأَشْياء القُصُور ال بيضُ في الْحَدائق الخُضْرِ

إلا أنه لم يوصف البيض في هذا الباب بأحسن، ولا أجمع لمعاني الوصف مما نطق به التنزيل: فإن لفظه: "مكنون" متضمنة معنى السلامة والخلوص من جميع العوارض التي تنقص و تشين بياضه، وتكشف بهاءه...و على إكثار الشعراء من تشبيه النساء بالبيض ووصفه بما يدل على حال المشبه به فما أتوا ببلاغة تشبيه القرآن، ولا قدروا على نقل لفظه من هذا المكان، وقد أطالوا و أقصروا و أوردوا و أَصْدروا...." [132].

و من تشبيهات القرآن الكريم التي أوردها المبرد ولم يضع لها صفة من صفاته المعهودة:

---

[130] الكامل: 52/3.

[131] الكشاف: 229/3

[132] الجمان في تشبيهات القرآن، عبد الله بن الحسين بن ناقيا البغدادي (ت 485هـ)، تحقيق محمود حسن أبو ناجي الشيباني، مركز الصف الإلكتروني جدة السعودية، ط1، 1407هـ/1987م: ص191-192.

"قال الله عز وجل: ﴿ **كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ [133]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ **كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ** ﴾ [134]، والمكنون: المصون، يقال: كننت الشيء، إذا صُنْتهُ. و أكْننتُهُ، إذا أخفيتهُ، فهذا المعروف..." [135].

فالمراد بقوله تعالى: ﴿ **كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَ الْمَرْجَانُ** ﴾ "تشبيه الحور العين بالياقوت في إملاسه، وشفوفه، وبالمرجان في إملاسه، وجمال منظره"[136].

أما في قوله تعالى: ﴿ **كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ** ﴾ فقد شبه الحور العين باللؤلؤ يقيد كونه مكنونا، فلهذا القيد دخل في تحقيق الشبه من التلألؤ والصفاء والحسن. يقول بن ناقيا: "كأمثال الدر يخرج من صدفه ولكنه لم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال، وإنما عني بقوله: ﴿ **كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ** ﴾ أي: أن صفاءهن و تلألؤهن كصفاء الدرّ وتلألئه؛ فاللؤلؤ فيه الصفاء و الهدوء و النقاء، و هو أحجار كريمة من شأنها أن تصان و يحرص عليها." [137].

فهذه الآيات الكريمة تبين بعض صفات حور العين، وهي صفات فائقة في الحسن والجمال، ولكل تشبيه أثره في توضيح تلك الصورة البيانية.

ومن أمثلة هذا النوع من التشبيه الذي لم يورد له المبرد وصفا قال:

"قال جرير [138]:

مَا اسْتَوْصَفَ النَّاسُ مِنْ شيءٍ يَرُوقُهُمْ إلاَّ رَأَوْا أُمَّ عَمْرٍ فوقَ ما وَصَفُوا

كَأَنَّهَا مُزْنَةٌ غَرَّاءُ رائحةُ أوْ دُرَّةٌ مَا يُوَارِي ضَوْءها الصَّدَفُ.

المزنة: السحابة البيضاء خاصة، وجمعها: مُزن قال الله –جل وعز–:﴿ **أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ**﴾ [139] فالمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها، وسهولة مرّها. قال الأعشى [140]:

كَأَنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ ولا عَجِلُ

---

(133) سورة الرحمن: الآية58.

(134) سورة الواقعة: الآية23.

(135) الكامل: 55/3.

(136) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، درا الكتب العلمية، بيروت: 234/5 .

(137) الجمان في تشبيهات القرآن: ص252.

(138) ديوان جرير: ص305.

(139) سورة الواقعة: الآية69.

(140) ديوان الأعشى الكبير: ص55.

الرَّيثُ: الإبطاء فهـــذا ما تلحق العين منها. فأمـــا الخفة فهي كأسرع مـــارٍّ. وإن خفى ذلك على البصر. قـــــال الله-عزوجـــل-:﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** ﴾[141]. [142]

أما جرير فقد بالغ في وصف زوجته؛ فهي عنده فوق الوصف حيث شبهها بالسحابة البيضاء، وبالدرة المتلألئة التي لا يوارى ضوءها الصدف.

والأعشى يشبه مشية هريرة بمر السحابة في السهولة واللين مع السرعة لذا علّق المبرد بقوله:" فأما الخفة هي كأسرع مار" وقال في موضع آخر: "فالمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها، وسهولة مرها" [143] ويبين التهادي بقوله:"يهدي بعضها بعضا في مشيتها، ومشية البقرة تستحسن" [144].

وأما قوله تعالى: ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**﴾ فقد قال أبو حيان(ت754هـ): "﴿وهي تمر مرّ السحاب﴾ جملة حالية، أي تحسبها في رأي العين ثابتة مقيمة في أماكنها وهي سائرة. و تشبيه مرورها بمر السحاب. قيل في كونها تمر مرا حثيثا كما يمر السحاب. وهكذا الأجرام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تبين حركتها... وقيل: شبه مرورها بمر السحاب في كونها تسير سيرا وسطا كما قال الأعشى: (كأن مشيتها...) البيت، وحسبان الرائي للجبال جامدة مع مرورها. قيل: لهول ذلك اليوم؛ فليس له ثبوت ذهن في الفكر في ذلك اليوم حتى يتحقق كونها ليست بجامدة"[145].

ويورد المبرد [146] قول عمر بن أبي ربيعة [147]:

قُلْتُ إذْ أَقْبَلَتْ وزُهْرٌ تَهادَى كَنِعاجِ المَلاَ تَعَسَّفْنَ رَمْلاَ .

و معناه: "شبه هؤلاء النسوة ببقر الوحوش. يتركن الجلد من الأرض، ويمشين في الرمال؛

[141] سورة النمل: الآية88.

[142]الكامل: 53/3-54..

[143]المصدر نفسه: 53/3.

[144]المصدر نفسه: 243/2.

[145] البحر المحيط، لأبي حيان، دار الفكر، ط2، 1403هـ، 1983م:100/7.

[146] الكامل: 322/1.

[147] ديوان عمر بن أبي ربيعة : ص490.

فتغرز قوائمهن، فلا يقدرن على الإسراع" [148].

ويورد قول الراجز [149]:

يَا حَبَّذَا القَمْرَاءُ واللَّيْلُ السّاجْ وطُرُقٌ مِثلَ مُلاءِ النِّساجْ

حيث شبه الراجز "خيوط الطرق وقد سطع نور القمر عليها بخيوط ملاءة بيضاء قد نسجت" [150]، ووجه الشبه: اجتماع خيوط مستطيلة لامعة على سطح شيء آخر.

وذكر المبرد قول الرسول ﷺ: " وأنا الجفنة الغراء"[151]، "أي التي يجتمع الناس عليها ويُدعون إليها "[152]،فالمراد: تشبيه الجفنة التي يقدم فيها الطعام في السعة والامتلاء بالحوض الذي يملأ بالماء للإبل، أو تشبيهها في الامتلاء والتواصل بجابية النهر الذي لا ينقطع مدده. وهو من التشبيهات الحسية.

فالحديث الشريف من التشبيه البليغ، لاقتصاره على طرفي التشبيه، فيكون المراد: أن شبه الرسول ﷺ نفسه بالجفنة الغراء "وهي البيضاء من الدسم، نعتا له بأنه مضياف مطعام" [153].

ويبين المبرد أركان التشبيه على الطريقة المألوفة عندما أورد قول حسان بن ثابت يهجو مُسافِع بن عياض التميمي [154]:

لَوْ كُنْتَ مِنْ هَاشِمٍ أَوْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَوْ عَبْدِ شَمْسٍ أَوْ أَصْحَابِ اللِّوا الصِّيدِ

أَوْ مِنْ بَنِي نَوْفَلٍ أو رَهطِ مُطَّلِبِ للهِ دَرُّكَ! لَمْ تَهْــمُمْ بِتَهــدِيــدِي

أَوْ فِي السَّرَارَةِ مِنْ تَيْمٍ رَضِيتُ بِهِمْ أَوْ مِنْ بَنِي خَلَــفِ الخضْرِ الجَلاعِيــدِ

يقول: "وقوله: الخضر الجلاعيد: يقال فيه قولان:

أحدهما: أنه يريد سواد جلودهم، فهذا هو القول الأول...وقال آخرون: شبههم في جودهم

(148) رغبة الآمل: 162/3.

(149) الكامل: 283/1.

(150) رغبة الآمل: 203/3 .

151 المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي:351/1

(152) الكامل: 60/3.

(153) الفائق في غريب الحديث، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه، ط2، دت: 220/1 .

(154) ديوان حسان بن ثابت: ص84.

بالبحور"[155].

أما القول الأول و هو أنه يريد سواد جلودهم فهو كناية عن موصوف، وهو أنهم عرب خلص. وذلك أن المراد بالخضر هنا: السواد، والجلاعيد، شديدو السواد.

ويقول في موضع آخر: "وقول العرب: ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر، يريد العربي والعجمي" [156] وهو كناية عن العرب والعجم.

و أمثلة هذا النوع من التشبيه الذي لم يضعه المبرد ضمن أنواع التشبيه الموصوفة كثيرة وهي من القرآن الكريم والحديث النبوي، ومن كلام العرب المنثور والمنظوم.

وأخيرا يمكن القول أن المبرد تعامل مع أقسام التشبيه من زاويتين: [157]

أ-زاوية النعوت والأحكام الموظفة لإبراز المفعول الجمالي، وحظه من الحسن وفضل تشبيه على آخر في ذلك، وفي الكامل من هذه الأشياء الكثير. فمن التشبيهات العجيب، والمصيب والحسن، والجيد، والمليح...

ويبدو أن المبرد كان مولعا بالإكثار من الأسماء التي يطلقها على التشبيه وأنواعه، ولكنه لم يكن دقيقا في إطلاق هذه المسميات المختلفة، إذ أننا لا نلاحظ فروقا جوهرية بين كثير من هذه الألوان، مما يجعلنا نظن أنه لم يكن يقصد من وراء هذا الإفراط في التسمية إلا التنويع في الأسماء، دون أن يتعدى ذلك جوهر المسميات، حيث لا اختلاف بينها.

ب-الزاوية الثانية أدق من الأولى، وأكثر صرامة، لأنها تركز التقسيم على أساس ثابت، ونظرية مسبقة عن علاقة الفن بموضوعه، والصورة بمثالها. فالتشبيه يقع من القصد الذي عقد من أجله في أربعة مجال، فإما أن يصيبه فيسمى "مصيبا" وإما أن يقع قريبا منه ويسمى "مقاربا" وإما أن يبتعد ويسمى "بعيدا" وإما يتجاوز الحد فيسمى "مفرطا".

ولئن لم يبتدع المبرد هذه الأقسام ابتداعا، فهو أول من جمعها في حيّز واحد وخص كل قسم بشواهد شعرية تعين على بلورة المعنى المراد في المصطلح المستعمل. ويمكن أن نجزم بأن أقسام التشبيه ونعوته، عند المبرد، هي أوفى ما وصلنا عن البلاغة العربية. ولذلك سيتبنّى

[155] الكامل: 253/1.

[156] المصدر نفسه: 62/2.

[157] ينظر التفكير البلاغي عند العرب: ص365.

البلاغيون آراءه ولن يطوّروها إلا من جهة الفروع بالمبالغة في التقسيم أو توليدها وإضافة الشواهد من المنظوم والمنثور ولن يقفوا بها عند حدود التشبيه، بل سوف يستعملونها في معالجة كل الصور المتولدة عنه ولاسيما الاستعارة، مع أنهم سيخروجون الإفراط عن حدود التشبيه الضيّقة ويصيغون منه قضية عامة من قضايا التعبير الأدبي.

المبحث الثاني: المجاز:

الكلمة والكلام كل منهما إما حقيقة أو مجاز.

-الحقيقة والمجاز عند المبرد:

أ-**الحقيقة:**

عرف المبرد الحقيقة عند حديثه عن أضرب الكلام فقال: "والكلام يجري على ضروب: فمنه ما يكون في الأصل لنفسه" [158]، وقال: "والكلام يكون له أصل" [159].

فالمبرد عبر عن الحقيقة بهذا القول، وهي عبارة أبلغ من مصطلح " الحقيقة" في التعبير عن المعنى الحقيقي وأقرب منه إلى الوصف اللغوي الموضوعي لتجردها من كل المعاني المنطقية والأخلاقية التي تلابس مصطلح الحقيقة، بالإضافة إلى ذلك تكشف عن الفرق الجوهري بين أصناف التعبير. فمن الكلام ما لا يتجاوز معناه ذاته ولا يشير إلى شيء خارج عنه وعما يدل عليه أصل اللغة. فإدراك المعنى يتم بدون واسطة أو على الأصح يتم بواسطة العلامة الموضوعة له في اللغة. فالعلاقة بينه وبين قصد قائله تطابق علاقة لفظه بمعناه [160].

ب-**المجاز:**

إن المتتبع للفظة "مجاز" في مؤلفات المبرد يلاحظ أنه يستعملها مرادفة للتفسير [161] أي بنفس المعنى الذي وردت فيه في معاني القرآن للفراء ومجاز القرآن لأبي عبيدة وغيرهما. يوضح ذلك قوله: " ونذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون" [162] ويمثل بقوله تعالى:

---

[158] الكامل: 290/2.

[159] المقتضب: 46/1.

[160] ينظر التفكير البلاغي عند العرب: ص352.

[161] ينظر المقتضب:171/2-70/3-307-360-و ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد:60-67-71-74.

[162] الكامل: 127/4.

﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾ [163] وبقوله عز وجل﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ [164] ثم يقول عن الآية الأولى: "ومجاز الآية فمن كان منكم شاهدا بلده في الشهر فليصمه والتقدير "فمن شهد منكم" أي فمن كان شاهدا في شهر رمضان فليصمه"[165].وما ذهب إليه المبرد من تفسير الشهادة بالحضور، و الإقامة بالبلد غير مسلم به، وإن تابعه عليه جار الله الزمخشري في تفسير الكشاف [166].

وذهب جمهور المفسرين أن المراد من الشهادة في قوله تعالى ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾ رؤية الشهر-يعني الهلال- لا عدم السفر- نص على ذلك القرطبي وله في المسألة بحث مستفيض[167] وهو الأرجح لأن حكم المسافر تقدم قبل هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ**..﴾ [168].

أما الآية الثانية: "فمجازها أن المفعول الأول محذوف، ومعناه يخوفكم من أوليائه"[169].

أما المجاز بمعناه البلاغي فقد أشار إليه المبرد دون أن يفرد له بابا أو يسميه باسمه الاصطلاحي المعروف أو يقصد إليه قصدا، وإنما يذكره استطرادا وتنوعا لأغراض الحديث كما هي عادة المتقدمين من العلماء. فقد أومأ إليه بلفظة الاتساع حيث قال: "والكلام يكون له أصل ثم يتسع فيه فيما شاكل أصله" [170].

أولا : المجاز العقلي:

عرف الخطيب القزويني المجاز العقلي بأنه: "إسناد الفعل، أو معناه إلى ملابس له، غير ما هو له بتأول"[171].

---

[163] سورة البقرة: الآية185.

[164] آل عمران: الآية175.

[165] الكامل:127/4-128.

[166] ينظر الكشاف:207/1.

[157] ينظر الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2001م: ص.61

[168] البقرة: الآية184 .

[169] الكامل: 127/4.

[170] المقتضب:46/1.

[171] الإيضاح: 56/1.

و شيخنا المبرد قدم جهدا واضحا في هذا المبحث الشائك وإن لم يسمه ولم يبين علاقاته، وسوف أورد أمثلة توضح مساهماته دارسة إياها ضمن تخريجات المتأخرين:

1- المجاز العقلي والعلاقة السببية: فمن ذلك ما أورده من قول عنترة[(172)]:

فَمَا أَوْهَى مِرَاسُ الحَرْبِ رُكْنِي و لَكِنْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ زَمَانِي[(173)].

يريد عنترة أن ممارسة الحرب لم تضعفه ولكن الذي أضعفه تقدم عمره بسبب تقدم الزمن، فالعلاقة سببية.

ويشير المبرد إلى علاقة السببية عند قوله: "قال الفرزدق"[(*)]:

سَقَتْهَا خُرُوقٌ فِي المِسَامِعِ لَمْ تَكُنْ عِلاَطًا وَلاَ مَخْبُوطَةً فِي المِلاَغِمِ

يقول: علم أرباب الماء لمن هي: فسقاها ما سمعوه من ذكر أصحابها، لعزهم ومنعتهم، ولم تحتج أن "تكون بها سمة"، و العلاط: وسم في العنق، والخباط في الوجه"[(174)].

2-المجاز العقلي والعلاقة الفاعلية:

فسر المبرد قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾ [(175)].

بقوله: "إنما تسأل تبكيتا لمن فعل ذلك بها"[(176)]. وهو تفسير قريب من تفسير الألوسي، فإسناد الفعل المبني للمجهول "سئلت" إلى ضمير الموءودة وهي لن تسأل بل وائدها هو الذي يسأل والإسناد مجازي علاقته الفاعلية وتظهر لنا فائدة التجاوز هنا في قول الألوسي بأن "الموءودة تسأل دون الوائد وإسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة في تبكيته"[(177)].

وقال المبرد: "والفرزدق يقول في آخر عمره حين تعلق بأستار الكعبة، وعاهد الله ألا

---

(172) ديوان عنترة: ص90،و قد ورد في الدّيوان كالتالي:

فَمَا أَوْهَى مِرَاسُ الحَرْبِ رُكْنِي ولاَ وَصَلَتْ إِلَيَّ يَدُ الزَّمَانِ

(173) الكامل: 218/1.

(*) البيت لم أجده في الديوان

(174) الكامل: 73/1.

(175) سورة التكوير: الآيتان 8-9.

(176) الكامل: 85/2.

(177) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: 53/30.

يكذب، ولا يشتم مسلما[*]:

أَلاَ تَــرَنِي عَاهَــدْتُ رَبِّــي وَإِنَّنِي لَبَيْنَ رِتَاجٍ قَائِمًـــا ومقَـــامِ
عَلَى حَلْفَةٍ لاَ أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلِمًا وَلاَ خَارِجًا مَنْ فِيَّ زُورُ كَلاَمِ

... و قوله: "ولا خارجا" إنما وضع اسم الفاعل في موضع المصدر، وأراد: لا أشيم الدهر مسلما، ولا يخرج خروجا من في زور كلام، لأنه على ذا أقسم"[178].

3-المجاز العقلي والعلاقة المفعولية:

قال المبرد في تفسير قوله تعالى: ﴿**عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ**﴾ [179]. معناه: "عيشة فيها رضا"[180]. وهذا ما ذكره الطبراني حيث قال: "فوصفت العيشة بالرضا وهي مرضية، لأن ذلك مدح للعيشة، والعرب تفعل ذلك في المدح والذم ... فيوجهون الفعل إليه وهو في الأصل مفعول لما يراد من المدح و الذم و إثبات الرضا إلى العيشة و هي الفرع تؤكد رضا صاحبها و هو الأصل و فوق ذلك نجد في هذا الإسناد توكيدا لشدة الارتباط بين العيشة و صاحبها "[181].

والبلاغيون يشرحون هذه العلاقة بقولهم: "ففاعل راضية ضمير يرجع إلى العيشة والعيشة مرضية لا راضية، إذ الأصل: في عيشة رضى صاحبها بها، فأسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها، ويفيد هذا التجوز المبالغة في النعيم الذي أعده الله تعالى للمؤمنين في الجنة فرضوا به وسعدوا إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية يصاحبها تألفه ويألفها، وتحبه ويحبها في عيشة دائمة باقية، لأنها مبنية على الآلفة والمحبة، ولو كانت مبنية على التنافر ما دامت"[182].

(*)ديوان الفرزدق: ص539، وقد ورد البيت في الديوان كالآتي:

أَلَمْ تَرَنِي عَاهَدْتُ رَبِّي وَإِنَّنِي لَبَيْنَ رِتَاجٍ قَائِمٌ ومُقَامِ
عَلَى قَسَمٍ لاَ أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلِمًا وَلاَ خَارِجًا مَنْ فِيَّ سُوءُ كَلاَمِ

(178)الكامل :120/1.

(179)سورة الحاقة: الآية21.

(180)المقتضب: 163/3.

(181)ا تفسير الطبري: 233/23.

(182)علم المعاني: ص53.

و قال المبرد في قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾ [183].الوجه : "ولكنّ البرّ بِرُّ من آمن بالله. ويجوز أن يوضع البرّ في موضع البار "[184] فقد أسند "من آمن" إلى "البر" إسنادا مجازيا لعلاقة المفعولية، لأن من آمن فاعل والبر مفعول له.

4-المجاز العقلي والعلاقة الزمانية:

قال المبرد: "ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا: "لقد أكل الدهر عليه وشرب"[*]، إنما يريدون أنه أكل هو وشرب دهرا طويلا، قال الجعدي:

أكل الدهر عليهم وشرب.

والعرب تقول: نهارك صائم، وليلك قائم، أي أنت قائم في هذا وصائم في ذاك، كما قال الله عز وجل: ﴿**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾[**]، والمعنى والله أعلم: بل مكركم في الليل والنهار، وقال جرير[***]:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلاَنَ فِي السُّرَى وَنِمْتِ، وَمَا لَيْلُ المطِيِّ بِنَائِمِ"[185].

وقال في المقتضب: "فأما قول الله عز وجل: ﴿**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾ فإن تأويله- والله أعلم- بل مكركم في الليل والنهار، فأضيف المصدر إلى المفعول؛ كما تقول: رأيت بناء دارك جيدا، فأضافت البناء إلى الدار، وإنما البناء فعل الباني ... قال الشاعر:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلاَنَ فِي السُّرَى وَنِمْتِ، وَمَا لَيْلُ المطِيِّ بِنَائِمِ

والمعنى: بنائم المطي فيه، ومثله: "فنام ليلي وتقضى همي"[186].

بين المبرد نوع الإسناد في المثل، فالدهر لا يأكل ولا يشرب، إذا لا روح فيه، وكذلك النهار لا يصوم، والليل لا يقوم، وإنما الذي يفعل ذلك الإنسان.

[183] سورة البقرة: الآية177.
[184] المقتضب: 230/3-231
(*) مجمع الأمثال: 69/1.
(**) سورة سبأ: الآية33.
(***) ديوان جرير: ص454
(185) الكامل: 218/1-219.
(186) المقتضب: 105/3-331/4.

وفي بيت جرير أسند "نائم" إلى الضمير المستتر والذي هو في المعنى عائد على "ليل المطي"، والليل ليس فاعلا للنوم ولكنه زمان ينام فيه النائمون، وكذا أسند "مكر" إلى "الليل" في الآية، والمكر: الحيلة والخديعة، بغية الوصول إلى المطلوب، والليل لا يتأتى منه ذلك.

ولو قيل: مكر الناس، أو مكر الظالمين في الليل والنهار كان الإسناد حقيقة. قال الفراء: "وإنما المعنى: بل مكركم بالليل والنهار، وقد يجوز أن نضيف الفعل إلى الليل والنهار، ويكونا كالفاعلين؛ لأن العرب تقول: نهارك صائم وليلك قائم، ثم تضيف إلى الليل والنهار، وهو في المعنى للآدميين، كما تقول: نام ليلك، وعزم الأمر ... فهذا مما يعرف معناه"[187].ويقول الشريف الرضى أن "سر جمال هذا التعبير أي إضافة المكر إلى الليل والنهار أن فيه زيادة فائدة وهي دلالة الكلام على أن مكرهم كان متصلا غير منقطع في الليل والنهار"[188].

ويورد المبرد مقطوعة لزيد بن حبناء ومنها قوله:

فَلَيْسَ بِمُهْدٍ مَنْ يَكُونُ نَهَارُهُ	جِلادًا وَيُمْسِي لَيْلَهُ غَيْرَ نَائِمِ

ثم يقول: "قوله: من يكون نهاره جلادا، ويمسي ليله غير نائم. يريد: يمسي وهو في ليله، ويكون هو في نهاره، ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على السعة ... ولو قال: "من يكون نهاره جلادا ويمسي ليله غير نائم" لكان جيدا، وذاك أنه أراد من يكون نهاره يجالد جلادا، كما تقول: إنما أنت سيرا، وإنما أنت ضربا، تريد تسير سيرا، وتضرب ضربا، فأضمر لعلم المخاطب أنه لا يكون هو سيرا، ولو رفعه على أن يجعل الجلاد في موضع المجالد على قوله: أنت سير، أي أنت جائز"[189].

وقد اشتمل هذا النص على أكثر من مثال، واحتمالات للإعراب، يتبعها بعض أسرار النظم، وهذا شأن المبرد، فإنه لا ينسى ثقافته اللغوية والنحوية وما توحي به من أسرار ولطائف بيانية، والمبرد ذكر جملتين وسأبينها:

---

[187] معاني القرآن: 263/2.

[188] تلخيص البيان في مجازات القرآن: ص267.

[189] الكامل: 409/3-411.

الجملة الأولى: "من يكون نهاره جلادا" بين المعنى أولا بأن نهاره يجالد جلادا. فالمجاز في إسناد "يجالد" إلى ضميره المستتر العائد على "نهاره"، وفيه كذلك إيجاز بالحذف، ولو رفع فقيل: نهاره جلاد، أي مجالد، كان المجاز في جملة اسمية.

الجملة الثانية: "ويمسي ليله غير نائم": ليله غير نائم جملة اسمية في محل نصب خبر يمسي، والمجاز في إسناد "نائم" المنفي إلى ضميره العائد على الليل، وذلك على السعة أي المجاز كما قال.

ويقول المبرد في قول الشاعر أبو كبير الهذلي:

حَمَلَتْ بِهِ فِي لَيْلَةٍ مَزْءُودَةٍ كَرْهًا، وَعَقْدُ نِطَاقِهَا لَمْ يُحْلَلِ

"مزءودة: ذات زءد، وهو الفزع، فمن نصب "مزءودة" فإنما أراد المرأة، ومن خفض فإنه أراد الليلة، وجعل الليلة ذات فزع، لأنه يفزع فيها"[190].

5-المجاز العقلي والعلاقة المصدرية:

ومن إسناد الفعل إلى المصدر ما حكاه المبرد بقوله: "ويقال: سرى همي وهم المرء يسري"[191].

السرى: السير ليلا، وقد أسند "يسري" إلى ضميره العائد على "الهم" والهم لا يتأتى منه ذلك.

وقال المبرد: "والمصدر يقع في موضع اسم الفاعل، يقال: ماء غور، أي غائر كما قال عز وجل: ﴿**إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا**﴾[*]، ويقال: رجل عدل، أي عادل، ويوم غم أي غام، وهذا كثير جدا"[192]. ويدل على المبالغة في وقوع الحدث. وقد لاحظ ذلك ابن جني فقال: "فإنما ساغ ذلك لأنه أراد المبالغة"[193].

ومن مثل هذا قول "لقيط بن زرارة:

شَتَّانَ هَذَا، وَالعِنَاقُ وَالنَّوْمُ وَالمِشْرَبُ البَارِدُ، وَالظِّلُّ الدَّوْمُ

---

[190] الكامل: 135/1.

[191] المصدر نفسه: 194/1.

[*] سورة الملك: الآية30.

[192] الكامل: 120/1-121.

[193] الخصائص: 18/3.

يريد: الدائم"[194].

وقول الخنساء[195]:

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا مَا ادَّكَرَتْ   فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَـــالٌ وَإِدْبَـــارٌ

قال المبرد في شرح هذا البيت: "أي ذاك إقبال وإدبار، ويكون على أنه جعلها الإقبال والإدبار لكثرة ذلك منها"[196].

وفي الكامل يعيد المبرد شرح هذا البيت: "كما قالت الخنساء: "فإنما هي إقبال وإدبار" يجوز أن تكون نعتتها بالمصدر لكثرته منها، ويجوز أن تكون أرادت ذات إقبال وإدبار، فحذفت المضاف وأقامت المضاف إليه مقامه، كما قال الله عز وجل: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾ فجائز أن يكون المعنى بر من آمن بالله، وجائز أن يكون ولكن ذا البر من آمن بالله، والمعنى يؤول إلى شيء واحد"[197].

ويقول الشيخ عبد القاهر في تحليه المجاز العقلي في هذا البيت: "ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء – البيت – وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذلك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما، كأنهما قد تجسمت من الإقبال والإدبار ... واعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله عز وجل: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾، ومثل قول النابغة الجعدي[198]:

وَكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ   خَلاَلَتُهُ كَأَبِي مَرْحَبِ

وقول الأعرابي:

حَسَبْتَ بَغَامَ رَاحِلَتِي عِنَاقًا   وَمَا هِيَ وَيْبَ غُبْرَكَ بِالعِنَاقِ

---

[194] المقتضب: 305/4.

[195] ديوان الخنساء: ص46،و قد ورد البيت في الديوان كالتالي:

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ   فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

[196] المقتضب: 3/230-231.

[197] الكامل: 287/1.

[198] ديوان النابغة الجعدي، جمعه و حققه و شرحه واضح الصمد، دار صادر بيروت، ط1، 1998م: ص39.

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير: فإنما هي "ذات إقبال وإدبار" ذلك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين في سبيل ما يحذف من اللفظ و يراد في المعنى، كمثل أن يحذف خبر المبتدأ أو المبتدأ إذا دل الدليل عليه إلى سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق به، وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء، لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن، كالمعنى إذا نحن قلنا: فإنما هي ذات إقبال وإدبار، أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شيء مغسول، وإلى كلام عامي مرذول. وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطانها"(199).

وتحليل عبد القاهر هذا "تحليل دقيق لبيان المجاز العقلي في البيت وإبراز ما يفيده من المبالغة، وأن الناقة كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار، وأتت إذا رمت تقدير مضاف لتبين الإسناد الحقيقي، فقلت: "فإنما هي ذات إقبال وإدبار"، ضاعت هذه المبالغة، وفقدت حلاوة الشعر، كما تضع أيضا وتفقد إذا أولت المصدر باسم الفاعل فقلت: فإنما هي مقبلة ومدبرة"(200).

ويبدو أن الشيخ عبد القاهر كان يقصد المبرد حين قال: "وإن كنا نراها يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف". وقد خالفه الرأي حين قال: "وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء".

ويدخل ضمن العلاقة المصدرية قول المبرد: "فأما قول الله عز وجل: ﴿**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**﴾(*) فمعناه : عيشا، ثم قال : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**﴾(**). أي الحيض فكان أحد المصدرين على (مفعَل) و الآخر على (مفعِل)" (201).

6-المجاز العقلي والعلاقة المكانية:

ومما قاله المبرد في قوله تعالى: ﴿**وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**﴾ (202). "قال المفسرون: الموتى"(203).

(199) دلائل الإعجاز: ص292.
(200) علم المعاني: ص61.
(*) سورة النبأ: الآية11.
(**) سورة البقرة: الآية222.
(201) المقتضب: 2/122-123.
(202) سورة الزلزلة: الآية02.
(203) الكامل: 4/50.

ويرى البلاغيون أن الإخراج أسند إلى الأرض "وهي مكان للأثقال، والأصل: وأخرج الله منها أثقالها، ويفيد هذا التجوز في الإسناد: التهويل و التفظيع من شأن ذلك اليوم، وشدة قذف الأرض وإلقائها ما بداخلها من الأثقال، وكأنها هي التي تخرج وتقذف تلك الأثقال"[204].

ثانيا : المجاز اللغوي:

1) المجاز المرسل:

هو مجاز تكون العلاقة فيه غير المشابهة "وسمي مرسلا لإرساله عن التقييد بعلاقة المشابهة، فصحّ جريانه في عدة من العلاقات " [205].

و قد تناول المبرد أشهر علاقات المجاز المرسل، ووردت عنده غالبا مشفوعة بالبيان، وأحيانا بالإشارة إلى العلاقة والقرينة. ولم يذكر تسمية لهذا المجاز، وإنما هي تسمية المتأخرين غير أن دراسات المبرد كانت أصلا من الأصول التي اعتمد عليها المتأخرون في تسمية هذا المجاز، وتحديد معالمه.

وسأتناول هذه الدراسات مشفوعة بعلاقات المجاز المرسل على ما ذكره المتأخرون:

1- **العلاقة السببية:** أي ذكر السبب وإرادة المسبب، ومن أمثلته أن المبرد روى قول أبي الحسن الأخفش:

حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بِالوَفَاءِ وَلَمْ تَكُنْ لِلْغَدْرِ خـائنةُ مُغِـلُّ الإِصْبَـعِ

ثم قال: "الإصبع أفصح ما يقال...موضعها هاهنا: اليد. يقال: لفلان عليك يد، ولفلان عليك إصبُع، وكل جيد، وإنما يعني هاهنا: النعمة" [206].

فاستعمال كل من : "يد" و"إصبع" في النعمة مجاز مرسل، علاقته السببية، وفي كلام المبرد إشارة إلى المولي لليد وهو قوله: "لفلان" وهو ما اشترطه المتأخرون، وذلك لما لاحظوه من ضعف العلاقة بين اليد على الإطلاق، والنعمة في نحو: "اتسعت اليد في البلد، أو اقتنيت يدا".ويورد المبرد قول امرئ القيس [207]:

كَأَنَّ أَبَانَا فِي أَفَانِينِ وِدْقِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِيجَـادٍ مُزَمَّـلِ

---

[204] علم المعاني: ص57.

[205] مواهب المفتاح ضمن شرح التلخيص: 29/4.

[206] الكامل: 359/1-361.

[207] ديوان امرئ القيس : ص25،

ثم يقول: "أبان: جبل، وهما أبانان: أبان الأسود، وأبان الأبيض...قوله: "في أفانين ودقه" يريد: ضروبا من ودقه، والودْق: المطر، قال الله –تبارك وتعالى–:﴿ **فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ** ﴾ [208]، وقال عامر بن جوين الطائي:

فَلاَ مُزْنَةٌ وَدِقَتْ وَدْقَهَا وَلاَ أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا

كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ

يريد متزملا بثيابه. قال الله –تبارك وتعالى–:﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [209] وهو المتزمل بثيابه. والتاء مدغمة في الزاي، وإنما وصف امرؤ القيس الغيث؛ فقال قوم: أراد أن المطر قد خنق الجبل، فصار له كاللباس على الشيخ المتزمل.

وقال آخرون [210] إنما أراد: ما كساه المطر من خضرة النبت، وكلاهما حسن. وذكر الودق؛ لأن تلك الخضرة من عمله" [211].

فقد ذكر المبرد معنيين أولهما على التشبيه، وأشار بالثاني إلى المجاز المرسل مع الإشارة إلى نوع العلاقة بقوله: "لأن تلك الخضرة من عمله".

2- **العلاقة المسببية**: أي تسمية السبب باسم المسبب، فقد أورد المبرد قول الراجز يصف غنما:

أَقْبَلَ فِي المسْتَنِّ مِنْ رَبَابِهِ أَسْنِمَةُ الآبَالِ فِي سَحَابِهِ

ثم قال:" أراد أن السحاب ينبت ما تأكله الإبل، فتصير شحومها في أسنمتها. والرّباب: سحاب دوين المعظم من السحاب" [212]. أراد بالأسنمة: المطر؛ لأنه سبب نموها.

وجاء في الكامل أن رجلا رفع عقيرته ليسمع جرير بن عبد الله البجلي [213]:

تَطَاوَلَ لَيْلِي وَاعْتَرَتْنِي وَسَاوِسِي لآتٍ بالتُّرهَـــاتِ البَــابِــسِ

أَتَانِي جَرِيرٌ والحــوادثُ جَمــَّةٌ بِتِلكَ الَّتِي فِيهَا اجْتِدَاعُ المعَاطِسِ

[208] سورة النور: الآية43.

[209] سورة المزمل: الآيتان1-2.

[210] يريد قول أبا نصر في شرح القصائد السبع الطوال: ص107

[211] الكامل: 3/90-91.

[212] المصدر نفسه: 3/91-92.

[213] المصدر نفسه: 1/325 .

ولم يعلق المبرد.

يقول ابن جني (ت392 هـ): "وأصله أن رجلا قطعت إحدى رجليه، فرفعها ووضعها على الأخرى ثم صرخ بأرفع صوته؛ فقال الناس: "رفع عقيرته" فقيل لكل من رفع صوته : "رفع عقيرته" [214].

و يجمع بينهما بأن اعتبار رفع الصوت مسبب عن العقر (مجاز مرسل)، وعندما نقل هذا إلى معنى مشابه يكون مثلا.

3- **اعتبار ما سيكون**: أي تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه. قال المبرد: "وقوله –عز وجل-: ﴿ **إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا** ﴾ [215] أي أعصر عنبا؛ فيصير إلى هذه الحال" [216] فالخمر لا تعصر، وإنما يؤول عصير العنب في بعض الأحوال إلى خمر. فقد سمي العنب باسم الحال الذي سيحدث، يؤول إليه المسمى.

4- **المحلية**: أي تسمية الحال باسم محله، لما بينهما من الملابسة.

و المبرد يذكر أنه يمكن الاستغناء عن المضاف بالمضاف إليه، ثم يقول: "إذا حذفت المضاف استغنى بأن الظاهر يبينه، وقام ما أضيف إليه مقامه في الإعراب. من ذلك قول الله –تبارك وتعالى-: ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا** ﴾ [217] ، نصبت لأنه كان: واسأل أهل القرية " [218]. المراد بالقرية: "مصر أي أرسل إلى أهلها؛ فسلهم عن كنه القصة "[219]. ففي كلام المبرد إشارة إلى المجاز المرسل، وأن الحذف قياسي متى وجدت القرينة وهي هنا حالية.

– وروى قول مهلهل يرثي أخاه كليبا؛ فقال:

"وكان كليب إذا جلس لم يرفع بحضرته صوت، ولم يستب بفنائه اثنان:

ذَهَبَ الخِيَارُ مِنَ المِعَاشِرِ كُلِّهِمْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المِجْلِسُ"[220]

ولم يعلق بشيء. فالمجلس أريد به أهله بعلاقة المحلية.

---

[214] الخصائص: 6/1.

[215] سورة يوسف:الآية36.

[216] الكامل: 92/3.

[217] سورة يوسف: الآية82.

[218] الكامل: 151/1-140/2.

[219] الكشاف: 489/2

[220] الكامل: 317/1.

5- **الآلية**: أي تسمية الشيء باسم آلته. قال المبرد: "وقال المفسرون [221] في قوله – عز وجلّ– عن إبراهيم–صلوات الله عليه–: ﴿ **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** ﴾[222] أي ثناء حسن"[223]، أريد باللسان: الثناء الحسن؛ فإنه يبقى طويلا، بخلاف اللسان، وهو آلة الثناء وعلى هذا جمهور علماء البيان.

ومن العلماء من جعل هذه العلاقة: السببية، أو الجزئية؛ فالقاضي البيضاوي (ت691هـ) أتبع الآية الكريمة بقوله: "جاها وحسن صيت في الدنيا، يبقى أثره إلى يوم الدين؛ ولذلك ما من أمة إلا وهم محبون له، مثنون عليه. أو صادقا من ذريتي يجدد أصل ديني" [224]. والمتبادر من معنى الآية الكريمة، والذي عليه جمهور العلماء أن العلاقة الآلية.

وروى المبرد قصيدة لأعشى باهلة يرثي المنتشر بن وهب الباهلي ومطلعها [225]:

إِنِّ أَتَتْنِي لِسَانٌ لاَ أُسَرُّ بِهَا مِنْ عَلُ لاَ عَجَبٌ مِنْهَا ولاَ سَخَرُ
فَبِتُّ مُرْتَفِقًا لَلنَّجْمِ أَرْقُبُهُ حَيْرَانَ ذَا حَذَرٍ لَوْ يَنْفَعُ الحَذَرُ

ثم قال في الشرح: "قوله: "إني أتتني لسان". يقال: هو اللسان، وهي اللسان. فيمن ذكر فجمعه ألسنة. ومن أنث قال: لسان وألسن، وأراد باللسان ها هنا: الرسالة" [226] . فاللسان مجاز عن الرسالة؛ لأنه يمليها. و القرينة أتتني.

6- **المجاورة**: أي ذكر الشيء باسم مجاوره، لما بينهما من الصلة، ومن أمثلتها أن المبرد روى مقطوعة لابن نمير الثقفي، وأولها:

أَشَاقَتْكَ الظَّعَائِنُ يَوْمَ بَانُوا بِذِي الزيِّ الجَمِيلِ مِنَ الأَثَاثِ
ظَعَائِنُ أُسْلِكَتْ نَقْبَ المَنَقَّى تَحُثُّ إِذَا وَزِنَتْ أَيَّ احْتِثَاثِ

[221] يعني بهم علماء اللغة، مجاز القرآن: 87/2، ومعاني القرآن: 381/2.

[222] سورة الشعراء: الآية84.

[223] الكامل: 378/1.

[224] حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، ضبطه و صححه و خرج آياته محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1419 هـ/1999م:345/6-346

[225] هو عامر بن الحارث بن رباح بن أبي خالد بن ربيعة بن زيد بن عمرو...بن قيس غيلان، وقيل : هو من عامر بن عوف بن ثعلبة بن وائل، الأصمعيات، للأصمعي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط5، : 87 (هامش). وقد ذكر المبرد قدرا كبيرا من القصيدة في الكامل: 65/4.

[226] الكامل: 66/1-67 و المذكر و المؤنث:338/1

ثم قال: "قوله: الظعائن. واحدتها ظعينة، وإنما قيل للمرأة ظعينة وهم يريدون: مظعونا بها، ثم استعمل هذا وكثر حتى قيل للمرأة المقيمة ظعينة" [227].

فليس ثمة شبه بين المرأة والهودج، ولكن لما كان في السفر مجاورة صح إطلاق "ظعينة" على المرأة، ثم اتسع فيه وكثر حتى قيل للمرأة المقيمة ظعينة.

ومن الأمثلة قول المبرد: "روى استقى لأهله، يقال: فلان راوية أهله إذا كان يستقي لأهله، والتي على البعير والحمار: مزادة" [228] فالراوية في الأصل للبعير ونحوه مما يحمل الماء، وإطلاقها على المزادة ونحوها مجاز مرسل.

ويقول المبرد : "العِطف: ما انثنى من العنق...ويقال للأردية: العُطُفُ؛ لأنها تقع على ذلك الموضع" [229] فالمجاورة سوغت إطلاق العطف عليها.

وروى المبرد قول أعرابي:

تَرَى القومَ مِنْهَا مُطْرِقِينَ كَأَنَّمَا   تَسَاقُوا عُقَارًا لاَ يبِلُّ سليمُهَا

ثم قال في الشرح: "قوله: "تساقوا عقارا" يريد: كأنهم سكارى لما نالهم من الحجة والعقار: اسم من أسماء الخمر، وإنما سميت عقارا لمعاقرتها الدن" [230].

فعلى هذا التفسير العلاقة: المجاورة ويجوز أن تكون السببية.

7- **الكلية**: أي تسمية الشيء باسم كله. ومن أمثلتها أن المبرد روى قول الشاعر:

إِنَّ الَّذِينَ يَسُوغُ فِي أَعْنَاقِهِمْ   زادٌ يُمَنُّ عَلَيْـهِمُ لِلِئَـامُ

ثم قال: "قوله "يسوغ في أعناقهم" يريد: حلوقهم؛ لأن العنق يحيط بالحلق" [231]. ونقده "المرصفي" بقوله: "هذه رواية أبي العباس وقد تكلف لها. والرواية على ما أنشده أئمة اللغة:

إن الذين يسوغ في أحلاقهم.

مستشهدين به على أن يقال: حلق و أحلاق، والكثير حلوق" [232].

---

(227) الكامل: 239/2.
(228) المصدر نفسه: 218/3.
(229) المصدر نفسه: 304/2.
(230) المصدر نفسه: 110/1
(231) المصدر نفسه: 59/1.
(232) رغبة الأمل: 196/1.

فعلى رواية المبرد تكون الأعناق مجازا عن الحلوق، بعلاقة الكلية. وعلى ما رواه أئمة اللغة: الأحلاق حقيقة لغوية.

8- **الجزئية:** وهي تسمية الشيء باسم جزئه، ففي شرح المبرد لخطبة الصديق-رضي الله عنه- قال: "وقول: "ورم أنفه" يقول: امتلأ من ذلك غضبا، وذكر أنفه دون السائر كما يقال: فلان شامخ بأنفه. يريد: رافع، وهذا يكون من الغضب"[233]. فالغضب يملأ الجسم ولكن ظهوره في الأنف أكثر؛ ولذا قال المبرد: "دون السائر" فللأنف أهمية في هذا المقام، وهذا ما جعله موضع الذكر.

ويورد المبرد مقطوعة لجرير يمدح هشام بن عبد الملك، ومنها قوله [234]:

يَرَى لِلْمُسْلمِينَ عَلَيْكَ حَقًّا كَفِعْلِ الوَالِدِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

إِذَا بَعْـضُ السِّنِينَ تَعـرقَتْنَا كَـفَى الأَيْتَامَ فقد أَبِي اليَتِيمِ

وفي بيانه لقول جرير:

إذا بعض السنين تعرفتنا

فإنه يذكر سبب تأنيث الفعل "تعرفت" مع فاعله الضمير المستتر العائد على "بعض"؛ لأنه قصد به لفظ "السنين" ويورد له شاهدا هو تأنيث الفعل "شرقت" مع فاعله وهو "صدر" في قول الأعشى [235]:

وَتَشْرَقَ بالقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذَعْتَهُ كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ.

ويقول: "لأن صدر القناة قناة، ومن كلام العرب:...ذهبت بعض أصابعه" لأن بعض الأصابع إصبع" [236].

فعلى هذا يكون كل من "بعض" و"صدر" في البيتين مجازا مرسلا، علاقته الجزئية. وأورد المبرد في هذا الموضع أمثلة أخرى من الشعر

وثمة قول أجود منه، قال المبرد: "والأجود أن يكون الخبر في المعنى عن المضاف إليه؛ فأقحم المضاف توكيدا؛ لأنه خارج عن المعنى. وفي كتاب الله –عز وجل- ﴿ **فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ**

[233] الكامل: 101./1.

[234] المصدر نفسه: 139/2، والأبيات من قصيدة بديوانه: 506، وعددها أربع وعشرون بيتا.

[235] ديوان الأعشى: ص123.

[236] الكامل: 141/2.

لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [237] إنما المعنى: فظلوا لها خاضعين. والخضوع بين في الأعناق؛ فأخبر عنهم؛ فأقحم الأعناق توكيدا. وكان أبو زيد الأنصاري يقول: أعناقهم: جماعاتهم. تقول: جاءني عنق من الناس، والأول قول عامة النحويين" [238].

وعلى هذا تكون "أعناق" مجازا عن أصحابها.يقول ابن منظور: "وقيل: أراد بالأعناق هنا: الرقاب كقولك: ذلت له رقاب القوم، و أعناقهم...وجاء بالخبر على أصحاب الأعناق لأنه إذا خضع عنقه فقد خضع" [239].

وقد ذكر المبرد في "المقتضب" هذه الآية الكريمة و قال: "أما قوله: ﴿ **فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾ففيه قولان، أحدهما أنه أراد بأعناقهم جماعاتهم، من قولك: أتاني عنق من الناس، أي جماعة. و إلى هذا كان يذهب بعض المفسرين ،و هو رأي أبي زيد الأنصاري .

وأما ما عليه جماعة أهل النحو، و أكثر أهل التفسير، فيما أعلم، فإنه أضاف الأعناق إليهم، و يريد الرقاب، ثم جعل الخبر عنهم؛لأن خضوعهم بخضوع الأعناق ومن ذلك قول الناس:ذلت عنقي لفلان،ذلت رقبتي لك." [240]

2) **الاستعارة:**

للاستعارة أهمية كبيرة في العمل الأدبي؛ لما تنطوي عليه من وظائف تكسب المعنى قيمة جمالية، إلى جانب قيمتها التعبيرية.

و قد عرّفها عبد القاهر الجرجاني فقال: " الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية"[241].

---

[237] سورة الشعراء: الآية4،.

[238] الكامل: 141/2.

[239] لسان العرب، مادة (عنق): 341/9

[240] المقتضب : 4/ 198-199.

[241] أسرار البلاغة: ص31 .

-الاستعارة عند المبرد:

ذكر المبرد الاستعارة بمعناها اللغوي في أمثلة حللها:

قال: " حدثني التوزي قال: دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب على هشام بن عبد الملك وعليه عمامة تخالفها؛ فقال له هشام: كأن العمامة ليست من الثياب ! قال: إنها مستعارة. قال له: كم سنُّك؟ قال: ستون سنة "[242].

ويذكر في موضع آخر أن "ضابئ بن الحارث البرجُمي" كان استعار من قوم كلبا؛ فأعاروه إياه، ثم طلبوه منه [243].

فالاستعارة هنا معناها لغوي عرفي، وهي أصل للاستعارة بالمعنى البياني، وقد ربط ابن الأثير بين المعنيين، وزاد المعنى وضوحا [244].

وتبدو الصلة قوية بين المعنيين: فالمجازي من لوازم الحقيقي المدلول عليه بهذا اللفظ.

وقد عرفت الاستعارة عند المبرد بمعناها البلاغي، فقد أشار إليها فقال:"و العرب تستعير بعض لبعض"[245] ، وبين منهج العرب فيها عند شرحه لقول الراعي في المطر: [246]

يَا نُعْمَهَــا لَيْلَــةٌ حَتَّى تَخَوَّنَــهَا دَاعٍ دَعَا فِي فُرُوعِ الصُّبْحِ شَحَّاجِ
لِمَاَّ دَعَا الدّعْوَةَ الأُولىَ فَأَسمَعَنِي أَخَذْتُ بُرْدَيَّ وَاسْتَمْرَرْتُ أدْرَاجِي

يقول: "قوله "شحّاج" إنما هو استعارة في شدة الصوت؛ وأصله للبغل، والعرب تستعير من بعض لبعض"[247]، قال جرير [248]:

إِنَّ الغرَابَ بمَا كَرِهْتُ لمِوُلَعٌ بِنَوَى الأَحِبَّةِ دَائمُ التِّشْحاَجِ [249]

فقد بين استعارة "شحاج" للصبح، وأشار إلى الجامع، وهو "في شدة الصوت".

---

[242] الكامل: 170/2.
[243] ينظر الكامل: 387/1.
[244] ينظر المثل السائر: 77/2.
[245] الكامل:284/1.
[246] ديوان الراعي النميري: ص29.
[247] الكامل:284/1
[248] ديوان جرير: ص73.
[249] الكامل: 481-482.

وقد استدرك المرصفي على المبرد جعل "شحاج" من الاستعارة، فقال معلقا: "وأصله للبغل كذا يقول أبو العباس، وجعله استعارة فيما سواه، وليس كما قال: بل هو حقيقة أيضا في الحمار والغراب، حتى إن بعضهم جعل الشحاج صفة غالبة للحمار" [(250)].

ويؤيده قول ابن منظور: "الشحيج و الشُّحاجُ بالضم: صوت البغل والحمار والغراب إذا أسنّ" [(251)].

وأورد المبرد قول جرير يرثي ابنه سوادة [(252)]:

هَذَا سَوادَةُ يَجْلُو مُقْلَتَيْ لحِمٍ   بَازٍ يُصَرْصِرُ فَوْقَ المرْكَبِ العَالِي

ثم قال:" قوله: "يصرصر" يعني: يصوت. يقال: صرصر البازي، والصقر، وما كان من سباع الطير. ويقال: صرصر العصفور. وأحسبه مستعارا؛ لأن الأصل فيه: أن يستعمل في الجوارح من الطير. قال جرير: [(253)]

بَازٍ يُصَرْصِرُ بِالسَّهْبَى قَطَا جُونَا

و أنشد في عمارة: *بازٍ يُصَعْصِعُ*

وهو أصح. قال أبو الحسن: "يصعصع" وهو الصواب. وهكذا وقع في كتابه" [(254)].

شبه جرير في البيت الأول ابنه بالبازي. أي: هو باز. ثم استعار له: "يصرصر" بمعنى يصدر صوتا متقطعا [(255)]. وهو في الأصل لبعض الطيور...ثم استشهد بقول جرير الثاني؛ هذا ما رآه المبرد. ولكن تعقبه المرصفي؛ فبين أن "صرصر" حقيقة في كلا الأمرين فقد علق على قول المبرد:"وأحسبه مستعارا"؛ بقوله: "ليس كما حسب، بل هو في كلها حقيقة. تقول: صر العصفور، و الجندب، والبازي، وصر القلم، والباب كذلك صريرا: صوَّت" [(256)].

---

(250) رغبة الآمل: 149/3.

(251) اللسان، مادة(شحج): 42/7

(252) ديوان جرير: ص430.

(253) ديوانه: ص481 من قصيدة له يهجو التيم. والبيت كاملا:

كَأنَّ حَادِيها، لما أضرَّ بها،   بازٍ يُصعصعُ بالسَّهبَا قَطاً جُونا

والضمير في حاديها يعود على "العيس" في بيت قبله.

(254) الكامل: 221/1-222.

(255) " قالوا: صر الجندب؛ فقطعوه لما هنالك من تقطيع". الخصائص: 65/1.

(256) رغبة الآمل: 30/3.

و لعلماء اللغة في "صرّ" ومشتقاته رأيان:

الأول: أنه حقيقة في أصوات بعض الطيور والإنسان والجماد. وقد أورد ابن منظور له شاهدا من القرآن الكريم، وآخر من كلام العرب[257].

الثاني: أنه خاص بالبازي[258] والصقر. والقائل بهذا الرأي قليل.

فالمبرد نظر إلى هذا الرأي؛ فقال بالاستعارة، والمرصفي نظر إلى الأول فقال بالحقيقة، ووجه بالتالي نقده للمبرد، فلكل عند علماء اللغة دليل.

وفي حديث المبرد عن بعض أصوات الطير فإنه يورد قول حميد بن ثور في الحمامة المطوقة:

تَغَنَّتْ عَلَى غُصْنٍ عِشَاءً فَلَمْ تَدَعْ   لِنَائِحَةٍ فِي شَجْوِهَا مُتَلَوَّمَا
إِذَا حَرَّكَتْهُ الرِّيـــحُ أَوْ مَالَ مَيْلَـــةً   تَغَنَّتْ عَلَيْهِ مَائِلاً وَمُقَوَّمَا

ثم يقول: "ويقال للحمامة: تغنت، وناحت. وذلك أنه صوت حسن غير مفهوم، فيشبه مرة بهذا، ومرة بهذا" [259].

وقوله: "يشبه..." إشارة إلى أن الاستعارة تبنى على التشبيه. فالشاعر استعار "تغنت" من الإنسان للحمامة، بجامع التطريب في كل، وعلى هذا يحمل قول ابن منظور: "كل من رفع صوته، ووالاه فصوته عند العرب غناء" [260].

وأشار المبرد إلى الاستعارة التصريحية الأصلية عند بيانه لرسالة علي بن أبي طالب يرد على معاوية –رضي الله عنهما– وأولها قوله:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر. أما بعد. فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده. دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاتّبعه. ثم شرع في شرحها، ومما قاله:

---

(257) لسان العرب، مادة (صرصر): 322/7

(258) فقه اللغة وصحاح العربية: ص319.

(259) الكامل: 124/3، وما بعدها.

(260) لسان العرب، مادة (غنا): 135/10

"وقوله: "ليس له بصر يهديه" فمعناه: يقوده، والهادي هو الذي يتقدم؛ فيدل. و الحادي الذي يتأخر فيسوق. والعنق يسمى الهادي؛ لتقدمه...و قوله: "دعاه الهوى" فالهوى من هويت مقصور" قال الله –عز وجل-: ﴿ **وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم**﴾ [261]" [262]

فقد جعل العقل في دلالته على الحق مشبها بالبصر. ثم استعير البصر لهذا المعنى. ولفظ "يهديه" قرينة. فالاستعارة تصريحية أصلية.

وشبه الهوى وهو معنوي بالمأمور المطيع المجيب، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإجابة، ثم اشتق منه"أجاب" فالاستعارة مكنية.

ومن التصريحية الأصلية ذكر الأخ، والعم إذا أريد بهما الكلام المتفاوت في درجات النظم. وذلك أنهما وضعا للآدميين.

يقول المبرد:" وخُبرت أن عمر بن لجأ قال لابن عم له: أنا أشعر منك قال له: وكيف؟ قال: لأني أقول بالبيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه" [263].

ومن استعارة الفعل ما أنشده نصيب في مدح سليمان و هو [264]:

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَـادِرِينَ لَقِيتُهُـمْ		قِفَا ذَاتِ أَوْ شَالٍ وَمَـوْلاَكَ قَارِبُ
قِفُوا خَبِّرُونِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنَّـنِي		لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْـلِ وَدَّانَ طَالِـبُ
فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ		وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ

يقول المبرد: "وأما قول نصيب: "ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب"، فإنما يريد أنهم يرجعون مملوءة حقائبهم من رفده؛ فقد أثنت عليه الحقائب من قبل أن يقولوا" [265]، فليس للحقائب ألسن؛ فتثني، أو تذم. وإنما امتلاؤها دليل على كثر العطاء.

شبه امتلاء الحقائب بثناء المادح بجامع الدلالة في كل، ثم استعير الثناء لهذا المعنى، واشتق منه: "أثنت" بمعنى: دلت على سبيل الاستعارة الأصلية التبعية.

---

[261] قال الله تعالى: ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم** ﴾ (سورة محمد: الآية: 14).

[262] الكامل: 330/1، وما بعدها.

[263] المصدر نفسه: 160/2.

[264] المصدر نفسه: 184/1-187.

[265] المصدر نفسه: 187/1.

وأشار المبرد إلى الاستعارة دون أن يصرح بها حين قال: "وأملح ما قيل في هذا المعنى وأجوده قول امرئ القيس [266]:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

فجعله للوحش كالقيد" [267].

والبيت نفسه عند الحاتمي (ت288هـ) يقول فيه: "ألا ترى إلى قول امرئ القيس وقد أغتدى والطير في وكناتها...وهذا النوع من الاستعارة يسمى الإرداف، وهو أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الذي يدل على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع دل على المتبوع، ومثل ذلك "قيد الأوابد" وذلك أنه أراد وصف الفرس بالسرعة وأنه جواد إذا أرسلته على الصيد كان كالقيد لها وكانت كالمقيدة له، وذلك سبقه وميعة إحضاره، يتبعهما أن تكون الأوابد كالمقيدة له، وحقيقة "قيد الأوابد" مانع الأوابد وحابسها. "و قيد الأوابد" أبلغ وأحسن.

وقيل"قيد المتين" للأسير، وقيل في وصف الفرس "قيد الرهان". وقيل: النواظر قيد الخواطر وقيد العيون، وكل ذلك تركيب على لفظ الفرس" [268].

بينما نجده قد صرح بها في قوله:" ونحو آخر لا يتعدى الفعل فيه الفاعل، وهو للفاعل على وجه الاستعارة ويقع على ضربين: أحدهما:سقط الحائط، وطال عبد الله، وأنت تعلم أنهما لم يفعلا على الحقيقة شيئا. فهذا ضرب والضرب الثاني الذي يسميه النحويون فعل المطاوعة" [269].

لكننا نجد المبرد في بعض الأحيان يخلط بين الاستعارة والتشبيه قال: "ومن تشبيههم المتجاوز الجيد النظم ما قد ذكرناه، وهو قول أبي الطّمحان القيني:

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَمَ الجَزْعُ ثَاقِبُهُ" [270]

---

[266] ديوان امرئ القيس: ص118.

[267] الكامل: 109/3.

[268] الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره، تحقيق محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة و النشر، 1385هـ /1965م: 92.

[269] المقتضب: 188/3

[270] الكامل: 129/3.

ومعلوم أن إضاءة الأحساب استعارة لا تشبيه.

وكان المبرد ممن مهدوا للقول بالاستعارة في الحرف فهو يرينا في مثالين متجاورين استعمال الحرف في حقيقته، ثم في مجازه باعتباره متعلقة، يقول:

"قولهم: فلان على الدابة، وعلى الجبل. أي فوق كل واحد منهما. ثم تقول: فلان عليه دين تمثيلا، وكذلك: ركبه دين، وإنما يريد: أن الدين قد علاه وقهره"[271].

الحرف "على" يفيد الاستعلاء وهو على الحقيقة في المثالين: فلان على الدابة، وعلى الجبل. و أما في قوله: فلان عليه دين، وركبه دين فهما من الاستعارة التبعية؛ لأن الاستعلاء هنا مجازي. شبه تمكن الدين من المدين، وقهره له، وعدم براءة ذمته منه إلا بقضائه، شبه براكب دابة ونحوها. ثم استعيرت على من معناه الأصلي لتدل على هذا المعنى على سبيل الاستعارة التبيعة في الحرف.

قال في موضع من المقتضب، "وقد يتسع القول في هذه الحروف، وإن كان ما بدأنا به الأصل، نحو قولك: زيد ينظر في العلم، فصيرت العلم بمنزلة المتضمَّن، وإنما هذا كقولك: قد دخل عبد الله في العلم، وخرج مما يملك" [272].

ويبين المبرد المعنى الأصلي للحرف، ثم المعنى المراد به في النظم. فالحرف يبدل من آخر بشرط، وهو "إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع". وهذا إشارة إلى العلاقة التي تصحح الاستعارة في الحرف المستعار، فهو يقول:

"و حروف الخفض يبدل بعضها من بعض إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع. قال الله –جل ذكره-: ﴿ **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ﴾ [273] أي "على"، ولكن الجذوع إذا أحاطت دخلت "في" لأنها للوعاء. يقال: فلان في النّخل. أي: قد أحاط به. قال الشاعر:

هُمْ صَلَبُوا العَبْدِيَّ فِي جِذْعِ نَخْلَةٍ فَلاَ عَطِسَتْ شَيْبَانُ إِلاَّ بِأَجْدَعَا

وقال الله–عز وجل-: ﴿ **أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ** ﴾ [274]، أي: عليه" [275].

---

[271] الكامل: 37/1.

[272] المقتضب: 139/4.

[273] سورة طه: الآية71.

[274] سورة الطور: الآية38.

[275] الكامل: 98/97/3 وينظر المقتضب: 233/2-234.

ففي الآية الأولى: "شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعي في وعائه"[276]، ثم استعير لفظ "في" لهذا المعنى على سبيل الاستعارة التبعية، وذلك أن حقيقة الصلب يكون على جذوع النخل لا فيها. قال أبو عبيدة: "إنما هو على جذوع النخل"[277]. ومثله صلب العبدي في جذع نخلة في البيت.

وقد جاء الصلب على الحقيقة في قول المبرد: " ويروي أن شاعرا لبني أمية قال معارضا للشيعة في تسميتهم زيدا المهدي:

صَلَبْنَا لَكُمْ زَيْدًا عَلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ وَلَمْ نَرَ مَهْدِيًّا عَلَى الجِذْعِ يُصْلَبُ "[278]

وفي الآية الثانية نابت"في " مناب "على" لوجود العلاقة بين الحرفين. هذا على المجاز. ولكن لا داعي إليه ما أمكن الحمل على الحقيقة.

وأشار المبرد إلى الاستعارة العنادية في مواضع من كتابه الكامل قال: "والسليم: الملسوع، وقيل له: سليم على جهة التفاؤل، كما يقال للمهلكة: مفازة، وللغراب: الأعور. على الطيرة منه ؛ لصحة بصره" [279].

فهذه الأمثلة منها ما يراد به التفاؤل، أو التطير، وكل مستعمل في ضد معناه بعد تنزيل التضاد، أو التناقض منزلة التناسب. وهذا ما رآه أئمة اللغة وما جرى عليه العرف.

كما أشار إلى الاستعارة التهكمية، فقد ناظر بين قول الشاعر :

وخَيْلٍ قَدْ دَلَفَتْ لَهَا بِخَيْلٍ تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

وبين أمثلة من الاستعارة التهكمية التي أوردها مستقاة من الكلام الجاري كقولهم:"إنما شفاء زيد السيف، وإنما تحيته الشتم، أي هذا الذي قد أقامه مقام التحية ومقام الشفاء"[280].

وفي "الكامل" أمثلة كثيرة للاستعارة التمثيلية مشفوعة بالبيان. وقد أخذها عن المبرد كثير

---

[276] الكشاف: 546/2.

[277] مجاز القرآن: 234/2.

[278] الكامل: 12/4.

[279] المصدر نفسه: 110/1 ,164/3، وينظر الإيضاح: 132/3.

[280] المقتضب:2 /20.

من العلماء. فقد روى قول الشماخ يمدح "عرابة"[281]:

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الأَوْسِيِّ يَسْمُو إِلَى الخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ القَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِاليَمِينِ

ثم قال: "قوله: "تلقاها عرابة باليمين" قال أصحاب المعاني : معناه: بالقوة. و قالوا مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [282] " [283].

حكى المبرد عن أصحاب المعاني "تفسير اليمين بالقوة في كل من الآية الكريمة، والبيت؛ فالمجاز في اللفظ المفرد. ولكن المعنى في كل منهما على ما تؤديه الصورة التركيبية من المعنى والتصوير، وهو لا يكون إلا بمجموع الكلام"[284].

فالشماخ يصور"عرابة" في حرصه على المبادرة إلى سبل المجد بكل ما أوتي من قوة، ومال وغير ذلك بتلقيه الشيء باليمين.

والآية الكريمة تشير إلى عظمة الله –سبحانه– وقدرته، وصنعه يوم القيامة في السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [285]. فالمراد بالمجاز: جملة ﴿ **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ لا لفظ "يمين" وحده، وكذا البيت الثاني في قول عرابة.

و الإمام عبد القاهر ذكر ما قاله المبرد، ثم بين أن المعنى في المثالين على التمثيل المستفاد من جملة الكلام [286]. و يبين أن محصول المعنى على القدرة، وأننا نصير إليها من طريق التأويل والمثل "فكأن المعنى –والله أعلم– أنه –عز وجل– يخلق فيها صفة الطي حتى تُرى كالكتاب المطوي بيمين الواحد منكم. وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم للمثل"[287].

---

[281] ديوانه: ص335 والمبرد ترك بيتا بين البيتين وهو: أَفَادَ محامدًا وَأَفَادَ مجْدًا فَلَيْسَ كجامدٍ لحزٍ ضَنينِ

قال المبرد: "وكان سبب ارتفاع عرابة أنه قدم من سفر، فجمعه الطريق، والشماخ بن ضرار المري؛ فتحدثا؛ فقال له عرابة: ما الذي أقدمك المدينة؟ قال: قدمت لأمتار منها، فملأ عرابة رواحله بُرا وتمرا، وأتحفه بغير ذلك. فقال الشماخ الأبيات" الكامل: 128/1.

[282] سورة الزمر: الآية67.

[283] الكامل: 129/1.

[284] أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل: ص295.

[285] سورة الزمر: الآية67.

[286] ينظر أسرار البلاغة: ص271-272

[287] المصدر نفسه: ص272

إن الاستعارة التمثيلية إذا شاعت صارت مثلا، وقد وردت معظم الأمثال في "الكامل" متناثرة، وصنيع المبرد نحوها يختلف[288].

إن المبرد وإن لم يخص الاستعارة بباب مستقل كما فعل مع التشبيه، وإن كانت دراسته لها غير منتظمة إلا أن جهده المبذول فيها فتح الباب أمام العلماء من بعده كي يتعمقوا فيدرسونها ويبيّنوا أنواعها ويوضّحوها.

المبحث الثالث: الكناية

لقد عرفها الشيخ عبد القاهر الجرجاني بقوله: "المراد بالكناية ها هنا: أن يريد المتكلم بثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود؛ فيوصل إليه، ويجعله دليلا عليه" [289].

الكناية عند المبرد:

دراسات المبرد المتناثرة للكناية إثراء لمباحثها، و إمداد للصورة البيانية بفيض من الأمثلة مشفوعة بالشرح والبيان، سواء منها ما ورد في اختياراته الأدبية، أو جاء منفردا، أو على سبيل الاستطراد. و قد أدخل بعضها تحت لفظ المجاز، أي: الطريق إلى فهم المعنى أيا كان.

يقول المبرد: "فمجاز الطغام عند العرب: من لا عقل له ولا معرفة عنده" [290] كما أطلق على بعضها لفظ: المثل، ففي بيانه لقول الشاعر: [291]

طِوَالُ أَنْضِيَةِ الأَعْنَاقِ لَمْ يَجِدُوا رِيحَ الإِمَاءِ إِذَا رَاحَتْ بِأَزْفَارِ

يقول: "قوله: طوال أنضية الأعناق" وضربه مثلا، وإنما أراد: طوال الأعناق"[292] وأطلق لفظ كناية على الضمير، ففي قول السعدي بن محلّم [293]:

أَلاَ فَتًى مِنْ بَنِي ذُبْيَانَ يَحْمِلُنِي وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي إِلاَّ ابنُ حَمَّالِ

[288] ينظر الباب الأول فصل بلاغة الشعر و النثر.
[289] دلائل الإعجاز: ص430.
[290] الكامل: 62/1.
[291] المصدر نفسه: 54/1.
[292] المصدر نفسه: 57/1.
[293] المصدر نفسه: 363/1.

يعيب اتصال الضمير باسم الفاعل في "حاملني" فيقول: "وأنشد بعضهم: "وليس حاملني إلا ابن حمال" هذا لا يجوز في الكلام؛ لأنه إذا نون الاسم لم يتصل به المضمر؛ لأن المضمر لا يقوم بنفسه، ولا يقع التنوين ها هنا، لأنه لو وقع لانفصل المضمر. وعلى هذا قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ** ﴾ [294]"[295].

كما أطلق الكناية على بعض أمثلة التورية، فقد أتبع قول عمر بن أبي ربيعة [296]:

"حَانَ منْ نجمِ الثُّريَا طلوعُ".

بقوله: "كناية، وإنما يريد: الثريا بنت علي." [297].

واعتد المبرد بمنهج العرب؛ ففي بيانه لقول علي-كرم الله وجهه: "ويا عقول ربّات الحجال" – يقول "ينسبهم إلى ضعف النساء، وهو السائد في كلام العرب" [298].

ويقول: "العرب تقول: ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر، يريد العربي و العجمي"[299].

ويقول: "و المكنون: المصون. يقال: كننت الشيء إذا صنته، و أكننته: إذا أخفيته. فهذا المعروف" [300]. قال الله –تبارك وتعالى: ﴿ **أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ** ﴾ [301]، وقد يقال "أي أخفيته" [302] فلفظ "كنى" ومشتقاته يدل على هذا المعنى.

أ-أغراض الكناية:

يقول المبرد في كتابه الكامل، "والكلام يجري على ضروب فمنه ما يكون في الأصل لنفسه، ومنه ما يكنى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلا فيكون أبلغ في الوصف"[303].

---

(294) سورة العنكبوت: الآية33.
(295) الكامل :60/1.
(296) ديوان عمر بن أبي ربيعة: ص190.
(297) الكامل: 234/2.
(298) المصدر نفسه: 26/1.
(299) المصدر نفسه: 61/2.
(300) المصدر نفسه : 234/2.
(301) سورة البقرة: الآية235.
(302) الكامل: 234/2.
(303) المصدر نفسه: 290/2.

فالكناية عنده إذا ضرب من ضروب الكلام الذي لا يقصد به معاني ألفاظه وإنما يكنى به عن غيره.

ولم يقف المبرد عند هذا الحد أعني أنه لم يقف بها عند اعتبارها ضربا من ضروب الكلام الذي تكون الدلالة فيه غير مباشرة، بل قسمها إلى ثلاثة أقسام ولعلها هي المحاولة الأولى لتقسيمها. يقول المبرد: "والكناية تقع على ثلاثة أضرب: أحدها التعمية والتغطية كقول النابغة الجعدي [304]:

أَكْنَى بغَيْرِ اسمِهَا وقَدْعَلِمَ اللهُ خَفِيَّاتِ كُلِّ مُكْتَتَمِ.

وقال ذو الرمة [305] استراحة إلى التصريح من الكناية:

أُحِبُّ المكَانَ القَفْرَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنِي بِهِ أَتَغَنَّى بِاسْمِهَا غَيْرَ مُعْجَمِ

وقال أحد القرشيين وهو محمد بن نمير الثقفي:

وقَدْ أَرْسَلَتْ فِي السِّرِ أَنْ قَدْ فَضَحْتَنِي وَقَدْ بُحْتَ بِاسْمِي فِي النَّسِيبِ وَمَاتَكْنِي" [306].

فالكناية في هذا الضرب قائمة عنده على الستر وعدم التصريح، أكن بغير اسمها" غير معجم" بحت باسمي في النَّسِيبِ وما تكني".

أما الضرب الثاني من ضروب الكناية فله معاني أقوى وأحسن عند المبرد يقول في ذلك: " ويكون من الكناية وذاك أحسنها الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره.

...و قال عز وجل: ﴿ **أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾ [307]، والملامسة في قول أهل المدينة مالك وأصحابه غير كناية إنما هو اللمس بعينه.

وكذلك قولهم في قضاء الحاجة: جاء فلان من الغائط... وقال الله جل وعز في المسيح بن مريم وأمه "صلى الله عليهما ": ﴿ **كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ** ﴾ [308]، وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة.

---

[304] ديوان النابغة الجعدي: ص157.

[305] ديوان ذي الرمة: ص6-7.

[306] الكامل: 290/2.

[307] سورة المائدة: الآية6.

[308] سورة المائدة: الآية75.

وقال: ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا** ﴾ [309] وإنما هي كناية عن الفروج"[310].

إن المبرد عد هذا الضرب من أحسن ضروب الكناية لأنه يمثل عنده ستر اللفظ الخسيس إلى معنى يدل عليه، وهذا في حد ذاته يمثل عندنا محاولة من المبرد في دراسة أسلوب الكناية دراسة تقوم على الموازنة بين أساليبها.

والمبرد هنا يشير إلى قضية كبيرة ومهمة في درس الكناية، وذلك في خلافه مع المالكيه حول ملامسة النساء في الآية الكريمة، إذ يورد رأي المالكية الذي يعتبر الملامسة حقيقة، وهي عنده كناية، ولعل هذا الخلاف هو أول بذرة حول موضوع الكناية أهو حقيقة، أم مجاز، أم حالة وسطى، كما أنه يشير إلى حقيقة جوهرية انتهى إليها المتأخرون وعدوها أصل الفروق، وهي أن الكناية يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي بخلاف المجاز الذي لا يجوز فيه ذلك.

والثالث من أضرب الكناية عند المبرد" التفخيم والتعظيم "ومنه اشتقت الكنية وهي أن يعظم الرجل أن يدعى باسمه ووقعت في الكلام على ضربين: "وقعت في الصبي على جهة التفاؤل بأن يكون له ولد ويدعى بولده كناية عن اسمه، وفي الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه وإنما يقال كنى بكذا عن كذا أي ترك كذا إلى كذا لبعض ما ذكرناه "[311].

وهذا الضرب أيضا يقوم على المفهوم اللغوي وهو الكنية ويعني ذاك ستر الاسم وإخفاؤه، سواء كانت الكنية للصغير، أم للكبير وهو مشتق من الكناية. ونقول إن المبرد لم يشر إلى الكناية فحسب ولكنه سلك بها طرقا متعددة، حاول فيها الموازنة بين أساليبها بين حسن وأحسن، كما حاول تقسمها إلى أضرب مختلفة.

إن هذه الأضرب التي ذكرها المبرد لم يدخل واحد منها في الأقسام التي اصطلح عليها البلاغيون، ولكنها تعتبر ضمن أغراض الكناية أو السياقات التي يعالجها أسلوب الكناية، وهذا كله يعد تطورا ملحوظا في دراسة الكناية عند المبرد. وإذا رغبنا في وضع عنوان لكل ضرب من هذه الأضرب الثلاثة التي ذكرها المبرد لأمكننا القول " بأن الضرب الأول الذي جاء للتعمية

---

[309] سورة فصلت: الآية21

[310] الكامل: 2/291-292.

[311] المصدر نفسه: 2/292.

والتغطية إنما هو نوع من الكناية اللغوية، والضرب الثاني الذي نلحظ فيه العدول عن اللفظ الخسيس إلى غيره مما يدل على معناه إنما هو نوع من الكناية الاصطلاحية، أما الضرب الثالث الذي اشتقت منه الكنية فهو كناية من باب التسمية ولا أكثر من ذلك" [312].

و المبرد إن لم يكن قد عرف الكناية تعريفا اصطلاحيا ولم يفرق بينها وبين التعريض، لكنه بلا شك أول من حاول تقسيمها.

ب-**أقسامها:**

كثرت دراسات الكناية وتنوعت في كامل المبرد، وسأبينها على ما آل إليه الحال في الدرس البلاغي:

أولا: الكناية التي يطلب بها صفة:

وهي أن يصرح بالموصوف ولا يصرح بالصفة التي يراد نسبتها إليه، ولكن نذكر صفة تستلزمها وتدل عليها. و من أمثلتها عند المبرد:

نستهل ذلك بالحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: "ألا أخبركم بأحبكم إلي، وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقا. الموطئون أكنافا. الذي يألفون ويُؤلفون. ألا أخبركم بأبغضكم إلي، وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيهقون" [313] ثم بين بعض معانيه ومنها قوله:

""الموطئون أكنافا" مثل، وحقيقته: أن التوطئة هي: التذليل والتمهيد. يقال: دابة وَطِئٌ، يا فتى. وهو الذي لا يحرك راكبه في مسيره... فأراد القائل بقوله: "موطأ الأكناف" أن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مُؤْذًى، ولا ناب به موضعه... وتأويل الأكناف: الجوانب" [314].

فهذا كناية عن التواضع، ولين الجانب. يقول ابن منظور: "رجل موطأ الأكناف إذا كان سهلا دمثا كريما، ينزل به الأضياف؛ فيقريهم" [315].

ومن ذلك قوله: "ومما يؤثر من حكيم الأخبار. وبارع الآداب ما حُدثنا به عن عبد الرحمن بن عوف، وهو أنه قال: دخلت يوما على أبي بكر الصديق-رحمه الله -، في علته التي

---

[312] أثر النحاة في الدرس البلاغي : ص214.

[313] مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت، ط2، 1398هـ: 369/2: 4/ 194.

[314] الكامل: 40/1.

[315] لسان العرب، مادة وطأ: 333/15.

مات فيها، فقلت له: أراك بارئا يا خليفة رسول الله، فقال: أما إني على ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد عليَّ من وجعي. إني وليت أموركم خيركم في نفسي؛ فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه..." [316].

ثم بين ذلك قائلا:"وقوله: "فكلكم ورم أنفه" يقول: امتلأ من ذلك غضبا، وذكر أنفه دون السائر كما يقال: فلان شامخ بأنفه. يريد: رافع. وهذا يكون من الغضب، كما قال الشاعر: "وَلاَ يُهَاجُ إِذَا مَا أَنْفُهُ وَرِمَا"

أي: لا يكلم عند الغضب، ويقال للمائل برأسه كبرا: متشاوس، وثاني عطفه، وثاني جيده، إنما هذا كله من الكبرياء. قال الله —عز وجل-: ﴿**ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [317] "[318].

قول الإمام "فكلكم ورم أنفه" كناية عن امتلاء جسمه بالغضب. وخص الأنف بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر، فكما يقال شمخ بأنفه، وورم فلان بأنفه توريما إذا شمخ بأنفه وتجبر قال الزمخشري: (ت528هـ): ""ورم أنفه"كناية عن إفراط الغيظ؛ لأنه يردف الاغتياظ الشديد أن يرم أنف المغتاظ، وينتفخ منخراه" [319].

وأما قوله: "فلان شامخ بأنفه" فهو كناية عن التكبر. واستطرد المبرد بذكر كنايات أخرى مماثلة. فميل الرأس، وثني العطف، وكذلك الجيد تدل كلها على الكبر والتيه.

وأما "متشاوس" فإن مادة (شوس) ومشتقاتها تدل على ذلك أيضا. يقول ابن منظور: (ت711هـ) "الشوس بالتحريك: النظر بمؤخر العين تكبرا وتغيظا، ويكون من الكبر والتيه والغضب" [320].

وأما قوله تعالى: ﴿**ثَانِيَ عِطْفِهِ** ﴾ فقد استدل به على هذا المعنى في غير موضع. فهو يقول: "والعِطف: ما انثنى من العنق. قال تعالى: ﴿ **ثَانِيَ عِطْفِهِ** ﴾"[321].

---

[316] الكامل: 1/06-07.

[317] سورة الحج: الآية 9.

[318] الكامل: 1/10.

[319] الفائق (ورم): 1/9 وينظر اللسان (ورم):280/15.

[320] لسان العرب، مادة (شوس): 236/7.

[321] الكامل: 304/2.

وعندما أورد أبو العباس قول الشاعر:

أَقُولُ وَالهَوْجَاءُ تَمْشِي وَالفُضَلُ   قَطَعَتِ الأَحْدَاجُ أَعْنَاقَ الإِبِلْ

أشار إلى الكناية بقوله: "والفُضل: مشية فيها اختيال، كأن مشيتها تخرج من خطامها؛ فتفضل عليه. و الأصل في ذلك أن يمشي الرجل وقد أفضل من إزاره...وإنما يفعل ذلك من الخيلاء." [322]

و هو يورد أمثلة أخرى للكبر ومظاهره، فكلام المبرد يشد بعضه بعضا، ويضفي على المعنى ألوانا وظلالا، فيرسم الصورة واضحة المعالم، فقد أورد مقطوعة لشاعر يمدح قوما من أهل الحيرة ومنها قوله[323]:

مَعِي كُلُّ فَضْفَاضِ القَمِيصِ كَأَنَّهُ   إِذَا مَا سَرَتْ فِيهِ المُدَامُ فَنِيقُ

ثم قال: "يريد أن قميصه ذو فضول" وإنما يقصد إلى ما فيه من الخيلاء ويقال: إن تأويل قول رسول الله ﷺ: "فضل الإزار في النار". إنما أراد معنى الخيلاء" [324].

ومن الكناية عن الشيء و ضده: "والمختار من الشعر الأول قوله:

مِنَ النَّفَرِ البِيضِ الذِينَ إِذَا اعتزَوْا   وَهابَ الرِّجاَلُ حَلْقَةَ البَابِ قَعْقَعُوا

يخبر بجلالتهم ومعرفتهم بأقدارهم، وثقتهم بأن مثلهم لا يردّ.

وقد قال جرير للتّيم خلاف هذا، وهو قوله:

قَوْمٌ إِذَا احْتَضَر المُلُوكَ وُفُودَهُمْ   نُتِفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الأَبْوابِ" [325]

البيت الأول كناية عن العزة، والثاني كناية عن المهانة.

ومن الكناية عن الصفة قول متمم بن نويرة يرثي أخاه:

"فَتًى غَيْرِ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ أَرْوَعَا"

يقول "إنما أراد: أنه لا يستعجل بالعشاء؛ لانتظار ضيفه" [326] فهذا كناية عن الكرم.

---

(322) الكامل: 288/2.

(323) المصدرنفسه: 41/1،

(324) المصدرنفسه: 41/1-42.

(325) المصدر نفسه: 182/1.

(326) المصدر نفسه: 153/3.

ومما احتمل بالكناية غرضين قول الشاعر [327].

يَمُرُّونَ بالدَّهْنَــا خِفافا عِيَابُــــهُمْ [328] وَيَخْرُجْنَ من دَارِينَ بُجْرَ الحَقائِبِ [329]
عَلَى حِينَ أَلْهي النَّاسَ جُلَّ أُمُورِهِمْ فَنَدْلاً زُرَيْقُ المالَ نَدْلَ الثَّــعَالِبِ

يقول المبرد:" "يمرون بالدهنا خفافا عيابهم" يعني: قوما تجارا. وقد قالوا: إنما ذكر لصوصا. والأول أثبت. وذلك أن "دارين" سوق من أسواق العرب. وقوله: "بجر الحقائب" يقول: عظام "[330].
وقال في موضع آخر: "الدهنا. من بلاد بني تميم" [331].

فالشاعر يصف تجارا، أو لصوصا، ويقول الأول أن: "دارين" من أسواق العرب كما قال المبرد.

وخطأه المرصفي حيث قال: "يعني قوما تجارا، وقد قالوا... قد علمت أنه يريد بني الأزرق لا غير، وذلك أن "دارين... " يريد: إثبات ما زعم أنهم تجار على أن "دارين" ليست سوقا كما وهم، وإنما هي فُرضة [332] يجلب إليها المسك، وقد أضيف إليها، فقيل: مسك دارين"[333]. فالمعنى على الحالين: امتلاء الحقائب، وهو كناية عن النشاط، والعمل الدؤوب.

ومن الأمثال ما أريد به الكناية. فالمبرد يورد قول الراعي في الصيّب: "المطر"[334]:

لمَّا دَعَا الدَّعْوَةَ الأُولىَ فَأَسْمَعَنِي أَخَذْتُ بُرْدَيَّ وَاسْتَمْرَرْتُ أَدْرَاجِي.

---

[327] الكامل: 184/1.

[328] عيابهم: العيبة: وعاء من أدم يكون فيها المتاع. والجمع: عياب وعيب والعيبة: ما يجعل فيها الثياب...والعرب تكني عن الصدور والقلوب التي تحنى على الضمائر المخفاة بالعباب. وذلك أن الرجل إنما يضع في عيبته حرّ متاعه، وصون ثيابه، ويكتم في صدره أخص أسراره التي لا يحب شيوعها؛ فسميت الصدور والقلوب عيابا، تشبيها بعياب الثياب، اللسان (عيب): 490/9

[329] دارين: قال ياقوت: دارين، فرضة بالبحرين، يجلب إليها المسك من ا لهند. والنسبة إليها: داري..وفي كتاب سيف: عن المسلمين اقتحموا إلى دارين البحر مع العلاء بن الحضرمي، "أجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعا يمشون على مثل رملة ميثاء، فوقها ماء يغمرها أخفاف الإبل، وأن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة، لسفر البحر في بعض الحالات، فتحت أيام أبي بكر-رضي الله عنه- سنة 12هـ معجم البلدان: 229/2.

[330] الكامل: 185/1.

[331] المصدرنفسه: 55/2.

[332] الفرضة: مشرب الماء، أو مرفأ السفينة، الاقتضاب: 85/1، "وفرضة النهر: ثلمته التي منها يستقى" اللسان: (فرض): 233/10.

[333] رغبة الآمل: 219/2.

[334] ديوان الراعي النميري: ص29.

ثم يقول: "وقوله: "استمررت أدراجي" أي: فرجعت من حيث جئت. تقول العرب [335]: رجع فلان أدراجه، ورجع في حافرته [336]، ورجع عودُه على بدئه" [337]. فهذه كنايات عن خيبة المسعى.

ثانيا: الكناية التي يطلب بها موصوف:

و هي ألا يصرح بالموصوف المكني عنه، ولكن يذكر مكانه صفة أوصفات خاصة تدل بالتالي عليه. و إذا كان يراد بالكناية: الإخفاء والستر، فمن شرط الصفة أن لا تكون كاشفة، وإلا فما فائدة الكناية؟

وهذا يفاد من قول المبرد: "و روي أن عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة قال شعرا، وكتب به إلى امرأة محرمة بحضرة ابن أبي عتيق، وهو:

أَلِمَّا بِذَاتِ الخَالِ فَاسْتَطْلِعَا لَنَا عَلَى العَهْدِ بَاقٍ وُدُّهَا أَمْ تَصَرَّمَا

وقُـولاَ لَهَا: إِنَّ الهَـوَى أَجْنَبِيــَّةٌ بِنَا وَبِكُمْ قَدْ خِفْتُ أَنْ تَيَمَّمَـا

قال: فقال له ابن أبي عتيق: ماذا تريد إلى امرأة مسلمة محرمة تكتب إليها بمثل هذا الشعر ! قال: فلما كان بعد مُدَيْدَةٍ قال له ابن أبي ربيعة: أعلمت أن الجواب جاء من عند ذلك الإنسان؟ فقال له: ما هو؟ قال كتبت [338]:

أَضْحَى قَرِيضُكَ بِالهَوَى نَمَّامًا فَاقْصِدْ هُدِيتَ وَكُنْ لَهُ كَتَّامَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الخَالَ حِينَ ذَكَرْتَهُ قَعَدَا العَدُوُّ بهِ عَلَيْكَ وَقَامَا" [339]

"الخال" صفة خاصة بإنسانة، وهي معروفة في مجتمعها بهذه الصفة، فالخال من الصفات النادرة. فإذا كنى به فقد دل على صاحبه. وإذا فما فائدة الكناية ؟؛ ولذا انتهز العدو هذا الشعر فرصة سانحة للقيل والقال، والتشنيع في كل مكان. وهذا يفاد من قوله: "قعد العدو به عليك وقاما".

---

[335] في مجمع الأمثال: 37/2 "رجعت أدراجي، رجعت عودي على بدئي".

[336] يضرب للراجع إلى عادته السوء. مجمع الأمثال: 62/2.

[337] الكامل: 284/2.

[338] البيت غير موجود في الديوان.

[339] الكامل: 290/1-291.

ومن الأمثلة قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**﴾[340]. فقد أتبعه المبرد بقوله: "كناية عن الفروج".[341] وأورد المبرد هذا في موضع آخر [342].

وقد ردّد الشهاب الخفاجي المعنى بين الحقيقة، والمجاز المرسل، والكناية. حيث قال: "الجلود. قيل: المراد بها الظاهر، وقيل: الجوارح، وقيل: وهو كناية عن الفروج" [343] وهو مأخوذ من كلام الزمخشري [344].

و من الأمثلة قول المبرد: "وقول العرب: ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر. يريد: العربي والعجمي...، و من ذلك قول الأشعث بن قيس لعلي بن أبي طالب –رحمه الله– وأتاه يتخطى رقاب الناس و علي على المنبر فقال: يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك"[345].

ويقول في موضع آخر: "العرب تقول: ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر، أي العربي والعجمي، ويسمون الموالي وسائر العجم: الحمراء"[346].

جاء في لسان العرب: (حمر) "الأحمر: الذهب، والأبيض: الفضة، والذهب كنوز الروم. لأنه الغالب على نقودهم، وقيل: أراد العرب والعجم جمعهم الله على دينه وملته"[347].

و من ذلك ما جاء بخطبة الحجاج لأهل العراق، قال: "يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق...يا بني اللكيعة، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، إني لأسمع تكبيرا ما يراد الله به، إنما يراد به الشيطان...". قال المبرد: "وقوله: بنو اللكيعة" يريد اللئيمة" [348].

وهو يريد ما جاء في قوله: "وقوله: "بنو اللكيعة" فهي اللئيمة، ويقال في النداء للئيم: يا لُكع، للأنثى يا لَكاع؛ لأنه موضع معرفة.. وقد جاء في الحديث: "لا تقوم الساعة حتى يلي أمر

---

[340] سورة فصلت: الآية21.

[341] الكامل: 131/2، و قال ذلك في : 292/2.

[342] ينظر الكامل: 292/2.

[343] حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، الشهاب البيضاوي، طبعه مصر اديان علوم الدين ، مخطوط،دط،دت :396/7

[344] ينظر الكشاف: 110/4.

[345] الكامل: 2/61-62.

[346] المصدر نفسه: 152/2.

[347] لسان العرب، (مادة حمر):317/3.

[348] الكامل: 270/1 ,271.

الناس لُكع بن لُكع" [349]. فهذا كناية عن اللئيم بن اللئيم، وهي صفة ذم. وقد فسرت بأنها: العبيد والسفلة، و الحمق.

وقد يراد بالجملة الكناية عن موصوف، وببعضها الكناية عن صفة ومن ذلك ما جاء في قول الأحنف بن قيس: "لا تزال العرب عربا ما لبست العمائم، وتقلدت السيوف، ولم تعد الحلم ذلاّ، ولا التواهب فيما بينها ضعة"[350].

"مالبست العمائم" كناية عن مدوامة العرب الاستعداد للحرب، وذلك أن العرب لا تلبسها، وإنما تكني بها عن بيضات السلاح، هذا إلى جانب أنها وردت مقترنة بتقليد السيوف.

يقول: المرصفي في تعليقه على قوم سحيم:

أَنَا ابنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا   مَتَى أَضَعُ العَمَامَةَ تَعْرِفُونِي

"أضع العمامة العرب تكني بالعمامة عن بيضة السلاح، يقول متى أضعها على رأسي تعرفون مكانتي في الحرب، ولا وضعها عن الرأس في حال السلم" [351].

و الأصل في العمامة: الحقيقة؛ فالحجاج في خطبته لأهل العراق أراد ذلك، كما أراد بوضع العمامة حسرها عن وجهه؛ فالكلمة لا يمنع أن يكتنفها جانبا من الحقيقة، وكناية؛ لأن قرينتها لا تمنع ذلك.

ومن ذلك ما كنى به عن المرأة، يقول المبرد: "والعرب تكني بالنعجة عن المرأة، وبالشاة، قال الله -تبارك وتعالى- ﴿ **إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾ [352].

وقال الأعشى: [353]

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ   فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالِهَا

يريد المرأة" [354]

[349] الكامل: 260/1، 261, وقد ورد الحديث في مسند الإمام أحمد: 258/2.
[350] المصدر نفسه: 179/1.
[351] رغبة الآمل: 38/3.
[352] سورة ص: الآية23.
[353] ديوان الأعشى: ص27.
[354] الكامل: 283/1-240/2 .

فقد ذكر أن منهج العرب الكناية عن المرأة بالنعجة والشاة والبقرة الوحشية، وهذا على عمومه جائز في كلام العرب.

ثالثا: الكناية التي يطلب بها نسبة.

و هي أن يصرح بالموصوف وبالصفة، ويقصد بإثباتها لشيء الكناية عن إثباتها للموصوف بها. فالمبرد يذكر خبر إقصاء هشام بن عبد الملك لأبي النجم؛ لأنه لم يراع المقام حين أنشده:

والشمسُ قَدْ صارَتَ كعَيْنِ الأَحْوَالِ

حين ذهب به الروي عن الفكر في عين هشام، ثم أرق ذات ليلة، فطلب من حاجبه عربيا فصيحا يحادثه؛ فأحضر له أبا النجم فلما حضر قال له: أين تكون منذ أقصيناك؟ قال: بحيث ألفتني رسلك. قال: فمن كان أبو مثواك؟ قال: رجلين أتغذى عند أحدهما، وأتعشى عند الآخر [355].

وقال في موضع آخر: "ويقال لرب البيت وربة البيت اللذين ينزل بهما الضيف: هي أم مثواه، وهو أبو مثواه، وأنشد أبو عبيدة:

مِنْ أُمِّ مَثْوَى كَرِيمٍ قَدْ نَزَلْتُ بِهَا   إنَّ الكَرِيمَ علَى عِلاَّتِهِ يَسَعُ

وفي كتاب الله –عز وجل– ﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ** ﴾ [356]. معناه عند العرب. إضافته" [357].

ثم زاد ذلك شرحا عند قول عمران بن حطان: يَا رَوْحُ كَمْ مِنْ أَخِي مَثْوَى نَزَلْتُ بِهِ [358]

فهو يقول: "يقال: هذا أبو مثواي، وللأنثى هذه أم مثواي. و منزل الإضافة وما أشبهها: المثوى. وكذلك قال المفسرون في قول الله عز وجل: ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾. أي إضافته" [359].

---

(355) ينظر الكامل: 94/3.

(356) سورة يوسف: الآية21.

(357) الكامل: 101/3، مجاز القرآن: 304/1.

(358) الشطر الثاني قوله: "قد ظن ظنك من لحم وغسان" الكامل: 170/3.

(359) الكامل: 172/3.

كلمة "مثوى" اسم مكان بمعنى موضع الثواء أي: الإقامة أو نزول الضيف. وأما "أبو مثوى" و"أم مثوى" فهما كنايتان عن صاحبي مكان الإضافة. فإذا اتصف المثوى بالكرم فهو كناية عن نسبة الكرم بطريق اللزوم لمن ينزل فيه، وذلك أن المكان لا ينتفع بشيء. يقول ابن عطية (ت 546 هـ) في آية سورة يوسف: "الإكرام إنما هو لذي المثوى" [360].

وروى المبرد قول قتّال الكلاّبي [361]:

لاَ أَرْضِعُ الدَّهْر إلاَّ ثَدْيَ وَاضِحَةٍ لِوَاضِحِ الخَدِّ يَحْمِي حَوْزَةَ الجَارِ

ثم قال قوله: "يحمي حوزة الجار؛ أي: ما يحوزه يقال: فلان مانع لحوزته. أي صار في حيزه" [362]. فإذا حميت حوزة الجار فقد حمى الجار نفسه بطريق اللزوم. وهو أبلغ في التعبير من التصريح بحمايته، لأن الكناية تفيد أن الجار وما يحوزه موضع الحماية.

و يذكر المبرد أن "أبا زيد أنشد إبراهيم بن هشام وإلى المدينة:

يَا ابنَ هِشَامٍ يَا أَخَا الكِرَامِ

فقال إبراهيم: وإنما أنا أخوهم وكأني لست منهم ! ثم أمر به فضرب بالسياط" [363].

قوله: "يا أخا الكرام" كناية عن نسبه، وهي تفيد أن الكرم غير متأصل في هشام، فقد يكون الملازم للكرام غير كريم، والمصالح هي التي جمعت بينهم. و لكن الأخوة في هذا المقام لا تعني سوى الكرم بقرينة المدح، غير أن هذا مما لا يواجه به الملوك والأمراء. فلكل مقام مقال، ولذا عرض الشاعر نفسه للعقاب.

ويتبين هذا بما جاء في "المثل السائر" في مدح إنسان ""أنت من القوم الكرام" أي: لك في هذا الفعل سابقة، وأنت حقيق به، ولست دخيلا فيه" [364].

---

(360) لمحرر الوجيز: 231/3.

(361) الكامل: 54/1 .

(362) المصدر نفسه: 56/1 .

(363) المصدر نفسه: 187/1.

(364) المثل السائر: 61/3.

إشارة إلى التعريض:

قرن التعريض بالكناية في كثير من كتب التراث [365]؛ إذ هما يتفقان في الإخفاء والستر. وقد فرق المحققون بينهما بوجوه أهمها [366]:

أولا: الكناية تقع في الألفاظ المفردة،و التراكيب.أما التعريض فإنه لما كانت دلالته بالقرينة اختص بالتراكيب.

ثانيا: التعريض أكثر خفاء من الكناية. والسبب أن دلالتها من الألفاظ، أما التعريض فإن دلالته بالقرينة، وفيها نوع خفاء.

ثالثا: التعريض يكون في كل من الحقيقة والمجاز والكناية، فهو أوسع استعمالا من الكناية.

لم يبين أبو العباس المراد بالتعريض، ولكن ورد من أمثلته في الكامل:

"وكان قيس بن سعد شجاعا، جوادا، سيدا. وجاءته عجوز قد كانت تألفه، فقال لها: كيف حالك؟ فقالت: ما في بيتي جُرُذ. فقال: ما أحسن ما سألت. أما و الله لأكثرن جرذان بيتك" [367] . فقد عرضت بحاجاتها دون تصريح، وبطريقه فهمهما "قيس" ولذا أجابها إلى ما أرادت. والقرينة ما فهم من حالها وإلقاء هذه العبارة إلى جواد كريم.

و أخير، فدراسات الكناية في "الكامل" كثيرة غير أنها متناثرة، وقد أضفى عليها المبرد الكثير من بيانه، ولذا كان الكتاب مقصدا لعلماء البلاغة.

---

(365) ينظر: الصناعتين: 381 وإعجاز القرآن: 98، والمثل السائر: 56/3.

(366) ينظر: الإيضاح: 186/3، وشروح التلخيص: 264/4.

(367) الكامل: 116/2.

الفصل الثالث

علم البديع

علم البديع يعتني بوجوه تحسين الكلام "بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، و وضوح الدلالة"[1]،

المبحث الأول: المحسنات البديعية المعنوية:

يرجع استعمال المحسنات البديعية المعنوية إلى تحسين المعنى أولا وبالذات، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضا. و من بين المحسنات البديعية المعنوية التى ذكرها المبرد:

الطباق:

ويسمى التطبيق، والمطابقة، والتضاد.

الطباق عند علماء البلاغة هو: "الجمع بين المتضادين، أي بين معنيين متقابلين في الجملة، أي مطلق تنافي بين المعنيين"[2].

الطباق عند المبرد: لقد ذكر المبرد المعنى اللغوي للطباق عندما أورد مقدم الربيع بن زياد الحارثي على عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقال:

"قال الربيع بن زياد الحارثي: كنت عاملا لأبي موسى الأشعري على البحرين، فكتب إليه عمر بن الخطاب –رحمه الله– يأمره بالقدوم عليه هو وعماله، وأن يستخلفوا جميعا، قال: فلما قدمنا أتيت "يرفأ" فقلت: يا يرفأ. مسترشد وابن سبيل. أي الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله؟ فأومأ إلي بالخشونة، فاتخذت خفين مطارقين ولبست جبة صوف، ولثت عمامتي على رأسي"[3]. ثم أخذ المبرد في تفسيره فقال: وقوله: "خفين مطارقين": تأويله: مطبقين، يقال طارقت أهل إذا أطبقتها، ومن قال: طرقت، أو أطرقت فقد أخطأ"[4]. فهذه مطابقة بالمعنى اللغوي، لأنها في المحسوس.

وورد في كامل المبرد قول الفرزدق[5]:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ   لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

ولم يبين هذا الطباق. و المعنى أنه طابق بين الشيب والشباب، ثم بين: ليل ونهار.

(1) الإيضاح: 2/4.
(2) المصدر نفسه: 4/4.
(3) الكامل: 1/152-153.
(4) المصدر نفسه: 1/156.
(5) المصدر نفسه: 1/29، والبيت بديوان الفرزدق: ص323

وقال ابن أبي عبينة:

مَا رَاحَ يَوْمٌ عَلَى حـــَيٍّ وَلاَ ابْتَكــرَا إِلاَّ رَأَى عِبْرَةً فِيهِ إِنْ اعْتَبَرَاَ
وَلاَ أَتَتْ سَاعَةٌ فِي الدَّهْرِ فَانْصَرَمَتْ حَتَّى تُؤَثِّرَ فِي قَوْمٍ لهَاَ أَثَــرَا

وعلق المبرد قائلا: "فانصرفت أشبه للمطابقة، والمشهور فانصرمت"[6].

المقابلة:

هي أن "يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معان متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل"[7].

ومن أمثلتها ما جاء في الكامل: "قال رسول الله ﷺ للأنصار في كلام جرى: إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع. والفزع في كلام العرب على وجهين:
أحدهما: ما تستعمله العامة تريد به: الذعر، والآخر، الاستنجاد والاستصراخ"[8].

و يقول: "وقال رجل للشعبي كلاما أقذع فيه؛ فقال الشعبي: إن كنت صادقا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك"[9].

المقابلة في الحديث الشريف بين تكثرون، وتقلون، وبين: عند الفزع، وعند الطمع، والمقام مقام خلاف بين الشعبي وصاحبه فالمقابلة بين قوله: صادقا، وكاذبا، وحرف اللام من: "لي" و"لك" بينهما تضاد، باعتبار متعلقهما، ومن ثم كانت المقابلة بين قوله: صادقا وكاذبا، و"لي" و"لك".

مراعاة النظير:

قال الخطيب: "وتسمى التناسب و الائتلاف، والتوفيق أيضا وهي: أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه، لا بالتضاد"[10].

---

(6) الكامل: 14/2.
(7) الإيضاح: 13/4.
(8) الكامل: 3/1.
(9) المصدر نفسه: 5/2.
(10) الإيضاح: 16/4.

فالمعنى على التآلف والتوافق في النظم بغير التضاد، "فلا يكون فيه تكلف، أو كلمة نافرة، أو شاذة، وكان القدماء يدركون هذا بسليقتهم ويراعونه في كلامهم، ولذا أثنى العلماء على من راعى التناسب في كلامه، كما وجهوا سهام النقد لمن لم تسعفه موهبته بمراعاته؛ فجاء كلامه مفككا، متنافرا، لا تلاؤم بين أجزائه ولا تناسب"[11]، ومن أمثلته ما جاء في الكامل:

"وحدثت أن الكميت بن زيد أنشد نصيبا، فاستمع له، فكان فيما أنشده[12]:

وَقَدْ رَأَيْناَ بِهاَ حُورًا مُنَعَّمَةً بِيضًا تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنَبُ

فثني "نصيب" خنصره، فقال له الكميت: ما تصنع؟ فقال: أحصى خطأك. تباعدت في قولك: "تكامل فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ" ...

قال أبو العباس: والذي عابه نصيب من قوله: "تكامل فيه الدَّلُّ الشَّنَبُ".

قبيح جدا. وذلك أن الكلام لم يجر على نظم، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها، وأول ما يحتاج إليه القول: أن ينظم على نسق، وأن يوضع على رسم المشاكلة"[13].

فالكميت "جمع بين شيئين متباعدين، وهما الدل وهو الشكل والحلاوة وحسن الهيئة، والشنب وهو: برد الأسنان، وتطرق عليه بذلك بعض العيب"[14]. وهو عدم التناسب بين الكلمتين في النظم.

ويرينا المبرد الفرق بين نوعين مختلفين من النظم، أحدهما روعي فيه التناسب، والثاني لم يراع فيه ذلك؛ فهو يتبع النص السابق بقوله:

"خبرت أن عمر بن لجأ قال لابن عم له: أنا أشعر أمنك، قال له: وكيف؟ قال لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه، وأنشد عمرو بن بحر:

وَشِعْرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ لِسَانٌ دَعِيٍّ فِي القَرِيضِ دَخِيلُ

وبعر الكبش يقع متفرقا"[15].

---

[11] أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل: ص363.

[12] ديوان الكميت بن زيد الأسدي: ص36.

[13] الكامل: 159/2.

[14] أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1373هـ/1954م: 254/2-255.

[15] الكامل: 160/2-161، وينظر: البيان والتبيين: 206/1.

فقد عد شعر "عمر بن لجأ" مثلا للنظم الجيد، لأنه متلائم، متناسب الكلم، كما عد شعر ابن عمه مثالا للنظم الرديء؛ إذ لا تناسب بين أجزائه، وأورد المبرد شاهدا للنوع الثاني البيت الذي أنشده "عمرو بن بحر" فهو يصف شعرا مفكك الأجزاء ولذا شبهه ببعر الكبش، فهو يقع مفرقا حيثما كان واتفق، وذلك أن قائل هذا الشعر ليس من أهله.

ومما يلحق بمراعاة النظير: إيهام التناسب: وهو: "أن يجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان وإن لم يكونا مقصودين"[16].

وقد أورد المبرد قول عمر بن أبي ربيعة في "القتول"[17].

ثُمَّ قَالُوا تُحِبُّهَا؟ قُلْتُ بَهَرًا		عَدَدَ النَّجْمِ وَالحَصَى وَالتُّرَابِ.

وبين المراد بالنجم بقوله: "فيه قولان"[18]:

أحدهما: أنه أراد بالنجم: النجوم، ووضع الواحد في موضع الجمع؛ لأنه للجنس .

والوجه الآخر[19]: أن يكون ما نجم من النبت، وهو ما لم يقم على ساق. "و الشجر: ما يقوم على ساق، و"اليقطين"[20]: ما انتشر على وجه الأرض"[21].

قال الله تعالى: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾[22].

النجم مناسب للشمس والقمر، لأنها كواكب سماوية. لهذا سمي إيهام التناسب.

فمراعاة التناسب من أسباب حسن النظم وجودته، وبذلك تترابط المعاني وتتلاءم، وهو أمر دعا إليه علماء البلاغة وأرجعوا إليه الكثير من مزايا النظم وبلاغته.

وتبدو صلة هذا اللون البديعي بمباحث النظم، "فمن لم يواته الطبع، أو تسعفه الملكة على صوغ الكلام المتناسب الأجزاء فإن المعاني تتأبى عليه. أما إذا قسرها في مواقعها فإنها

---

(16) مواهب الفتاح، ضمن (شروح التلخيص): 304/4.

(17) الكامل: 241/2.و البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة :ص423.

(18) المصدر نفسه: 246/2.

(19) هذا تفسير ثعلب في مجالس ثعلب، شرح عبد السلام هارون، دار المعارف، ط4، 1400هـ/1980م: 419.

(20) أورده تتمة للفائدة، لتكتمل الأنواع، واليقطين، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ (الصافات: 146).

(21) وهو المفروش على الأرض كالقثاء، والبطيخ ونحوهما، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: 153/4.

(22) سورة الرحمن: الآيتان5-6.

تتجاور دون مؤاخاة؛ فيبدو الكلام مهمل النسج، مفكك التركيب، ومن ثم يتعرض صاحبه لسهام النقد"[23].

الاستطراد:

عرفه الخطيب بأنه: "الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به، لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني"[24].

وورد من أمثلته قول إسحاق الموصلي:

فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَى كَأَنَّناَ مِنَ العِيِّ نَحْكِي أَحْمَدَ بْنِ هِشَامِ[25].

وصف إسحاق نفسه وصحبه بالتعب والعجز، ثم استطرد بذكر "أحمد بن هشام" فجعله على سبيل التشبيه أصلا لما ذكر.

وقد أورده ابن المعتز[26](ت 296 هـ) شاهدا لحسن الخروج من معنى إلى معنى.

المشاكلة:

في اصطلاح البلاغيين هي: "ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا"[27]. وقد وردت المشاكلة عند المبرد.

- فمن ورودها بالمعنى اللغوي ما جاء في قول المبرد:

قال أبو العباس: "هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة، يحتاج إليها للتمثل، لأنها أشكل بالدهر"[28].

قوله: "أشكل" يعني: أشبه، وقال: "يقال: هذا أكبر من هذا، إذا شاكله في باب واحد"[29]. يعني: إذا شابهه وماثله.

---

[23] أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل: ص366.

[24] الإيضاح: 24/4.

[25] الكامل: 52/3، وينظر الصناعتين: ص316.

[26] ينظر البديع، تصنيف عبد الله بن المعتز (ت 296 هـ) اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس أغناطيوس كراتشقو فكسي، دار المسيرة، ط2، 1399هـ /1979م: ص62.

[27] الإيضاح: 22/4.

[28] الكامل: 3/2.

[29] المصدر نفسه: 307/2.

– وقد قصد المبرد بالمشاكلة أيضا التناسب في النظم، والتلاؤم في الألفاظ مع السياق، فهي "المشاكلة الفنية" بمعناها العام. وقد أوضحها بتطبيقها على الشاهد، فيحكي "أنشد الكميت بن يزيد نصيبا، فاستمع له، فكان فيما أنشده:

وقد رأينا بها حوارا منعمة بيضا، تكامل غيها الدل والشنب.

فثنى نصيب خنصره، فقال له الكميت: ما تصنع؟ فقال: احصي خطأك، تباعدت في قولك "تكامل فيها الدل والشنب ..."، ويعلق المبرد: "والذي عابه نصيب من قوله: "تكامل فيها الذل والشنب" قبيح جدا، وذلك أن الكلام لم يجر على نظم، ولا وقع إلى جانب الكلمة وما يشكلها، وأول ما يحتاج إليه القول، أن ينظم على نسق، وأن يوضع على رسم المشاكلة"[30].

- أما المشاكلة بمعناها البلاغي فقد فهمها المبرد حين اعتبر آية ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ [31]. مما اتفق لفظه و اختلف معناه، فمعنى ﴿فاعتدوا عليه﴾: "اقتصوا منه، يمزج اللفظ يلفظ ما قبله، كقول العرب: الجزاء بالجزاء، والأول ليس بجزاء، وتقول: فعلت بفلان مثل ما فعل بي، أي اقتصصت منه، والأول بدأ ظلما ، والمكافئ إنما أخذ حقه، فالفعلان متساويان، والمخرجان متباينان، إذ كان الأول ظالما، ومثله ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ [32]، والثانية ليست سيئة تكتب على صاحبها، ولكنها مثلها في المكروه لأن الثاني يقتص. ومثله: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**﴾ [33]. وقال: ﴿**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُم سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ**﴾ [34]. وقال: ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ**﴾ [35]. لما ذكرت من أوجه الكلام وإنما مكرهم واستهزاؤهم وسخرهم معصية لله تعالى وتوثب على أوليائه، ومكر الله واستهزاؤه وسخره عذاب لهم وتنكيل"[36].

---

[30] الكامل: 160/2.

[31] سورة البقرة: الآية194.

[32] سورة الشورى: الآية40.

[33] سورة البقرة: 14-15.

[34] سورة التوبة: الآية79.

[35] سورة لأنفال: الآية30.

[36] ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، المبرد: ص13-14.

3- ووردت المشاكلة بمعناها البلاغي أيضا في قول المبرد لبيت كعب ابن جعيل[37]:

إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمْ وَدِنَّاهُمْ مِثْلَ مَا يُقْرِضُونَا

فقد علق بقوله: "يقول: جزيناهم، وقال المفسرون في قوله عز وجل: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾[38]، قالوا: يوم الجزاء والحساب، ومن أمثلة العرب: "كما تدين تدان"[39]. وأنشد أبو عبيدة[40]:

وَ اعْلَمْ وَأَيْقِنْ أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ وَاعْلَمْ بِأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ"[41].

عبر الشاعر عن رمي الأعداء لهم، أي الاعتداء عليهم بالقرض؛ لأنه يرد على المقرض، وهذا على سبيل الاستعارة العنادية التهكمية، لما بين طرفيها من التضاد، فالقرض خير ومنفعة، والرمي شر ومضرة. وقوله: "دِناهم" هو المراد بقوله: رميناهم.

وأما المثل: "كما تدين تدان" فمعناه: كما تفعل تجازي، فقد عبر عن الجزاء بلفظ "تدان"؛ لوقوعه في صحبة "تَدِين" على سبيل المشاكلة وهي هنا تحقيقية.

واستشهد الخطيب بهذا المثل في المجاز المرسل[42] لعلاقة "المسببية" بمعنى تسمية السبب وهو الفعل باسم مسببه "تدين" فبعض الأمثلة دائرة بين المشاكلة، والمجاز المرسل.

الإرصاد أو التسهيم:

عرفه الخطيب بقوله هو "أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى كقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[*]."[43].

ومن أمثلة الإرصاد[44] ما رواه المبرد في "باب التشبيه".

---

[37] الكامل: 327/1.

[38] سورة الفاتحة: الآية4.

[39] مجمع الأمثال للميداني: 43/2، وفسره بقوله: "يعنى كما تعمل تجازي، إن حسنا فحسن، وإن سيئا فسيء ..."، ينظر: اللسان: (دين):460/4.

[40] من قوله: "وقال المفسرون ... " من أبي عبيدة في مجاز القرآن: 23/1، والمبرد يقصد بالمفسرين: علماء اللغة.

[41] الكامل: 328/1.

[42] ينظر الإيضاح: 97/3.

[*] سورة العنكبوت: الآية 40.

[43] الإيضاح: 41/4.

"ويروى أن جريرا دخل على الوليد وابن الرقاع العاملي عنده ينشده القصيدة التي يقول فيها:

غَلَبَ المِسَامِيحَ الوَلِيدُ سَمَاحَةً وَكَفَى قُرَيْشَ الْمُعْضِلاَتِ وَسَادَهَا

قال جرير: فحسدته على أبيات منها، حتى أنشد في صفة الظبية:

تُزْجِي أَغَنَ كَأَنَ إِبْرَةَ رَوْقِهِ

قال: فقلت في نفسي: وقع والله، ما يقدر أن يقول، أو يشبه به، قال: فقال:

"قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا".

قال: فما قدرت حسدا له أن أقيم حتى انصرفت"[45].

هذا ما قاله المبرد.

وورد في بعض الروايات ما يدل على أن جريرا عندما سمع أول هذا الرجز فطن إلى آخره، فأنشده كما قال "عدى"[46]. وهو من توادر الخواطر، فهو ينبئ عن الفطنة والترقب لسير النظم وائتلافه، فكأن خاطر السامع يجيش في فكر القائل.

التورية:

وتسمى الإيهام و التخييل والتوجيه، وهي في الاصطلاح: أن يطلق لفظ له معنيان: قريب وبعيد، ويراد البعيد: بدلالة قرينة ترشد على هذا المعنى[47].

وقد ورد في الكامل أمثلة للتورية، وبعض التعليقات عليها، ولكن المبرد خلط بين أمثلتها، وأمثلة الكناية والسبب أن كليهما يعتمد على الإخفاء والستر. فقد أورد شعرا لعمر بن أبي ربيعة بدأه بقوله[48]:

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولَنْ لِرَكْبٍ بِفَـلاَةٍ هُمْ لَدَيْهَا هَجُوعُ

طَالَـمَا عَرَّسْتُمُ فَاسْتَقِلُـوا حَانَ مِنْ نَجْمِ الثُّرَيَّا طُلُوعُ

---

[44] وسماه قدامة التوشيح، وتابعه في هذه التسمية كل من أبي هلال وابن أبي الإصبع وابن حجة الحموي. ينظر: نقد الشعر: ص167، والصناعتين: ص397، وتحرير التحبير: ص228، وخزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي المعروف باين حجة الحموي، شروح عصام شعيتو، دار الهلال بيروت، ط1، 1987.: 222/1

[45] الكامل: 141/3.

[46] ينظر العمدة: 23/2، وتحرير التحبير: ص229 .

[47] ينظر ألوان من البديع (تحرير وتأصيل)، عبد الله عليوه حسن، طبعة دار الأرقم بالزقازيق: ص98.

[48] ديوان عمر بن أبي ربيعة: ص190.

ثم قال: "قوله: "حان من نجم الثريا طلوع" كناية، وإنما يريد: "الثريا" بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وهم العبلات[*].. وكانت "الثريا" موصوفة بالجمال، وتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، فنقلها إلى مصر، فقال عمر يضرب لهما المثل بالكوكبين:

أَيُّهَا المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سَهِيــلًا عَمْرُكَ اللَّه، كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

هِيَ شَامِيَة إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهيل إذا اسْتَقَــلَ يَمَانِ"[49].

التورية في لفظي: "الثريا" و"سهيل" الكوكبان المشهوران وقد ورى بهما عن الزوجين: "الثريا بنت علي" و"سهيل بن عبد الرحمن" وهذا يوهم أن الشاعر يريد النجمين المشهورين وذلك أن "الثريا" من منازل القمر الشامية، وسهيلا من النجوم اليمانية وهو يريد: صاحبه "الثريا".

و فائدة التورية أن الشاعر يستطيع معها الإنكار متى أراد[50]. والتورية مجردة، حيث لم تقترن بما يلائم المعنى القريب، وقد قرنت بما يلائم المعنى البعيد، وهو "المنكح" فهو ليس من صفات الكواكب.

وجعلها بدر الدين بن مالك (ت 686 هـ) مرشحة، لأن كلا من "الثريا" و"سهيل" رشح صاحبه للتورية، فقوى لفظ الثريا على إيهام القصد بسهيل إلى الكوكب المعروف ولفظ سهيل على إيهام القصد بالثريا إلى المنزلة المشهورة ليكون أحدهما شماليا والآخر جنوبيا، ومراد الشاعر إنما هو الثريا صاحبته الشامية الدار والقبيلة. لأنها من بني أمية الأصغر بن عبد شمس وسهيل اليماني الدار لا القبيلة، فتم له ما أراد من الإنكار على من جمع بينهما بألطف وجه[51].

وقال السيوطي بهذا في كتابه: عقود الجمان في المعاني والبيان[52].

وجاء في "الكامل" قول الشاعر[53]:

---

[*] عبلة اسم، و قال الجوهري: اسم جارية. والعبلات بالتحريك: بطن من بني أمية الصغرى من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة، إحدى نساء بني تميم.. اللسان مادة(عبل):9 /26.

[49] الكامل: 2/234-235.و البيتان في ديوان عمر بن أبي ربيعة : ص26

[50] ينظر تحرير التحبير: ص328، وألوان من البديع: ص105.

[51] ينظر المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين بن مالك، حققه وشرحه حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب مصر،دط، دت: ص262 .

[52] ينظر عقود الجمان في المعاني والبيان: ص115.

لَوْ أَنَّ قَصْرَكَ يَا ابْنَ يُوسُفَ كُلَّهُ   إِبَرٌ يَضِيقُ بِهَا فِنَاءُ المنْـــزِلِ
وَأَتَـاكَ يُـوسُـفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْـــرَةً   لِيَخِيطَ قدَّ قَمِيصَهُ لَمْ تَفْعَلِ

ولم يعلق المبرد بشيء.

والبيتان فيهما التورية، والمبالغة في الهجاء، حيث بالغ الشاعر في وصف مهجوم بالبخل، فلو كان يمتلك إبرا يضيق بها بيته، وجاء أبوه يوسف يستعيره إبرة واحدة ما أعطى إياه الإبرة، ومن كان هذا شأنه فهو غارق في البخل، فالشاعر يورى بقميص يوسف للقدود[54].

فقوله "قد قميصه" يلائم المعنى القريب الذي ورى به عن المعنى البعيد الذي أراده، وهو ذم "ابن يوسف" المهجو، والمعاصر له، ولذا كانت التورية مرشحة.

وقال المبرد[55]: وقيل للممسك عن الطعام: صائم لثباته على ذلك، ويقال: صام النهار: إذا قامت الشمس .... وقال النابغة[56]:

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ   تَحْتَ العَجَاجِ وَخَيْلٌ تَعْلَكُ اللُّجُمَا.

يقول ابن حجة: "أراد بالصيام ههنا: القيام، وورى بقوله: " تَعْلَكُ اللُّجُمَا " عن الصيام"[57].

فبلاغة التورية تعتمد على الإيهام والتعمية، وهذا يستدعي طول التأمل للوصول إلى المعنى المراد، وجدير بمن ينطق بالتورية أن يبتعد عن التكلف والصنعة، وإلا صارت تعمية للمعنى، لا محسنا بديعيا.

ويقول المبرد آخر كتاب "الكامل": "ونذكر آيات من القرآن الكريم ربما غلط في مجازها النحويون". ومما قاله: "وفي القرآن في مخاطبة فرعون: ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ**

---

(53) الكامل: 8/3.

(54) ينظر: الصبغ البديعي في اللغة العربية، أحمد موسى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1388هـ / 1969م: ص 484، والقدود: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ سورة يوسف: الآية25.

(55) الكامل: 79/3.

(56) ديوان النابغة الذبياني: ص161.

(57) خزانة الأدب: 42/2، وينظر البديع في نقد الشعر: ص 60.

خَلْفَكَ آيَةً﴾(*)· فليس معنى "ننجيك" نخلصك، لكن نلقيك على نجوة من الأرض "ببدنك": بدرعك، يدل على ذلك "لتكون لمن خلفك آية""(58).

هذا القول الكريم من الآيات التي تبين نهاية فرعون وجنوده وما حل بهم من الغرق، وأن فرعون ما كان لينفعه النطق بالتوحيد، وقد نزل بهم البأس.

و ابن أبي الإصبع المصري جعل هذه الآية من شواهد التورية فقال: "ومن ذلك أيضا قوله عز وجل: ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**﴾على رأي من رأى أن البدن هنا: الدرع، فإن البدن يطلق على الجسد، وعلى الدرع، وهو بهذا التفسير في الظاهر قد استعمله بمعنى الجسم، وأهمل معنى الدرع، ومراده ما أهمل، لا معنى ما استعمل، فإن نجاة فرعون بعد الغرق بدرعه أعجب آية من خروجه مجردا"(59). فالباء على هذا في قوله "بِبَدَنِكَ" للمصاحبة.

الجمع:

وهو "أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد، كقوله تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾(*)·"(60).

وقد ورد في "الكامل"(61): الحديث الشريف: "من كان آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"(62).

فقد بين الرسول ﷺ في إيجاز مفهوم السعادة، وجمع بين هذه الثلاثة في شيء واحد، تطمح له الأنظار، وهو حيازة الدنيا بحذافيرها، وتلك سعادة نفسية، وراحة جسدية.

(*) سورة يونس: الآية92.

(58) الكامل: 4/127-128.

(59) بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حفني شرف، دار النهضة، مصر، دط، دت: 102.

(*) سورة الكهف: الآية46.

(60) الإيضاح: 4/36.

(61) الكامل: 1/158.

(62)سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 2318 :5/408 وقد ورد بهذا اللفظ: "من أصبح منكم معافي ..." ورواية المبرد بها خلاف يسير.

اللف والنشر:

وهو "ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه"[63].

و المبرد قد بينه بالمثال والتوضيح في موضعين:

1- ففي أول "باب التشبيه"[64]، يذكر استحسان الرواة بيت امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا		لَدَى وَكْرِهَا اَلْعُنَّابِ وَالحَشَفُ البَالِي.

لأن فيه تشبيها و كذلك اللف والنشر المرتب؛ فقوله "العناب" يرجع إلى: "رطبا" وقوله: "الحشف البالي" يرجع إلى "يابسا" وهما بيان لما ذكر أولا. فالنشر على ترتيب اللف.

و يدلل المبرد على مزية الاختصار، فيتبع ما سبق بقوله عز وجل: "﴿**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ**﴾[*] علما بأن المخاطبين يعلمون وقت السكون، ووقت الاكتساب"[65]. فاللف والنشر يعتمد على قرينة حالية، وهي: "علم المخاطبين".

2- وعقد بابا لذكر بعض أقوال الحكماء جاء فيه:

"و قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، ما أحسن الحسنات في آثار السيئات وأقبح السيئات في آثار الحسنات. و أقبح من ذا، وأحسن من ذاك: السيئات في آثار السيئات، والحسنات في آثار الحسنات.

والعرب تلف الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرها جملة ثقة [بأن] السامع يرد إلى كل خبره، وقال عز وجل: ﴿**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ**﴾." [66].

---

(63) الإيضاح: 34/4.

(64) الكامل: 32/3.

(*) سورة القصص: الآية73.

(65) الكامل: 32/3.

(66) المصدر نفسه: 127/1-128.

في قول عبيد الله "تعجب ومفاضلة بين الحسن والقبح في الجمع بين الحسنات والسيئات، أو انفراد أحدهما بالفعل، وقد أورد هذا الخبر بطريق اللف والنشر على جهة التفصيل، ولكن النشر ورد على غير ترتيب اللف.

فقد لف أولا بقوله: "ما أحسن الحسنات في آثار السيئات، وأقبح السيئات في آثار الحسنات" ثم أتبع بالنشر، ففسر الثاني في اللف بالأول في النشر، والعكس، فقوله: "وأقبح من ذا ..." يعود على ما ذكر قبله، وقوله: "وأحسن من ذاك ..." يعود على قوله: "ما أحسن الحسنات في آثار السيئات"(67).

وأما الآية الكريمة فإن النشر فيها على ترتيب اللف. وقد أشار إلى هذا أبو عبيدة (ت 210 هـ) بقوله: "مجازه: لتسكنوا في الليل ولتبتغوا في النهار من فضل الله"(68).

وقد كان المبرد ذا بصيرة في تحديد هذا اللون البديعي، وعنه أخذ العلماء هذا اللون البلاغي وإن لم يشيروا إليه.

يقول باحث معاصر: "أما حديث المبرد عن اللف والنشر فلعله أول حديث وصل إلينا، فنحن لا نعرف عنه شيئا من قبل، لا عند سيبويه ولا غير سيبويه، حتى نهاية القرن الثالث الهجري على يد المبرد، فقد كان حديثه شافيا بحيث لم يضف المتأخرون إلى جوهره شيئا مذكورا"(69). فكيف يكون هذا صحيحا و أبو عبيدة أشار إلى اللف والنشر ببيان المراد في الآية الكريمة.

و يقول: "ومن يقارن بين ما قاله المبرد، وما ذكره الخطيب يرى أن المبرد كان أكثر إيضاحا من الخطيب كما هو ظاهر في تعليق كل منهما على الآية"(70).

التقسيم:

عرفه أبو هلال بقوله: "أن تقسم الكلام قسمة مستوية، تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه"(71).

---

(67) أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل: ص380.

(68) مجاز القرآن: 110/2.

(69) أثر النحاة في البحث البلاغي: ص332.

(70) المرجع نفسه: 218.

(71) الصناعتين: 350.

وقال الخطيب: "هو ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين"[72].

و لم يذكر المبرد هذا اللون البلاغي، ولكن ورد في الكامل[73]أن رسول الله ﷺ قال: "يقول ابن آدم، مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت"[74]. فقد استوفى الرسول ﷺ "بأوجز عبارة، وبأسلوب القصر وجوه إنفاق المال التي تعود على ابن آدم بالنفع في الدنيا والآخرة.وضرب ﷺ الإنفاق في المأكل والملبس مثلا لوجوه المنافع الطيبة في الدنيا"[75].

وذكر المبرد أن "أعرابيا وقف على حلقة الحسن؛ فقال: رحم الله من تصدق من فضل أو آسى من كفاف أو آثر من قوت. فقال الحسن ما ترك لأحد عذرا"[76]. و قد أتبع أبو هلال (ت 395 هـ) هذا الخبر بقوله: "فانصرف الأعرابي بخير كثير، وهذا يدل على حسن بديهة الأعرابي وفصاحته، فقد استوفى أصناف الناس بهذه الكلمات"[77].

التجريد:

هو عند البلاغيين: "أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة، مبالغة في كمالها فيه"[78].

والتجريد عرفناه عند سيبويه حين قال: "ولو قال أما أبوكَ فله أب لكان على قوله فلك به أب أو فيه أب، وإنما يريد بقوله فيه أب: مجرى الأب على سعى الكلام"[79]. ثم سكت عنه النحاة قرنا كاملا حتى رأيناه مرة أخرى في الكامل للمبرد.

فقد روى المبرد في "الكامل" شعرا لقتال الكلابي، ومنه "قوله:

لاَ أَرْضَعُ الدَّهْرَ إِلاَّ ثَدْيَ وَاضِحَةٍ   لِوَاضِحِ الخَدِّ يَحْمِي حَوْزَةَ الجَارِ

---

[72] الإيضاح: 38/4.

[73] الكامل: 377/1.

[74] الجامع الصحيح و هو سنن الترميذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1398هـ/1978م، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا برقم2342 :572/4

[75] أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل :381.

[76] الكامل: 377/1.

[77] الصناعتين: ص351.

[78] الإيضاح: 44/4.

[79] الكتاب: 195/1.

وقال في بيانه: "قوله: *لا أرضع الدهر إلا ثدي واضحة*. يقول: إنما ترضعني أمي، وليست غير كريمة، كما قال الأعشى[80]:

يَاَ خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المطِيَّ وَلاَ		يَشْرَبُ كَأْساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

يقول: إنما تشرب بكفك، وليس ببخيل ...، وقوله: واضحة أي خالصة في نسبها، وليست بأمة"[81].

قوله: "وليست غير كريمة" يفيد أن أمه كريمة؛ لأن نفي النفي إثبات، فقد جرد الشاعر بطريق اللزوم أما كريمة ترضعه، وهذه ليست سوى أمه، واستشهد على ذلك ببيت الأعشى.

قال الدسوقي (ت 1230 هـ) في بيت الأعشى: "والحاصل أن الشاعر قد جرد كريما آخر من المخاطب، وكنى عن شربه بكفه المستلزم له بنفي الشرب بكف البخيل، ولا منافاة..." [82]. فالتجريد هنا بطريق الكناية، ولا منافاة بينهما.

ويبدو أن التجريد يفاد أولا ثم الكناية، لأنها من المعاني الثانوية، يقول السيوطي: (ت 911 هـ): "لما نفى الشرب بكف البخيل فقد أثبت له الشرب بكف كريم، ومعلوم أنه يشرب بكف نفسه، فهو إذن ذلك الكريم وهذا أدق أمثلة التجريد"[83].

وتحليل ابن قتيبة (ت 276 هـ) للبيت يدل على هذا المحسن البديعي وإن كان لم يسمه، فقد بين المراد بقوله: "يريد أن كل شارب يشرب بكفه، وهذا ليس ببخيل، فيشرب بكف من بخل، وهو معنى لطيف"[84].

وفي نفس المقطوعة يقول الشاعر:

يـاَ لَيْتَنِي وَالمنىَ لَيْسَتْ بِنـاَفِعَةٍ		لِماَلِكٍ أَوْ لِحِصْنٍ أَوْ لِسَيــَّارِ
طِوَالُ أَنْضِيَةِ الأَعْنَاقِ لَمْ يَجِدُوا		رِيحَ الإِمَاءِ إِذاَ رَاحَتْ بِأَزْفاَرِ

يقول المبرد: "قوله: "بأزفار" فالزفر: الحِمْل، ويضرب مثلا للرجل، فيقال إنه لزُفَر. أي: حمال للأثقال ... قال أبو قحافة أعشى باهلة[85]:

---

(80) ديوان الأعشى: ص171.
(81) الكامل: 1/54-56.
(82) حاشية الدسوقي ضمن (شروح التلخيص) : 4/355،
(83) عقود الجمان: 2/12.
(84) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف: 1/69.

أَخُو رَغَائِبِ يُعْطِيهَا وَيَسْأَلُهَا		يَأْبَى الظُّلاَمَةَ مِنْهُ النَّوْفَلُ الزِفْرُ

وإنما يريده بعينه، كقولك: لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد، وقوله"النوفل" من قوله: إنه لذو فضل ونوافل"[86].

فقد ورد التجريد في بيت الأعشى، وفي المثال الذي بعده على سبيل الاستطراد لبيان معنى "زفر" في بيت "قتال" السابق. فالأعشى جرد من المرثى سيدا آخر، حمالا للأثقال، كما قال المبرد "والتجريد بالأداة "من" الداخلة على المنتزع منه، وهي تفيد الابتداء؛ لأن المنتزع منه مبدؤه ونشأته من المنتزع منه الذي هو مدخول "من""[87].

قال الشيخ عبد القاهر: "المعنى على أنه النوفل الزفر، وليس النوفل الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد، فيقال: إنه شبه الممدوح به، وإنما هو صفة كقولك: هو الشجاع، وهو السيد، وهو النهاض بأعباء السيادة"[88].

ومن أمثلته ما جاء في قول المبرد: "وشهد أعرابي عند معاوية بشهادة، فقال له معاوية: كذبت؛ فقال الأعرابي: الكاذب متزمل في ثيابك، فقال معاوية: هذا جزاء من عجل"[89].

في قول الأعرابي: "الكاذب متزمل في ثيابك" كل من الكناية والتجريد، حيث تلطف في وصف "معاوية" بالكذب دون أن يصرح. وذلك أنه جرد من معاوية شخصا آخر متزملا في ثيابه، ولما كانت الثياب لا يحل فيها إلا صاحبها كان هذا وصفا لمعاوية بالكذب بالتجريد الذي طريقه "الكناية" عن النسبة. فهو في هذا على حد قول الأعشى السابق.

وتبدو مهارة الأعرابي، وذكاؤه في هذا الرد؛ فقد أصاب غرضه دون أن تثبت عليه تهمة، ففي استطاعته أن يتبرأ من التبعة، فيقول إنه عنى شخصا آخر غير معاوية.

و تبدو هذه الفائدة فيما ذكره ضياء الدين بن الأثير(ت637هـ) من فائدتي التجريد.قال:

"وقد تأملته فوجدت له فائدتين إحداهما أبلغ من الأخرى.

---

(85) ديوان الأعشى: و البيت غير موجود في الديوان.

(86) الكامل: 1/54-57.

(87) مواهب الفتاح: 4/49.

(88) أسرار البلاغة: ص196.

(89) الكامل: 2/211.

فالأولى: طلب التوسع في الكلام، فإنه إذا كان ظاهره خطابا لغيرك، وباطنه خطابا لنفسك، فإن ذلك من باب التوسع، وأظن أنه شيء اختصت به اللغة العربية، دون غيرها من اللغات.

والفائدة الثانية: وهي الأبلغ وذاك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه، إذ يكون مخاطبا بها غيره، ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليه"[90].

تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو ضربان[91]:

أفضلهما: أن يستثني من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقول النابغة الذبياني[92]:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلوُلٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

والثاني: أن يثبت لشيء صفة مدح، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى، كقول النبي ﷺ : "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش".

و قد ورد قول النابغة في موضعين من "الكامل"[93]:

أولهما: أن المبرد يقول في بين لبيد[94]:

مُدْمِنٌ يَجْلُو بِأَطْرَافِ الذُّرَى دَنَسَ الأَسْؤُقِ بِالعَضْبِ الأَفَلْ

... وجعله "أفل" لكثرة ما يقارع به الحروب، كما قال النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلوُلٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

وثانيهما: في قوله: "ويروى أن عروة بن الزبير سأل عبد الملك أن يرد عليه سيف أخيه عبد الله ابن الزبير، فأخرجه إليه في سيوف منتضاة، فأخذه عروة من بينها، فقال له عبد الملك: بم عرفته؟ فقال: بما قال النابغة: "البيت""[95].

---

(90) المثل السائر: 163/2.

(91) الإيضاح: 58/4.

(92) ديوان النابغة الذبياني: ص32.

(93) الكامل: 50/1-51.

(94) ديوان لبيد بن ربيعة :ص149.

(95) الكامل: 346/1.

فقد نفى الشاعر عنهم أولا جميع العيوب ثم أتى بأداة استثناء "غير" وهي توهم السامع أن الشاعر سيذكر عيبا، ولكنه أثبت بعدها صفة مدح، وهي تثلم سيفهم من كثرة مضاربتهم الجيوش، فكان هذا تأكيدا للمدح بما يشبه الذم؛ لأن المستثنى من أدلة الشجاعة والحمية، فكأن في المعنى تعليق على المحال[96].

تجاهل العارف:

و هو "أن يسأل المتكلم عن شيء ما سؤال من لا يعرفه، لغرض بلاغي"[97]، وسماه السكاكي: "سوق المعلوم مساق غيره، لنكتة؛ كالتوبيخ في قول الخارجية:

أَيَاَ شَجَرَ الخَابُوْرِ مَالَكَ مُورِقاً كَأَنَّكَ لمَ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ"[98]

وورد في الكامل قول ذي الرمة[99]:

فَيَا ظَبية الوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلَاجِلٍ وَبَيْنَ النَّقَاءِ آأَنْتَ أَمْ أُمُّ سَالِمِ؟[100].

فهو مع إفادته للتشبيه الضمني فيه كذلك تجاهل بأن المرئي "ظبية" لإفادة أن قائله صار لا يفرق بين الظبية، و"أم سالم" وذلك للتحير في الحب.

المبالغة:

هي عند علماء البلاغة: "أن يدعى لوصف ما بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستعبدا؛ لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف وتنحصر في التبليغ والإغراق والغلو"[101].

و المبرد لا يحبذها، ولا سيما النوع الثالث منها، وهو "الغلو" فهو يؤثر الحقيقة والصدق مع جودة النظم.

يقول في ذلك: "وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه فيه بفطنته على ما يخفى عن غيره، وساقه برصف قوى، واختصار قريب"[102].

---

[96] ينظر الإيضاح: 58/4.
[97] الإيضاح: 66/4.
[98] مفتاح العلوم: ص427.
[99] ديوان ذي الرمة: ص273.
[100] الكامل: 55/3.
[101] الإيضاح: 47/4، وينظر شروح التلخيص: 258/4.
[102] الكامل: 294/1.

وقد وافقه على رأيه هذا ابن رشيق ووصفه بالحذق قال: "وقد قال أحد الحذاق خير الكلام الحقائق، فإن لم تكن فما قاربها و ناسبها، وأنشد المبرد قول الأعشى[103]:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْنَ مِنِّي مُعَلَّقٌ بِعُودِ ثُمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُودُهَا

فقال: هذا متجاوز وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذ شبه وأحسن منه ما أصاب للحقيقة فيه"[104].

لقد عقد المبرد بابا روى فيه الكثير من أمثلة المبالغة، وبدأها بقوله: "قال أبو العباس: وهذا باب من تكاذيب الأعراب"[105]. وأورد فيه فيضا من الأخبار، ومنها ما يستحيل عادة، ولا يصدقه في ذلك الزمن عقل، وهذه بعض الأمثلة:

قال المبرد: "حدثني سليمان بن عبد الله عن أبي العميثل مولى العباس بن محمد: تكاذب أعرابيان، فقال أحدهما: خرجت مرة على فرس لي، فإذا أنا بظلمة شديدة، فيممتها حتى وصلت إليها، فإذا قطع من الليل لم تنته فمازلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها[106]، فأنجابت، فقال الآخر:

لقد رميت ظبيا مرة بسهم فعدل الظبي يمنة، فعدل السهم خلفه، فتياسر الظبي، فتياسر السهم خلفه، ثم علا الظبي، فعلا السهم خلفه، فانحدر عليه حتى أخذه"[107].

الكذب ظاهر في هذا الخبر، فالأعرابي الأول أغار على قطع من ظلمة الليل، وحمل عليها بفرسه حتى انتبهت، فاستجابت وزالت عن موضعها. فقد جعل الظلمة مما يحس ويستجيب ثم استعير ذلك لها، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو "أنبه" مضافا إلى الضمير، غير أن ما قاله الأعرابي لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.

أما الثاني فإنه جعل سهمه يتبع الظبي أينما توجه: علا أو نزل، أو ذهب يمينة ويسرة حتى أصابه، فلم يفلت منه.

---

[103] البيت غير موجود في الديوان.

[104] العمدة: 61/2.

[105] الكامل: 198/2.

[106] قال ابن منظور: نبهه وأنبهه من النوم، فتنبه وانتبه من نومه: "واستيقظ" اللسان، مادة (نبه): 28/14.

[107] الكامل: 200/2.

وقال المبرد: "وتزعم الرواة أن عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب قال لبني الجون الكنديين يوم جبلة: إن لي عليكما حقا لرحلتي ووفادتي، فدعوني أنذر قومي من موضعي هذا، فقالوا: شأنك، فصرخ بقومه بعد أن قالا له: شأنك، فأسمعهم على مسيرة ليلة"[108].

ومن ذلك ما يحكون في خبر "لقمان بن عاد" فإنهم يصفون أن جارية له سئلت ما بقي من بصره لدخوله في السن؟ فقالت: "والله لقد ضعف بصره، ولقد بقيت منه بقية، إنه ليفصل بين أثر الأنثى والذكر من الذر إذا دب على الصفا. في أشياء تشاكل هذا من الكذب"[109]. فهذا غلو، وكذب من جهات شتى، وهو غني عن البيان.

ومن أمثلة المبالغة قول مهلهل بن ربيعة[110]:

فَلَوْلاَ الرِّيحُ أَسْمِعَ مَنْ بِحَجْرٍ   صَلِيلَ البِيضِ تُقْرَعُ بِالذُّكُورِ

فقد أفرط في المبالغة، فلولا الريح لسمع صليل السيوف باليمامة وقد كانت حربهم بالجزيرة، وبين الموضعين عشرة أيام.

وقال أبو عبيد الله المرزباني (ت 384 هـ): "وقالوا: هذا خطأ وكذب من أجل أن بين موضع الوقعة التي ذكرها، وبين حجر مسافة بعيدة جدا"[111].

ومنها قول أبي الطمحان القيني[112]:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

فإضاءة الأحساب والوجوه على هذه الحال استعارة تصريحية أو مكنية وهذا بعيد في العقل والعادة.

ومنها قول عمران بن حطان الدوسي[113]:

فكذاك مجزأة بن ثو   ر كان أشجع من أسامة

ففي البيت التشبيه الضمني والغلو أيضا.

---

(108) الكامل: 200/2.

(109) المصدر نفسه: 207/2.

(110) المصدر نفسه: 204/2.

(111) الموشح: ص96.

(112) الكامل: 129/4، وينظر: الموشح: 96.

(113) الكامل: 207/2، وينظر: المصباح لبدر الدين بن مالك: 321.

ويورد المبرد أبياتا لقيس بن معاذ، ومنها[114]:

أَلاَ إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ　　　صَدًى أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبِ

ويقول: "هذا البيت من أعجب ما قيل في النحافة"[115].جعل جسمه من السقم صدى صوت تذهب به الريح أينما تذهب.

ومن أمثلة الغلو قول كثير[116]:

أَقُولُ لَهَا يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ　　　إِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ

يقول المبرد: "وكان عبد الملك بن مروان يقول: لو كان قال هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس"[117].

ومن شواهد الإغراق ما جاء في قول المبرد:

قال الأخطل يعير جريرا[118]:

قَوْمٌ إِذَا اسْتَنْبَحَ الأَضْيَافَ كَلْبَهُمُ　　　قَالُوا لِأُمِّهِمْ بُولِي عَلَى النَّارِ.

"فيقال: إن جريرا توجع من هذا البيت، وقال جمع بهذه الكلمة ضروبا من الهجاء والشتم، منها: البخل الفاحش، ومنها: عقوق الأم في ابتذالها، دون غيرها، ومنها تقدير الفناء، ومنها السوءة التي ذكرها من الوالدة"[119].

و زادنا ضياء الدين بن الأثير من المبالغات: أن هذا التصرف بخلا بالحطب، وأنه يؤذن بأن لا خادم لهم، وفيه إيذان ببخلهم بالماء[120].

و مما يعد من التبليغ ما أورده المبرد من قول بن الرومي[121]:

لَوْ أَنَّ قَصْرَكَ يَا ابْنَ يُوسُفَ مُمْتَلٍ　　　إِبَرًا يَضِيقُ بِهَا فِنَاءُ المنْـــزِلِ

---

(114) ديوان قيس: ص107،.

(115) الكامل: 293/1.

(116) ديوان كثير: ص70

(117) الكامل: 324/1.

(118) ديوان الأخطل: ص166.

(119) الكامل: 42/4.

(120) ينظر كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، لابن الأثير، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1415هـ / 1994م: ص103.

(121) البيتان غير موجودان في الديوان.

وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيـــرُكَ إِبــرَةً لِيَخِيطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

والمثال من شواهد التورية أيضا، ومع أن الشاعر بالغ في وصف مهجوه إلى هذا الحد، إذ لا قيمة للإبرة، فهو يضن بها على من؟ فهذا وإن كان مستبعدا إلا أنه ممكن عقلا وعادة فهو من التبليغ(122).

فالمبالغة باب واسع وشواهدها كثيرة، ولها صلة بمباحث المعاني والبيان والبديع، والأسرار البلاغية لا يزاحم بعضها بعضا.

الالتفات:

لقد بين المبرد الالتفات ونوعه في مواضع من كتابه "الكامل" فقال مثلا بعد أن أورد مقطوعة للأعشى يمدح هوذة بن علي، ويذم الحارث بن وعلة: "وأما قوله(123):

وَأَمْتَعَنِي عَلَى العَشَا بِوَلِيدَةٍ فَأُبْتُ بِخَيْرٍ مِنْكَ يا هُوذَ حَامِدَا

فإنه كان يتحدث عنه، ثم أقبل عليه يخاطبه، وترك تلك المخاطبة"(124)، وفسر المبرد سبب استخدام الشاعر لهذا الأسلوب في الكلام بقوله: "العرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب"(125).

وأورد مجموعة أخرى من الأمثلة فقال: "وقال عنترة (*):

شَطَتْ مَزَارُ العَاشِقِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِرًا عَلَيَّ طِلاَبُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

فكان يحدث عنها ثم خاطبها"(126).

فالالتفات في هذا البيت من الغيبة إلى الخطاب. قال ابن الأنباري: "الزائرون: الأعداء يزأرون عليه من أجلها ،و أصله من زئير الأسد...يعني شطت عبلة مزار العاشقين ،أي بعدت من مزارهم، واسم "أصبحت" مضمر فيه، ولفظ "عسر" خبر "أصبحت" والطلاب: مرتفع بمعنى عسير.

(122) ينظر الفنون البديعة في دائرة البحث البلاغي، فوزي السيد عبد ربه، مكتبة الحسيني الإسلامية، 1408هـ / 1988م: 113.

(123) ديوان الأعشى: ص65.

(124) الكامل: 22/3.

(125) المصدر نفسه: 22/3.

(*) ديوان عنترة: ص80.

(126) الكامل: 22/3.

فإن قال قائل: كيف قال: "حلت بأن الزائرين -رواية ثانية للبيت- فذكرها غائبه، ثم قال: "طلابك ابنة محرم" فخاطبها؟ قيل له: العرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة"[127].

وقال المبرد: "ومثل ذلك قول جرير[*]:

مَا لِلْمَنَازِلِ لَا تُجِيبُ حَزِينَا أَصَمَمْنَ أَمْ قَدُمَ المِدَى فَبَلِينَا؟

وَتَرَى العَوَاذِلَ يَبْتَدِرْنَ مَلَامَتِي فَإِذَا أَرَدْنَ سِوَى هَوَاكِ عُصِينَا.

قال أولا الرجل، ثم قال: سوى هواك، وقال آخر:

فِدًى لَكَ وَالِدِي وَسَرَاةَ قَوْمِي وَمَالِي إِنَّهُ مِنْهُ أَتَانِي

على تحويل المخاطبة"[128].

وأورد مقطوعة لذي الرمة يمدح بلالا جاء فيها[129]:

مِنْ آلِ أَبِي مُوسَى تَرَى القَوْمَ حَوْلَهُ كَأَنَّهُمُ الكِرْوَانُ أَبْصَرْنَ بَازِياَ

و قال المبرد: "وقوله: *من آل أبي موسى ترى القوم حوله* فقال: "ترى" ولم يقل: ترين، وكانت المخاطبة أولا لامرأة، ألا تراه يقول:

وَماَ كُنْتُ مُذْ أَبْصَرْتِنِي فِي خُصومَةٍ أُرَاجِعُ فيِهَا يَا ابْنَةَ الخَيْرِ قَاضِياَ

ثم حول المخاطبة إلى رجل، والعرب تفعل ذلك"[130].

من خلال هذه الأمثلة نلاحظ أن المبرد تفطن للالتفات وأنواعه، وأنه ليس غريبا عن العرب، إلا أنه حينما بحثه في قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾[131]، رأى أن المخاطبة كانت للأمة ثم انصرفت إلى النبي ﷺ إخبارا عنهم[132]. والمفهوم في الآية أن الخطاب موجه إلى الناس أولا بطريق الخطاب ثم أخبر عنهم بطريق الغيبة، فالالتفات في قوله ﴿ **وَجَرَيْنَ بِهِم** ﴾ وليس كما زعم المبرد، بأن الالتفات في قوله ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ** ﴾

---

(127) شرح القصائد السبع الطوال: ص299.

(*) ديوان جرير: ص476 .

(128) الكامل: 57/2.

(129) – ديوان ذي الرمة: ص290.

(130) الكامل: 56/2.

(131) سورة يونس: الآية22.

(132) ينظر الكامل: 22/3-56/2.

باعتبار أن الخطاب كان موجها إلى الأمة ثم انصرف إلى الرسول ﷺ، وبهذا استحق المبرد نقد المرصفي اللاذع فهو يعقب عليه بقوله: "وهذا هذيان من أبي العباس، وغفلة عن سياق الآية، وإنما الخطاب فيها للناس لا للنبي عليه السلام، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾ ثم صرف ذلك الخطاب إلى الغيبة، فقال ﴿ **وَجَرَيْنَ بِهِم** ﴾ كأنه يريد أن يؤكد حالهم لمن بعدهم، فيستنكروه ويستقبحوه"[133].

قال الزمخشري مبينا سر الالتفات ونوعه في هذه الآية "فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح"[134].

وبلاغة هذا الالتفات تكمن في أنهم لما كانوا في مقام الحضور والمشاهدة خوطبوا فلما جرت بهم السفن وابتعدوا لازم هذا أن يتحدث عنهم بطريق الغيبة.

ورأي المبرد في الالتفات بصفة عامة يجري على ما كان مستقرا عليه منذ كتاب سيبويه.

الأسلوب الحكيم:

و من صور البديع أسلوب الحكيم، وقد عرفوه بقولهم: "تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد،أو تلقى السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له ..." [135].

لقد ذكر المبرد أمثلة كثيرة لهذا اللون البلاغي، غير أنه لم يهتد إلى تسميته، ولم يشرح أمثلته؛ فهو يقول: "ويروى أن ضيفا نزل بالحطيئة، وهو يرعى غنما له، وفي يده عصا، فقال الضيف: يا راعي الغنم ما عندك؟ فأومأ إليه الحطيئة بعصاه، وقال: عجراء من سلم، فقال الرجل: إني ضيف، فقال الحطيئة: للضيفان أعددتها"[136]. ومعنى، عجراء من سلم: عصا من شجرة العضاة وفيها عقد؛ ليكون ألمها شديد.

---

[133] رغبة الأمل: 187/4.

[134] الكشاف: 231/2.

[135] الإيضاح: 160/1.

[136] الكامل: 159/3.

وقال: "قال عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لعامر بن عبد قيس العنبري، ورآه ظاهر الأعرابية:يا أعرابي: أين ربك؟ فقال بالمرصاد"[137]. فقد أجابه بغير ما يترقب، تنبيها على أنه الأولى بالقصد والحفظ.

و يروى عن الأصمعي قوله: "هجم علي شهر رمضان وأنا بمكة؛ فخرجت إلى الطائف لأصوم بها، هربا من حر مكة، فلقيني أعرابي فقلت له: أين تريد؟ فقال: أريد هذا البلد المبارك لأصوم هذا الشهر المبارك فيه، فقلت له: أما تخاف الحر؟ فقال: من الحر أفر"[138]. أي: أنني أرجو بالصوم على هذه الحال أن أفر من حر جهنم.

وهذا الكلام نظير كلام الربيع بن خيثم، فإن رجلا قال له: "وقد صلى ليلة حتى أصبح أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب: إن أفره العبيد أكيسهم"[139]. فقد أشفق الرجل على الربيع من التعب، ولكن الربيع يطلب بهذا التعب راحة نفسه في الآخرة.

ونظير هذا الكلام "قول روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، نظر إليه رجل واقفا بباب المنصور في الشمس، فقال: قد طال وقوفك في الشمس فقال روح: ليطول وقوفي في الظل"[140]. فقد أجيب السائل في هذه الأمثلة بغير ما يتوقع، لغرض من الأغراض كالتنبيه إلى ما هو مهم، لصرف الهمة إلى الله، أو لتوجيه همة السائل إلى الأفضل ثوابا.

فليس الغرض بالأسلوب الحكيم التعمية والإيهام، ولكن لفت مجرى كلام السائل أو المخاطب إلى غرض أهم يتفق و المقام.

المبحث الثاني: المحسنات البديعية اللفظية:

يرجع استعمال المحسنات البديعية اللفظية إلى تحسين اللفظ أصلا، وإن تبع ذلك تحسين المعنى لأن المعنى إن عبر عنه بلفظ حسن استتبع ذلك زيادة في تحسين المعنى.

الجناس:

هو التجنيس والتجانس والمجانسة وكلها مشتق من الجنس.

(137) الكامل: 97/1.

(138) المصدر نفسه: 202/1.

(139) المصدر نفسه: 202/1، وينظر رسالة البلاغة:ص85.

(140) المصدر نفسه: 202/1، ورسالة البلاغة:ص86.

لقد تعرض المبرد للجناس وإن لم يسمه باسمه، قال: "وقد يكون اللفظ واحدا ويدل على اسم وفعل؛ نحو قولك: زيد على الجبل يا فتى، وزيد علا الجبل، فيكون (علا) فعلا ويكون حرفا خافضا. والمعنى قريب.

ومن كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ... وأما اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين فقولك: ضربت مثلا، وضربت زيدا، وضربت في الأرض إذا أبعدت، وكذلك وجدت تكون من وجدان الضالة، و تكون في معنى علمت؛ كقولك وجدت زيدا كريما، وفي معنى الموجدة، نحو وجدت على زيد"[141].

وللمبرد كتاب سماه "ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد" استهله بقوله: "هذه حروف ألفناها من كتاب الله عز وجل، متفقة الألفاظ، مختلفة المعاني، متقاربة في القول، مختلفة في الخبر على ما يوجد في كلام العرب"[142].

وقدم لنا مجموعة من الألفاظ من جنس واحد وتختلف معنى. ثم قدم لنا نصيحة ذكية منه لكل من تسول له نفسه استخدام الجناس في كلامه قال: "وكل من آثر أن يقول ما يحتمل معنيين فواجب عليه أن يضع على ما يقصد له دليلا، لأن الكلام وضع للفائدة والبيان"[143].

و أتبع المبرد هذا الكلام بأمثلة للجناس في القرآن الكريم. قال: "فمما اتفق لفظه و اختلف معناه: قوله تعالى:﴿ (**إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾[*]. هذا لمن شك. ثم قال: ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ** ﴾ [**] . فهذا يقين، لأنهم لو لم يكونوا مستيقنين لكانوا ضلالا وشكاكا في توحيد الله تعالى.

ومثله في اليقين قول المؤمن: ﴿ **إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴾[***]، أي أيقنت ومثله

(141) المقتضب: 46/1.

(142) ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد،: ص47.

(143) المصدر نفسه: ص52.

(*) سورة البقرة: الآية78.

(**) سورة البقرة: الآية 46.

(***) سورة الحاقة: الآية20.

قوله تعالى: ﴿ **فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا** ﴾(****) . أي أيقنوا"[144].

ومن الجناس الناقص روى المبرد مقطوعة لعبيد بن العرندس الكلابي يصف قوما نزل بهم وأولها[145]:

هَيِنُونَ لَيِنُونَ أَيْسَارٌ ذَوُو يُسْرٍ سَوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ

فبين قوله: "هينون" و"لينون" جناس ناقص، ويسمى جناسا لاحقا؛ لأن الاختلاف بين اللفظين في الحرف الأول فقط، وهما غير متقاربين في المخرج.

و الجناس عموما يكون بلاغة إذا جاء فيض الخاطر، وعفو البديهة، لا تعمد فيه ولا تكلف، فيزدان به اللفظ، ويطمئن له القلب، ومن ثم يكون محسنا بديعيا.

السجع:

في كتاب "الكامل" إشارة إلى تعريف السجع، وبيان معناه، وكذلك بعض أمثلته.

قال المبرد: "والسجع من الكلام: أن تأتلف أواخره على نسق كما تأتلف القوافي، وهو في البهائم موالاة الصوت. قال ابن الدمينة[146].

أَأَنْ سَجَعَتْ وَرْقَاءُ فِيَ رَوْنَقِ الضُّحَى عَلَى فِنَنٍ غَضِّ النبَّاَتِ مِنَ الرَّنْدِ"[147].

فقد بين أن السجع موضعه النثر، وفيه تتفق القرينتان في الروي، كما تتفق القوافي في الشعر، كما بين أصله اللغوي واستشهد بقول ابن الدمينة، ففي هديل الحمام ترجيع وتطريب، يقول ابن منظور (ت 711 هـ): "وسجعَ الحمام تسجعُ سجْعاً: هدلَ على جهة واحدة ... و سجعُ الحمامةِ: موالاة صوتها على طريق واحد"[148]. وروى المبرد قول ابن الرقيات[149]:

وَالَّذِي نَغَّصَ ابْنَ دَوْمَةَ مَا تُو حِي الشَّيَاطِينُ وَالسُّيُـوفُ ظِمَــاءُ
فَأَبَــاحَ العِــرَاقَ يَضْرِبُـهُــمْ بِالسَّيْفِ صَلْتًا وَ فِي الضِّرَاب غِلاَءُ

(****) سورة الكهف: الآية 53.

(144) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص53 وما بعدها.

(145) الكامل: 78/1.

(146) هو عبيد الله بن عبد الله، وهو من خثعم و الدمينة أمه، الشعر والشعراء: ص31.

(147) الكامل: 240/2.

(148) لسان العرب، مادة (سجع) : 180/6

(149) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ،تحقيق وشرح محمد يوسف نجم،دار صادر بيروت،دط، دت: ص90.

وأتبعه بقوله: "فإنما يريد بابن دومة: المختار بن أبي عبيد الثقفي. والذي نغصه مُصعب بن الزبير، وكان المختار لا يوقف له على مذهب. كان خارجيا ثم صار زبيريا، ثم ثار رافضيا في ظاهره.

وقوله: "ما توحي الشياطين" فإن المختار كان يدعى أنه يُلهم ضربا من السجاعة لأمور تكون، ثم يحتالُ فيوقعها، فيقول للناس: هذا من عند الله عز وجل. فمن ذلك قوله ذات يوم: "لتنزلن من السماء نار دهماء، فلتحرقن دار أسماء، فذكر ذلك لأسماء بن خارجة، فقال: أقد سجع أبي إسحاق هو والله محرق داري. فتركه والدار، وهرب من الكوفة.

و قال في بعض سجعه: أما والذي شرع الأديان، وجنب الأوثان، وكره العصيان لأقتلن أزد عمان، وجل قيس غيلان، و تميما أولياء الشيطان، حاشا النجيب ظبيان، فكان النجيب ظبيان يقول: لم أزل في عمر المختار أتقلب آمنا"[150].

هذا كذب وافتراء من المختار، فقد أقسم بوقوع أشياء لا يملك منها شيئا.

و التكلف يبدو واضحا في هذا السجع، فقد اجتلبت كلمة "دهماء" لتوازن كلمة: "أسماء"، وجملة "حاشا النجيب ظبيان" قلقة في مكانها.

والسجع المتكلف "بعيد عن البلاغة، وقائله يتخذ منه سبيلا إلى تعمية المعاني و خفائها، وكذا صرف الانتباه إلى الزخرف اللفظي، وهذا على حساب المعنى. و يكثر هذا بخاصة في سجع السحرة والكهان فقد تفننوا فيه فتنة للسامع، وصرفا عن مضمون كلامهم، وتقييدا لحكمهم، وإلهاء لهم عن تتبع ما يلقون إليهم من أخبار"[151].

فالسجع يكون من البديع "إذا طلبه المعنى، واستدعاه، وساق نحوه، وحتى لا تبتغي به بديلا، ولا تجد عنه حولا"[152].

لزوم ما لا يلزم:

و هو "أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع"[153].

---

[150] الكامل: 2/264-265.

[151] أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل: ص405

[152] أسرار البلاغة: ص103.

[153] الإيضاح: 4/102.

ولم يذكره المبرد، ولكن ورد في كامله قول الشاعر[154]:

سَـأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَـتْ مَنِيَّتِي أَيَـادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَـلَّتِ
فَتىً غَيْرُ مَحْجُوبِ الغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلاَ مُظْهِرَ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خُلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكانُهَا فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَـلَّتِ

فقد التزم اللام المشددة المسبوقة بالفتحة قبل الروي، وهو لون من التكلف لا داعي إليه، وقد أكثر منه أبو العلاء المعري.

وقد أورد الخطيب هذا المثال في الإيضاح لهذا الفن البديعي.

ويلحق بعلم البديع: السرقات الأدبية:

فطن العرب منذ عهد مبكر إلى التجديد والتقليد وفرقوا بين الابتداع والإتباع ووضعوا لذلك قواعد وأصولا. والسرقات قديمة في الأدب العربي وقد وجدت بين شعراء الجاهلية، وفطن النقاد والشعراء إليها ولحظوا مظاهرها بين امرئ القيس وطرفة بن العبد، وبين الأعشى والنابغة الذبياني، وبين أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى، وكان حسان بن ثابت يعتز بكلامه وينفي عن معانيه الأخذ والإغارة، قال[155]:

لَا أَسْرِقُ الشُّعَرَاءَ مَا نَطَقُوا بَلْ لَا يُوَافِقُ شِعْرُهُمْ شِعْرِي

وكانت السرقة من موضوع الملاحاة بين جرير والفرزدق، كل ادعى أن صاحبه يأخذ منه.

والأخذ والسرقة في هذا المقام لفظان بمعنى واحد، وقد تلطف القدماء في هذا التصرف الأدبي، فعبروا عنه كثيرا بلفظ "الأخذ".

- **السرقات الأدبية عند المبرد:** أما المبرد فإنه عبر عن السرقات الأدبية بكل من: الأخذ، والسرقة وكان لروايته للأدب أثر كبير في إيراد كثير من الأمثلة في الموضع الواحد، وهذه نماذج منها.

يروى المبرد قصيدة لرجل يكنى أبا مخزوم، ومنها قوله[156]:

لَوْ كَانَ فِي الأَلْفِ مِناَّ وَاحِدٌ فَدَعَوْا مَنْ فَارِسٌ؟ خَالَهُمُ إِيَّاهُ يَعْنُوناَ

(154) الكامل: 214/1.
(155) ديوان حسان: ص106.
(156) الكامل: 111/1.

ثم يتبعه بقوله:

"مأخوذ من قول طرفة[157]:

إِذَا القَوْمُ قَالُوا: مَنْ فَتًى؟ خِلْتُ أَنَّنِي   عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ ولَمَ أَتَبَلَّدِ

ومن قول متمم بن نويرة:

إِذَا القَوْمُ قالُوا: مَنْ فَتًى؟ لِعَظِيمَةٍ   فَمَا كُلُّهُمُ يُدْعَى، وَلَكِنَّهُ الفَتىَ

ويقول: "وقوله: *إِناَ لَنَرْخِصُ يَوْمَ الرَوْعِ أَنْفُسَناَ*[*] أخذه من قول الهمذاني –وهو الأجدع– أبو مسروق بن الأجدع الفقيه:

لَقَدْ عَلِمَتْ نِسْوَانُ هَمَذَانَ أَنَّنِي   لَهُنَّ غَدَاةَ الـرَّوْعِ غَيْرُ خَـذُولِ

وَأَبْذُلُ فِي الهَيْجَاءِ وَجْهِي وَإِنَّنِي   لَهُ فِي سِوَى الهَيْجَاءِ غَيْرُ بَذُولِ

ومن القتّال الكلابي حيث يقول:

أَناَ ابْنُ الأَكْرَمِينَ بَنِي قُشَيْرٍ   وَأَخْوَالِي الكِرَامُ بَنُو كِلاَبِ

نُعْرِضُ للطِّعَانِ إِذَا التَقَيْنَا   وُجُوهًا لاَ تُعَرِّضُ للسِّباَبِ"[158].

ومما هو من النسخ والانتحال[159]، وعده العلماء من السرقة المذمومة ما جاء في قول المبرد:

"ودخل عبد الله بن الزبير يوما على معاوية: فقال: اسمع أبياتا قلتهن –وكان واجدا عليه– فقال معاوية: هات، فأنشده:

إِذَا أَنْتَ لَـمْ تُنْصِفِ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ   عَلَى طَرَفِ الهِجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِـلُ

وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تُضِيمَهُ   إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْحَلُ

فقال له معاوية: لقد شعرت بعدنا يا أبا بكر: ثم لم ينشب معاوية أن دخل عليه معن بن أوس المزني؛ فقال له: أقلت بعدنا شيئا؟ قال: نعم فأنشده:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأوجِلُ   عَلَى أَيِّنَـا تَعْـدُو المِنِيَّةُ أَوَّلُ

---

[157] ديوان طرفة بن العبد: ص24.

[*] صدر بيت كمن القصيدة، وعجزه: "ولو نسام بها في الأمن أغلينا".

[158] الكامل: 114/1-115.

[159] النسخ والانتحال هو "أن يؤخذ المعنى كله إما مع اللفظ كله أو بعضه وإما وحده فإن كان المأخوذ كله من غير تغيير لنظمه فهو مذموم مردود لأنه سرقة محضة"، الإيضاح: 110/4.

حتى صار إلى الأبيات التي أنشدها ابن الزبير؛ فقال له معاوية: يا أبا بكر، أما ذكرت آنفا أن هذا الشعر لك؟ قال: أنا أصلحت معانيه، وهو ألف الشعر، وهو بعد ظئرى، فما قال من شيء فهو لي، وكان عبد الله بن الزبير مسترضعا في "مُزَيْنَةَ""[160].

فقد اتفق كل من عبد الله، ومعن في إنشاد البيتين مع سبق معن، ولذا كان هذا من عبد الله نسخا وانتحالا، وقد استشهد الخطيب القزويني[161]، للنسخ بهذه الرواية.

ويصرح المبرد بلفظ السرقة ويشير إلى خفائها بالتصرف في النظم، فهو يورد مقطوعة لأبي العتاهية، ويتبعها بقوله: "وكان إسماعيل بن القاسم لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الأخبار والآثار، فينظم ذلك الكلام المشهور، ويتناوله أقرب متناول، ويسرقه أخفى سرقة، فقوله:

"فَأَنْتَ اليَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا"[*] إنما أخذه من قول الموبذ– قاضي قضاتهم– لقباذ الملك حين مات؛ فإنه قال في ذلك الوقت: كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس، وأخذ قوله:

قَدْ لَعَمْرِي حَكَيْتَ لِي غُصَصُ المَوْ تِ وَحَرَّكْتِنِي لهَا وَسَكَنْتَاَ

من قول نادب الإسكندر؛ فإنه لما مات بكى من بحضرته، فقال ناد به: حركنا بسكونه"[162].

وقد نفى المرصفي أن يكون أبو العتاهية قد أخذ " فَأَنْتَ اليَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا " من قول الموبذ لقباذ الملك حين مات حيث قال: "كذب أبو العباس وإنما أخذه من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الإسكندر وقد أخرج ليدفن فقال بعضهم كان الملك أمس أهيب منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس وقال آخر سكنت حركة الملك في لذاته وقد حركنا اليوم في سكونه جزعا لفقده وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما في شعره فأما قباذ بن فيروز ابن يزدجرد فليس له من أثر جليل ولا عمل جميل يستحق عليه حسن الذكر لقد استحل الفروج وهتك الحزام اتباعا لمزدك الزنديق الذي ظهر في أيامه حتى لفظته خاصة مملكته ونعت عليه عامة دولته"[163].

---

[160] الكامل: 2/211-212

[161] ينظر الإيضاح: 4/110.

[*] صدره: "وكانت في حياتك لي عظات"، ينظر ديوان أبي العتاهية: ص492.

[162] الكامل: 2/11.

[163] رغبة الآمل: 4/112.

ويتبع المبرد هذا بمقطوعة طويلة لإسماعيل بن القاسم، ويبين المراد بها؛ فيقول: "أما قوله[164]:

يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ لَوْ فَكَّرُوا وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ أَبْصَرُوا

فمأخوذ من قولهم: الفِكرة مرآةٌ تُرِيكَ حَسَنَك مِنْ قَبِيحِك، ومن قول لقمان لابنه: يا بني لا ينبغي لعاقل أن يخلي نفسه من أربعة أوقات؛ فوقت منها يناجي فيه ربه، ووقت يحاسب فيه نفسه، ووقت يكسب فيه لمعاشه، ووقت يخلي فيه بين نفسه وبين لذتها؛ ليستعين بذلك على سائر الأوقات. وقوله[165]:

وَعَبَرُوا الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِهَا فَإِنَّمَا الـدُّنْيَا لَهُـمْ مَعْبَرُ

مأخوذ من قول الحسن: اجعل الدنيا كالقنطرة، تجوز عليها ولا تعمُرها"[166]، إلى غير ذلك من الأمثلة.

فالمبرد أورد الشواهد الكثيرة للأخذ والسرقة، وأشار إلى مهارة البعض في إخفاء ما سرق بالتصرف. إما في الصياغة أو الإيجاز، أو بالزيادة المفيدة[167]. و تجاوز مرحلة السرقات بين الشعر و الشعر إلى السرقات بين الشعر و النثر.

والسرقة داء أدبي قديم، ولذا نبه ابن قتيبة والمبرد وغيرهما على الكثير منها في أشعار الجاهلية، ودرسا لها الأمثلة، وذكرا الكثير من مسائلها، ثم غدت بعد مبحثا هاما له قوانينه وأصوله على يد الآمدي (ت 370 هـ) ومن جاء بعده من علماء النقد والبلاغة.

ويتصل بالسرقات: الاقتباس والتضمين، والعقد، والحل والتلميح.

أولا: الاقتباس: الاقتباس هو: "أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه"[168]، ومثاله قول الحجاج متوعدا أهل العراق في خطبته: "... فإنكم لكأهل ﴿ **قَرْيَةً**

(164) ديوان أبي العتاهية: ص178.

(165) الكامل :11/2.

(166) المصدر نفسه: 12/1-13.

(167) ينظر مثلا الكامل: 14/2.

(168) الإيضاح: 182/4.

كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [169]" [170].

فقد ضمن كلامه معظم آية سورة النحل ، من قوله تعالى: ﴿**قرية كانت آمنة** .... ﴾، دون أن ينبه على ذلك.

ثانيا: العقد: "وهو أن ينظم نثر، لا على طريق الاقتباس"[171]. وقد وردت له أمثلة منها قول أبي العتاهية: *وأنت اليوم أوعظ منك حيا*.

وقال المبرد: "وأنا أحسب أن قول القائل:

وَأَجْرَأُ مَنْ رَأَيْتُ بِظَهْرِ غَيْبٍ   عَلَى عَيْبِ الرِّجَالِ ذَوُو العُيُوبِ

إنما أخذه من كلام المستورد، قال رجل للمستورد: أريد أن أرى رجلا عيابا، قال: التمسه بفضل معايب فيه"[172]. فقد عقد بنظمه كلام المستورد.

ثالثا: التلميح: "وهو أن يشار إلى قصة، أو شعر من غير ذكره"[173].

وقد ورد في الكامل: "قال الفرزدق لابن هبيرة حين نقب له السجن، وهرب، فسار تحت الأرض هو ابنه حتى نفدا[174].

وَ لما رَأَيْتَ الأَرْضَ قَدْ سُدَّ ظَهْرُهَا   وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا بَطْنُهَا لَكَ مَخْرَجًا
دَعَوْتَ الَّذِي نَادَاهُ يُونُسُ بَعْدَمَا   ثَوَى فِي ثَلَاثٍ ظُلُمَاتٍ فَفرَّجَا
فَأَصْبَحْتَ تَحْتَ الأَرْضِ قَدْ سِرْتَ لَيْلَةً   وَمَا سَارَ سَارٍ مِثْلَهَا حِينَ أَدْلجَا
خَرَجْتَ وَلَمْ يَمْنُنْ عَلَيْكَ طَلاَقَةً   سِوَى رَبِذَ التَّقرِيبِ مِنْ آلِ أَعْوَجَا

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق، هجاني أميرا ومدحني أسيرا.

قوله: "حيث أدلجا". تقول "أدلجت، إذا سرا في أول الليل، وأدلجت: إذا سرت في آخر السحر"[175].

---

(169) سورة النحل: الآية112

(170) الكامل: 381/1.

(171) الإيضاح: 138/4، ينظر البديع في نقد الشعر: ص259.

(172) الكامل: 238/3.

(173) الإيضاح: 142/4، والإشارات والتنبيهات: ص320.

(174) ديوان الفرزدق: ص110.

(175) الكامل: 88/3.

فهذا إشارة إلى قصة يونس عليه السلام عندما ألقى في البحر، فالتقمه الحوت فكان في ثلاث ظلمات: "قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل"[176]، ثم فرج الله عنه بسبب تسبيحه وهو في بطن الحوت، فألقاه الحوت بأرض ليس بها نبت ولا بناء وهو ضعيف البدن، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين.

من كل ما تقدم يتضح الدور الذي قام به المبرد في بناء البلاغة و إثراء مباحثها، فرغم أن المبرد رجل نحو بالدرجة الأولى إلاّ أنه لم يحصر نشاطه العلمي في مجال النحو فقط بل نراه يتجاوزه إلى مجال الأدب و البلاغة. و لا شك أن ما بذله من جهود علمية في هذا المجال كان له أثر قوي في تاريخ البلاغة العربية.

(176) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الشعب، القاهرة، المجلد الخامس: ص361، والمجلد السابع:ص33، والمحور الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 96/4.

الفصل الرابع
المبرّد بين التأثر والتأثير

المبحث الأول : تأثر المبرد بغيره من العلماء:

لقد تأثر المبرد بغيره من العلماء؛ فقد كانت له قراءات كثيرة، كما كانت له مجالس ومحادثات مع العلماء والرواة؛ فهو في مواضع كثيرة من الكامل يقول: "حدثني أبو عثمان الجاحظ"[1]، ويقول: "حدثني العباس بن الفرج الرياشي"[2]. كما يحدثنا كثيرا عن لقاءاته العلمية مع النابهين من علماء عصره، وفي مقدمتهم: أبو عبيدة، والأصمعي، وثعلب، والمازني، والتوزي ..[3].

و يتردد في الكامل قوله: "وقال المفسرون"، و"قال أعل العلم"، و"ذكر أهل العلم"[4].

و هذا النشاط العلمي في التحصيل والتثبت في الرواية كان له أثره في الثقة بالمبرد، فهو يخبرنا عن دراية ورواية. وسأشير إلى أبرز من تأثر بهم في ميدان البلاغة:

أولا: سيبويه (ت 180هـ):

عقد سيبويه في الكتاب "باب الحكاية التي لا تغير فيها الأسماء عن حالها في الكلام"، وذكر قول العرب في رجل يسمى "تأبط شرا" "هذا تأبط شرا. وقالوا: هذا برق نحره... فهذا كله يترك على حاله، وعلى هذا تقول: بدأت بـ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[5].

وقال الشاعر:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِى تَمِيمٍ		أَحَقُّ الخَيْلِ بِالرَّكْضِ المعَارُ

وذلك لأنه حكى: "أحق الخيل بالركض المعار" فكذلك هذه الضروب إذا كانت أسماء ..." [6]. وقد أورد المبرد هذا بتصرف و اختصار في "الكامل" مع الاستشهاد بالآية الكريمة والبيت[7].

---

(1) الكامل: 3/2، وينظر المصدر نفسه: 192/1، 155/2، 72/3.

(2) المصدر نفسه: 4/2.

(3) ينظر الكامل: أبو عبيدة: 21/1، 319، 171/3، 223، والأصمعي: 47/1، 69، 94/3، وثعلب: 30/1، 78، والمازني: 47/1، والتوزي: 47/1، 215.

(4) الكامل: 233/1، 328، 63/3.

(5) سورة الفاتحة: الآية2.

(6) الكتاب: 325/3-327.

(7) ينظر الكامل: 53/2.

ويذهب سيبويه إلى أن الحذف يكون للاتساع، فيقول: "ومما جاء على الاتساع والاختصار قوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا**﴾ [8]. إنما يريد: أهل القرية؛ فاختصر، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان هاهنا ... ومثل ذلك في كلامهم: "بنو فلان يطؤهم الطريق "يريد: أهل الطريق"[9]. وهذه العبارة نجد صداها عند المبرد في الكامل[10]. وغير ذلك كثير، فقد تردد ذكر سيبويه في الكامل[11]. كما انتفع المبرد بآرائه كثيرا وإن لم يشر إليه.

ثانيا: الفراء (ت 207هـ):

كان لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء أثره الواضح عند المبرد؛ فالفراء يقول في قوله تعالى: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**﴾ [12]: "حدثني عمرو بن أبي المقدام عن الحكم عن مجاهد قال: "ثناء حسنا""[13]، ويقول المبرد: "قال المفسرون ... أريد باللسان: الثناء الحسن؛ فإنه يبقى طويلا، بخلاف اللسان"[14].

ويقول الفراء في قوله تعالى: ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ [15] "يصلح "على" بمعنى "في" وإنما صلحت "في"؛ لأنه يرفع في الخشية في طولها، فصلحت "في" وصلحت "على" لأنه يرفع فيها، فيصير "عليها""[16] .فيفيد المبرد من هذا التعليل، فيقول: "وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع"[17].

---

(8) سورة يوسف: الآية82.

(9) الكتاب: 212/1.

(10) ينظر الكامل: 151/1.

(11) ينظر الكامل: 364/1، 20/2، 71، 192، 3/4.

(12) سورة الشعراء: ص84.

(13) معاني القرآن: 87/2.

(14) الكامل: 381/2.

(15) سورة طه: الآية71.

(16) معاني القرآن: 86/2.

(17) الكامل: 97/3.

و يذكر الفراء وجوها في المراد بلفظ "أعناق" من قوله تعالى: ﴿**فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ [18]. فيكون لهذه الوجوه صدى عند المبرد[19]. و المتأمل في الكتابين يجد مظاهر تأثر المبرد كثيرا بالفراء.

ثالثا: أبو عبيدة (ت 210 ه):

لقد تأثر المبرد في كامله بأبي عبيدة في كتابه "مجاز القرآن"؛ و قد صرح كثيرا بالأخذ عنه، كما أشار إليه ضمن علماء اللغة بقوله: "وقال المفسرون" وجاراه كذلك في إطلاق كلمة "مجاز" على معناها اللغوي، وتصرف المبرد أحيانا في النقل عن أبي عبيدة، وإليك هذه الأمثلة:

– يقول أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾ [20]. "أي مقامه الذي ثواه، ومنه قولهم: هي أم مثوى، وهو أبو مثوى إذا كنت ضيقا عليهم"[21]. فيورده المبرد بتصرف يسير[22].

– وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾[23] يقول أبو عبيدة: "مجازها: المتزمل. أدغمت التاء، فثقلت. المتزمل عند العرب: الملتف بثيابه"[24]، ويقول المبرد: "وهو المتزمل بثيابه. والتاء مدغمة في الزاي"[25].

ويتأثر المبرد بأبي عبيدة في نيابة حروف الخفض بعضها عن بعض غير أن المبرد يزيد المعنى وضوحا و بيانا[26].

و أورد المبرد بيت الأعشى:[27]

نَفَى الذَّمَّ عَنْ آلِ المحَلَّقِ جَفْنَةٌ كَجَابِيَةِ الشَيْخ العِرَاقِيِّ تَفْهَقُ.

وأتبعه بقوله: "هكذا في رواية أبي عبيدة"[28]. وهو يعني: "الشيخ" بالخاء المعجمة.

[18] سورة الشعراء: الآية4.

[19] ينظر معاني القرآن: 173/2، والكامل: 141/2.

[20] سورة يوسف: الآية21.

[21] مجاز القرآن: 304/2.

[22] ينظر الكامل: 102/3.

[23] سورة المزّمّل: الآية1.

[24] مجاز القرآن: 273/2.

[25] الكامل: 319/1.

[26] ينظر مجاز القرآن: 23/1، والكامل: 328/1.

[27] ديوان الأعشى: ص225.

[28] الكامل: 86/3.

– ويقول أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ** (٤٨) **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ**﴾[29]:" "بيض مكنون" أي: مصُون كل لؤلؤ أو بيض أو متاع صنته فهو مكنون، وكل شيء أضمرته في نفسك فقد أكننته، قال أبو دهبل:

وَهِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لُؤْلُؤَةِ الغَوَّا صِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونُ"[(30)]

وقد نقله المبرد مع شرح يسير[(31)].

– في قوله تعالى: ﴿**مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾[(32)]. يقول أبو عبيدة:" "الصلصال": الطين اليابس الذي لم تصبه نار؛ فإذا نقرته صل؛ فسُمعت له صلصلة ... وكل شيء له صلصلة: صوت فهو صلصال سوى الطين. قال الأعشى[33]:

عَنْتَرِيسُ تَعْدُو إِذَا مَسَّهَا السَّوْ طَ كَعَدْوِ المِصَلْصِلِ الجَوَّالِ"[34]

فيفسر المبرد "المصلصل" في بيت الأعشى بقوله: "قال المفسرون في قوله عز وجل ﴿**مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ قالوا: هو الطين الذي قد جف، فإذا قرعه شيء كان له صليل..."[35].

فتأثر المبرد كثير في الكامل بأبي عبيدة.

رابعا: الأصمعي (ت 216 هـ):

كان المبرد معجبا بالأصمعي فقد تأثر به في مواضع كثيرة ومن ذلك قوله: "قال الأصمعي"، "وأنشد الأصمعي" وحدثنى الزيادى قال: سمعت الأصمعي. كما نقده المبرد بقوله: "زعم الأصمعي" وبقوله" زعم الأصمعي وغيره من أهل العلم". وغير ذلك كثير.[(36)]

(29) سورة الصافات: الآيتان48 -49
(30) مجاز القرآن: 170/2.
(31) ينظر الكامل: 296/1.
(32) سورة الحجر: الآية33
(33) ديوان الأعشى: ص07.
(34) مجاز القرآن: 350/1
(35) الكامل :100/3
(36) ينظر على الترتيب الكامل: 208/2، 149/3، 36، 6/4، 75.

خامسا: الجاحظ (ت 255هـ):

كان لشيخ البيان أثره البالغ عند المبرد، فكتاب "البيان والتبيين" درّة من درر البيان العربي، وله أهميته في علوم اللغة والأدب وقد أفاد منه المفكرون والباحثون في شتى العصور. وكان المبرد في مقدمة هؤلاء، فهو يذكر الجاحظ كثيرا وينقل عنه، وأحيانا ينقل عبارته بتصرف، وإليك هذه الأمثلة:

افتتح الجاحظ كتابه بذم التكلف، والعي والحصر، ثم تكلم عن البيان، وأثنى عليه، وعلى أصحابه، وقد ألم أبو العباس بشيء من ذلك في أوائل كتابه ولكن مع اختلاف الطريقة والمنهج[37].

و ورد في الكامل أن العرب وأهل الحكمة من العجم تجعل كل دليل قولا. وروى عن بعض الحكماء: أيتها الأرض: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، ...؟، ثم أورد شواهد أخرى دالة على المراد، و إن لم يكن ثمة كلام.

والمبرد يعنى بهذا ما ذكره الجاحظ عن بعض الشعراء، وغيرهم من العرب، وكذا ما رواه الجاحظ عن "الفضل بن عيسى الرقاشي" في غير موضع من كتابه في هذا المعنى[38].

و نظر الجاحظ للشعراء والخطباء نظرة محايدة، فلم يتعصب للقدماء، ولم يقلل من شأن المحدثين، ولذا كثر استشهاده بأشعار المطبوعين من المولدين. وهو القائل: "والمطبوعين على الشعر من المولدين بشار العقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن عينية ... وبشار أطبعهم، وكان العتابي يحذو حذو بشار في البديع، ولم يكن من المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة"[39].

و سار المبرد على نهج الجاحظ، فذكر أنه لا يتعصب لقديم، ويهضم حق محدث[40]. ولذا أثنى على كثير من المحدثين، لجودة النظم. و تطبيقا لهذا المنهج فإنه ذكر في "باب التشبيه" بخاصة أمثلة كثيرة مختارة من أشعارهم.

---

[37] ينظر البيان والتبيين: 1/3-15، والكامل: 1/4-6.

[38] ينظر الكامل: 2/90، 91، والبيان والتبيين: 1/81، وما بعدها: 308.

[39] البيان والتبيين: 1/50.

[40] ينظر الكامل: 1/27-29، 3/32-134.

سادسا: أبو العباس ثعلب (ت 291 هـ):

و كان لإمام الكوفيين؛ أحمد بن يحيى (ثعلب) أثر في دراسة التشبيه عند المبرد ففي "مجالس العلماء" للزجاجي مجلسين لثعلب. أحدهما مع المبرد، والآخر مع محمد بن سلام الجمحى.

وفي المجلس الثاني يروي ثعلب أنه ذهب إلى "محمد بن سلام" لما قدم البصرة ليقرأ عليه الأشعار والأخبار التي يرويها؛ فلما عرفه برّه وأكرمه، ثم سأله عن ثلاثة أبيات، منها قول علقمة[41]:

سُلاَّءَةُ كَعَصَا النَّهْدِيِّ غُلَّ لَهَا ذُو فَيْئَةٍ مِنْ نَوَى قُرَّانَ مَعْجُومُ

وكانت إجابة "ثعلب" مستفيضة وشافية، لأنها تدل على خبرة باللغة والأدب، ودراية بالحياة، وقد انتفع بها العلماء[42]، وفي مقدمتهم "المبرد" وذلك في شرح هذا البيت، وكذا في تعليقه على بيت الشماخ في صفة الفرس[43]:

مُفِجُّ الحَوَامِي عَنْ نُسُورٍ كَأَنَّهَا نَوَى القَسْبِ تَرَّتْ عَنْ جَرِيمٍ مُلَجْلَجِ.

"فقال له ثعلب: يعنى فرسا شبهها بشوك النخلة، لإرهاف صدرها، وتمام عجزها وكذلك خلفة الشوك. يقول: خلقتها خلقة الشوكة، وهذا يستحب في الإناث "وعصا النّهدىّ" أي: كأنها عصا نبع، لاندماجها وملاستها... وإنما شبه النسور بالنوى لأنها صلاب، وأنها لا تمس الأرض، ..." [44].

وإذا قورن قول المبرد: "شبهها بالشوكة من شوك النخل، لأن الفرس الأنثى يحمد منها أن يدق صدرها"[45]. بما ذكره "ثعلب" تبين مدى هذا التأثر، غير أن "المبرد" نقل عن صاحبه باختصار.

---

[41] ديوان علقمة: ص49.

[42] ينظر الأمالي لأبي على القالى: 252/2.

[43] ديوان الشماخ :ص92.

[44] مجالس العلماء، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة،ط3، 1420هـ/1999م: ص 72-73، والكامل: 110/3-112.

[45] الكامل:112/3.

لقد كان لإمام الكوفيين منزلته العلمية وقد تتلمذ عليه الكثير من أهل العلم، كما كان بينه، وبين "المبرد" الكثير من المناظرات، ولذا تأثر كل منهما بصاحبه غير أن المبرد كان تأثره بثعلب أكثر.

فالمبرد انتفع بدراسات العلماء والأخذ عنهم، ولكنه بجهوده المخلصة، وفكره الثاقب قدم لنا هذه الدراسات القيمة في البيان العربي.

المبحث الثاني: تأثير المبرد فيمن بعده من العلماء:

كان للمبرد أثره الواضح فيمن بعده من لغويين وأدباء ومفسرين، فكثيرا ما صرح هؤلاء العلماء بالنقل عنه، واستشهدوا بآرائه.

فقد وضعوا أمامهم أمثلة المبرد وتحليلاته، وتأملوا ما أضفاه على بعضها من صفات ومقارنات، ومن ثم كان التطور العلمي بالبيان العربي، فتعددت مباحثه وكثرت مسائله. وقد غدا "للتشبيه" بخاصة على يديه أهميته العلمية في التصوير البياني، وسأعرض لأبرز من تأثروا بالمبرد.

أولا: ابن المعتز (ت 296 هـ):

تتلمذ عبد الله ابن المعتز على يد المبرد في الأدب والعربية[46]. "وكان المبرد يجيئه كثيرا ويقيم عنده إذا خرج من عند القاضي اسماعيل بن إسحاق لقرب داره من دار ابن المعتز، وكان للمبرد مجلس في مسجده، وكانت بينهما مناقشات كثيرة في الأدب والشعر والنقد"[47].

ورغم أن ابن المعتز "قد تأثر في كتابه "البديع" بأستاذه ثعلب وبكتابه "قواعد الشعر" وسار على نهجه في العرض وذكر الأمثلة لبعض الألوان البديعية ودراستها: كالتشبيه والاستعارة والإفراط ولطافة المعنى وحسن الخروج ..." [48]. إلا أنني لاحظت عند تصفحي لباب التشبيه في كتابه "البديع" أنه استخدم المصطلحات نفسها التي استعملها المبرد في الكامل من ذلك قوله: "ومن التشبيه الحسن"[49]. و"ومن أحسن التشبيهات"[50]. أو "ومن التشبيهات العجيبة"[51].

[46] ينظر تاريخ بغداد: ص195/10.

[47] ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت، ط2، 1411هـ - 1991م: ص76-77.

[48] المرجع نفسه: ص590.

[49] البديع: ص68.

[50] المصدر نفسه: ص68.

[51] المصدر نفسه: ص69.

قد تكون هذه المصطلحات منتشرة في ذلك العهد ولم يكن للمبرد السبق في ذكرها ولا لابن المعتز أخذها عنه، لكنني أحببت أن أنوة بهذه الملاحظة.

ثانيا: الزجاج (ت 316 هـ):

تأثر الزجاج في كتابه "معاني القرآن وإعرابه" بالمبرد، وأُورد هنا عبارة تأثر فيها الزجاج بكل من أبي عبيدة، والمبرد، ففي بيانه لمعنى "إعصار"[52] يقول: "الإعصار الريح التي تهب من الأرض كالعمود إلى نحو السماء. و هي التي يسميها الناس الزوبعة، وهي ريح شديدة لا يقال: إنها إعصار حتى تهب بشدة قال الشاعر: *إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا*"[53].

ثالثا: قدامة بن جعفر (ت 337 هـ):

لقد أفاد قدامة بن جعفر في حديثه عن معنى التشبيه مما سبق أن قاله المبرد وما قاله ابن طباطبا (ت 320 هـ)، مع احتفاظه بشخصيته واستقلال تفكيره في اختيار الصيغة الملائمة من وجهة نظره، واختيار الشواهد الشعرية، والحديث عن كيفية تصرف الشعراء في التشبيه و ما إلى ذلك، ولعلنا نتبين وجه إفادته من المبرد وابن طباطبا إذا اقتبسنا تصور كل منهما للتشبيه ثم أعقبناهما بما قاله هو:

قال المبرد: "واعلم أن للتشبيه حدا، لأن الأشياء تشابه من وجوه، وتباين من وجوه، فإنما ينظر إلى التشبيه من أين وقع، فإذا شبه الوجه بالشمس والقمر فإنما يراد به الضياء والرونق، ولا يراد به العظم والإحراق"[54].

وقال ابن طباطبا: "والتشبيهات على ضروب مختلفة، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة، ومنها تشبيه به معنى، ومنها تشبيه به حركة وبطئا وسرعة، ومنها تشبيه به لونا، ومنها تشبيهه به صوتا. و ربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض، فإذا اتفق في الشيء المشبه معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوي التشبيه وتأكد الصدق فيه، وحسن الشعر به، للشواهد الكثيرة المؤيدة له"[55].

---

(52) لفظة مأخوذة من سورة البقرة: الآية226.

(53) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السّري (ت311هـ)، شرح و تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت، ط1، 1408هـ/1988م: 349/1، والكامل: 319/1.

(54) الكامل:52/3.

(55) عيار الشعر: ص23.

أما قدامة فقال: "إنه من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه، ولم يقع بينهما تغاير ألبته اتحدا، فصار الاثنان واحدا، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها. وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيهما، حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد"[56].

إن نص قدامة يتضمن فكرتين أولهما أن الأمرين اللذين يعقد التشبيه بينهما لابد أن يكون بينهما اتفاق في بعض الوجوه أو الصفات، واختلاف في أخرى وهذه الفكرة تضمنها كلام المبرد. والفكرة الثانية أنه كلما كثرت مواضع الاشتراك بين طرفي التشبيه زاد ذلك في حسنه، وهذه الفكرة تبدو صريحة في عبارة ابن طباطبا. ولا ينال كل ذلك بالطبع من جهد قدامة الكبير في بلورة كثير من الصور البلاغية[57].

كما نلحظ تأثر قدامة بالمبرد عندما تحدث عن التشبيه في كتابه نقد النثر، إذ عقد له بابا فيه وعرفه تعريفا يعيد إلى الأذهان ما سبق قوله في كتاب الكامل للمبرد حيث قال: "وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف، كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق، كان بالحذق أليق"[58].

وقسمه إلى قسمين: تشبيه ظاهري وتشبيه معنوي، فقال: "والتشبيه ينقسم قسمين: تشبيه للأشياء في ظواهرها وألوانها وأقدارها كما شبهوا اللون بالخمر، والقد بالغصن وكما شبه الله النساء في رقة ألوانهن بالياقوت، وفي نقاء أبشارهن بالبيض"[59]. واستشهد بقوله تعالى: "﴿**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ**﴾، وبقول الشاعر:

كَأَنَّ بَيْضَ نَعَامٍ فِي مَلاَحِفِهَا   إِذاَ اجْتَلاَهُنَّ قَيْظٌ لَيْلُهُ وَمِــدُ

وقول آخر:

أَياَ شِبْهَ لَيْلَى لاَ تُرَاعِــي فَإِنَّنِي   لَكَ اليَوْمَ مِنْ بَيْنِ الوُحُوشِ صَدِيقُ

---

[56] نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، دت: ص109.

[57] ينظر البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقديم لشفيع السيد، دار الفكر العربي، ط2، 1416هـ -1996م: ص93.

[58] نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ -1982م: ص58.

[59] نقد النثر: ص58.

فَعَيْنَاكِ عَيْناَهاَ وَجِيدُكِ جِيدُهاَ   خَلاَ أَنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ دَقِيــقُ"[60]

وهذا التفسير للتشبيه الظاهري قريب من قول المبرد، وشاهده الأول هو نفس شاهد المبرد.

أما القسم الثاني منه فهو تشبيه في المعاني، "كتشبيه الشجاع بالأسد، والجواد بالبحر، والحسن الوجه بالبدر، وكما شبه الله أعمال الكافرين في تلاشيها مع ظنهم أنها حاصلة لهم بالسراب الذي إذا دخله الظمآن الذي قد وعد نفسه به لم يجده شيئا. وكما شبه من لا ينتفع بالموعظة بالأصم الذي لا يسمع ما يخاطب به. وشبه من ظل عن طريق الهدى بالأعمى الذي لا يبصر ما بين يديه"[61].

وأدرج قدامة بن جعفر ضمن هذا النوع من التشبيه بيتا للنابغة الذبياني كان المبرد قد وضعه ضمن التشبيه العجيب وهو قوله:

فَإِنَّكَ كَالَّلَيْلِ الذِي هُوَ مُدْرِكِي   وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ المنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ[62].

وكلام قدامة عن تفاوت درجات "حسن التشبيه"، وكذا عن وجوه التصرف فيه، وكذا ذكره للتشبيه "الجيد" هذا كله مستفاد من دراسة المبرد في "باب التشبيه"[63].

ومما يحسب لقدامة أنه بين أسبابا لبعض الأحكام التي أطلقها المبرد؛ فقدامة يورد قول الشماخ في ناقته الهزيلة من السير[64]:

فَقَرَّبْتُ مُبْرَاةً كَأَنَّ ضُلُوعَهاَ   مِنَ الماَسِخِيّاَتِ القِسِيّ المؤَتّرَاَ

ثم يقول: "وقد أحسن الشماخ في هذا التشبيه من قبل اجتماع الأضلاع، والقسيّ الموترة في الشكل، والتوتر في الأعصاب والأوتار، ولم يورد إلا الشكل فقط، وقد أتى على ما فيه"[65]، وقد اقتصر المبرد على وصفه بأنه "من باب التشبيه العجيب". إلى غير ذلك من مظاهر التأثر.

---

(60) نقد النثر: ص58.

(61) المصدر نفسه: ص59.

(62) المصدر نفسه: ص59.

(63) ينظر نقد الشعر: ص123، الكامل: 32/3، وما بعدها.

(64) ديوان الشماخ: ص133.

(65) نقد الشعر: ص126، و ينظر الكامل: 41/3.

رابعا: أبو عبد الله المرزباني (ت 384 هـ):

كتاب "الموشح" لأبي عبيد الله المرزباني سِجِل وافٍ لما أخذه أهل العلم على الشعراء قديمهم وحديثهم. فقد ذكر في كتابه كثيرا من المآخذ، لكل شاعر على حدة، وكان التأثر فيه بالمبرد واضحا، فقد صرح كثيرا بالنقل عنه، وأغفل الإشارة إليه أحيانا. وهذه بعض الأمثلة:

"أخبرني محمد بن الأزهر قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوى قال: أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه بفطنته على ما يخفى على غيره، وساقه برصف قوى، واختصار قريب، وعدل فيه عن الإفراط ..." [66].

ويقول: "... حدثنا محمد بن الأزهر قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوى قال: قد يقع الإيماء إلى الشيء فيغنى عند ذوي الألباب عن كشفه كما قيل: لمحة دالة ...، فمما وقع كالإيماء قول الفرزدق[67]:

ضَرَبَتْ عَلَيْكَ العَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الكِتَابُ الْمُنْزَلُ

فتأويل هذا: أن بيت جرير في العرب كالبيت الواهي الضعيف"[68].

ويقول: "أخبرني محمد بن الأزهر قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوي قال: حدثني عمارة بن عقيل قال: لما بلغ الوليد قول جرير[69]:

هَذَا اِبْنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفَةً لَوْ شِئْتُ سَاقَكُمُ إِلَيَّ قَطِينَا.

قال الوليد: أما والله لو قال: "لو شاء ساقكم" لفعلت ذلك. ولكنه قال: "لو شئت"؛ فجعلنى شرطيا له"[70].

والمعنى: أن جريرا خرج على المألوف في الحديث عن الخليفة، ولم يراع مقتضى الحال، ولذا أصلح الوليد له عبارته.

---

(66) الموشح: 309، والكامل: 394/1.

(67) ديوان الفرزدق:ص490.

(68) الموشح: 132، والكامل: 27/1.

(69) ديوان جرير: ص477.

(70) الموشح: 160، والكامل: 161/3.

خامسا : الرماني (ت 386 هـ):

يظهر أثر المبرد في الرماني عند عقده المقارنة بين قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ وبين قولهم: "القتل أنفى للقتل" وهي مقارنة سبقه إليها المبرد في كتابه البلاغة. غير أن المبرد ذكر فرقا واحدا وهو أن الآية أكثر فائدة من العبارة، لكن الرماني أضاف إلى هذا الفرق ثلاثة فروق أخرى وهي "أن الآية أوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة"(71). فأعطى للمقارنة مجالا أوسع وأبعادا أشمل مما أعطاها المبرد، وقد نقل هذه المقارنة بحذافيرها ووجوهها الأربعة أبو هلال العسكري(72). وابن سنان الخفاجي(73).

كما تحدث الرماني عن فصاحة الكلام. وما يجب أن يراعي في الفصاحة من خلو الكلام من التعقيد والإشكال الذي يؤدي إلى إغلاق المعنى، وإيهامه على السامع فيخرجه من مجال الفصاحة، ويدخله في دائرة العجمة لما فيه من سوء العبارة، وفساد النظم. وقد استشهد بالبيت الذي ذكره المبرد قبله بنحو أكثر من قرن وهو قول الفرزدق:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلَّكاً   أَبُو أُمِّهِ حَـيٌّ أَبُوهُ يُقَـارِبُـهْ

سادسا : الباقلاني: (ت 403 هـ):

لقد عقد المبرد مقارنة بين القرآن والشعر للتدليل على بيان إعجاز القرآن، وكان لهذه المقارنة أثر كبير على الباقلاني مما جعله يعقد بابا عظيم الشأن جليل الخطر تقارب صفحاته المائة، ليبين أن فصاحة القرآن تفضل فصاحة كل نظم، وتتقدم بلاغته في كل قول، ويعمد في هذه المقارنة إلى شعراء أجمع النقاد على عظم شأنهم، ورفعة أقدارهم فيختار شاعرا من العصر الجاهلي كامرئ القيس، وشاعرا من العصر العباسي كالبحتري، ثم يختار قصيدة لكل منهما متفقا على كبر محلها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، فيبين ما تخللها من نقص وفضول، وما بها من تعسف وتكلف، وما فيها من مزج بين الكلام الرفيع والوضيع، ثم يبين فضل القرآن عليها، وتناهيه في البلاغة، ثم نراه يصدر حكما

(71) النكت: ص71.

(72) ينظر الصناعتين: ص175.

(73) ينظر سر الفصاحة: ص245-246.

نهائيا "بأن الذي يعارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار باهلة، وأحمق من هبنقة"[74].

وإذا كان المبرد قد لاحظ اتفاق المعنى بين الآية القرآنية والبيت أو البيتين من الشعر، فإنه بذلك كان أقرب إلى المقارنة الصحيحة من الباقلاني الذي لم يتقيد باتفاق المعنى في موضوع المقارنة، وإنما يعول على ما في القرآن من نظم عجيب، وما في الشعر من تهافت كبير، وإن لم يكن بينهما جهة اتفاق في المعنى، وإنما يسوق البراهين على رفعة الأول، وسقوط الثاني، مما يجعل كلامه أقرب إلى العموم والشمول منه إلى الخصوص والتحديد.

سابعا : الثعالبي: (ت 430 هـ):

لقد تأثر الثعالبي بما أورد المبرد في المجاز، فرغم ما في مجاز المبرد في ضحالة فكرية وفنية، إلا أن الثعالبي حين عقد فصلا في المجاز نقل عن المبرد ولم ينقل عن ابن قتيبة[75].

ثامنا: ابن السيد البطليوسي (ت 444 هـ):

تأثر البطليوسي في كتابه "الاقتضاب في شرح أدب الكُتاَب" كثيرا بالمبرد، وذكره كثيرا عند النقل من الكامل. وقد أثنى عليه بقوله: "وأبو العباس من أئمة اللغة بالحفظ والضبط"[76].

يقول البطليوسي:" وأنشد أبو العباس المبرد:

أَقُولُ لِثَوْرٍ وَهُوَ يَحْلِقُ لِمتِي بِعَقْفَاءَ مَرْدُودٍ عَلَيْهاَ نِصَابُهَا

يعنى "الموسى""[77]. وهذا البيت أول مقطوعة في "الكامل" ليزيد بن الطثرية والسبب أنه كان غِزلا، وتكرر أخذه من إبل أخيه "ثور" دون علمه. فقال هذه المقطوعة.

وشرح البطليوسي لقول عوف بن عطية:

لَهَاَ حَافِرً مِثْلُ قَعْبِ الوَلِيِ دِ يَتَّخِذُ الفَأْرُ فِيهِ مَغاَرَا

---

[74] إعجاز القرآن: ص211.

[75] ينظر فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، حققه ورتبه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر: ص361

[76] الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، تحقيق مصطفى السقا و حامد عبد المجيد، طبعة دار الكتب المصرية، 1996م، القسم الأول: ص37،

[77] الاقتضاب، القسم الثاني: 99، و ينظر الكامل: 177/2.

و بيانه أن "هذا من الممكن، الذي يخرجه العرب مخرج الواجب. والمراد أن الفأر لو فعل ذلك لأمكنه"[78]. هذا مستمد من شرح المبرد للبيت، والحديث عن المبرد يطالع القارئ كثيرا في "الاقتضاب"[79].

تاسعا: ابن رشيق القيرواني (ت 466 هـ):

تأثر الحسن بن رشيق في كتابه: "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" بالمبرد في كتابه: "الكامل". وإليك الأمثلة:

يؤثر المبرد الصدق والاعتدال، ولا يحبذ الغلو والإفراط، ولذا استطرد في "باب التشبيه" فذكر أمثلة من "تكاذيب الأعراب" وختمها بعبارة سجل فيها ضوابط لحسن التشبيه.

وجاء "ابن رشيق" فحذا حذوه؛ فقال في "باب الغلو":

"وأنشد المبرد للأعشى:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْنَ مِنِّي مُعَلَّقٌ بِعُودِ ثُمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُودُهَا

فقال: "هذا متجاوز، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فيه. انقضى كلامه"[80].

ويورد ابن رشيق أمثلة لكل من "التشبيه الحسن، والتشبيه المليح، والتشبيه المصيب، والأشد إصابة"[81]، وهذا مع بيان العلل والأسباب. وإذا رجعنا إلى كامل المبرد وجدنا هذه الأسباب[82].

وفي "باب الإشارة" تصرف ابن رشيق في عبارة المبرد، فقال: "ومما جاء من الإشارة على معنى التشبيه قول الراجز يصف لبنا ممذوقا:

جَاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطْ.

(78) الاقتضاب القسم الثالث: ص118، وينظر ص41 منه.

(79) ينظر على سبيل المثال: الاقتضاب: 77/2، والكامل: 361/3، والاقتضاب: 165/3، والكامل: 252/1، والاقتضاب: 63/3، والكامل: 110/3.

(80) العمدة: 61/2، والكامل: 294/1.

(81) العمدة: 298/1، 299، 300، 301، الكامل: 36/3، وما بعدها.

(82) ينظر العمدة: 294/1-302، والكامل: 32/3 وما بعدها.

فإنما أشار إلى لونه؛ لأن الماء غلب عليه، فصار كلون الذئب"[83]. وهذه عبارة المبرد بتصرف يسير.

ويختصر ابن رشيق الضرب الثالث من أضرب الكناية، ثم يقول: "قال المبرد وغيره: الكناية على ثلاثة أوجه. هذا الذي ذكرته آنفا أحدها، والثاني ..." [84].

ويطالعك في العمدة تأثر ابن رشيق كثيرا بالمبرد في الكامل.

عاشرا: الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ):

تأثر عبد القاهر في كتابه "أسرار البلاغة" كثيرا بالمبرد في كتاب "الكامل"؛ فقد صرح بذلك كما أشار إليه في بعض المواضع. ويتبين هذا بالأمثلة التالية:

عند حديثه عن التشبيه حيث تناول بعض الأبيات التي ذكرها المبرد، من هذه الأبيات قول امرئ القيس المشهور:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحَشَفَ البَالِي.

كان موقف عبد القاهر من البيت في جوهره موقف المبرد، لكن عبد القاهر كان بأسلوبه التحليلي، ودراسته المقاربة أكثر وضوحا، وأبعد غورا وإدراكا لأسرار البيان.

فهو يشارك المبرد الإعجاب به لكنه لا يسرف في تقديره لأن عبد القاهر لم يكن "يخلع قيمة كبيرة على الأبيات التي تتوالى فيها التشبيهات وتجتمع معا دون أن يتشكل منها بناء مركب"[85]، دليل ذلك قوله: "... لم يقصد إلى أن يجعل بين الشيئين اتصالا وإنما اجتماعا في مكان فقط. كيف ولا يكون لمضامة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها، أو يعنى بأمرها، كما يكون ذلك لتباشير الصبح في أثناء الظلماء، وكون الشقيقة على قامتها الخضراء، فيؤدي ذلك الشبه الحاصل من مداخلة أحد المذكورين الآخر واتصاله به اجتماع الحشف البالي والعناب كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما في مكان واحد أو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة من ناحية والرطبة كذلك في ناحية أخرى لكان التشبيه بحاله.

(83) العمدة: 303/2، والكامل: 149/3.

(84) العمدة: 313/2، والكامل: 290/2.

(85) التفكير البلاغي عند العرب: ص218.

وذلك لو فرقت التشبيه ههما فقلت كأن الرطب من القلوب عناب وكأن اليابس حشف بال لم تر أحد التشبيهين موقوفا في الفائدة على الآخر"[86].

أما الفضيلة التي يجدها عبد القاهر في بيت امرئ القيس فيوجزها في قوله: "وإذ قد عرفت هذه التفاصيل فاعلم أن ما كان من التركيب في الصورة بيت امرئ القيس فإنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه لا لأن للجمع فائدة في عين التشبيه"[87].

إن هذا الفهم للتشبيه يكشف عن نظرة أنضج من فهم المبرد. ولا شك أنها نابعة من مفهوم النظم عند عبد القاهر، ومتصلة بتفرقته المحددة بين وقوع التشبيه في الصفة نفسها، وبين وقوعه في حكم لها ومقتضى، وهذا جانبان لم يكن المبرد يعيهما جيدا. و مع ذلك فإن فهم عبد القاهر للتشبيه "يقوم أساسا على فكرة الإصابة الأساسية عند المبرد، إذ بدون الإصابة لا يمكن أن يصح التشبيه، لا في الصفة -باعتبارها الأسبق في التصور- ولا في حكمها أو مقتضاها"[88].

كما وقف عبد القاهر الجرجاني أمام تشبيهات المصلوب التي ذكرها المبرد وهي قول الشاعر:

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ   يَوْمَ الوَدَاعِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلِ
أَوْ قَائِمٌ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُوثَتُهُ   مُوَاصِلٌ لِتَمَطِّيهِ مِنَ الكَسَلِ

وعدها من لطيف جنس "التشبيه من هيئات الحركة والسكون" لكثرة ما في البيتين من التفصيل[89].

و عقد عبد القاهر فصلا للموازنة بين التشبيه والتمثيل، وذكر فيه أن التشبيه يكثر فيه جعل الفرع أصلا، والأصل فرعا، واستشهد بأمثلة يكثر فيها "قلب التشبيه" ثم قال:

"ويشبه الظليم في حركة جناحيه مع إرسال لهما بالخباء المقوض. أنشد أبو العباس لعلقمة[90]:

---

(86) أسرار البلاغة: ص154.
(87) أسرار البلاغة: ص154 -155.
(88) الصورة الفنية ي التراث النقدي والبلاغي : ص219
(89) ينظر أسرار البلاغة: ص150.
(90) ديوان علقمة: ص41.

صَعْلٌ كَأَنَّ جَنَاحَيْهِ وَجُؤْجُؤَهُ   بَيْتٌ أَطَافَتْ بِهِ خَرْقَاءَ مَهْجُومُ.

اشترط أن يتعاطى تقويضه خرقاء؛ ليكون أشد لتفاوت حركاته، وخروج اضطرابه عن الوزن"[91].

فعبد القاهر يعنى بأبي العباس المبرد، فهو الذي أورد هذا البيت في "باب التشبيه" وعلق بقوله: "الصعل: الصغير الرأس. الخرقاء: التي لا تحسن شيئا؛ فهي تفسد ما عرضت له"[92].

و قال عبد القاهر: "ويشبه التشبيه في البيت قول الآخر، وهو مذكور معه في الكتب:

لَمْ أَرَ صَفًّا مثْلَ صَفِّ الزُّطِّ   تِسْعِينَ مِنْهُمْ صُلِبُوا فِي خَطِّ"[93]

ثم بين بأسلوبه التحليلي الدقيق ما امتاز به كل عن الآخر من استقصاء في الوصف والذي بسببه كان التماثل بين طرفي التشبيه؛ فقوله: "وهو مذكور معه في الكتب". يعنى الكتب التي ألفت قبل عبد القاهر، وهو بخاصة إشارة إلى "الكامل" المبرد، فما قرأت اقتران هذين التشبيهين قبل ذلك في الكتب إلا في كتاب الكامل.

ومن ذلك حديث "عبد الرحمن" عندما رجع إلى أبيه "حسان" رضي الله عنهما، وهو صبي، يبكي ويقول: لسعنى طائر..، فقال حسان: قال ابنى الشعر ورب الكعبة.

هذا الخبر في الكامل[94]، ولكن عبد القاهر بين بلاغة الصبي في دقة وصف الطائر، فكأن قوله شعر.

وحديث عبد القاهر عن "استطراف التشبيه وسبب حسنه ..."، ثم استشهاده بقول عدى بن الرقاع:

تَزْجِى أَغَنُّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فإن أصل هذه الفكرة قد استمدها من المبرد[95]، غير أن مهارة عبد القاهر في التحليل والتعليل جعلته يبرز ما في هذا النص من حسن وطرافة.

---

(91) أسرار البلاغة: ص173.

(92) الكامل: 35/3.

(93) أسرار البلاغة: ص150، والكامل: 263/1.

(94) ينظر الكامل: 263/1، والكامل: 39/2.

(95) ينظر الكامل: 141/3، وأسرار البلاغة: 126.

ويقف عبد القاهر طويلا عند قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾[96]، وقول الشماخ[97]:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِاليَمِينِ

ليبين أن المعنى في كل منهما على التمثيل المستفاد من مجموع الكلام، لا من لفظ "يمين" فقط. ثم يحكى كلام المبرد عن أصحاب المعاني بقوله:

"... فأما ما تكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل، دون التصريح حتى ترى كثيرا من الناس يطلق القول أنها بمعنى القدرة، ويجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين، كقوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾. تراهم يطلقون أن اليمين بمعنى القدرة، ويصلون إليه قول الشماخ:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِاليَمِينِ

كما فعل أبو العباس في "الكامل"؛ فإنه أنشد البيت ثم قال: "قال أصحاب المعاني: معناه بالقوة، وقالوا مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾[98]، وهذا منهم تفسير على الجملة ..."[99].

هذا إلا أن عبد القاهر قد انتفع بما ردده المبرد من إشارات بلاغية والتي لقيت الكثير من تأملاته، وأهم هذه الإشارات التي صدرت عن المبرد و التي تنبه لها عبد القاهر الجرجاني تلك التي وردت عند إجابته عن سؤال الكندي[100]، حيث روى الأنباري أنه قال: "ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إنني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم: جواب

---

[96] سورة الزمر: الآية67.

[97] ديوان الشماخ: ص336.

[98] انتهى كلام المبرد: 129/1.

[99] أسرار البلاغة: 271-272، والكامل: 128/1، 129.

[100] هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، ولد عام 189هـ / 803م، في الكوفة وتوفي عام 260هـ / 873م، ينظر الأعلام: 235/5.

عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقلت تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال فما أحار المتفلسف جوابا"[101].

تمعن عبد القاهر في الإجابة وتبني فكرة المبرد التي تقول: المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ "وغاص في أحشائها، واستنزف كل النتائج التي تسمح باستخلاصها، وانتهى في دراسته لعلاقة اللفظ بالمعنى"[102].

و وضع عبد القاهر ما قاله المبرد في باب اللفظ والنظم وبين الفروق الدقيقة التي خفيت على الفيلسوف الكندي، وفطن إليها المبرد النحوي[103].

فحلل قول المبرد: "فقولهم: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل ، وقولهم :إن عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقلت تكررت الألفاظ لتكرار المعاني" في كتابه دلائل الإعجاز ضمن فصل سماه: "إن ومواقعها"، بدأه بقوله: "وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض، فما ظنك بالعامة، ومن هو في عداد العامة، ومن لا يخطر شبه هذا بباله؟"[104].

ونجد عبد القاهر الجرجاني تارة يلقي اللوم على الكندي لأنه لم يتفهم الفرق بين الجمل [105]. وتارة أخرى يعطى للكندي عذرا [106].

وينتقل عبد القاهر بعد ذلك لتوضيح قول المبرد فيقول: "فأما الذي ذكر عن أبي العباس، من جعله لها جواب سائل إذا كانت وحدها، وجواب منكر إذا كان معها اللام فالذي يدل على أن لها أصلا في الجواب، أنا رأيناهم قد ألزموها الجملة من المبتدأ والخبر إذا كانت جوابا للقسم، نحو: "والله إن زيدا منطلق" وامتنعوا من أن يقولوا: والله زيد منطلق. ثم إنا إذا استقرينا الكلام وجدنا الأمر بينا في الكثير من مواقعها، أنه يقصد بها إلى الجواب كقوله تعالى:

(101) دلائل الإعجاز: ص315.

(102) التفكير البلاغي: ص359.

(103) ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي: ص212.

(104) دلائل الإعجاز: ص315.

(105) ينظر دلائل الإعجاز :ص315.

(106) ينظر دلائل الإعجاز :ص319.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [107]. "[108].

ويعود عبد القاهر إلى الأصل في ذكر "إن" في الكلام فيقول: "ثم إن الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه البناء، هو الذي دون في الكتب، من أنها للتأكيد، وإذا كان قد ثبت ذلك، فإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه البتة، ولا يكون قد عقد في نفسه أن الذي تزعم أنه كائن غير كائن، وأن الذي تزعم أنه لم يكن كائن فأنت لا تحتاج هناك إلى "إن""[109].

وبين حاجة الكلام إلى "إن" إذا كان المتلقي يظن خلاف ما تقول، ثم ذكر عبد القاهر وجه الحسن في استعمال "إن" فقال: "ولذلك تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن، ولشيء قد جرت عادة الناس بخلافه، كقول أبي نواس[*]:

عَلَيْكَ بِاليَأْسِ مِنَ النَّاسِ إِنَّ غِنَى نَفْسِكَ فِي اليَاسِ

أما إذا كانت "إن" جواب سائل فيشترط عبد القاهر أن يكون للسائل ظن في المسؤول عنه على خلاف ما أنت تجيبه به. [110].

وإذا جمع بينهما وبين اللام نحو: "إن عبد الله لقائم للكلام مع المنكر فجيد لأنه إذا كان الكلام مع المنكر كانت الحاجة إلى التأكيد أشد وذلك أحوج ما تكون إلى الزيادة في تثبيت خبرك إذا كان هناك من يدفعه وينكر صحته إلا أنه ينبغي أن يعلم أنه كما يكون للإنكار قد كان من السامع فإنه يكون للإنكار يعلم أو يرى أنه يكون من السامعين. وجملة الأمر أنك لا تقول: إنه لكذلك: حتى تريد أن تضع كلامك وضع من يزع فيه عن الإنكار"[111].

وهكذا يتضح لنا أن عبد القاهر الجرجاني قد تأثر بالمبرد و استفاد من خبرته العلمية.

---

[107] سورة الكهف: الآية83-84.

[108] دلائل الإعجاز :ص323-324.

[109] المصدر نفسه :ص 325.

[*] ديوان أبي نواس: ص319 والبيت بتمامه ولفظه

عليك باليأس من الناس إن الغنى، وويحك، في اليأس.

[110] ينظر دلائل الإعجاز: ص 326.

[111] دلائل الإعجاز: ص 327.

حادي عشر: الزمخشري (ت 528 هـ):

تأثر الإمام محمود بن عمر الزمخشري كثيرا بالمبرد، فقد نقل عنه خصوصا في كتابه: "الفائق في غريب الحديث". وهذه بعض الأمثلة:

أورد الزمخشري الحديث الشريف: "أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمَ القِيامَةِ..." ، ثم قال:

"قال المبرد: قولهم: فلان موطأ الأكناف. أي أن ناحيته يتمكن فيها صاحبه، غير مؤذى، ولا ناب به موضعه"[112].

وذكر قول أبي بكر الصديق لعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما "أما إني لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعي ..."، ثم شرح بعض المفردات مسترشدا بالمبرد، فقال: "الأذربي: منسوب إلى "أذربيجان"، وروى: الأذرى. البحر: الأمر العظيم. وقال المبرد فيمن رواه: البحر. ضرب ذلك مثلا لغمزات الدنيا، وتحييرها أهلها[113].

وقال الزمخشري:" قال المبرد: الزعانف. أصلها أجنحة السمك؛ فقيل للأدعياء: زعانف؛ لأنهم التصقوا بالصميم، كما التصق تلك الأجنحة بعظم السمك.

وقد ورد هذا في الكامل عند قول جرير:

"هل أنتم غير أو شابٍ زعانفه" "[114].

وتأثر الزمخشري في تفسيره "الكشاف" بالمبرد كثيرا، ففي قوله تعالى عن السماء والأرض: ﴿ **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾[115]. يقول المبرد: "لم يكن كلام، إنما فعل عز وجل ما أراد؛ فوجد. قال الراجز:

قَدْ خَنَقَ الحَوْضُ وَقاَلَ قطنِي   مَهْلاً رُوَيْدًا قَدْ مَلأْتُ بَطْنِي

ولم يكن كلام، إنما وجد ذلك فيه"[116].

---

(112) الفائق: 68/4، والكامل: 4/1.

(113) الفائق: 99/1، والكامل: 7/1-10.

(114) الفائق: 111/1، 181، والكامل: 60/2.

(115) سورة فصلت: الآية11.

(116) الكامل : 91/2.

ويقول الزمخشري: "ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل ..." [(117)].

ويقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ **إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾ [(118)]: "فإن قلت: كيف صح مجيء "خاضعين" خبرا عن الأعناق؟ قلت: أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله كقوله: ذهبت أهل اليمامة، كأن الأهل غير مذكور ..." [(119)]. وهذه عبارة المبرد[(120)]مع تصرف يسير. فالزمخشري يستظهر ثاني الرأيين اللذين وردا بالكامل.

وكانت عبارة المبرد، وبما حوت من لفظ "أقحمت" مع عدم لياقتها في النظم القرآني وبيانه المعجز قد نقلها الزمخشري، ثم كان لها بعد صدى عند كثير من المفسرين، كأبي حيان التوحيدي[(121)]، و الإمام الرازي[(122)]، والألوسي[(123)]، والقاضي البيضاوي[(124)]، و الشيخ زادة[(125)].

وبالتأمل يتبين أن هؤلاء العلماء متأثرون بالمبرد تأثرا غير مباشر إما عن طريق الزمخشري، أو القاضي البيضاوي والكاتبين عليه.

ثاني عشر: ضياء الدين بن الأثير (ت 637 هـ):

ومن أعلام البلاغة في القرن السابع الهجري أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري. ومن مؤلفاته: "كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب" وسأورد مثالين لتأثر صاحبه في هذا الكتاب بالمبرد:

---

(117) الكشاف : 105/4.

(118) سورة الشعراء: الآية04.

(119) الكشاف : 445/3.

(120) ينظر الكامل: 91/2،90.

(121) ينظر تفسير البحر المحيط: 5/7.

(122) ينظر تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير و مفاتيح الغيب، الإمام محمد الرازي فخر الدين (544هـ-604هـ)، دار الفكر بيروت، ط1، 1401هـ/1981م: 119/24.

(123) ينظر روح المعاني: 60/19.

(124) ينظر حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير القاضي البيضاوي: 3/7.

(125) ينظر حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي: 465/3.

1- يقول ابن الأثير في "باب الغلو":"وخير الكلام الحقائق، فإن لم يكن فما قاربها، وأنشد المبرد:

فَلَوْ أَنَّ ماَ أَبْقَيْتِ مِنِّي مُعَلَّقُ بِعُودِ ثُمَامٍ ماَ تَأَوَّدَ عُودُهَا

فقال: "هذا متجاوز، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة"[126].

2- ويروى في "باب الاختراع" أبياتا لأبي نواس، ومنها قوله[127]:

كَبُرَ حَظِّى مِنْهاَ إِذَا هِيَ دَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشُمَّ النَّسِيماَ.

ثم يتبعها بقوله: "ذكر المبرد أنه لم يسبق إلى هذا المعنى"[128].

ثالث عشر: القرطبي المفسر (ت 671 هـ):

وممن تأثر من المفسرين بالمبرد الإمام القرطبي في كتابه "الجامع لأحكام القرآن الكريم". فقد نقل عنه كثيرا، وهذه بعض الأمثلة:

-في قول الله تعالى: ﴿ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ** ﴾[129]. يقول "أقنع: إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه دلا وخضوعا". والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرد"[130].

-وفي قوله تعالى: ﴿ **ثَانِيَ عِطْفِهِ** ﴾[131]، يقول القرطبي: "وقال المبرد: العطف: ما انثنى من العنق ... أي معرض عن الحق في جداله، ومول عن النظر في كلامه"[132]. وهو في تفسير القرطبي.

ومظاهر التأثر بالمبرد تطالعك كثيرا في تفسير الإمام القرطبي.

رابع عشر: ابن منظور (ت 711 هـ):

و كان للمبرد أثره الواضح عند ابن منظور؛ فقد نقل عنه في "لسان العرب" كثيرا، كما تصرف أحيانا في عبارته، وسأورد هذه الأمثلة:

---

(126) كفاية الطالب: ص237، والكامل: 294/1.

(127) ديوان أبي نواس: ص325.

(128) كفاية الطالب: ص131، والكامل: 140/3.

(129) سورة إبراهيم: من الآية43.

(130) الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمّنه من السنّة و آي الفرقان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1427هـ/2006م: 109/12، والكامل: 123/3.

(131) سورة الحج: الآية09

(132) الجامع لأحكام القرآن الكريم: 328/14، والكامل: 10/1، 304.

- من أمثلة التشبيه عند المبرد، قول جميل بن معمر:

مَا صَابَ مِنْ نَابِلٍ قَذَفَتْ بِـهِ   يَدٌ وَ مُمَرُّ العُقْدَتَيْنِ وَثِيـقُ
لَهُ مِنْ خَوَافِي النَّسْرِ حُمٌّ نَظَائِرٌ   وَنَصْلٌ كَنَصْلِ الزَّاعِبِي فَتِيقُ

يقول ابن منظور: "و الزاعبية: رماح منسوبة إلى زاعب، رجل أو بلد ...، وقال المبرد: تنسب إلى رجل من الخزرج، يقال له: زاعب؛ كان يعمل الأسنة، ويقال: سنان زاعبي. وقال الأصمعي الزاعبي الذي إذا هُز كأن كعوبه يجرى بعضها في بعض للينه ..." [133]، وهي عبارة المبرد، بتصرف يسير.

- ويقول: وفي حديث أبي بكر ﷺ "فكلكم ورم أنفه على أن يكون له الأمر من دونه". أي: امتلأ، وانتفخ من ذلك غضبا ..." [134].

و قد تصرف ابن منظور في هذه العبارة؛ فهو يقول: وقوله "فكلكم ورم أنفه". يقول: امتلأ من ذلك غضبا".

خامس عشر: الخطيب القزويني (ت 739 هـ):

و تأثر الخطيب في "الإيضاح" بما كتبه المبرد، بدا ذلك في حديثه عن التعقيد اللفظي، وفي باب التشبيه، وكذا في: اللف والنشر غير أن بيان المبرد لهذا المحسن البديعي كان أوضح معنى، وأسهل مأخذا. وانتفع الخطيب كثيرا في "السرقات" [135] بما جاء في الكامل.

ويعد الخطيب القزويني من البلاغيين الذين استفادوا من تحليل عبد القاهر الجرجاني لجواب المبرد، إذ خصص فصلا في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" للحديث عن "أحوال الإسناد الخبري" بدأه بالحديث عن فائدة الخبر ولازم فائدة الخبر ثم انتقل إلى أضرب الخبر.

و بعد أن شرحها أكد لنا كلامه بالعودة إلى المبرد وكأنه يثبت لنا أن جواب المبرد هو الأصل الذي أخذ منه هذه المعلومات فيقول: "ويؤكد ما ذكرناه جواب أبي العباس للكندي عن قوله: إني أجد في كلام العرب حشوا، يقولون: "عبد الله قائم" و"إن عبد الله قائم" و"إن عبد

(133) لسان العرب، مادة (زعب): 42/6، والكامل: 294/1.
(134) لسان العرب، مادة ورم :28/15، والكامل: 10/1، وانظر مادة سعد:264/6، وحسد:167/3، والكامل: 8/1.
(135) ينظر الإيضاح: 4/ 429 - 474، والكامل: 11/2، 212/3.

الله لقائم" والمعنى واحد، بأن قال: بل المعاني مختلفة: ف "عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، و"إن عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، و"إن عبد الله قائم" جواب عن إنكار منكر"[136].

ثم يقدم القزويني مسميات لهذه الأنواع من الخبر ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيا، والثاني طلبيا، والثالث إنكاريا، وإخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجا على مقتضى الظاهر[137].

سادس عشر: عبد القادر البغدادي (ت 1093 هـ):

من أهم مؤلفاته "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب"، وكان كتاب "الكامل" من الكتب التي رجع البغدادي إليها وأفاد منها في "خزانة الأدب" وإليك هذه الأمثلة:

- في بيان نصب خبر "كان" وما عطف عليه في قول الراجز:

قَادِمَةً أَوْ قَلَمًا مُحَرَّفَا

يقول البغدادي: "وقد أجيب عن نصب الخبر بأجوبة ... قال المبرد في الكامل: "حدثت أن العماني الراجز أنشد في صفة الفرس: "كأن أذنبيه ..."، والراجز وإن كان لحن فقد أحسن التشبيه"[138].

- وفي قول الراجز:

جَاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطُّ

يبين البغدادي المعنى اللغوي، وكذا التشبيه. ثم يقول:

قال المبرد في "الكامل": "العرب تختصر التشبيه، وربما أومأت به إيماء". قال أحد الرجاز.

بِتْنَا بِحَسَّانَ وَمِعْزَاةٌ تَئِطُّ   مَا زِلْتُ أَسْعَى بَيْنَهُمْ وَالْتَبِطُّ

حَتىَ إِذَا جَنَّ الظَّلاَمُ وَاخْتَلَط   جَاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطُّ

و اللبن إذا اختلط بالماء ضرب إلى الغبرة"[139].

---

(136) الإيضاح: 45/1.

(137) ينظر الإيضاح: 41/1.

(138) خزانة الأدب: 10/ 237-239، والكامل: 41/3.

(139) خزانة الأدب: 109/2، والكامل: 149/3.

و أكتفي بهذا القدر من تأثير المبرد في العلماء و المفكرين في علوم اللغة العربية و آدابها، و قل أن تجد أحدا لم يرجع إلى كتبه ليستضيء من بيانه، و يهتدي بأفكاره، و ينتفع بأمثلته، أو ينهل من مواعظه.

الخاتمة

لقد توصلت بعد استقرائي لمدخل البحث وبابيه إلى النتائج التالية :

-يعتبر المبرد أحد علماء البلاغة العربية إضافة إلى أنه عالم من علماء النحو المعروفين.

-الفصحاء عند المبرد هم الذين نشأوا في بيئة فصيحة واكتسبوا ملكة العربية لا بالتلقين بل بنشأتهم في تلك البيئة.

- المبرد من العلماء الأوائل الذين أطلقوا مصطلح البلاغة على مصنفاتهم، حيث أنه كتب مدونة بعنوان "البلاغة".

-تحول المبرد بمفهوم البلاغة تحولا كبيرا حين قصر دلالته على صفات العبارة الفنية وخصائص فن القول.

-المبرد يقرر أن حسن النظم على مستوى تعليق الكلمة بما يجاورها من الكلمات ولا ريب أن هذه الفكرة كان لها نصيب معتبر في نظرية النظم التي طورها الإمام عبد القاهر.

- اهتمّ المبرد بالإيجاز و اعتبره حذقا في الكلام، فالإيجاز يحتاج إلى تأمل وتفكر ليظهر عليه أثر الصنعة البلاغية.

-المبرد ينظر بعين الإنصاف إلى الشعر قديمه وحديثه، لأن الشعر الجيد ليس له عصر، وليس مقتصرا على جيل دون جيل.

-ميّز الرثاء عن جميع الأغراض الأخرى إذ خصص له كتابا مستقلا هو" التعازي والمراثي" كما خصص له أبوابا في كتابيه " الكامل" و "الفاضل".

-وضع المبرد مقاييس اعتمد عليها من أجل تحديد جيد الشعر من رديئه.

- إن المبرد لا يحيل إلى الضرورة إلا إذا كانت موافقة أصلا من أصول العربية، لأن الجائز في الضرورة عنده، إنما هو الرجوع إلى الأصل لا الخروج عنه.

- إن المبرد عندما تناول بلاغة الشعر والنثر وبلاغة الحديث النبوي والقرآن الكريم، تناولهم بطريقته الخاصة، فلم يقم بتعريف تلك البلاغات بل قام بعملية المفاضلة بينها.

- يعد المبرد أول من فتح باب الموازنة بين قوله تعالى ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ وقول العرب "القتل أنفى للقتل".

-اهتدى المبرد إلى مختلف المعاني التي يؤديها الخبر الواحد إن اختلف جواره اللغوي. و بذلك يكون قد فتح بابا جديدا للبلاغيين في علم المعاني والمتمثل في أضرب الخبر.

– إن أبرز مجهود شخصي بذله المبرد فيما يتعلق بالبلاغة العربية ذلك الباب الطريف الذي عقده للتشبيه فعدّ فيه مؤسّسا ومؤصّلا، ذلك لأن المبرد استخدم الاستقراء في استنباط التشبيه، ولم يعتمد على من سبقه، واعتمد على الجانب التطبيقي أكثر من اعتماده على الجانب النظري، فكانت شواهده ذخرا لمن جاء بعده.

–أورد المبرد من أمثلة التشبيه ما يزيد على المائة مثال، و هذه الأمثلة و تحليلها كانت ثروة لمن كتب بعده في هذا الباب.

–كان المبرد أول من اهتدى إلى ما سماه "التشبيه الجامع" و هو ما عرف بعد "بتشبيه الجمع"، كما كان بيانه للتشبيه البعيد صدى عند المتأخرين في الاهتداء إلى "التشبيه المردود".

–بين على ضوء المثال مفهوم "اللف و النشر" و عنه أخذ العلماء هذه الصورة البديعية.

–كان لأمثلة التجريد التي رواها المبرد و بين مدلولها أثر عند العلماء من بعده.

– تأثّر المبرد بعدد من العلماء الذين سبقوه و في مقدمتهم سيبويه، و الفرّاء، و أبو عبيدة و الجاحظ ، وغيرهم. و إن آثار هؤلاء العلماء نجد لها ظلاّ في كتابه الكامل.

–أثّر المبرد فيمن بعده من اللّغويين، و الأدباء، و المفسرين...و كثيرا ما صرح هؤلاء العلماء بذلك أمثال قدامة بن جعفر، و المرزباني، و عبد القاهر الجرجاني، والزمخشري وغيرهم.

تأسيسا على ما سبق لا أحسبني أبتعد كثيرا عن جادة الصواب إن قلت إن المبرد ترك بصمات عميقة في الدرس البلاغي المتكئ على ذوق رفيع، وحس مرهف، وتحليل أدبي يتسم بصحة جمالية عبّرت عن عمق ثقافة الرجل، وأبانت عن مدى رسوخ قدمه في مجال العلوم عامة، والعلوم البلاغية الخاصة.

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقم الآية	الآية
		سورة الفاتحة
342	02	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
313	04	﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
11	07	﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾
		سورة البقرة
15	02-01	﴿ الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾
312	15-14	﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾
10	30	﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾
10	30	﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
332	46	﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾
233-235	68	﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾
332	78	﴿ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾
183	132	﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾
188	157	﴿صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾
200	171	﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾
272-201	177	﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾
-172 378	179	﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾
223	180	﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾
269	184	﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ..﴾
269	185	﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾	194	312
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾	222	276
﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾	223	15-12
﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾	234	196
﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾	235	293
﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾	249	125
سورة آل عمران		
﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾	43	187-232
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾	106	201
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾	110	28
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾	159	180
﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾	175	-198 269
﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾	180	196
﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً﴾	191	09
سورة النساء		
﴿وَ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ﴾	01	114
﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾	11	18
﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾	63	155
﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾	155	180
﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾	159	196
سورة المائدة		
﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾	06	294

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	109	12
سورة يونس		
﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾	22	329
﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾	39	72
﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾	71	26
﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	89	183
﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾	92	316
سورة هود		
﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾	24	11
سورة يوسف		
﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾	02	163
﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾	04	09
﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾	21	303-344
﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾	23	
﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾	25	
﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾	36	279
﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾	43	189
﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾	82	-343-199 279

سورة الرّعد		
﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾	14	26
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾	31	197
سورة إبراهيم		
﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾	09	14
﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾	43	364
﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾	47	28
سورة الحجر		
﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾	03	207
﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾	33	345
﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾	43	364
سورة النحل		
﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	44	155
﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾	69	20
﴿ قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾	112	339
سورة الإسراء		
﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾	75	26
﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾	100	195
سورة الكهف		

﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾	12	213
﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾	19	213
﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾	23	182
﴿ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾	25	114
﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾	29	208
﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	46	317
﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾	53	333
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾	84-83	361
سورة مريم		
﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾	97	142
سورة طه		
﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾	61	208
﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾	71	-289 343
﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾	81	208
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾	113	163
سورة الأنبياء		
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾	18	125
سورة الحجّ		
﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾	09	-297 364
﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾	36	39
﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾	46	167
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾	63	219

سورة المؤمنون		
﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾	35	181
سورة النور		
﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾	12	202
﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾	20	26
﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾	40	223
﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾	43	278
﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾	45	226
﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾	45	226
سورة الشعراء		
﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾	04	-344 283
﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾	84	-343 280
﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾	171	226
﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾	195	36
سورة النمل		
﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾	72	190
﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾	86	12
﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾	88	265
سورة القصص		
﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾	73	318
﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾	76	224

سورة العنكبوت		
﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾	15	187
﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾	33	293
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾	40	313
﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾	41	29
﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾	64	11
سورة السجدة		
﴿الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾	2-1	215
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾	03	215
﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾	07	10
سورة الأحزاب		
﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾	63	218
سورة سبأ		
﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾	13	50-170
﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾	33	272-200
﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾	40	10
سورة فاطر		
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	28	205

﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾	45	194
سورة الصافات		
﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾	17-16	217
﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾	49-48	345
﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾	49	262
﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾	65	8-19-71
﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾	130	227
سورة ص		
﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾	23	302
﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾	32	194
﴿كَأَنهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾	49	262
﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾	63	216-229
سورة الزمر		
﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾	03	201
﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾	20	51
﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾	60	214
﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾	67	291
سورة فصّلت		
﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾	11	362-29
﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾	21	-301 295

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾	12	226
سورة الملك		
﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾	30	274
سورة القلم		
﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾	46	215
سورة الحاقة		
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾	03	202-218
﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾	20	332
﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾	21	271
سورة المزمل		
﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾	01	344
﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	2-1	278
﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾	20	182
سورة المدثر		
﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾	27	218
سورة القيامة		
﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾	34-33	16
﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾	34	09
سورة الإنسان		
﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًامَّذْكُورًا﴾	01	211
﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾	03	207-232
﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾	24	209
سورة المرسلات		

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ(٩)وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾	11-09	181
سورة القارعة		
﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾	3، 10	218
سورة الإخلاص		
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾	2-1	114

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

اللهم اسقنا سقيا نافعا.	17
ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه.	155
من كان آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"	313-312
قال الرسول لجرير بن عبد الله البجلي: "يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك، فلا تتكلف"	159
يقول ابن آدم، مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت".	319- 315

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

- القرآن الكريم.

1. ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت، ط2، 1411هـ /1991م.
2. أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل، مصطفى السيد جبر، مكتبة الآداب، القاهرة ،ط1، 1428هـ/2007م.
3. الإتقان في علوم القرآن، للحافظ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، دط، دت.
4. أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، مكتبة الشباب، ط1، 1372هـ/1952م.
5. أثر النحاة في الدرس البلاغي، عبد القادر حسين، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
6. إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1959م. *
7. –أسرار البلاغة في علم البيان، تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد الاسكندراني و د.م.مسعود، دار الكتاب العربي، ط2، 1418هـ/1998م.
8. –الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط3، 1974م.*
9. الإشارات و التنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي بن محمد، تحقيق عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، 1977.
10. الأصمعيات، للأصمعي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط5 .
11. الأصول في النحو، ابن السراج (ت 316هـ)، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1405هـ/ 1985م.
12. إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط4، 1977م.

13. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة رحاب الجزائر، ط3، 1963م.
14. أعلام النساء في عالمي العرب و الإسلام، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، دت، دط.
15. الأغاني لأبي فرج الأصبهاني، طبعة دار الكتب اامصرية، دت.
16. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، تحقيق مصطفى السقا و حامد عبد المجيد، طبعة دار الكتب المصرية، 1996م.
17. ألوان من البديع (تحرير وتأصيل)، عبد الله عليوه حسن، طبعة دار الأرقم بالزقازيق.
18. الأمالي، لأبي علي القالي، القاهرة، 1344هـ / 1926م.
19. الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية، للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن القاسم الزجاج، دار الكتاب العربي بيروت، دط، دت.
20. أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1373 هـ / 1954م.
21. إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي (ت 646هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية ، القاهرة، 1370- 1393هـ/1950-1973م.
22. أنوار التنزيل و أسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي، للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت791هـ)، حققه و علق عليه و خرج أحاديثه و ضبط نصه محمد صبحي بن حسن حلاق و محمود أحمد الأطرش، دار الرشيد دمشق، ط1، 1421هـ/2000م.
23. الإيضاح للخطيب القزويني في المعاني و البيان و البديع، عبد المتعال صعيدي، المطبعة المحمودية بالأزهر مصر، 1353هـ/1935م.
24. البحث البلاغي عند العرب، أحمد مطلوب، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1402هـ/ 1982م.
25. البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقديم لشفيع السيد، دار الفكر العربي، ط2، 1416هـ -1996م.
26. البحر المحيط، لأبي حيان، دار الفكر، ط2، 1403هـ، 1983م.

27. البديع، تصنيف عبد الله بن المعتز (ت 296 هـ) اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس أغناطيوس كراتشقو فكسي، دار المسيرة، ط2، 1399هـ /1979م.
28. البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد و مراجعة إبراهيم مصطفى، طبعة مصطفى الحلبي، دت.
29. بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حفني شرف، دار النهضة، مصر، دط، دت.
30. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، 1276هـ/ 1957م.
31. البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق حنفي محمد شرف، مكتبة الشباب بالمنيرة، 1969 م.
32. بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة، الجلال السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1384-1385هـ/1964-1965 م.
33. البلاغة، أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، حققها وقدم لها ووضع فهارسها رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 1405هـ / 1985م.
34. البلاغة الاصطلاحية، عبده عبد العزيز قليقلة، دار الفكر العربي القاهرة، ط3، 1412هـ / 1992
35. البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط9، 1965م.
36. -البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط1،1992م.
37. البلاغة العربية في دور نشأتها، سيد فوفل، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1948م.
38. البلاغة و التطبيق، أحمد مطلوب وكمال حسن البصير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجمهورية العراقية، ط1، 1402هـ/ 1982م.
39. البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق طه عبد الحميد طه و مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1400هـ/1980م.

40. البيان و التبيين، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1418هـ / 1998م.

41. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، تحقيق محمد زهري النجار، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، 1966م.

42. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، طبع الحلبي، 1954م.

43. تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، ط11، 1963.

44. تاريخ الأدب العربي في الحاضر، إبراهيم علي آبي الخشب، المكتبة المصرية العامة، ط 4، 1992م.

45. تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى أواخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ط3، منشأة المعارف الإسكندرية.

46. التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد اله ابن الحسين العكبري، تحقيق سعد كريّم الفقّي، دار اليقين، ط1، 1422هـ/2001م.

47. -التبيان في علم البيان، لابن الزملكاني كمال الدين عبد الواحد، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1974م.

48. تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حنفي محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ.

49. التعازي والمراثي، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، حققه وقدم له محمد الديباجي ، دار صادر بيروت ط2، 1402هـ/1992م.

50. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1985م.

51. تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي المتوفى سنة 745هـ، دراسة و تحقيق و تعليق عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، قرظه عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1413هـ/1993م.

52. تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط1، 1984م.

53. تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (224هـ-310هـ)، تحقيق عبد الله ابن عبد المحسن التركي، مركز البحوث و الدراسات العربية و الإسلامية، ط1، 1422هـ/2001م.
54. تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية بيروت، 1978م.
55. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير و مفاتيح الغيب، للإمام محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر ،بيروت،ط1، 1401هـ/1981م.
56. تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار بمصر، ط1، 1346هـ.
57. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الشعب، القاهرة.
58. التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية، دط، 1981م.
59. تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق و تقديم علي محمود مقلد، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، دط، دت.
60. الجامع الصحيح و هو سنن الترميذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة:، تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1398هـ/1978م.
61. -الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمّنه من السنّة و آي الفرقان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1427هـ/2006م.
62. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت،لبنان، ط1، 1422هـ/ 2001م.
63. -جماليات الأسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي، فايز الداية، دار الفكر المعاصر، ط2، 1424هـ / 2003م.

64. الجمان في تشبيهات القرآن، عبد الله بن الحسين بن ناقيا البغدادي (ت 485هـ) تحقيق محمود حسن أبو ناجي الشيباني، مركز الصف الإلكتروني جدة السعودية، ط1، 1407هـ/1987م.
65. –جمهرة أشعار العربي ، القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، تحقيق محمد علي الهاشمي ، دمشق ، دار القلم، ط2، 1986م.
66. جمهرة الأمثال، الشيخ الأديب أبي هلال العسكري، حقّقه و علّق حواشيه و وضع فهارسه محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش، دار الجيل بيروت و دار الفكر للنشر، ط2، 1408هـ/1988م.
67. جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، قرأه و قدم له يحي مراد، مؤسسة مختار للنشر، ط2، 1427هـ/2006م.
68. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، الشهاب البيضاوي، طبعه مصر اديان علوم الدين ، مخطوط، دط، دت.
69. حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، ضبطه و صححه و خرج آياته محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1419هـ/1999م.
70. حجج النبوة، ضمن مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق و شرح عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط1، 1411هـ/1991م.
71. الحديث النبوي مصطلحه بلاغته كتبه، محمد الصباغ، كتب المكتب الإسلامي، 1401هـ/1981م.
72. الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة الحلبي، ط1، 1356هـ.
73. خزانة الأدب و غاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي المعروف باين حجة الحمودي، شروح عصام شعيتو، دار الهلال بيروت، ط1، 1987.
74. الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، دت.
75. الدراسات الأسلوبية في التراث العرب، عبد الحكيم حسان عمر، 1409هـ.

76. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ، علق عليه، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

77. ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط3، 1423هـ/ 2002م.

78. ديوان أبي الشمقمق، جمعه وحققه وشرحه واضح محمد حمد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1415هـ/1995م.

79. ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،1406 هـ/1986م .

80. ديوان أبي نواس، اسكندر أصاف، طبع بالمطبعة العمومية، مصر، ط1، 1898 م.

81. ديوان الأخطل، شرحه و صنف قوافيه و قدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط2، 1414هـ/1994م.

82. ديوان الأعشى الكبير ميمون قيس، شرح وتعليق محمد محمد حسين، مكتبة الأدب بالجماميز، المطبعة النموذجية، (دط)، (دت).

83. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5 ، 1425هـ/2004م.

84. ديوان بشار بن برد، شرح و تكميل محمد الطاهر ابن عاشور، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر بالقاهرة، 1376هـ/1957م.

85. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، 1406هـ / 1986م.

86. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه: أ.عبد مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 1414 هـ/1994م.

87. ديوان الحطيئة، برواية و شرح ابن السكيت، دراسة و تبويب مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1413هـ/1993م.

88. ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان طه، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط1، 1378هـ.

89. ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة عبد العزيز الميمني ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ط1، 1371هـ/1951م.

90. ديوان الخنساء، شرح معانيه و مفرداته حمدو طمّاس، دار المعرفة بيروت لبنان، ط2، 1425هـ/2004م.
91. ديوان ذي الرمة، قدم له وشرحه أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1995م.
92. ديوان الراعي النميري، جمعه وحققه راينهرت فايبرت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت لبنان، 1401 هـ / 1980م.
93. ديوان زهير ابن أبي سلمى، شرحه وقدم له علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م.
94. ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، ط1 ، 1388هـ/1968م.
95. ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، دط، دت.
96. ديوان العباس بن الأحنف، شرح و تعليق عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1373هـ/1954م.
97. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ،تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت، دط، دت.
98. ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي و شرحه، تحقيق عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، 1971م.
99. ديوان علقمة الفحل، الأعلم الشنتمري، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه حنّا نصر الحتي، ،دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1414هـ/1993م.
100. ديوان عنترة، مطبعة الآداب لصاحبها أمين الخوري، بيروت، ط4، 1893م.
101. ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ /1987م.
102. ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان،1391 هـ،1971م.

103. ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني، منشورات مكتبة النهضة بغداد، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1386هـ/1999م.
104. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع و شرح و تحقيق محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط1، 1420هـ/2000م.
105. ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروت، دط، دت.
106. ديوان النابغة الجعدي، جمعه و حققه و شرحه واضح الصمد، دار صادر بيروت، ط1، 1998.
107. ديوان النابغة الذبياني، شرح عبّاس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3 1416هـ/1996م.
108. ديوان النمر بن تولب العكلي، جمع وشرح وتحقيق محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط1، 2000م.
109. ديوان الهذيليين، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، 1385هـ /1965م.
110. الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره، تحقيق محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة و النشر، 1385هـ /1965م.
111. رغبة الآمل من كتاب الكامل، سيد بن علي المرصفي، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر القاهرة، دط، دت.
112. روح الإسلام، تعريب عمر الدايروي، دار العلم، بيروت، ط3، 1975م.
113. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفي سنة 1270هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، دط، دت.
114. رياض الصالحين، أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي، مؤسسة الرسالة، ط6، 1407هـ/ 1986م.
115. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح القاهرة، 1389هـ.

116. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع الرياض، ط2، 1406هـ.
117. سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض، ط1، 1412هـ/1992م.
118. شرح أبيات مغني اللبيب، صنفه عبد القادر بن عمر البغدادي، حققه عبد العزيز رباح و أحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث دمشق، ط1، 1398هـ/1980م.
119. شرح ديوان أبي تمام الخطيب التبريزي، قدمه ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي ط2، 1414هـ/ 1994م.
120. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، علق عليه و كتب حواشيه تجري الشيخ، وضع فهارسه العامة إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1424هـ /2003م .
121. شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، تأليف محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط1، 1371هـ/1952م.
122. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ابن الأنباري، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، ط4.
123. شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي (ت 502هـ)، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديد، بيروت، ط4، 1400هـ/1980م.
124. شرح المفصل للزمخشري، لموفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي المتوفى سنة643هـ، قدم له و وضع حواشيه و فهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1422هـ /2001م.
125. شروح التلخيص: وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، وقد وضع بالهامش "كتاب الإيضاح لمؤلف التلخيص جعله كالشرح له وحاشية الدسوقي شرح للسعد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

126. -شعر ابن ميادة، جمعه وحققه حنا جميل حداد، راجعة وأشرف على طباعهة قدري الحكيم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1402هـ / 1982م.
127. شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعة عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط2، 1402هـ/1983م.
128. شعر مروان بن أبي حفصة، جمعه و حققه و قدم له حسين عطوان، دار المعارف القاهرة، ط3،دت.
129. الشعر و الشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، 1377هـ/1958م.
130. -شعراء أمويون، نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1405هـ/1985م.
131. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار السعادة، المطبعة العثمانية، 1312هـ.
132. الصاحبي في فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب في كلامها، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، علق عليه و وضع حواشيه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1418هـ/1997م.
133. الصبغ البديعي في اللغة العربية، أحمد موسى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1388هـ / 1969م
134. الصناعتين، الكتابة والشعر، أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1371هـ / 1952م.
135. الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط3، 1983م.
136. الصورة البلاغية عند العرب عبد القاهر الجرجاني " منهجا وتطبيقا"، أحمد علي دهمان، ط2، 2000م.
137. الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992م.

138. الصورة الفنية في الحديث النبوي، أحمد ياسوف، تقريظ محمد سعيد رمضان البوطي، وعصام قصبجي، تقديم نور الدين عمر، دار المكتبي، ط2، 1427هـ/ 2006م.
139. ضحى الإسلام، أحمد أمين، مطبعة الاعتماد، القاهرة، دت، دط.
140. ضرورة الشعر، أبو سعيد السيرافي (ت 368هـ)، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م.
141. الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية، السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، ط2، 1401هـ/1981م.
142. الضرورة الشعرية دراسة لغوية نقدية، عبد الوهاب محمد علي العدواني، مطبعة جامعة الموصل 1410هـ/1990م.
143. طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، 1952م.
144. طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط1، 1979م.
145. الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، صلاح الدين زرال، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1429هـ / 2008م.
146. الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، بيروت، ط3، 1968م.
147. عشرة شعراء مقلون، صنعة حاتم الضامن، مطابع دار الحكمة، الموصل، 1411هـ/1991م.
148. العقد الفريد، أحمد بن محمد ابن عبد ربّه الأندلسي، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،ط1، 1404هـ/1983م.
149. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار القاهرة، ط2، 1425هـ/2004م.
150. علم المعاني و البيان والبديع، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت.

151. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي الحسن بن رشيق، القيرواني الأزدي، حققه وفصله وعلق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ / 1981م.
152. عيار الشعر محمد بن أحمد ابن طباطبا العلوي(329هـ)، تحقيق وتعليق محمد زغلول سلام، منشأة دار المعارف بالإسكندرية، ط3، دت.
153. الفائق في غريب الحديث، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه، ط2، دت.
154. الفاضل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق عبد العزيز الميهني، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ط2 ، 1375هـ /1956م .
155. فن التشبيه، علي الجندي، ط2، 1368هـ/ 1966م، القاهرة.
156. -الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ط9، دت.
157. الفنون البديعة في دائرة البحث البلاغي، فوزي السيد عبد ربه، مكتبة الحسيني الإسلامية: 1408هـ / 1988م.
158. فنون النثر في الأدب العباسي، محمود عبد الرحيم صالح، دار جريو عمان ط2، 2005م.
159. الفهرست، محمد إسحاق النديم ،حققه وقدم له مصطفى الشويمي، دار التونسية للنشر، ط1، 1406هـ/ 1985م.
160. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ.
161. في الحديث النبوي الشريف، الشيخ مصطفى الزرقا، ترجمة و تحقيق مجد مكي، دار البشائر الإسلامية، ط3، 2009م.
162. القاموس المحيط، محمد يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، ط2، 1407هـ/1987م.
163. القزاز القيرواني حياته وآثاره، المنجي الكعبي ، تونس 1388هـ/1968م.

164. قضايا ومواقف في التراث البلاغي، عبد الواحد علام، مكتبة الشباب، دط، دت.

165. قواعد الشعر لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، حققه و قدّم له و علّق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1995م.

166. الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

167. الكتاب، سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق و شرح عبد السلام محمّد هارون،دار الجيل بيروت،ط1،دت.

168. الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، شرحه و ضبطه و راجعه يوسف الحمادي، مكتبة مصر، دط، دت.

169. كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، لابن الأثير، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1415هـ / 1994م.

170. لسان العرب لابن منظور(630هـ/711هـ)،طبعة جديدة مصححة ومنقحة اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان،ط3، 1419هـ /1999م.

171. لطائف المعاني، في ضوء النظم القرآني، عبد الله محمد سليمان الهنداوي، مطبعة الأمانة، دط، دت.

172. ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، أبي العباس محمد بن يزيد المبرد النحوي، دراسة وشرح وتحقيق أحمد محمد سليمان أبو رعد بجامعة الكويت، ط1، 1409 هـ/1988م.

173. ما يجوز للشاعر في الضرورة، القزاز القيرواني (ت 422هـ)، تحقيق رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي، مطبعة المدني، القاهرة، 1402هـ/1982م.

174. المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي و بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض،ط2، 1403هـ.

175. مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقق محمد فؤاد سركين، نشر الفانجي، ط1، 1374هـ / 1954م.
176. المجازات النبوية، الشريف الرضى، تحقيق محمود مصطفى، القاهرة، 1356هـ.
177. مجالس ثعلب، شرح عبد السلام هارون، دار المعارف،ط4، 1400هـ/1980م.
178. مجالس العلماء، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة،ط3، 1420هـ/1999م.
179. مجمع الأمثال، الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني حققه وفصله وضبط غوانيه وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد 1374هـ/ 1955م
180. المحتسب، ابن جني (ت 392هـ)، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، دار سزكين للطباعة ،اسطنبول، ط2، 1406هـ/1986م.
181. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، درا الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.
182. المختصر في تاريخ البلاغة، عبد القادر حسين، دار الشروق، ط1، 1402هـ/ 1982م.
183. المذكر والمؤنث، المبرد، تحقيق رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي، القاهرة، 1970م.
184. المزهر في علوم اللّغة و أنواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، شرحه وضبطه وصححه و عنون موضوعاته و علق حواشيه محمد أحمد جاد المولى بك و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث القاهرة، ط3، دت.
185. مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت، ط2، 1398هـ.
186. المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين بن مالك، حققه وشرحه حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب مصر،دط، دت.
187. مصطلحات نقدية في التراث الأدبي العربي، محمد عزام، وزارة الثقافة، دمشق، 1995م.
188. معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة 207هـ، عالم الكتب بيروت، ط3، 1403هـ/1983م.

189. معاني القرآن وإعرابه، الزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السّري (ت311هـ)، شرح و تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت، ط1، 1408هـ/1988م.

190. معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت 626هـ)، ط3، دار الفكر، 1400هـ/1980م.

191. معجم الأدباء المعروف بالإرشاد الأدبي إلى معرفة الأديب، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ط1، دت.

192. معجم المصطلحات البلاغية و تطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ط2، 2007م.

193. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، رتبه و نظمه لفيف من المستشرقين و نشره أ.ى. ونستك، مكتبة برلين، 1936م.

194. المغنى في أبواب التوحيد والعدل، أبو الحسن عبد الجبار، أسد آبادي، قوم نصه أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد صقر، دار المعارف بمصر، 1963م.

195. مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق و شرح عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية، 1421 هـ/2000م.

196. المفاضلة بين النظم والنثر وأشكال التداخل بينهما في العصر العباسي ، بوتبيا الحسن، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش ، ط1، 2002م.

197. مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفي سنة 626هـ، دار الكتب العلمية، دط، دت.

198. مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، حامد صالح خلف الربيعي، معهد البحوث العلمية و إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة 1416هـ /1996م.

199. المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، دت، دط.

200. المقدمة، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، دار الجيل، بيروت، دط، دت.

201. من أسرار العربية ، الأنجلو المصرية القاهرة، ط5، 1975م.

202. من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مطبعة الأنجلو، ط6، 1978م.

203. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1981م.

204. موارد البصائر لفوائد الضرائر، ابن عبد الحليم (ت 1138هـ)، تحقيق حازم سعيد يونس دار عمار، عمان، ط1، 1420هـ/2000م.
205. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، دراسة وتحقيق عبد الله حمد محارب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1410هـ / 1990م.
206. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني 384هـ، المطبعة السلفية، بالقاهرة، 1343هـ.
207. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، مكتبة السعادة 1379 هـ.
208. النثر الفني القديم، عمر عروة، دار القصبة الجزائر، ط1 ،2000 م.
209. -نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية مصر، ط1، 2002م.
210. النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال "البيان والتبيين"، محمد الصغير بناني، ديوان المطبوعات الجامعية، طبعة 1994.
211. النقائض بين جرير والفرزدق، أبو عبيدة، تصحيح الصاوي، مطبعة الصاوي، 1353 هـ / 1935م.
212. النقد الأدبي الحديث، غنيمي، هلال، دار العودة بيروت لبنان،1982م.
213. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3، دت.
214. نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1.
215. نقد الشعر بين قتيبة وابن طباطبا العلوي، عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال، مطبعة دار القرآن، دط، دت.
216. نقد النثر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، حققه و علق حواشيه طه حسين بك و عبد الحميد العبادي، المطبعة الأميرية ببلاق، 1941م.
217. نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ -1982م.

218. نكت الانتصار لنقل القرآن، دراسة وتحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية القاهرة، دط، 1971م.

219. النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني و الخطابي و عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3، 1976.

220. النكت في تفسير كتاب سيبويه، الأعلم الشنتمري، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، ، الكويت، ط1، 1407هـ/1987م.

221. -نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، ط1985،1.

222. الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، دار القلم، بيروت، 1386هـ.

223. الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، أحمد السكندري ومصطفى عناني، دار المعارف، ط 17، دت.

224. وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان لابن فلكان، تحقيق محي الدين، مكتبة النهضة المصرية، دت.

الدوريات:

225. صور البيان في تفسير الزمخشري، رسالة دكتوراه من إعداد عبد الجليل مصطفاوي، إشراف الزبير دراقي، 1421 هـ - 1422 هـ / 2000م – 2001م.

226. مفهوم الخيال و وظيفته ي النقد القديم و البلاغة – رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في النقد والبلاغة، جامعة أم القرى من إعداد فاطمة سعيد أحمد حمدان، 1410هـ/1989م.

227. نظرية الضرورة في كتاب سيبويه، الدكتور محمد خير الحلواني، مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق، مج 55.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات